


البعد الرسالي
لمجلس التعاون الخليجي
«بلاد الجزيرة العربية»



مجموعة من الباحثين

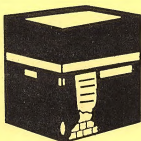
إعداد
مركز البحوث والدراسات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية





البُعدُ الرِّساليُّ لمجلِس التَعاوُن الخليجي

« بلاد الجزيرة العَرَبيّة »



مجموعة مِنَ الباحِثين

إعداد
مركز البحوث والدراسات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الطبـــعة الأولـــى

رمضان ١٤٢٣هـــ - تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٢م

٩٥٣ البعد الرسـالي لمجلس التعاون الخليـجي : بلاد الجزيرة العربية / تأليف مجموعة من الباحثين .ـ الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٢.

٤٣٢ ص ؛ ٢٤ سم.

رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٤٨٦ / ٢٠٠٢

الرقم الدولي (ردمـك) : ١ ـ ٤١ ـ ٤٨ ـ ٩٩٩٢١

رقم الايداع بدارالكتب القطرية
٤٨٦ / ٢٠٠٢م

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠ - فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة

موقعنا على الإنترنت : www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بسم الله الرحمن الرحيم

وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون

سورة الزخرف الآية ٤٤



حضرة صاحب السمو

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

أمير دولة قطر

تقديم

سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

أحمد بن عبد الله المري

الحمـــد لله الذي اصطفانا لوراثة النبوة والكتاب، وجعلنا محلاً للرسالة الخاتمـــة،فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ...﴾ (فاطر:٣٢)، وجعـــل بـــلاد الجزيرة العربية مسكن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ومهبط الوحـــي، وموطـــن الرسالة الخاتمة، واختار إنسانها ليكون نواة القاعدة البشرية للانطلاقة الإسلامية للعالمين، واختص أرضها لبناء الأنموذج المحتذى على الزمن، وتجسيد هذا الدين في حياة الناس، والوصول بهم إلى درجة الكمال والاكتمال.

وهـــذا الاختـــيار لبلاد الجزيرة العربية لتكون المنطلق ويكون إنسانها الأنمـــوذج المحتذى بمقدار ما هو تشريف لها ولإنسانها بمقدار ما هو تكليف وأمانـــة ومســـؤولية، ذلك أن هذا التكليف لم يأت عبثاً، أو مـــن فراغ، وإنما جاء ثمرة لعلم الله المحيط، الذي لا يخطئ، بوجود الصفات والخصائص الـــتي تؤهـــل أهل هذه البلاد لهذا التكليف، فـــ ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤).

والصـــلاة والسلام على الرسول، محل الأسوة والقدوة، صاحب الخلق الكامل، الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، الذي اختاره الله من سائر الخلق، القائل: «...**أنا خيار من خيار**» (أخرجه

الحاكم والبيهقي)، فكان من أعلى العرب نسباً وشرفاً وفضلاً وطهراً وبلاغة، كان رسولاً من أنفسهم.

وبعد:

فهذا كتاب: «**البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة العربية**»، الذي يشارك فيه مجموعة من الباحثين والكتاب من أبناء الجزيرة وتتشرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بإعداده وتقديمه بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في دولة قطر، برئاسة حضرة صاحب سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر، حفظه الله، مساهمة منها في الدعوة إلى تجديد الانتماء وإعادة النظر والمراجعة والتقويم للواقع، في محاولة للارتقاء والتنمية والنهوض على مختلف الأصعدة، وتأكيداً على أهمية الاضطلاع بالدور الرسالي لبلاد الجزيرة العربية، التي شرفها الله بالإسلام، فكانت مهبط الوحي الخاتم، والقاعدة البشرية الأولى للأمة الوسط، التي تمثلت خيريتها بمدى عطائها الإنساني وإلحاق الرحمة بالعالمين، والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وأخذت موقعها في الريادة والقيادة البشرية بما تحمل من قيم سماوية انتهت إليها أصول النبوات جميعاً، وتجارب النبوة التاريخية من لدن آدم عليه السلام، والتي تمثل قبلة الإسلام ووجهة المسلمين في العالم، ومحور حركتهم في الحج

إليها، والتوجه صوبــها، في السعي للتجديد والتجدد واســتعادة الفاعــلية، أو الــولادة الجـــديدة: «مَنْ حَــجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (أخرجه البخاري).

هــذا الحج السنوي إليها، والتواصل البشري معها والعيش على أرض النــبوة بكل أبعادها ومعطياتها، وتجديد معانيها في النفوس، والتأكيد على ذلــك في التوجه إليها خمس مرات يومياً، يجعل المسؤولية كبيرة، والأمانة عظيمة، في إبصار أبعاد هذه الحركة والأخذ بيدها، لتحقيق أهدافها وترشيد مساراتها، وإعادة تأهيلها لمعاودة عطائها الحضاري الإنساني.

وبــلاد الجزيــرة العربية، بما حباه الله من تاريخ مميز في مسيرة النبوة، وجعــل من إنسانها أداة لبناء الأنموذج المحتذى، وتجسيد القيم الإسلامية في واقــع الــناس، وبما منحها من طاقات مادية، تمثل ركيزة الحضارة العالمية وقوامها، ومن طاقات روحية تتمثل في قبلة المسلمين (البيت الحرام)، قادرة عــلى تحريك العالم أيضاً، وبما حماها الله من تسلط شياطين الإنس والجن، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ (المائدة:٣)، « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِــنْ فِــي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ » (أخرجه مسلم)، مؤهلة لاستئناف دورها وحمــل رســالتها، الــتي كانت بها رائدة للحضارة الإنسانية، وقد تكون مســؤولة الــيوم إلى حد بعيد عن أزمتها بسبب غيابها عن دورها الرسالي الذي شرفها الله به.

وقد حرصنا في هذا الكتاب على تقديم جميع المساهمات من خلال إنسان الجزيرة العربية نفسه، تلك المساهمات التي تمحورت بعمومها حول الاستشراف التاريخي باعتبار أن التاريخ هو المختبر الحقيقي لفاعلية القيم المحركة للفعل الإنساني، ذلك أن الأرض التي أنبتت ذلك النبات المتميز مؤهلة باستمرار لمعاودة الإنبات إذا أحسنت التعامل مع قيمها، ووعت تاريخها، وأفادت من عبره، كما تمحورت حول محاولة إعادة تقويم الواقع بقيم الإسلام، الذي يعتبر قدر المنطقة وخيارها وتاريخها ومستقبلها ومشروعيتها العليا، لتحديد مواطن القصور والخلل، واكتشاف أسباب التقصير، بحيث تعزم على التعامل مع الواقع من خلال القيم، وتتعامل مع القيم في الكتاب والسنة، من خلال الواقع بكل تعقيداته ومكوناته، ومن ثمّ تُبصر المستقبل في ضوء ذلك كله، وكيف تريده وتتعامل معه من خلال الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة، ذلك أن الحاضر هو مستقبل الماضي وماضي المستقبل.

والله نسأل أن يبصرنا بواقعنا ومستقبلنا، وأن يلهمنا الاستشعار بدورنا، ويعيننا على الاضطلاع بمسؤوليتنا، لنكون في مستوى إسلامنا وعصرنا، بحيث يصدق فيها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٤).

والحمد لله من قبل ومن بعد.

هذا الكتاب

لعل عنوان هذا الكتاب: «**البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة العربية**»، يحمل الدلالة الكافية على ما نهدف إليه من مشروعنا الثقافي ومحاولتنا الدعوة إلى المراجعة وإعادة النظر في الدور الحضاري التاريخي والمستقبلي لبلاد الجزيرة العربية ومساهمتها في العطاء الإنساني وإلحاق الرحمة بالعالمين، والتأمل في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام:١٢٤)، وما يحمل من دلالات ويحمِّل من أمانة ومسؤولية.

إن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وإن كان يتجه بالدرجة الأولى إلى اختيار الرسول ﷺ النبي العربي من بين سائر الخلق لحمل الرسالة الخاتمة إلى العالمين، لما يتصف به من السجايا والصفات، وما يتوفر عليه من الخصائص والسمات التي تجعله أهلاً لهذا الجعل والاختيار من الله؛ لأن المسؤولية والاختيار تكليف وتشريف في الوقت نفسه؛ فإنه يتضمن أيضاً اختيار المكان (الجغرافيا) جزيرة العرب، التي كانت مهبطاً للوحي ومحلاً للتنزيل، كما يتضمن الزمان (التاريخ)، الذي اختير من سائر الزمن ليكون

وعـــاءً للرســـالة الخاتمة، ويتضمن أيضاً الإنسان في الجزيرة، الذي يحمل من الصـــفات والخصائص ما يجعله مؤهـــلاً لحمل الرسالة والاضطلاع بالريادة، كمـــا يتضمن اللغة التي اختيرت لتكون طريق التوصيل ووسيلة التعبير ووعاء الـــتفكير، ويكـــون معهود العرب في الخطاب هو الذي يحدد دلالات ألفاظ ومفردات القرآن العظيم.

إن اختيار الإنسان واللســـان والزمان والمكان محـــلاً لوحي الله الخاتم، بمـــا يحمل من أبعاد إنسانية وعالمية، إنما كان بما تتوفر عليه الجزيرة العربية من صـــفات وخصائص تجعلها مؤهلة لهذا الجعل الآلهي: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، كمـــا يجعلها مؤهلة لهذا الدور الإنساني والعطاء العالمي، حيث كانـــت الجزيرة العربية هي القاعدة البشرية الأولى التي اكتمل وتجسد فيها الأنموذج بكل أبعاده، التي استوعبت الحالات الإنسانية وما يعرض لها جميعاً قبل أن يتجاوز حدود الجزيرة إلى العالم.. فقدمت الجزيرة بذلك للعالم تجربة حضـــارية فذة، وخالدة، مجردة عن حدود الزمان والمكان، خلود القيم التي اضطلعت بها وحملتها إلى الناس جميعاً.

وفي تقديـــرنا أن إنسان مجلس التعاون الخليجي «بلادالجزيرة العربية» كـــان ولا يزال يحمل مسؤولية رسالة عالمية، بما يمتلك من إمكانات مادية، وطاقـــات روحـــية وتجربة حضارية تاريخية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ

﴿وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخـــرف:٤٤)، فإذا وعى إنسان هذه البلاد ذاته ورســـالته ومسؤوليته، والعالم من حوله، واستوعب تجربته التاريخية، أصبح قــادراً عـــلى معـــاودة الإخراج للناس من جديد، والمساهمة بمعالجة أزمة الحضارة الإنسانية، ويتأكد الأمر أكثر فأكثر في عصر العولمة المتأزم، الذي أزيلـــت فيه السدود والحدود وزُوِيَ الزمان بحيث أصبح الأقوياء يحاولون جعل العالم قرية إعلامية وثقافية وسوقاً استهلاكية واحدة، يتحكمون فيها بكل شيء.

لقد برزت فكرة الكتاب بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعـــلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، في دولة قطر، برئاسة حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أمير البلاد حفظه الله، بحيث تشكل هذه المساهمة الثقافية، التي اضطلع بها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، رؤية للبعد الرسالي، وأحد أدلة العمل المســـتقبلي أمـــام إنسان المنطقة وأصحاب القرار، والاستشعار بالمسؤولية الحضـــارية نحو الذات و(الآخر)، بحيث يكون استشراف الماضي هو سبيلنا لـــتقويم الحاضـــر وإبصـــار المســـتقبل، والارتقاء بإدارة المـــوارد المادية، وإدارة الموارد البشـــرية للعطاء الأفضل.

ولقـــد حاولـــنا مـــا أمكـــن أن نصل إلى أهل الرأي السديد والتفكير الاستراتيجي والبصيرة النافذة، ليساهموا معنا في هذا المشروع الثقافي المقدور، ورغبنا في الاقتصار على أبناء الجزيرة لأكثر من معنى، قد لا يغيب عن الفطين.

ولا ندعـــي أنـــنا استطعنا أن نبلغ بهذا المشروع المدى الذي أردناه من ضـــمان مســـاهمة معظـــم المفكرين أو النخب الفكرية لبلورة رؤية ثقافية نضـــيجة، وإنما هي محاولة يمكن وصفها بأنها نوافذ تمكّن من الإطلالة على «البعد الرسالي» وأهمية الاضطلاع به.

ذلـــك أننا نعتقد أن طرح الموضوع لا يعني بالضرورة دائماً إنضاجه في كـــثير من الأحـــيان واستكمال جوانـــبه والخلوص إلى النتائج والأهداف المـــرجـــوة، بقـــدر ما يعني لفت النظر وفتح الملف واستدعائه إلى ساحة الاهـــتمام والـــنظر، في محاولـــة لإثـــارة الوعي بالذات، وإدراك رسالتها ومسؤوليتها، من خلال المقومات التي تمتلكها.. فالوعي بالذات اليوم لم يعد ذاتـــياً فقـــط – إن صـــح التعبير– وإنما الوعي بالذات أصبح له مقومات ومعطيات جديدة، حيث بات الوعي (بالآخر) جزءاً لا يتجزأ من متطلبات الوعي بالذات في عصر العولمة.

وقـــد تكـــون الإشـــكالية اليوم تتمثل في انصراف الاهتمام كله للوعي (بالآخـــر)، بعالم أفكاره وأشيائه؛ لأن المغلوب مولع دائماً بمحاكاة الغالب، وهـــذا الـــتوجه صوب الوعي (بالآخر) مطلوب شريطة أن لا يكون على حســـاب الذات وينتهي إلى سلب الإرادة والارتماء؛ لأن ذلك يعني التأسيس والتأصـــيل للغلـــبة الحضارية، والإلغاء للتنوع الثقافي الذي يثري الحضارة، والإسقاط للذات.

إن الدخول في عصر العولمة، الذي لم يعد خياراً، يعني التفكير في إعادة تحديد الموقع من هذا الحوار والصراع الحضاري، ولن يتأتى ذلك إلاّ بوعي الذات وإدراك متطلبات هذا الوعي التاريخية والثقافية والواقعية والمستقبلية؛ لأن الاعتصام بالقيم واستحضار التجربة التاريخية والمخزون الثقافي هو الإمكان الحضاري الذي يشكل سفينة النجاة.

ونحب أن نؤكد أن الآراء والاجتهادات ووجهات النظر لا تمثل بالضرورة وجهة نظر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بل يمكن القول: إن بعضها لا يمثلها بل هو محل نظرها.

لقد آثرنا، من حيث المبدأ، عدم المداخلة في مساهمات الباحثين، ونشرها كما وردت، ما أمكن، حتى ولو غايرت رأينا، على الرغم من بعض الملحوظات، وخاصة أن بعض البحوث لم تلتزم الإطار المطروح، كما كان الشأن من قبل في كتاب: «**الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد**»، لكن ليس هناك مانع - فيما نرى- من بعض التهميشات التي نرى أهمية إثباتها في أحيان قليلة، استدراكاً على بعض وجهات النظر.

ولا يسعنا هنا إلا أن نقول: سامح الله بعض الإخوة الذين استجابوا ووعدوا بالمساهمة من مواقع متنوعة واستمهلوا حتى استنفدوا الزمن المخصص، ومن ثم جاء اعتذارهم في الوقت غير المناسب، ولعل هذا يشكل إحدى الإصابات أو أحد شواهد الإدانة والأدلة على الواقع الذي نعاني منه.

وتبقى المحصلة النهائية لهذا المشروع تتمثل في طرحه واستدعائه إلى الهم

الثقافي، بحيث نبقي الملف مفتوحاً لكثير من النظر، والتأمل، والمتابعة، والاجتهاد، وشحذ الهمة، والتحريض الحضاري.

من هنا ترجح عندنا أن يحتوي الكتاب على ورقة طرح المشروع بمحاورها، لتكون هادياً وحافزاً إلى مزيد من العطاء والارتقاء.

ونحب أن نوضح أن ترتيب البحوث والباحثين جاء ملتزماً بالحروف الهجائية لأسماء الباحثين دون أي اعتبار آخر.

ولا يسعنا بهذه المناسبة إلا أن نتقدم بالشكر والتقدير والدعاء لحضرة صاحب السمو، أمير البلاد، حفظه الله، رئيس الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، لحرصه على الارتقاء بالواقع الخليجي من خلال القيم الإسلامية والتقاليد الاجتماعية السليمة واستحضار البعد الرسالي لبلاد الجزيرة، كما نخص بالشكر والتقدير والعرفان سعادة الأخ وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، السيد أحمد عبد الله المري، على استجابته الخيِّرة لفكرة المشروع وسائر المبادرات البصيرة، ومحاولته تذليل كل الصعوبات.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الكتاب والباحثين، وإلى الإخوة في مركز البحوث والدراسات، الذين شاركوا في إعداد هذا العمل الثقافي، على الرغم من الظروف الصعبة والإمكانات البشرية المتواضعة.

والله نسأل أن يكون هذا المشروع لبنة في البناء النهضوي، ومساهمة في استرداد دور الريادة، ومعاودة إخراج الأمة من جديد، إنه نعم المسؤول.

المحاور الرئيسة(*)

البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي
«بلاد الجزيرة العربية»

المحور الأول: استشراف الماضي (التجربة الحضارية التاريخية):

- الجزيـــرة العربية أرض النبوة الأولى (إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام) والرسالة الخاتمة (محمد عليه الصلاة والسلام)؛
- الـــنص الســـماوي، وخاتمية وخلود الرسالة، وقدرهما على الإنتاج والنهوض تاريخياً؛
- عطاء التجربة التاريخية (القيادة الحضارية العالمية): عبرة الماضي ورؤية المستقبل.

المحور الثاني: الإمكانات المذخورة:

▪ **الإمكان التاريخي:**

- مهبط الوحي؛
- وراثة النبوة؛
- التجربة الحضارية التاريخية؛
- امتلاك الأنموذج التطبيقي (السيرة النبوية، وخير القرون)؛
- العطاء الإنساني على مستوى الذات و(الآخر).

(*) هــذه المحاور تشكل إطار المشروع الذي أعده مركز البحوث والدراسات وطرحه واستكتب حوله مجموعة من الباحثين من أبناء مجلس التعاون الخليجي.

- **الإمكان الثقافي والاجتماعي:**

- عالمية الرسالة وإنسانيتها؛
- امتلاك الطاقة الروحية (الحرمين)؛
- الرصيد الإسلامي في العالم؛
- قبلة المسلمين في العالم، توجه المسلمين اليومي صوب الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون) واستمرار الارتحال للحج والعمرة؛
- عوامـــل التجانس والتشكيل المشترك بين أبناء الجزيرة، والتي تؤهل للدور الرسالي: العقيدة(القرآن)، اللغة واللهجات، التاريخ المشترك، العــادات والتقاليد وطبيعة الوحدات الاجتماعية(الأسرة والقبيلة)، الوحـــدة الجغرافية، الظروف الطبيعية(الجغرافيا)؛ التزاوج؛ التداخل السكاني(الديموغرافي)؛

- **الإمكان الاقتصادي:**

- امتلاك الطاقة المادية(النفط، المحرك الأساس لعجلة الحضارة العالمية)؛
- الموقع الجغرافي؛
- ارتفاع مستوى الدخل؛
- توفر الأمن الاقتصادي والاجتماعي.

المحور الثالث: إبصار المستقبل (الرؤية المستقبلية للإضطلاع بالدور الرسالي):

- الحاجة الإنسانية الحضارية المتأزمة للدور الرسالي؛
- مواطن الخلل وأسباب القصور وعوامل الإعاقة؛
- السبيل إلى الخروج ومعاودة الإحياء والبعث لأمة الرسالة، لإلحاق الرحمة بالعالمين.

من خصائص جزيرة العرب

الدكتور الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد[*]

إن بعث روح الاكتساب، والعمل، والجد، والتحصيل، والتخصص في شعب المعرفة المختلفة؛ من أهم المهمات لبناء الحياة في جزيرة العرب على يد أبنائها، فهم أسلم لها، وأصلح لحالها من الدخلاء عليها.. فالجزيرة والحجاز معقل الإسلام، ومصدر الإشعاع العالمي الإسلامي، ومقياس قوة الإسلام وسلطانه.

مدخل:

قـــد يكون من الأهـــمية بمكان أن نعرض لبعض الخصائص التي امتازت بها جزيرة العرب، وجعلتها محلاً للوحي الإلهي، ومنطلقاً لحمل الخير والرحمة إلى العـــالم.. فاختـــيار الجزيرة لحمل الرسالة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرســالات الســماوية جميعاً، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لما تتمتع به من الخصـــائص والصـــفات، فـــالحمل الثقيل لا تستطيعه اليد الشلاء، والأمانة الكبيرة لا يطيقها المهازيل والتافهون؛ فالمسؤولية تكليف وتشريف، ولايكون

(*) عضو هيئة كبار العلماء، رئيس مجمع الفقه الإسلامي (المملكة العربية السعودية).

التكليف إلا إذا توافرت الأهليات والاستطاعات: و﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

مـــن هنا رغبنا أن يشاركنا في هذا العمل، الذي نرجو له أن يكون إحدى البصائر المستقبلية على الطريق الطويل، فضيلة الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، الذي كانت رؤيته للبعد الرسالي للجزيرة مبكرة في كتابه: (خصائص جزيرة العرب)، وذلك باختيار نبذ مما عرض له، تمثل نوافذ للإطلالة من خلالها، إلا أن ذلك لا يغني بحال من الأحوال عن العودة إلى الكتاب[1].

الحمـــد لله تعالى حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولامعقب لحكمه، وأشهد أن محمداً عبد الله ونبيه ورسوله ومصطفاه من خلقه.

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستنَّ بسنته.

أما بعد:

فهـــذا بيان للناس عن أصل من أصول الملة، عن دار النصرة والقبلة، حبيبة المســـلمين، عدوة الكافرين، عن الدار الأولى لظهور الإسلام، والخط الأخير في غـــرة الوجـــود الإســـلامي، جزيـــرة العرب؛ في حدودها، وحدود الحجاز، وخصائصها في الإسلام، والضمانات الحافظة لها.

أفـــردها لما رأيتها عند الكثيرين من السنن المهجورة، مع أن تلك الخصائص معلومة من الدين بالضرورة.

---

(١) عـــرض الشـــيخ حفظـــه الله لكثير من الآثار الواردة في فضل الجزيرة وأحكامها، وأسمائها وأقاليمها وحدودها الجغرافـــية، مـــن خـــلال روايـــات متعددة للتعريف بحدود الجزيرة، كما عرض لخصائص الجزيرة والضمانات المطلوبة لحماية هذه الخصائص، وغير ذلك، وقد رأينا اختصارها والاقتصار على ما غلب عليه الظن أنه مرتبط بالموضـــوع بشكل مباشر.. ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى كتاب الشيخ بكر: خصائص جزيرة العرب، الطبعة الأولى (الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).. الناشر.

وإن الله سبحانه جلت حكمته وقد رتّب أحكام هذه الدنيا على أسباب ظاهرة، ولم يجعلها قدرية محضة، وإن دين الإسلام هو قدر الله في هذه الجزيرة؛ قاعدة انطلاقه إلى كل الخليقة في المعمورة، وهو من الظهور والوضوح بمكان، وأحكام هذه الجزيرة فيه كذلك، بل هي من آخر ما عهده النبي ﷺ - وهو على فراش الموت- إلى أمته.

وإنك إذا أدرت النظر في سبب هجرها - عند الأكثرين-؛ رأيته أثراً من آثار موجة الفتور التي تمر بالمسلمين؛ من ضعف الحس، والغفلة عن تنشيطه صُعُداً إلى الترقي في مدارج الإسلام، والإبقاء على امتيازات داره وكيان أهله؛ عبر جسور شرعية من الكتاب والسنة.

ورأيته امتداداً لحبل التراخي من عرب هذه الجزيرة عن وجودهم القيادي في العالم، إذ غرقوا في الترف، والملذات، والتهام الأموال، والتقلب في عدة أوجاع؛ فآلت السابلة إلى ما ترى.

ومن شداد ولائده: أسر النفوس عن توثبها بالحق لنصرته؛ مضغوطاً عليها من كل جانب: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١).

وهذا البيان تذكرة باحثة عن خصائص الجزيرة وسبل حمايتها، ثم تنزيل وسائل الإصلاح والاستصلاح، وبعث الهمم على إعمالها وتخليصها من الأدواء:

أيها المصلح من أخلاقنا		أيها المصلح الداءُ هنا

فإذا خلصت من الأدواء؛ بقي الإسلام في حضانة أهله؛ تشع أنواره، وتظهر شعائره، فتقام الشريعة، وتؤمن السابلة ، وهذا هو الدين كما قال حسان، رضي الله عنه:

وما الدِّين إلا أن تُقام وتُؤْمَن سبلٌ بيننا وهضاب

وبها تبقى دارهم مركزاً للإسلام، ودار قيادة للعالم الإسلامي.

وبها يبقى أهلوها قدوة لأهل القبلة؛ قياديين عرباً مسلمين؛ يحمون حمى الدين، وينافحون عنه.

ومن هنا يتضح للبصراء بجلاء منزلة هذا الأصل العقدي، وضرورة إحياء ما هُجِر من خصائصه، وبَعْثُها من مَرْقدها؛ ليروا كيف منحت الشريعة هذه الجزيرة شخصية مستقلة؛ في قيادتها، وأرضها، وأهلها، ودعوتها؛ على رسم منهاج النبوة لا غير.

وإنه إذا ما عدَّت يوماً نفسها مثل أي قطر من الأقطار، ترضى بمداخلة ما هو أجنبي عن الإسلام، فإنها تعمل على إسقاط نفسها من سجل التاريخ، وتقضي على ميزتها البارزة في خريطة العالم، فيخفت احترام العالم الإسلامي لها، وتفقد رهبة شراذم الكفر منها، وتفتح مجالاً فسيحاً للقوى الشريرة العاتية.

وإنه إذا تقدمت الفتن، والبدع، والأهواء، والنحل، وضروب الغزو الفكري؛ تضرب فارهة على صخرة هذه الجزيرة؛ فقد تحللت حينئذ من كلّ وَيْلٍ تياراً، وآذنت بمشاكل ذات أحجام مختلفة في التمرد، وإذا تشربت النفوس بهذه الأنماط المتناثرة على جنبتي الصراط المستقيم؛ تشكلت الحياة إلى مزيج من الأهواء والضلال البعيد.

وهذا إيذان بِدَكِّ آخر حصن للإسلام، وتقليص لظله عن معاقله في هذه الجزيرة المسكينة.

فالله طَليبُ الفَعَلَة لذلك، وهو حسيبهم.

وإذا نفـــذت أنوار البصيرة إلى هذا الأصل العقدي وخصائصه؛ فلا بد من إدارة الـــنظر آخراً بالضمانات الحافظة الحامية لها؛ تبصرة لمن بسط الله يده على أي مـــن هـــذه الجزيـــرة ولمن شاء الله من عباده، ولطماً لهذا الزحف المهول والموجـــات الطاغـــية المدفوعة بذمم فاسدة؛ لصدها عن هذه الجزيرة وأهلها، والـــرقابة الـــيقظة على صنائعها الرابضين في مغارات الجزيرة؛ حاملين بصمات العـــداء والاســـتعداء؛ يعملون في الجهر والخفاء؛ في مجالات: العلم، والسلوك، والأخلاق، والإعلام، والاقتصاد.

وعلـــيه؛ فإذا كنا من هنا نعلم أحكام هذه الجزيرة؛ فمن هنا - أيضاً- نبدأ فنـــادي أهـــل العـــلم والإيمان أن يُفيضوا على أمتهم بساعات من الاكتساب للاحتساب -و«**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[1]-؛ استنهاضاً للموحدين على مواضع الفتور وســـبل الغواشي التي غشـــيت التوحيد وأوهنت أخلاقيات هذه البلاد، وإحياء لما تآكل من معالم هذا الدين.

والحديث عن خصائص هذه الجزيرة واحدة منها.

وقد عنيت الإيجاز؛ لأن القصد غرس هذه النعمة في أفئدة أبناء هذه الجزيرة؛ يحدو ذلك الحَمِيَّة؛ لله، ودينه، وشرعه؛ ليس إلا. والله المستعان.

---

(١) أخرجه البخاري.

حدود جزيرة العرب على العموم

كما أن شبه جزيرة العرب أكبر شبه جزيرة في العالم، فقد حماها الله تعالى بثلاثة أبحر من جهاتها الثلاث: غرباً، وجنوباً، وشرقاً.

فيحدها **غرباً**: بحر القُلْزُم- و(القلزم): مدينة على طرفه الشمالي- ويقال: الحبشة، وهو المعروف الآن باسم: (البحر الأحمر).

ويحدها **جنوباً**: بحر العرب، ويقال: بحر اليمن.

وشرقاً: خليج البصرة، الخليج العربي.

والتحديد من هذه الجهات الثلاث بالأبحر المذكورة محل اتفاق بين المحدثين والفقهاء، والمؤرخين، والجغرافيين، وغيرهم.

وممن أفصح عن هذا التحديد بالنص: ابن حوقل، وأطلق على الأبحر الثلاثة اسم: (بحر فارس)، والإصْطَخْري، والهَمْداني، والبكري، وياقوت، وهو منصوص الرواية عن الإمام مالك وتفيده الرواية عن الإمام أحمد رحم الله الجميع.

الحد الشمالي: ويحدها شمالاً ساحل البحر الأحمر الشرقي الشمالي، وما على مُسَامَتِته شرقاً؛ من مشارف الشام وأطرافِه (الأردن حالياً)، ومُنْقَطَع السماوة من ريف العراق، والحد غير داخل في المحدود هنا.

وبهذا قال الأصمعي، وأبو عبيدة.

وهذا هو ما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، فقال: «جزيرة العـــرب: هي من بحر القُلْزُم إلى بحر البصرة، ومن أقصى حجر اليمامة إلى أوائل الشـــام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل فيها الشام، وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله...».. انتهى مختصراً.

هـــذه هـــي الحـــدود الطبيعية بمعالمها الظاهرة – ثلاثة أبحر– غرباً وجنوباً وشرقاً؛ وهي تحديد جغرافي يلتقي فيه الفقهاء مع غيرهم.

ولهـــذا الـــتحديد بالمياه الإقليمية الثلاثة صارت تعرف عند المتأخرين باسم (شـــبه جزيرة العرب)، وإنما قيل: (جزيرة العرب)؛ بحكم إحاطتها بثلاثة أبحر، ولأن الحـــد الشمالي، وإن كان إلى مشارف الشام وريف العراق؛ فإن ما وراء ذلـــك من أنهار: بردى، ودجلة ، والفرات، متصل برأس الخليج العربي، فكأن التجوز في الإطلاق بحكم المجاورة.

ولـــذا قـــال الخليل: «إنما قيل لها (جزيرة العرب)؛ لأن بحر الحبش، وبحر فارس، والفرات قد أحاطت بها، ونُسِبت إلى العرب؛ لأنها أرضُها، ومسكنُها، ومعدنُها»، انتهى...

ونحوه ذكره الباجي عن الإمام مالك...

حدود الحجاز:

الحجاز– في اللغة–: الحد الفاصل.

وفي سبب تسميته توجيهان:

الأول: سميت الحجازحجازاً، لأنـــها قـــد احتُزِمَت واحتُجِزت بالجـــبال،

أو بالحِـــرار، أو بهما، فسميت حجازاً، فهو من الاحتجاز؛ بمعنى: شد الوسط بالحُجْزة، أو بالحجاز.

والحجاز حجازان:

١- **حجاز المدينة**: وهو ما حجزته الحِرار.. والحِرار الحاجزة: هي خيط من حجـــارة سوداء، تمتد من الجنوب إلى الشمال في سلسلة متتابعة، فتتسع حيناً، وتضيق أحياناً في مواضع.

وهي من الجنوب مما يلي مكة إلى المدينة شمالاً فتبوك: حَرّة بني سُلَيم، فحرة واقم، فحرة ليلى ، فحرة شوران، فحرة النار، وهي أطولها مسافة.

٢- **الحجاز الأسود**: وهو ما حجزته الجبال، وهي: سراة شنوءة.. وسلسلة جبال السراة هذه هي أعظم جبال في بلاد العرب.

و(الســـراة) : أعلى الشيء؛ كما يقال لظهر الدابة: السراة. وتمتد من جبل تثليث جنوباً إلى الطائف في الشمال.

خصائص جزيرة العرب

ينتظم هذا ذكرَ خصائص الجزيرة عموماً، فالحجاز خصوصاً، فعرب الجزيرة خصوصاً، فالعرب عموماً.

فألق إليها سمعك، فهو خيرٌ تُدَلُّ عليه.

١- خصائص الجزيرة عموماً:

هذه جملتها:

الأولى:

هــذه الجزيرة حرم الإسلام، فهي مَعْلَمُه الأول، وداره الأولى، قصبة الديار الإسلامية، وعاصمتها، وقاعدة لها على مر العصور، وكَرِّ الدهور، منها تفيض أنــوار النبوة الماحية لظلمات الجاهلية، ولذلك جاءت المنح المحمدية في صحيح السنة بما لهذه الجزيرة من خصائص وأحكام؛ لتبقى هذه المنطقة قاعدة الإسلام دائماً؛ كما كانت قاعدته أولاً، ومعقل الإيمان آخراً؛ كما كانت سابقاً.

وهــذه – وايــم الله- ضمانات لا يمكن أن تكون لهيئة الأمم المتحدة (!) ولا لمجلس الأمن (!) ولا لمنظمــة الإعــلان العالمي لحقوق الإنســان (!) التي ما نشأت إلا في محيط حكومات الغاب وهمارش العباد.

أما جزيرة العرب؛ فلها من سامي المكانة التي تتميز بها في (خريطة العالم)، ودقــيق الضمانة الواجب توفيرها، ما يجعل فعاليتها في أمم الأرض تفوق هذه المؤتمرات التي هي في حقيقتها تآمر على ما ينبزونه توهيناً باسم (العالم الثالث)، الــذي لــيس بعــده في حســابهم من رابع، وباسم الشرق الأوسط.. وهذا

الاصطلاح الحادث وسابِقُه من تخطيط يهود قبحهم الله؛ لتبقى منطقة العرب والمسلمين منطقة جغرافية فحسب، لا اختصاص لها بعرب ولا بمسلمين، وهو تخطيط خبيث يرمي بعد إلى تسويغ إقامة دولة يهود، خسئوا.

وليُعلم أولاً أن الشرق مشرقُ العظائم، وأنه بلغ موضع أقدامهم بسلطان قائم، وما على الله بعزيز أن يبلغ الإسلام مبلغه منهم، وبالغ الأمل في الأفق يلوح، ونزول النصر لنا مرهون منا بتوبة نصوح.

فاعرف هذه الخصيصة لجزيرة العرب من أنها (حرم الإسلام)، وللحرم حرماته التي لا تنتهك ، ولن تكون دار كفر أبداً.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

الثانية:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[1].

وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة...

والخلاصة: أن متن الحديث ثابت من عدة طرق عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم.

ومعنى هذا الحديث: أن الشيطان يئس من اجتماع أهل الجزيرة على الإشراك بالله تعالى.

---

(١) رواه مسلم في "صحيحه" (٢٨١٢)، الترمذي (١٩٣٧)، وأحمد ٣١٣/٣ و٣٥٤)، وأبو يعلى (٢٢٩٤)، والبغوي في "شرح السنة" (٣٥٢٥)، وابن أبي عاصم في السنة(٨)، وابن حبان (٦٤و١٨٣٦) ؛ من طرق عنه.

ومنذ بعثة النبي ﷺ وهي إلى يومنا هذا دار إسلام – ولله الحمد، حماها الله وسائر أوطان المسلمين–، و لم يعرف الشرك فيها إلا جزئياً على فترات في فرد أو أفراد، ثم يهيئ الله على مدى الأزمان من يردهم إلى دينهم الحق.

على أن بعض العلماء، رحمهم الله تعالى، رأى عموم هذا الحديث لأمة محمد ﷺ.

قال ابن رجب، رحمه الله، في شرحه لهذا الحديث: «المراد أنه يئس أن تجتمع الأمة كلها على الشرك الأكبر»، انتهى.

وذلك كما في قول الله تعالى من سورة المائدة: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ (المائدة:٣).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وعلى هذا يَرِدُ الحديثُ الصحيحُ: (فذكره)».

وبهذا يكون ذكر جزيرة العرب؛ لمزيتها بأنها ديار الإسلام، وأهلها أصلُ المسلمين ومادتهم.. والله أعلم.

الثالثة:

جزيرة العرب وقفٌ في الإسلام على أهل الإسلام؛ على من قال : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وقام بحقهما.

جزيرة العرب وديعة النبي ﷺ إلى أمته، التي استحفظهم عليها في آخر ما عهده النبي ﷺ .

فهي دار طيبة، لا يقطنها إلا طيب، ولما كان المشرك خبيثاً بشركه؛ حرمت عليه جزيرة العرب...

الرابعة:

ومـــن خصـــائص هذه الجزيرة المباركة أن الإسلام حين يُضْطهد في دياره خارجهـــا، فإنـــه ينحاز إلى هذه الجزيرة، ويأوي إليها، فيجد كرم الوفادة بعد الغربة وطول المحنة.

وفي ذلك جاء حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»[1].

فانظر كيف ربط النبي ﷺ بين غربة الإسلام، ثم احتضان هذه الجزيرة له؛ انتشالاً من غربته.

٢- خصائص الحجاز:

يقـــع الحجاز من جزيرة العرب موقع التاج من الحلة، وبين مسجديه يأرز الإيمان، وينحاز في آخر الزمان، كما سبق حديثُ ابن عمر رضي الله عنهما.

وتمـــتع بهذه الشذرة الفائقة من كلام القاضي عياض-رحمه الله تعالى- في "الشفا" عن الحرمين الشريفين، فيقول:

«وجديـــر بمواطن عمرت بالوحي والتنـــزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجـــت مـــنها الملائكـــة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله مـــا انتشـــر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد

---

(١) أخرجه مسلم.

المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عبابها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها: أن تعظم عرصاتها، وتتنسم نفحاتها»، انتهى مختصراً.

واعلم أن الخصائص السالفة لجزيرة العرب هي للحجاز - قلب الجزيرة، بل قبل العالم الإسلامي- من باب أولى.

وقد اختُصَّ الحرمان الشريفان - مكة حرسها الله تعالى، والمدينة النبوية حرسها الله تعالى - بخصائص وميزات:

خصائص مهد الهداية (البلد الحرام، أم القرى، مكة)؛ زادها الله شرفاً:

وفي خصوص البلد الحرام؛ فآيات القرآن الكريم، وأحاديث نبيه عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، متكاثرة نصوصها على بيانها وذكرها، وكتب المؤرخين - وبخاصة عن تاريخ الحرمين الشريفين- توضح ذلك وتشرحه:

واكتفي هنا بذكر ما رقمه قلم الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في فاتحة كتابه الحافل "الهدي النبوي" (١/٤٦-٥٤) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:٦٨)، فقال رحمه الله تعالى:

«ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها، وهي البلد الحرام؛ فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس الدنيا، وجعله حرماً آمناً، لا يُسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة ، ولا ينفر له صيد،

ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته للتمليك، بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب ، ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا، كما في "الصحيحين" عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه**»[1].

ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففي السنن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إلا الْجَنَّةُ**»[2].

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إلا الْجَنَّةُ**».

فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد؛ لما جعل عرصاتها مناسك لعباده؛ فرض عليهم قصدها، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين:٣) ، وقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ (البلد:١) .

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها، والطواف بالبيت الذي فيها؛ غيرها، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه، وتحط الخلايا والأوزار فيه؛ غير الحجر الأسود، والركن اليماني.

وثبت عن النبي ﷺ أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، ففي سنن

(١) وأخرج البخاري في صحيحه: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».
(٢) أخرجه الترمذي.

النسائي والمسند، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن الزبير عن النبي ﷺ أنه قال: **«صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمئة صلاة»**[1].

وهذا صريح في أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، ولذلك كان شد الرحال إليه فرضاً، ولغيره مما يستحب ولا يجب.

وفي المسند، والترمذي والنسائي؛ عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحَزْوَرَة من مكة يقول: **«وَاللَّه إنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»**[2].

بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها.

ومن خواصها أيضاً أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة؛ دون سائر بقاع الأرض.

وأصح المذاهب في هذه المسألة أنه لا فرق بين الفضاء والبنيان؛ لبضعة عشر دليلاً قد ذكرت في غير هذا الموضع، وليس مع المفرِّق ما يقاومها ألبتة؛ مع تناقضهم في مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحجاج من الطرفين.

ومن خواصها أيضاً أن المسجد الحرام أول مسجد في الأرض؛ كما في

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وفي رواية لمسلم: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ».

(٢) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث صحيح.

الصحيحين عن أبي ذر قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ قَالَ: **الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **الْمَسْجِدُ الأَقْصَى**، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: **أَرْبَعُونَ عَامًا**»[1].

وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام!

وهذا من جهل هذا القائل؛ فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده، لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وآلهما وسلم، بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار.

ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى، فالقرى كلها تبع لها، فرع عليها، وهي أصل القرى، فيجب ألا يكون لها في القرى عديل فهي كما أخبر النبي ﷺ عن الفاتحة أنها أم القرآن، ولهذا لم يكن لها من الكتب الإلهية عديل.

ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية لا يشاركها فيها شيء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد روي عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعاً: «**لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام من غير أهلها**».. ذكره أبو أحمد بن عدي؛ ولكن حجاج بن أرطاة في الطريق، وآخر قبله من الضعفاء.

وللفقهاء في المسألة ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والفرق بين من هو داخل

(١) أخرجه مسلم.

المواقيت ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها؛ فحكمه حكم أهل مكة، وهو قول أبي حنيفة، والقولان الأولان للشافعي وأحمد.

ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهمِّ بالسيئات وإن لم يفعلها؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج:٢٥).

فتأمل كيف عدَّى فعل الإرادة ها هنا بالباء، ولا يقال: أردت بكذا؛ إلا لما ضمن معنى فعل (هم)؛ فإنه يقال: هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذقه العذاب الأليم.

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه، لا كمياتها؛ فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها، وصغيرة جزاؤها مثلها، فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه، فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات، والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب، وانعطافها، ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولى بقول القائل:

مَحاسنه هَيُولَى كلِّ حسنٍ ومغناطيس أفئدةُ الرجالِ

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس، أي : يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة؛ ازدادوا له اشتياقاً.

لا يَــرْجِعُ الطَّــرْفُ عنها حين ... حــتى يعودَ إليها الطَّرْفُ مُشتاقا

فلــله كــم لها من قتيل وسليب وجريح، وكم أُنفق في حبها من الأموال والأوطان؛ مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطب والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله، ويستطيبه، ويراه - لو ظهر سلطان المحبة في قلبه- أطيب من نعم المُتَحَلِّيَة وترفهم ولذاهم.

ولــيس محــباً من يَعُدُّ شقاءه ... عذابــاً إذا ما كان يَرْضى حبيبه

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله:﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ (الحج:٢٦)، فاقتضــت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجــلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته؛ كمــا اقتضــت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك، وكذلك إضافته عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم.

فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه؛ فله من المزية والاختصاص على غيره مــا أوجــب له الاصــطفاء والاجتباء، ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلاً آخر، وتخصيصاً وجلالة زائداً على ما كان له قبل الإضافة.

ولم يوفــق لفهــم هــذا المعنى من سَوَّى بين الأعيان والأفعال، والأزمان والأمــاكن، وزعم أنــه لا مزية لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح.

وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجهاً، قد ذكرت في غير هذا الموضع، ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده؛ فإن مذهباً يقتضي أن تكون ذوات الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها، وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات،

ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام، ومنى، وعرفة، والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة، لا يعود إليها ولا إلى وصف قائم بها.

والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾.. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤)؛ أي: ليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها، والله أعلم بهذه المحال منكم.

ولو كانت الذوات متساوية -كما قال هؤلاء- لم يكن في ذلك رد عليهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأنعام:٥٣)؛ أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته، فيختصه بفضله، ويمن عليه، ممن لا يشكره، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال منته، والتخصيص بكرامته.

فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليست لغيرها، ولأجلها اصطفاها الله، وهو سبحانه الذي فضلها بتلك الصفات، وخصها بالاختيار، فهذا خلقه، وهذا اختياره: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص:٦٨)..».

إلى أن قال رحمه الله: «... ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المرذول، وإنما قصدنا تصويره، وإلى اللبيب العادل العاقل التحاكم، ولا يعبأ الله

وعباده بغيره شيئاً، والله سبحانه لا يخصص شيئاً، ولا يُفضِّله ويُرجِّحُه، إلا لمعنى يقتضي تخصيصه وتفضيله.

نعم؛ هو معطي ذلك وواهبه، فهو الذي خلقه، ثم اختاره بعد خلقه، وربك يخلق ما يشاء ويختار» انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية،رحمه الله تعالى، في الصفدية (١/٢٢٠-٢٢١) ما نصه: «كذلك ما خص به الكعبة الحرام من حين بناه إبراهيم وإلى هذا الوقت من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والمدائن والقصور بالآلات العظيمة البناء المحكم، ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهيه النفوس من البساتين والمياه وغيرها، ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء، ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهيه الأنفس، بل كثيراً ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله، ومع هذا ؛ فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوي إليه ما لا يعلمه إلا الله».

وقد جعل للبيت من العز والشرف والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض، حتى تقصده عظماء الملوك ورؤساء الجبابرة، فيكونون هناك في الذل والمسكنة كآحاد الناس.

وهذا مما يُعلَم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر، وقوى نفوسهم وأبدانهم، والذي بناه قد مات من ألوف السنين.

ولهذا كان أمر البيت مما حيّر الفلاسفة والمنجمين والطبائعية؛ لكونه خارجاً عن قياس عقولهم وقوانين علومهم، حتى اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه

كل عاقل لبيب؛ مثل قول بعضهم: إن تحت الكعبة بيتاً فيه صنم يبخر، ويصرف وجهه إلى الجهات الأربع ليُقْبِل الناس إلى الحج!

وهذا مما يَعلَمُ كلٌّ من عرف أمر مكة أنه من أبين الكذب، وأنه ليس تحت الكعبة شيء من هذا، وأنه لا ينـــزل أحد من أهل مـــكة إلى ما تحت الكعبة، ولا يحفره أحد، ولا يبخر أحد شيئاً هناك، ولا هناك صنم ولا غير صنم!!

وكـــان ابـــن سبعين وأمثاله من هؤلاء يحارون من هذا، وربما قالوا: ليت شـــعرنا؛ ماهو الطلسم الذي صنعه إبراهيم الخليل حتى صار الأمر هكذا؟ وهم يعلمون أن أمور الطلاسم لا تبلغ مثل هذا، وأنه ليس في الأرض ما يقارب هذا، وأن الطلاسم أمور معتادة معروفة بأسباب معروفة، ولهذا يصنع الرجل طلسماً ويصنع الآخر مثلَه أو أعظمَ منه، وأما هذا؛ فخارج عن قدرة البشر.

وليس في الوجود طلسم يستحوذ على أهل الأرض، ولا يتصرف في قلوب أهل الأقاليم الثلاثة، وهم أفضـــل الإنس، وأكملهم عقولاً وأدياناً، والطلاسم إنما يقوى تأثيرها إذا ضعف العقل، فيؤثر في الجماد أكثر من الحيوان، ويؤثر في الـــبهائم أكثر من الأناسي، ويؤثر في الصبيان والمجانين أكثر من العقلاء، وهكذا تأثير الشياطين، كلما ضعفت العقول؛ قوي تأثيرهم».. انتهى.

خصائص المدينة النبوية:

وأمـــا الدار النبوية الشريفة: طَيْبَةُ، وطابَةُ الطَّيِّبَة، دار الهجرة، المدينة النبوية المنورة؛ كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

بطيـــبةَ رَسْمٌ للرسولِ ومَعْهدُ مُـــنيرٌ وقَدْ تَعْفوُ الرَّسومُ وتَهْمَدُ

فلها من الخصائص الشريفة:

١- تسميتها (حرماً)؛ مثل مكة، حرسهما الله تعالى:

وليس في الدنيا ما يطلق عليه اسم الحرم سواهما؛ إلا أن مكة يقال لمسجدها: المسجد الحرام، أما المدينة؛ فلا يقال لمسجدها: الحرم، ولا المسجد الحرام، وإنما يقال: مسجد النبي ﷺ.

ولهذا فلا يقال للمسجد الأقصى: ثالث الحرمين، لأن لفظ (الحرم) لا يطلق عليه، وقد بينت ذلك في "معجم المناهي اللفظية".

٢- تحريمها كان على لسان رسول الله ﷺ:

وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، بعد غزوة خيبر، أما مكة، حرسها الله تعالى؛ فتحريمها على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام.

٣- المدينة حرم آمن؛ مثل مكة:

فعن سهل بن حُنَيْف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أهوى بيده إلى المدينة، وقال: «**إِنَّهَا حَرَمٌ آمِنٌ**»[1].

وحرمها ما بين لا بَتَيْها - ويقال: ما بين مَأْزَمَيْها، وهما الحرَّتان؛ شرقاً وغرباً، ويحدها شمالاً وجنوباً جبلان: جبل أُحد شمالاً، وجبل عَيرٍ جنوباً. ويقال: شمالاً جبل ثور، وهو جبل صغير خلف أحد.

وقد غلط من الفقهاء من ظن أن ثوراً هو الذي بمكة، ومعناه إخراج المدينة من المحدود، فلا تكون حرماً.

---

(١) أخرجه مسلم.

٤- وقد خصها النبي ﷺ بأدعية عامة، وخاصة:

أ- فمـــن العامة قوله ﷺ: « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ**»(١).

ب- ومن الخاصة: دعاؤه ﷺ بأن يبارك الله في صاعها، ومدها، وأن ينقل الله حماها إلى الجحفة وهي مهيعة.

٥- إخبار النبي ﷺ أن الإيمان يَأرز وينحاز إلى المدينة، زادها الله شرفاً.

٦- وقد خص النبي ﷺ أهلها وسكانها بأمور منها ما يلي:

أ- عن جابر - وذكر قصة- أن النبيﷺ قال:

« **الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا**»(٢).

ب- عن أنس رضي الله عنه أن رسول ﷺ الله قال: «**لَيْسَ مِنْ بَلَـــد إلا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَيْـــسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْـــبٌ إلا عَلَـــيْهِ الْمَلائِكَـــةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاثَ رَجَفَاتٍ فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ**»(٣).

ج- ما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَصْبِرُ عَلَى لأْوَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ إلا كُنْتُ لَهُ شَهِـــيدًا أَوْ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٤).

د- ومـــا في حديثه -أيضاً- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه مسلم.
(٥) رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه.

هـــ- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ أَذَابَهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ**»[1].

و- وعن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**...الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ لا يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلا أَبْدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ...** »[2].

ز- لا يدخلها الطاعون، كما في حديث عند البخاري وهو من أفراده عن مسلم. وبحثه في (بذل الماعون) لابن حجر، ص١٠٢، ٢٠٤.

٧- والمدينة النبوية لها أحكام فقهية خاصة بها:

أ- فلا يُنَفَّر صيدها، ولا يُقتل، وجزاء الصائد وعقوبة فاعل ذلك: سلبه.

ب- ولا يقلع منها شجرة، وأبيح ذلك لرجل يعلف بعيره.

ج- ولا تُلتقط لُقَطَتُها.

د- ولا يُهْرَاق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال.

هـــ- لا تقتل حيَّاتها إلا بعد إيذانها ثلاثة أيام.

٨- خصائص لبعض ثمارها:

عـــن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَكَــلَ سَــبْعَ تَمَــرَاتٍ مِمَّــا بَيْنَ لابَتَيْهَا حِينَ يُصْبِحُ لَمْ يَضُرَّهُ سُمٌّ حَتَّى يُمْسِــيَ**»[3]. وفي روايـــة عنده وعند البخاري تقييده بالعجوة. وفي رواية لمسلم: « **إِنَّ فِي عَجْوَةِ الْعَالِيَةِ شِفَاءً** »[4].

(١) أخرجه مسلم.
(٢)أخرجه مسلم.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) أخرجه مسلم.

وفي "مسند أحمد" وغيره: «**الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهِيَ شِفَاءٌ...**»[1] الحديث.

٩- خصائص لبعض بقاعها وجبالها في الفضل والفضيلة:

أ- فضل المسجد النبوي الشريف، وفضل الصلاة فيه: ويشترك مع مسجدي مكة والمقدس بمضاعفة أجر الصلاة، وجواز شد الرحل؛ على ما هو مشهور في السنة.

ب- فضل الروضة من مسجده ﷺ، وأنها ما بين بيته ومنبره ﷺ: ولم يأت في لفظ صحيح أنها ما بين قبره ومنبره، وإنما كان ذلك بعد، باعتبار ما كان من قبر النبي ﷺ في بيته.

ج- فضل صلاة ركعتين في مسجد قباء ، وأن النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت ماشياً وراكباً.

د- وادي العقيق: واد مبارك.

هـ- جبل أحد : ثبت عن النبي ﷺ قوله:« ... **أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[2].

١٠- ومنها: تحريم الإحداث فيها، وإيواء من أحدث حدثاً، وعقوبة من فعل ذلك بأن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، كما في حديث الخليفة الراشد علي رضي الله عنه، المشهور بحديث الصحيفة، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد.

(٢) متفق عليه في غيره من الأحاديث، واللفظ للبخاري.

٣- خصائص عرب الجزيرة

العــــرب قــــوم شِرافٌ، يَزِنُون الحياة بغير ما تزنها به أمم البطون والفروج، وموازينهم في الحياة تدور على قطب واحد، وهو: المَحْمَدة، والذكر الحسن.

وفي حدِّهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"واسم العرب في الأصل كان اسماً لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف:

أحدها: أن لسانهم كان باللغة العربية.

الثاني: أنهم كانوا من أولاد العرب.

الثالث: أن مساكنهم كانت أرض العرب، وهي جزيرة العرب التي هي من بحـــر القُلْـــزُم إلى بحر البصرة، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل الشام.

وفي هـــذه الأرض كانـــت العـــرب حين البعث وقبله، فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار، سكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإلى سواحل الشام وأرمينية، وهذه كانت مساكن فارس والروم، والبربر وغيرهم.

ثم انقسمت هذه البلاد قسمين:

منها: ما غـــلب على أهله لســـان العرب، حتى لا تعرف عامتهم غيـــره، أو يعـــرفونه وغـــيره، مع ما دخل على لسان العرب من اللحن، وهذه غالب مســـاكن الشـــام والعـــراق ومصر والأندلس ونحو ذلك، وأظن أرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً.

ومـــنها: مـــا العجمة كثيرة فيهم أو غالبة عليهم؛ كبلاد الترك وخراسان وأرمينية وأذربيجان ونحو ذلك.

فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربي ابتداءً؛ وما هو عربي انتقالاً، وإلى ما هو أعجمي.

وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام:

قوم من نسل العرب، وهم باقون على العربية، لساناً وداراً، أو لساناً لا داراً، أو داراً لا لساناً.

وقوم من نسل العرب، بل من نسل هاشم، ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما.

وقوم مجهولو الأصل، لا يدرون : أمن نسل العرب هم أو من نسل العجم؟ وهم أكثر الناس اليوم، سواء أكانوا عرب الدار واللسان، أم عجماً في أحدهما.

وكذلك انقسموا في اللسان ثلاثة أقسام:

قوم يتكلمون بالعربية لفظاً ونغمة.

وقم يتكلمون بها لفظاً لا نغمة، وهم المتعربون الذين ما تعلموا اللغة ابتداءً من العرب، وإنما اعتادوا غيرها، ثم تعلموها؛ كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية.

وقوم لا يتكلمون بها إلا قليلاً.

وهذان القسمان: منهم من تغلب عليه العربية، ومنهم من تغلب عليه العجمة، ومنهم من يتكافأ في حقه الأمران: إما قدرةً، وإما عادةً.

فإذا كانت العربية قد انقسمت نسباً ولساناً وداراً؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف هذا الانقسام، خصوصاً النسب واللسان».. انتهى.

ولفاضل مزاياهم ظهر الإسلام فيهم، واصطفى الله نبيه ورسوله محمداً ﷺ منهم، فكانت النبوة من أصلابهم، وترشحوا حملةَ نشرِ الرسالةِ الأُوَل، وصار اعتقاد فضلهم على غيرهم من أصول الاعتقاد في الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم؛ عبرانيهم وسريانيهم، رومهم وفرسهم، وغيرهم، وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً، وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم؛ بمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً، وإلا لزم الدور.

ولله تعالى حِكَمٌ بالغة في أن اختار لهذه الرسالة رجلاً عربياً، وليس هذا موضع بيان ما بلغ إليه العلم من تلك الحكم، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾.

بيد أنا نقول: إن الرسول لما كان عربياً؛ كان بحكم الضرورة يتكلم بلسان العرب، فَلَزِمَ أن يكون المتلقون منه الشريعة بادئ ذي بَدْءٍ عرباً، فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها، وهم من جملتهم، واختارهم الله لهذه الأمانة؛ لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم.

فهم بالوصف الأول أهلٌ لفهم الدين وتلقّيه.

وبالوصف الثاني أهل لحفظه، وعدم الاضطراب في تلقيه.

وبالوصف الثالث أهل لسرعة التخلق بأخلاقه، إذ هم أقرب إلى الفطرة السليمة، و لم يكونوا على شريعة مُعْتَدٍّ بها متماثلة حتى يصمموا على نصرها.

وبالوصـــف الرابع أهل لمعاشرة بقية الأمم، إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرى؛ فإن حزازات العرب ما كانت إلا بين قبائلهم؛ بخلاف مثل الفرس مع الروم، ومثل القبط مع الإسرائيليين.

ولا عــبرة بما جرى بين بعض قبائل العرب وبين الفرس والروم في نحو يوم ذي قار، ويوم حليمة؛ لأنها حوادث نادرة، على أن العرب كانوا فيها يُقاتلون انتصاراً لغيرهم من الفرس أو الروم، فإِحَنُهُمْ معهم محجوبة بإحَنِ من قاتلوا هم وراءهم».. انتهى.

ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني، صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسنة، التي قال فيها:

«هـــذا مذهـــب أهـــل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، وأدركت مَنْ أدركت مِنْ علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهـــم علـــيها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائـــلها، فهو مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم؛ ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم.

فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية.

وساق كلاماً طويلاً، إلى أن قال:

«ونقـــرُّ للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ: «**الحب للعرب إيمان وبغضهم نفاق**»، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي، الذين لا يحبون العرب، ولا يقرُّون فضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف».

وعن خصائصهم تتبعت وقيدت كثيراً، فوجدت أن ما وقفت عليه مشمول بما هـو مدون في كتاب "أم القرى" (ص٢١٨-٢٢٢)، وعنه في "مجلـة المنار" (٥/٨٦١-٨٦٢)، فها أنا ذا أسوقه باختصار قليل:

«وحيـث كانت الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية؛ بناء عليه؛ رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها، وأهلها ومن يجاريهم، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً، وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي.

ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب فنقول:

١- الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي.

٢- الجزيرة فيها الكعبة المعظمة.

٣- الجزيرة فيها المسجد النبوي، وفيه الروضة المطهرة.

٤- الجزيـرة أنسـب المواقـع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية؛ لتوسطها بين أقصى آسية شرقاً وأقصى إفريقية غرباً.

٥- الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط؛ جنسية ، وأدياناً، ومذاهب.

٦- الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

٧- الجزيـرة أفضـل الأراضي لأن تكون ديار أحرارٍ؛ لبعدها عن الطامعين والمزاحمين؛ نظراً لفقرها الطبيعي.

٨- عـرب الجزيـرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية؛ لظهور الدين فيهم.

٩- عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين.

١٠- عــرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين؛ لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان.

١١- عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين، وتأييده، والفخار به؛ خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز، واليمن، وعمان ، وحضرموت، والعراق، وإفريقية.

١٢- عــرب الجزيــرة لم يزل الدين عندهم حنيفاً، سلفياً، بعيداً عن التشديد والتشويش.

١٣- عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية، وأشدهم أَنَفَةً؛ لما فيهم من خصائص البدوية.

١٤- عــرب الجزيــرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم.

١٥- عــرب الجزيــرة أقدم الأمم مدنية مهذبة؛ بدليلي: سعة لغتهم، وسمو حكمتهم وأدبياتهم.

١٦- عرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم، وأنشطهم على التغرب والسياحات، وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله.

١٧- عــرب الجزيــرة أحفظ الأقوام على جنسيتهم، وعاداتهم، فهم يخالطون ولا يختلطون.

١٨- عـــرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم.

١٩- العرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

٢٠- العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم (٣٠٠مليون).

٢١- العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمئة مليون من المسلمين وغير المسلمين.

٢٢- العـــرب أقـــدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية.

٢٣- العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية.

٢٤- العرب أهدى الأمم لأصول المعيشة.

٢٥- العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة إنسانية، واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة.

٢٦- العـــرب أنســـب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداءً؛ فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً.

... والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب في الديـــن، ولـــلحزم، والعزم، عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومـــن عليها، وأن يحميهم من التعصب السيء، للسياسات والجنسيات،

ومن الكبر والأنفة، ومن التخاذل والانقسام، ومن الانقياد إلى وساوس الأجانب الأضداد، وإلا؛ فينتابهم الخطر القريب المحدق بهم، وتتخاطفهم النسور المحلقة في سمائهم.

والله الموفق وإليه ترجع الأمور».. انتهي باختصار يسير.

٤- خصائص قوم النبي ﷺ وعِتْرَته

وعن مزايا قوم النبي ﷺ وعترته واستعدادهم للنهوض بدعوته كتب كثير من العلماء، وبخاصة الذين ألفوا في أحوال العرب.

وللشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى مبحث نفيس في رسالته "خلاصة السيرة المحمدية" (٤-١٦)، حيث قال مانصه:

«مزايا قومه وعترته، واستعدادهم للنهوض بدعوته ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٣٣)، إذ جعل فيهم النبوة والهداية للمتقدمين والمتأخرين.

ثم إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفى سيد ولد آدم من بني هاشم، فكان آل إسماعيل أفضل الأولين والآخرين، كما كان بنو اسحاق أفضل المتوسطين، إذ كانت هداية الأنبياء من بني إسحاق وغيرهم خاصة، وهداية هذا النبي من آل إسماعيل عامة، فبه أكمل الله تعالى الدين، وأتم نعمته على العالمين؛ كما اقتضته سنته تعالى في النشوء والارتقاء، التي كانت في البشر أظهر منها في سائر الأحياء.

كيف كان اصطفاء الله تعالى لهذه الأصول من الأمة العربية، الذي ثبت في "صحيح مسلم" و"سنن الترمذي" من كتب السنة السنية؟

وبماذا امتاز قوم خاتم الرسل الكرام، ففضلوا به غيرهم من الأقوام، حتى استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام، الذي اشتمل عليه دين الإسلام، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام والعدوان والخصام؟

الجواب:

كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر، وسعة الحرية الشخصية؛ أيام كانت الأمم ترسف في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية، محظوراً عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية؛ كما حظرت عليها الحكومات المستبدة حرية التصرفات المدنية والمالية.

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال؛ أيام كانت الأمم مذللة مسخرة للملوك والنبلاء، المالكين للرقاب والأموال، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم، ويصرفونها كما يصرفون السوائم، لا رأي لها معهم في سلم ولا حرب، ولا إرادة لها دونهم في عمل ولا كسب.

كانت العرب ممتازة بعزة النفس، وشدة البأس، وقوة الأبدان، وجرأة الجَنان، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشظف، وسادة أبطرهم بغي الاستبداد، ومَسودِين أذلهم قهر الاستعباد.

كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوذعية، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية؛ كقِرى الضيوف، وإغاثة الملهوف، والنجدة والإباء، وعلو الهمة والسخاء، والرحمة والإيثار ، وحماية اللاجئ وحرمة الجار، أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية، وثقل الضرائب والأتاوي الأميرية، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية، وفساد الأخلاق قد عم الراعي والرعية.

كانت العرب قد بلغت أوج الكمال في فصاحة اللسان، وبلاغة المقال، وكادت تتحد لغات قبائلها أو لهجاتها العربية، وبزّت المُضَرِيَّة منها الحِمْيَرِيَّة؛ بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية والأسواق الأدبية.

فتلك كبريات مزايا الأمة العربية، التي أعدها الله تعالى بها للبعثة المحمدية، والسيادة الدينية والمدنية، بعد أن طال العهد على مدنيتهم العادية، واستعمارهم للبلاد الكلدانية والبابلية، والبلاد الفينيقية والمصرية، التي تشهد لها سيادة لغتهم للغات السامية، وبقاياها في اللغة الهيروغلوفية، وبعد أن غلبت عليهم الأمية، وفشت فيهم خرافات الوثنية وعصبية الجاهلية.

وجملة مزاياهم أنهم كانوا أسلم فطرة على كون أمم الحضارة كانت أرقى منهم في كل فن وصناعة.

والإصلاح الإسلامي مبني على تقديم إصلاح الأنفس؛ باستقلال العقل والإرادة، وتهذيب الأخلاق، وحرية الوجدان، على إصلاح ما في الأرض من معدن ونبات وحيوان.

وبهذا كان الله تعالى يعد هذه الأمة للإصلاح العظيم، الذي جاء به محمد عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم.

اصطفاء كنانة قريش وبني هاشم:

أما اصطفاء الله لكنانة الشيخ الجليل، من سلالة نبيه الذبيح إسماعيل؛ فيفسره مـــا كانـــت تحفظه العرب من أخبار كرمه ونبله، حتى نقل الحافظ في "شرح الـــبخاري" أنهم كانوا يحجون إليه لعلمه وفضله، وكان على سنة جده إبراهيم الخليل؛ لا يأكل وحده.

ومـمـــا يؤثر عنه من الحكم الجليلة، كما روي فـــي "السيرة الحلبية": رب صـــورة تخـــالف المَخْبَرة، قد غرّت بجمالها، واختُبر قُبْحُ فعالها، فاحذر الصور، واطلب الخُبَر.

فهذا دليل على ما وصف به من العلم والحكمة.

وأما حج العرب إليه؛ فهو دليل على أنه كان مثابة التعارف، ومعقد رابطة الاجتماع والتآلف.

وإما اصطفاء الله تعالى لقريش الميامين الغر، وهم ذرية فِهْر بن مالك، وقيل: جده النضر؛ فقد كان بما آتاهم من المناقب العظام، ولا سيما بعد سكنى مكة، وخدمة المسجد الحرام، إذ كانوا أصرح ولد إسماعيل أنساباً، وأشرفهم أحساباً، وأعلاهم آداباً، وأفصحهم ألسنة، وهم الممهَّدون لجمع الكلمة.

فقـــد نقـــل أهل الســـير أن مالك بن النضـــر كان ملك العـــرب، وأن كعـــب بـــن لـــؤي كان يجمع قومه ويعظهم يوم الجمعة، وكانوا يسمونه يوم العروبة، وأنهم كانوا يجلونه في حياته، ثم أرَّخوا بموته بعد وفاته، وأن قصياً جمع شمـــل قبائل قريش بمكة، إذ كان هو الوارث لمن كانوا يتولونها من خزاعة، وقد تملك عليهم فَمَلَّكُوه؛ إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه، لا ينبغي له تغييره ولا لغيره من بعده.

قال ابن اسحاق: وهو الذي أنشأ الندوة، وجعل بابها إلى الكعبة، وقد أجمعت قريش على طاعته وحبه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء، ثم وُزِّعت المناصب بعده على الزعماء.

فجملة ما امتاز به آله ﷺ على سائر قومه: الأخلاق العلية، والفواضل العملية، والفضائل النفسية، وكانوا أبعد من سائر قريش عن الكبر والأثرة والأمور الحربية، ولذلك غُلبوا على الرياسة حتى بعد الإسلام، وحكمة ذلك ظاهرة لأولي الأحلام، فهو أنفى للشُّبَه عن رسالته، عليه أفضل الصلاة والسلام».. انتهى ملخصاً.

وعما اختصت به العرب من العلوم، يقول ابن فارس، رحمه الله تعالى، في "الصاحبي" (ص٧٦-٧٧) ما نصه:

«باب ذكر ما اختصَّت به العرب:

من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب: الإعراب ، الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدْرٌ من مصدر، ولا نعت من تأكيد.

وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالأخبار.

وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً؛ لأنّا نقول: "أزيْدٌ عندَكَ؟"، و"أزيْداً ضربت؟" فقد عمل الإعراب وليس هو من باب الخبر.

وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو.

قال أحمد بن فارس: وهذا كلام لا يُعَرَّج على مثله، وإنما تشبَّه القوم آنفاً بأهل الإسلام، فأخذوا من كتب علمائنا، وغيّروا بعض ألفاظها، ونسبوا ذلك إلى قوم ذوي أسماء منكرة؛ بتراجم بشعة، لا يكاد لسان ذي دين ينطق بها، وادَّعوا مع ذلك أن للقوم شعراً، وقد قرأناه، فوجدناه قليل الماء، نَزْر الحلاوة؛ غير مستقيم الوزن.

بلى؛ الشعر شعر العرب، ديوانهم، وحافظ مآثرهم، ومُقيِّد أحسابهم.

ثم للعرب العروض، التي هي ميزان الشعر، وبها يعرف صحيحه من سقيمه، ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه؛ علم أنه يربي على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء؛ من الأعداد، والخطوط والنقط، التي لا أعرف لها فائدة؛ غير أنها مع قلة فائدتها، تُرِقُّ الدين، وتنتج كل ما نعوذ بالله منه.

وللعرب حفظ الأنساب، وما يعلم أحد من الأمم عني بحفظ النسب عناية العرب.

قال الله جل ثناؤه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (الحجرات:١٣)، فهي آية ما عمل بمضمونها غيرهم.

ومما خص الله جل ثناؤه به العرب: طهارتهم، ونزاهتهم عن الأدناس التي استباحها غيرهم؛ من مخالطة ذوات المحارم، وهي مَنْقَبَة تعلو بجمالها كل مأثرة.

والحمد لله».. انتهى.

وهكذا...

وفي أعقاب خاتمة الرسالات لنبينا ورسولنا محمد بن عبد الله المُطَّلِبي الهاشمي ﷺ كانت دعوة التجديد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة (١٢٠٦هـ) رحمه الله، الذي نصب راية الدعوة إلى التوحيد، وإحياء ما اندرس من معالم الدين، والتي لا يزال ينعم بها من شاء الله من عباده في هذه الجزيرة وخارجها.

وفي الحاضر: هذه اليقظة الإسلامية التي نشاهدها اليوم؛ فإن هذه الدعوة المباركة تمثل الزاد النقي لهذه اليقظة على منهاج النبوة، سليمة من الأهواء والأوهام والانحرافات، مبرأة من مظاهر الشرك وتبعات الغلو.

وهكذا يمتد رواقها في العالم الإسلامي؛ لأنها تمثل الإسلام تماماً؛ كما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ.

وفي المستقبل: على مشارف الساعة، في أيام الفتنة الكبرى؛ فتنة المسيح الدجال؛ فإن الرجل المؤمن الذي تتحطم على يديه هذه الفتنة هو من أهل هذه الجزيرة؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتفق عليه.

وفي هذا إشارة وإيماء إلى أن كل فتنة عمياء صماء تجتاح بلاد الإسلام؛ تتحطَّم على صخرة هذه الجزيرة، وإذا كانت فتنة الدجال هي أعظم فتنة من لدن نوح عليه السلام إلى قيام الساعة، ويكون تحطيمها على يد رجل مؤمن من هذه الجزيرة؛ فإن كل فتنة دونها ستتحطم على يد أبناء هذه الجزيرة بإذن الله تعالى.

ضمانات لحماية هذه الخصائص(*)

كلما امتد رواق الإسلام على أرض؛ فَعُدَّها دار إسلام، ومهما تعددت الولايات -العارضة-؛ فالجميع هو المملكة الإسلامية.

وَعُدَّ عاصمتها جزيرة العرب؛ لما لها من خصائص في الشرع؛ تتميز بها، ولا يشاركها فيها غيرها.

وَعُدَّ جميع المسلمين - مهما تعددت ديارهم وولاياتهم- يُكَوِّنون الجامعة الإسلامية.

وَعُدَّ عرب الجزيرة فيها هم حفاظ هذه الرابطة الدينية للجامعة الإسلامية، وذلك لما لهم من خصال وخصائص شريفة لا يشاركهم فيها غيرهم.

وإذا كانت مدارج الشرف في الإسلام هي: الإسلام، التقوى، العلم، النسب، وكان أشرف الأنساب هو نسب العرب، وكان العرب هم مادة الإسلام؛ فَعُدَّ عرب الجزيرة هم صلب العرب، وهم مادة المسلمين؛ بعد أن صفاهم الله تعالى من نتن الجاهلية، وغليان العصبية القبلية، ودعاوى الجاهلية، فشرفهم بالإسلام، وحطم قيود الوثنية، والنعرات القومية... وخاطبهم وغيرَهُم: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران:٨٥)، وحفظ لهم ميزاتهم وسر اختيارهم حملة الرسالة الأولين.

إذا كان الحال كذلك؛ فإن دار الإسلام أياً كانت، وإن المسلمين أياً كانوا، وفي الطليعة هذه الجزيرة وعربها؛ الكل رأس مال، تجب المحافظة عليه، من الضياع

(*) عرض الشيخ حفظه الله لمجموعة من الضمانات لحماية خصائص الجزيرة العربية ما يمكنها من الامتداد والعطاء المستمر.. فإذا ضاق المجال عن أن نعرض لها فلا أقل من أن نفتح نوافذ للإطلالة عليها، الأمر الذي لا يغني عن الرجوع إلى الكتاب: (خصائص جزيرة العرب).

والفــرقة والانقســـام، وتجب تربيته وتنميته واستصلاح أحواله، وهذا أولى من مجــاهدة الكفــار لإدخالهم في الإسلام؛ لأن استصلاح أحوال المسلمين، وحفظ بيضتهم من باب المحافظة على رأس المال، (والمجاهدة) من باب طلب الربح.

وهــل يَطْلُــبُ الربحَ من يفتقد رأس ماله؟!.. وهل يُوصَلُ إلى (المجاهدة) والنصرة إلا بالمسلمين، الذين يمثلون الطراز الأول السائر على منهاج النبوة؟!

إن هــذه الجزيــرة من المنطقة الإسلامية «هي معقل الإسلام والمسلمين، وعاصــمته الخالدة، وقلب العالم الإسلامي؛ كمركز القلب في الجسم الإنساني، ورأس مال المسلمين، والخط الأخير في الدفاع عن الوجود الإسلامي»[1].

وهــذه الجزيــرة[2] «في العــالم الإسلامي [بمثابة] مركز القلب في الجسم الإنساني، الذي إذا عاش وقوي وأدى رسالته في الجهاز الجسمي والنظام الحيوي الصحي؛ عاش الجسم، وقوي، وإذا دب الوهن إلى هذا القلب، أو اعتل، وتخلى عن وظيفته ودوره؛ أسرع إليه الموت، واستولت عليه الأمراض والعلل، وعجز الأطباء الحاذقون عن إعادة الحياة إليه بالطرق الصناعية.

وقــد أشــار إلى هــذه الصلة الدقيقة العميقة بين القلب والجسد الحديث الصــحيح المشــهور الذي جاء فيه: «**أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[3].

وذلــك لأن الحجــاز مهــبط الوحي، ومبعث الإسلام، ومصدر الدعوة الإسلامية، ومركز الإسلام الدائم، وعاصمته الخالدة... فالرسالة الإسلامية مهما

---

(١) رسالة لأبي الحسن الندوي رحمه الله: "إلى أين تتجه الجزيرة العربية وإلى أي غاية تنتهي؟"

(٢) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب" للندوي، ص ٣-٥.

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

كانـــت عالمية آفاقية، لابد لها من مركز يعد مقياساً وميزاناً لعالميتها وواقعيتها، وأسوة وقدوة لجميع المدن والقرى والمجتمعات التي تؤمن بهذه الرسالة، وتحتضن هذه العقيدة والدعوة...

وقد عقد الله بين العرب والإسلام، ثم بين الحجاز والأمة الإسلامية، ثم بين الحرمين الشريفين وقلوب المسلمين للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر.

وقـــد حـــرص رســـول الله ﷺ - وكان في ذلك نبياً مُلْهَماً وحكيماً كل الحكمـــة- عـــلى بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس، بين جزيرة العرب والإسلام؛ فضـــلاً عـــن الحجـــاز والحرمين الشريفين، وحرص على سلامة هذا المركز، وهدوئه، وشدة تمسكه بهذا الدين، وعضه عليه بالنواجذ، لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشـــويش، وعن كل فوضى، وعن كل صراع عقائدي، أو مـــبدئي، فشرع لذلك أحكاماً بعيدة النتائج، واسعة المدى، وأوصى لذلك وصاية دقيقة حكيمة، وأخذ لذلك من أصحابه وأمته عهوداً ومواثيق.

وقـــد ذكرت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: « **لا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ**»[1]...

وأخـــذ بذلك الخلفاء الراشدون المهديون، فكانوا ينظرون دائماً إلى جزيرة العرب كمعقل للإسلام، ورأس مال الدعوة الإسلامية».. انتهى.

لذلـــك فإن المتعين على أهل هذه الجزيرة، وعلى من بسط الله يده عليهم وعلـــيها، المحافظـــة على هذه الميزات والخصائص الشرعية؛ ليظهر تميزها وتبقى الجزيرة وأهلها مصدر الإشعاع لنور الإسلام على العالم.

---

(١) أخرجه أحمد.

وليعلم أنه كلما قوي هذا النور؛ امتد هذا الإشعاع، وكلما ضعف وتضاءل في هذه الجزيرة وأهلها؛ تقاصر».. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم اعلم أن هذه الضمانات منها ما هو عام لأهل الإسلام؛ مهما كانت ديارهم، ومهما تعدد جنسهم، لكنها تتأكد في حق أهل هذه الجزيرة، ومنها ما هو خاص بها لموجب النص.. ثم منها ما هو متيسر إعماله، ومنها ما فيه نوع عسر ومشقة؛ لاختلال الأحوال، لكن نذكره معذرة أمام الله وأمام التاريخ والأجيال المتعاقبة، والله المستعان.

وإليك بيان بعضٍ منها:

* كما تكون المحافظة على الحدود المكانية لأي إقليم ولائي؛ فإن المحافظة على الحدود الشرعية والخصائص المرعية وصيانتها لهذه الجزيرة واجبة كذلك على من بسط الله يده عليها.

وعليه؛ فإن النتيجة من المحافظة على الحدود الإقليمية الولائية معاقبة من ينتهكها، فكذلك من باب أولى تجب معاقبة من ينال من حدودها وخصائصها وحرماتها الشرعية بما يلاقي انتهاكه شرعاً.

*سلطان الحاكمية فيها لا يجوز أن يكون لغير دولة التوحيد، وراية التوحيد... .

واعلم أن أي شقاء في الأمة أو فساد هو بسبب ما يُصَبُّ على الأمة من تحلل وانحلال في إقامة الدين بين العباد.

* «اتخاذ الحياة الإسلامية؛ الحياة التي يرضاها الله ويُنْصر عليها، والحرص على إزالة جميع المنكرات، وأسباب السخط، ودواعي الخذلان والفشل؛ في المجال الإداري، والأخلاق الاجتماعية والفردية، وتتبعها تتبعاً دقيقاً، والحد من

الثراء الفاحش، وتكدسه في عدد محدود وطبقة معينة، وتقييد التجارة وحركة الاستيراد الحرة على حساب أخلاق الشعب، وفي مصلحة عدد محدود جداً وطبقة معينة؛ فإن كل ذلك مما يمهد الأرض ويفتح الطريق (للمذاهب) المتطرفة... والحيلولة بقدر الإمكان، وإلى أقصى الحدود؛ فإن ذلك مما يجحف بالشعب، ويجني على الأخلاق، ويجعل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شبه مستحيل، وقد نبه نابغة العرب وفيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون على ضرورة وسوء أثره في الحياة»[١].. (انتهى ملخصاً).

* إخضاع كل ما يجري ويصدر على أرض هذه الجزيرة؛ من أنظمة، وأوامر، وتعليمات، وقوانين؛ لمقاصد الإسلام، وللمقاصد التي بنيت لها هذه الكعبة المشرفة، واختيرت لها هذه الأرض؛ لتكون مركزاً للإسلام، ومصدر إشعاع عالمياً، وللحكمة التي نبه عليها القرآن بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج:٢٥)[٢].

* إزالة التناقض بين إسلامية هذه الديار القائمة منذ فجر الرسالة وإلى يومنا هذا وبين كل ما ينافسها في «مجال الإعلام، والتربية، والمظاهر الاجتماعية، واتجاهات الشعب؛ من اندفاع مشهور إلى الترفيه، والتسلية، والأغاني، والملاهي، والقصص المثيرة، والبرامج المستوردة الرقيعة، التي أفلت معها الزمام من يد المربين والآباء والأساتذة والعلماء، والتي لا يحتفظ معها أي شعب بالبقية الباقية من الشعور الديني والحصانة الخُلقية، ولا يستعد للطوارئ والمفاجآت، ولا يتحمل أقل صدمة، أو خطر من الخارج»[٣].

---

(١) الندوي، ص٤٥.

(٢)الندوي، ص٤٤.

(٣) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب"، ص ٤٤-٤٥.

* وإذا كانت الجزيرة، وبخاصة قلبها، تثير حساسية المسلمين عند أي هجمة شرسة عليها؛ من استيلاء استعماري، أو فرض منهج عقدي، أو سلوكي علني، فإن العدا والمبطنين لها؛ سلكوا مسلك الوأد الخفي لعصب الحياة في العالم الإسلامي على أرض الجزيرة: الإسلام صافياً على منهاج النبوة، وذلك بتسرب موجات الغزو؛ تحت شعار الحضارة، وقناع العلم، وتكثيف اجتماعات ولقاءات تكسر حاجز النفرة من الأهواء المضلة، وتذوِّب صفاء الحياة، وتكدر صفوها، وتقودها إلى تراقي الاحتضار.

وعليه؛ فيجب أن يُحسب لهذا كلٌ حساب، فليرفض كلُ سابلة تؤدي إلى هذا المضمار...

* جزيرة العرب هي بارقة الأمل للمسلمين في نشر عقيدة التوحيد؛ لأنها موئل جماعة المسلمين الأُوَل، وهي السور الحافظ حول الحرمين الشريفين، فينبغي أن تكون كذلك أبداً، فلا يسمح فيها بحال بقيام أي نشاط عقدي أو دعوي – مهما كان – تحت مظلة الإسلام؛ مخالفاً منهاج النبوة الذي قامت به جماعة المسلمين الأولى: صحابة رسول الله ﷺ وجدده وأعلى منارة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى.

فالجماعة واحدة: جماعة المسلمين.. تحت علم التوحيد.. على منهاج النبوة.

لا تتوازعهم الفرق والأهواء، ولا الجماعات والأحزاب.

وإن قبول أي دعوة تحت مظلة الإسلام تخالف ذلك هي وسيلة إجهاز على دعوة التوحيد، وتفتيت لجماعة المسلمين، وإسقاط لامتياز الدعوة، وسقوط لجماعتها، وكسر لحاجز النفرة من البدع والمبتدعين، والفسق والفاسقين.

والجماعات إن استشرى تعدُّدُها في الجزيرة؛ فهو خطر داهم؛ يهدد واقعها، ويهـــدم مستقبلها، ويُسلِّم بيدها ملفَّ الاستعمار لها، وبه تكون مُجَمَّعَ صراع فكري وعقدي وسلوكي؛ ينشأ عن ذلك «إسلام إقليمي...»[1].

ولما كانت الجزيرة والحجاز معقل الإسلام، ومبدؤه، ومنتهاه، والموئل الذي يـــأوي إلـــيه الإسلام والمسلمون في ساعات عصيبة، وأزمات مختلفة، وفي آخر الـــزمان، وقد جاء في بعض الأحاديث ما يدل على ذلك، فعن عمرو بن عوف قـــال: قال رسول الله ﷺ:«**إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ**»[2].

وعـــن عمر عن النبي ﷺ؛ قال: « **إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَـــيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا**»[3].

وعـــن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَـــةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا**»[4].

ولمـــا كانـــت هـــذه الجزيرة، وهذه البقاع المقدسة، مصدر الإشعاع العالمي الإسلامي، ومقياس قوة الإسلام وسلطانه؛ كان علماء المسلمين وقادتهم – في كل زمـــان وبلـــد– شـــديدي الحساسية لما يقع فيها من حوادث، ولما يجري فيها من تيارات، دقيقي الحساب لمدى تمسكها بالتعاليم والآداب الإسلامية، ومحافظتها على الـــروح الدينـــية والعاطفـــة الإســـلامية، كبيري الغَيْرة عليها وعلى قيادتها للعالم

(١) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب"، ص٨-١٠.
(٢) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) أخرجه البخاري.

الإسلامي، وقد تجلى ذلك في كتابات علماء الإسلام، وأدبهم، وشعرهم؛ في أزمنة مختلفة، وقد سار قول أشهر شعراء إيران وأدبائها: الشيخ مُصْلح الدين سعدي الشيرازي (المتوفي ٦٩١هـ) مسير المثل: «إذا بدأت طلائع الفساد والانحرافات من فناء الكعبة، ورحاب البيت الحرام؛ فعلى الإسلام والمسلمين السلام».

وقد فزع الشاعر الفارسي، المسمى بأبي المجد مجدود الغَزْنَوي، المعروف بالحكيم السنَّائيِّ، (المتوفي ٥٤٦هـ)؛ لحوادث جرت في عصره، ولتسرب نفوذ بعض القوى المعادية للإسلام إلى جزيرة العرب، وإلى البقاع المقدسة، ومركز الإسلام، فأشار إلى ذلك في قصيدة له، وحسب له كل حساب، وحذر العالم الإسلامي من سوء عاقبته، وأثار غيرة أهل الحجاز وأبناء الجزيرة».. انتهى.

* وعليه؛ فيجب تعميق الرابطة الدينية، ثم يجب جَذْمُ جذور العصبية لغير الكتاب والسنة، مهما ظهرت، في أي مِسْلاخ، فهي عصبيات جاهلية، مُنْتِنَةٌ، تثير الشغب، وتشعل الفتن، وتضرم المشاكل، وتزرع الإحن.

فواجبٌ محاصرتها، وإطفاؤها، وتحطيم جمعها، سواء أكانت عصبية قبلية، أم غيرها، من تلكم الموجات الكاسحة، التي تبذل فيها جهود الشياطين، حاملين جراثيم الهرج؛ ركضاً وراء السراب؛ لنقلة شباب الأمة إلى آخر أشواط التخلف، فيكونون هباءً منثوراً، لا يقتلون صيداً، ولا ينكؤون عدواً.

إنها قوة ما إن تفور إلا وتغور، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

* يجب تعميق الوحدة الأخلاقية في قالب الإسلام لا غير، فواجب وقف مرحلة الإغارة على أخلاقيات هذه الجزيرة الإسلامية، والانتقال منها إلى السلوكيات الغثائية الوافدة في مجالات الحياة كافة، وتحت إرخاء العنان للتَّرفُّه والمد الحضاري الغثائي الغربي، والتهام اللذات، والتسابق إلى عوامل الاسترخاء

والتمـــيع، والتفكير المترهل، والنهم في جلب الكماليات، والتسابق إلى مظاهر الـــبذخ، حـــتى في اللباس، والمواقيت ، والمقاييس، والموازين... إلى آخر شهوة التشبه بأعداء الله الكافرين.

وصدق النبيﷺ: « **لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ** »[1].

ومـــا هـــذا إلا لأن التشـــبه يفعل الأفاعيل، فيفقد النفوس والبلاد حرمتها ومكانتها، ويقطع صلتها عن الماضي، ويشبه إلى حد بعيد (الميكروبات)، فتلك تمرض القلوب، وهذه تمرض الأبدان.

وإذا كانت الشريعة تنهى عن هذا عموم المسلمين؛ فإن النهي يتأكد في حق أهل هذه الجزيرة.

وواجـــب – والله- بجانـــب وقف هذا المد عنهم: ترميم ما فسد في هذه العصابة الكريمة، وما داخلها من أخلاق وافدة غريبة عليها في دينها وعنصرها.

ولابد من دعوة جهيرة؛ لصد هذه العوادي والوفادات المفسدة لأخلاقيات الـــبلاد، وكـــف الخطر المحيط بها، وإنشاء أهلها خلقاً آخر؛ على سَنَن الفطرة، يعزقون بهديهم وفعالهم تلك الحملات الغثائية، وما ذلك على الله بعزيز.

* التميز في عامة الهَدْي؛ عملاً، وقدوة، ودعوة، على رسم الكتاب والسنة، بـــلا مضاهاة ولا مشابهة، ولا تغرب؛ فإن الشريعة تنهى عن المضاهاة والتشبه بالمشـــركين والمـــنافقين، وبالشـــياطين، وبالأعاجم، وبالمبتدعة وأهل الأهواء،

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

وبالنساء والمخنثين.. ونحو ذلك من وجوه الانحراف القاضية على تميز الشخصية الإسلامية، بأي نوع من أنواع الانحراف...

وإن الشريعة تنهى عن التعرب؛ بمعنى: الرجوع إلى البادية بعد الهاجرة، وبمعنى مشابهة الأعراب فيما يخالف هدي الإسلام، ولو بالألفاظ؛ كلفظ: (العَتَمة):

«... لا تَغْلِبَنَّكُمُ الأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلاتِكُمْ العتمة؛ فإنما هي العشاء»[1].

إن الشريعة كما تزدحم نصوصها وقواعدها في رفض هذه العوامل المنحرفة؛ فإنها ترسم للمسلم هدياً سوياً يرفض التبعية والمحاكاة والانحراف، ودعت إلى تعريب الأمة؛ فيما أقره الإسلام من فاضل أخلاق العرب، وصفاتهم، وسماتهم، وذلك من طرق شتى:

أ- تعريب لسان الأمة من رطانة الأعاجم إلى شعار الإسلام، ولغة القرآن؛ لسان العرب؛ «لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله»[2].

ب- تعريب أخلاقها، وذلك بالمشابهة للسابقين من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان.

وفي هذا نظر إلى فقه السلف، حيث فضلوا كثيراً من غير العرب على العرب؛ لتعريب أخلاقهم، ومشابهتها بأخلاق السلف الصالح.

قال الأصمعي رحمه الله تعالى[3]: «عجم أصبهان قريش العجم».

---

(١) رواه مسلم (٦٤٤)، وأبو داوود (٤٩٨٤)، والنسائي (١/٢٧٠)، وفي رواية لمسلم: **(لا تَغْلِبَنَّكُمْ الأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلاتِكُمْ ألا إِنَّهَا الْعِشَاءُ وَهُمْ يُعْتِمُونَ بِالإِبِلِ)**.

(٢) "اقتضاء الصراط المستقيم"، ص٢٠٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٤.

ولقـــد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، آثاراً مهمة على هذا المـــنحى؛ قال: «إن الأمة مجمعة على هذه القاعدة، وهي: فضل طريقة العرب السابقين، وأن الفاضل من تبعهم»...

* ويجـــب أن يكـــون دور حـــراس الشريعة في هذه الجزيرة من منجزات الحضارة الحديثة؛ في الطب، والهندسة، والاقتصاد.. هو دور الأصالة والتجديد، لا دور التبعية الماسخة، والوأد الخفي - بل والعلني- لمقومات البلاد الأساسية: الإسلام، وخوض عجلة الحياة في الأوحال.

وعلـــيه؛ فبعث روح الاكتساب، والعمل، والجد، والتحصيل، والتخصص في هذه العلوم؛ من أهم المهمات لبناء الحياة في هذه الجزيرة على يد أبنائها، فهم أسلم لها، وأصلح لحالها من الدخلاء عليها.

* حَمْـــلُ أهلها على الحماس الديني، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعميق التقوى، والشوق إلى الترقي؛ لحماية الشريعة.

ومن الأولويات: شكر هذه النعم ببســـط لسان التذكير، وقلم التـــدوين؛ بمـــا أفاء الله عليهم وأنعم من هذه الخصائص، وأن من شكرها المحافظة عليها، وحفظهـــا، وإعمال الحياة في قالبها، وأن أي تشويش عليها خدش لها، ونقص لشكرها، وبالتالي غياب لمزية القدوة.

ومن لازِمِ ذلك الإجهازُ على أي عادة أعجمية، أو عامل حضاري غثائي، وأن يبقى حق الامتياز في هذه الجزيرة إسلامياً محضاً، يرفض كل تقليد دامس، ولا يقبل يد أي لامس.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

إبصار المستقبل

الدكتور الشيخ جاسم مهلهل الياسين(*)

إعادة البعث الحضاري يتطلب: ضرورة استنبات الكوادر الفذة من نوابغ الأمة وقوادها؛ وتكوين مجمع لعلماء الجزيرة يبحث أوضاعها، ويخطط لمستقبلها؛ وتنقيح المناهج الشرعية، بحيث تدرس فقه الشريعة والواقع معاً؛ واستلهام الموروث الحضاري بعد فرزه جيداً؛ وتجاوز النظرة الإقليمية الضيقة، إلى نظرة أممية تهتم بقضايا الأمة وإشكالاتها، وترتيب أولوياتها.

مقدمة:

ينبني هذا المحور **"إبصار المستقبل في الجزيرة العربية"** على المحورين السابقين وهما:

١-استشراف الماضي (التجربة الحضارية التاريخية).

٢-الإمكانات المذخورة.

كما أنه يتميز بطبيعة خاصة تنبع من موضوعه الاستشرافي، فالنتائج فيه ليست حتمية، وإنما هي نسبية؛ وذلك لأنه يبحث في مستقبل مجهول، نسعى

(*) باحث.. أستاذ الثقافة الإسلامية، في كلية الشريعة، جامعة الكويت (دولة الكويت).

لاستطراقه بوسائل علمية وبراهين مادية وقبلها براهين سماوية من الرسالة الخالدة، رسالة الإسلام.

وقد حرصت على استعراض ومضات موضوعية نحو الانطلاقة إلى الأمام وتحقيق مشروع البعث الحضاري المأمول أكثر مني طارحاً لسيناريوهات المستقبل.

لأن توقع السيناريوهات من وجهة نظري لا يجدي الخلاف حوله بقدر ما يجدي كيفية التغلب على عقبات الواقع ومتوقعات المستقبل، من خلال طرح الخطوط العريضة والواقعية للخروج من المأزق الحضاري المتأزم، ولعلاج مواطن الخلل ودفع أسباب القصور وعوامل الإعاقة.

وهذا ما حاولت جاهداً أن أركز الحديث عنه في إيجاز وموضوعية معتمداً في ذلك على المنهج الاستقرائي، إضافة إلى تأسيسات المنهج الوضعي الذي يفضي إلى بعد تحليلي في صورته التجزيئية لاستخبار المواطن ومعرفة البنى الرئيسة، وتركيبي لابتناء رؤية كلية ننفذ منها إلى التقييم ومن ثم طرح الحلول.

وقد جاءت عناصر المعالجة في طرحين:

الطرح الأول "إبصار المستقبل (ركائز وثوابت)":

١-تمهيد عن استشراف المستقبل وضروراته.

٢-ماهية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية (دول مجلس التعاون).

٣-ركائز عملية الإبصار المستقبلي.

٤-خطوط عريضة في سبيل إبصار المستقبل للجزيرة العربية.

ثم جاء **الطرح الثاني عن "ومضات في سبيل البعث الحضاري للجزيرة العربية"**، وذلك في سبع ومضات كالتالي:

الومضـــة الأولى: تــزاوج العقل والنقل في سبيل الانطلاق لتحقيق البعث الحضاري.

الومضة الثانية: استرجاع الثقة في ابتناء الإيمان للحضارة.

الومضة الثالثة: الصورة الحضارية في الحكم بالشريعة الإسلامية.

الومضة الرابعة: ضرورة الانفتاح على الآخرين.

الومضة الخامسة: معاً نحو أسلمة التكنولوجيا.

الومضة السادسة: عقد المصالحة بين السلطة والمجتمع.

الومضة السابعة: النظرية الإسلامية التربوية.

الطرح الأول

إبصار المستقبل (ركائز وثوابت)

١- تمهيد عن استشراف المستقبل:

الحـــركة التطلعية في الإنسان نحو الأفضل والأحسن تكاد تكون مرتكزة في طبيعـــته، لا تفارقـــه، فمـــا من إنسان على وجه الأرض إلا وله آمال يريد أن يحققها، وأحلام يرجو أن يراها واقعاً، وكل فرد إنما يتطلع للمستقبل من خلال نظرته التي ينظر بها فـــي الحياة، تـــلك التي تصطبغ بالصبغة الفكرية العقـــلية، أو الشعورية الوجدانية، أو الحسية المادية، ولذلك تختلف آمال الناس وتطلعاهم لأنفســـهم ولأمتهم، لكن هذه الآمال لا تنعدم ولا تتوقف إلا إذا توقفت الحياة ذاهًا، بل إننا نقول: إن هذه الطبيعة ليست قاصرة على الإنسان، بل تتعداه إلى بعـــض الكائنات الحية الأخرى، فالنمل يدخر في فصول السنة ما يقتات به في فصل الشتاء، حين تنعدم حركته، الأمر إذن أوسع مما يظن البعض.

وتفاوت الناس في تطلعاهم لمستقبلهم مرده إلى وجود بعض الترسبات التي رانت على بعض البيئات وظهرت في العادات والتقاليد، واتخذت لنفسها صوراً متعددة من الاتكالية والتراخي في العمل والكسل، وضعف الهمة، وفتور العزيمة، وغـــير ذلك من مظاهر الضعف التي تجعل الإنسان ذاهلاً عن حاضره وما يدور حوله، فضلاً عن ذهوله الجزئي أو الكلي عن المستقبل وما يدبر فيه.

والإسلام منذ مجيئه يوجه الناس إلى الاهتمام بالمستقبل اهتماماً كاملاً لا يقل عـــن اهـــتمامه بالحاضر، بل قد يزيد.. إن الدين قد ربط اليوم الآخر – وهو

مستقبل وراء هذه الحياة الدنيا- بالإيمان بالله، فقد جاء في كتاب الله: ﴿...وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ...﴾ (البقرة:١٧٧)، ومعنى ذلك أن المسلم يهتم بالمستقبل ابتداءً من لحظته الحاضرة إلى يوم القيامة، وأنه مستعد لهذا المستقبل دائماً، فهو في حياته الآنية يخطط لغده في ضوء معرفته بما يدور حوله من الأعداء المحيطين، والأصدقاء القريبين، والإمكانات المتاحة، والقوة الممكنة، لا تستخفه الأفراح والانتصارات، ولا تستذله الأتراح والانكسارات، بل هو -دائماً- متطلع للأفضل، ساع نحو الأحسن، مشمر عن ساقه في سبيل الصلاح والإصلاح له ولأمته وللبشر أجمعين.

والمسلم ينظر للمستقبل بعين تفاؤلية مع شدة الظلام، وكثرة المنغصات، وانتشار المصائب، وهذا أمر بينه الشرع عندما طالب المسلمين بحسن الظن بالله تعالى، والنبي ﷺ كان يُعجبه أن يسمع في كل صباح "يا نجيح"، واليُسر يأتي بعد العُسر، والحق دائم والباطل طارئ!! بهذه الروح التفاؤلية، والمعرفة النبوية الكريمة والاستقراء لتاريخ الصراع البشري بين الحق والباطل؛ كان من الممكن الوصول إلى النتائج لصالح الحق الإلهي.

وهناك صوراً من الاستشراف المستقبلي، المبني على المعرفة النبوية والاستقراء للسنن الكونية والشرعية، يقول النبي ﷺ لأم حرام بنت ملحان في المدينة، والقبائل العربية وقريش متربصين بهم: « **نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ** »[1]، ويقول ﷺ للآخر الذي جاء شاكياً شدة البلاء وهم في مكة يُعذبون: «**وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا**

(1) أخرجه البخاري.

الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِه...»[1].

صحيح أن العلم النبوي الغيبي له أثره في تحديد الزمان والمكان إلا أن مُطلق الانتصار مُهيأ لكل من يتعرف على سنن الحياة الكونية والبشرية؛ قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ (المجادلة:٢١)، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ (النور:٥٥)، وهكذا من يعرف الماضي والحاضر يستطيع توقع المستقبل!!

وهنا نقول: لا بد من توقع المستقبل وفهم آثار التغيير الكامنة بعيدة المدى، سواء كانت إيجابية أو سلبية قبل وقوعها، وقد جاء الإسلام ليقلع من قاموس العرب «اليأس إحدى الراحتين» وبشائر الخير ظهرت بدايات الصحوة الإسلامية في أواخر الألفية الثانية وستنمو وتترعرع وتكبر في الألفية الثالثة، قال أحدهم للشيخ: «لقد انتشرت البدع»، فقال: «قد أذن الله بزوالها».

والناظر يجد أنه لا تعارض بين الشريعة الإسلامية وأدوات الاستشراف، فعلم الاستشراف لا يقول بالحتمية للأحداث المتوقعة، فقد لا تقع كلياً أو جزئياً، أما وقوع المستقبل الحتمي فهو ما أخبرنا القرآن والسنة أنه سيقع في المستقبل: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا...**»[2]، وعندنا في مفاهيمنا الرجل "الملهم"

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه مسلم.

الذي يعرف كيف يتعامل مع الماضي والحاضر لرسم المستقبل، مثل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وسيرة رسول الله ﷺ تدل على اهتمامه بالمستقبل، فقد كانت بيعتا العقبة خطوتين هامتين في رسم مستقبل الإسلام، وكان إخبار سراقة رضي الله عنه بأن له سواري كسرى استشرافاً منه لمستقبل الدعوة، وكانت الغزوات والفتوح تثبيتاً للحاضر ودعماً للمستقبل، وغير ذلك من الحوادث الكثيرة التي تدل على الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له، والعمل على أن تكون كفة المسلمين فيه راجحة لا مرجوحة ومؤثرة لا متأثرة. وكانت المسيرة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومن بعدهم تسير على نفس الوتيرة وإلا ما امتد الإسلام شرقاً وغرباً، وثبتت أركانه، وأقام بناءه في الجزيرة وغيرها من البلاد على أسس من العدالة التي حقق الناس في ظلها الرخاء والأمن.

عقبات وتحديات:

والمسلمون اليوم مطالبون باستشراف المستقبل، واستكناه ما يطويه في جوانبه ويحمله في حناياه بالنسبة لدينهم وبالنسبة لأرضهم وبلادهم، وثرواتهم وممتلكاتهم، حيث تواجههم تحديات كثيرة، بل قل متكاثرة تحيط بهم من كل حدب وصوب على كافة الأصعدة.

ومنها في الجانب الاقتصادي الاستنزاف المستمر من الجانب الغربي لثروات العالم العربي ومقدراته، ووضع العراقيل أمام ظهور قوى اقتصادية جديدة، وتفشي البطالة، وإسقاط المقاطعة أو محاولة ذلك، وإغلاق الجمارك، وفتح الباب على مصراعيه أمام السلع والبضائع الأجنبية، التي تأتي ومعها بعض القيم والتصورات التي تهدد الهوية الإسلامية في كثير من البلاد، ومع تهديد الهوية

يكـــون الـــتحدي الاجتماعي المتمثل في تفكك الأسرة، والإكثار من حالات الطـــلاق، وانتشار المخدرات، وتواري القيم، ويضاف إلى هذه الجوانب كلها الجانـــب الثقافي الذي يهدف إلى الغزو الفكري وإلى إحلال القيم والتصورات الغربية محل القيم والتصورات الإسلامية.

وإذا كانـــت هذه التحديات تواجه المسلمين فـــي حياتهم، وتخترق عليهم ديارهم وبلادهم، فإن هناك تحدياً أكبر موجه نحو الإسلام ذاته، إذ أن المحاولات للنيل من الدين، كانت في الماضي تقتصر على فروع الدين، وتركز على مهاجمة اللغة العربية (وعاء الدين) بالسخرية من القائمين على أمرها والحط من قيمتهم، ومهاجمة مفرداتها، وطريقة كتابتها، وإبدالها باللغات الأجنبية لمنافستها، والتغلب عليها في ديارها وبين مثقفيها.

كـــان هـــذا في الماضـــي وما يزال باقياً مع اتساع دائرة التحدي للدين قبل سنوات خلت،حيث هوجمت أعمدة الدين ذاتها ممثلة في الهجوم على الرسول ﷺ وعـــلى القـــرآن بالتأويل والتحريف، بل وصل الأمر إلى إطلاق ما لا يليق من الألفاظ على الله سبحانه.

إن الهجوم على الإسلام يصحبه ويسبقه ويتبعه هجوم على الإسلاميين لمنع صوتهم، وإعلان صمتهم، ورضوخهم للأمر الواقع الذي انبطحت فيه الأمة أمام المد اليهودي الصهيوني، الذي لا يقبل أن يرى رأساً يرتفع، أو معارضاً يرفض، أو إنساناً يقول لا للتطبيع وما يتبعه من ضياع للمقدسات.

أمـــام هـــذه التحديات وغيرها مما يواجه الإسلام والمسلمين كيف يكون استشراف المستقبل؟ وكيف يمكن الخروج من هذا النفق المظلم؟ وكيف نتغلب

عـــلى المشـــكلات والـــتحديات؟ في ضوء محور بحثنا هذا عن إبصار المستقبل للاطلاع بالدور الرسالي.

٢- ماهية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية:

أ- بين الإبصار والاستشراف:

لا نجد فارقاً بين التعبير بإبصار المستقبل أو استشراف المستقبل، إذ الإبصار فيه أعمال للبصر والبصيرة في تلمس خطوط المستقبل المجهول من خلال استقراء واستبصار الماضي وتفحص الواقع وتلمس خيوط وخطوط نمو الحدث وتكوينه، وأســـبابه ومســـبباته والاستشراف من طلب الشرف، وهو المكان العالي، قال الشاعر الجاهلي:

وبالشـــرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان

وقـــد كانت العرب قديماً تصعد عالي المكان لاستبصار ما حوله واستنتاج مـــا قد يكون .. ومن المعلوم أن النظر من المكان العالي هو غالباً نظر إحاطة، ويـــورث رؤيـــة صادقة للمكان عن حق، ويعطي توقعات لما يمكن أن يكون، وعليه فلا مشاحة في الاصطلاح: إبصار أو استشراف.

ب- ماهية الإبصار المستقبلي:

أما عن ماهية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية، فهي عملية نقد بناء لواقع الجزيـــرة ومـــراجعة فاحصـــة لتجربتها الماضية في حمل الرسالة الإسلامية قيماً وحضارة، ديناً ودولة، دنيا وآخرة.. سعياً إلى استعادة دورها وبعث ريادتها في حمـــل مشـــعل الحضارة الإسلامية من جديد إلى عالم يسوده تخبط حضاري في وسط بحر التقدم المادي الغامر.

٣- ركائز عملية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية:

أجـد عمليـة الإبصار بصورتها السابقة تنطلق عن ركيزتين رئيستين يمكن تحديدهما على النحو التالي:

الركيزة الأولى: الوعي بالذات

وهذه الركيزة الأولى هي المنطلق الرئيس لعملية الإبصار؛ لأن الوعي بالذات هو أول خطوات الانطلاق نحو الأمام، فَمَنْ جهل نفسه حريٌ به أن يجهل غيره، ويتخبط في تبؤ مكانة سامية أمام مَنْ حوله.

والوعـي بالذات يقصد به هنا: حالة التقييم الصحيح لواقع الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون) على كافة الأصعدة السـياسية والاقتصادية والاجتماعية، بمـا يمكن أن يطلق عليه توصيف الواقع الحضاري الكائن، إضافة إلى استرجاع بعـث الموروث الحضاري وتفحصه وقراءته برؤية حداثية حضارية ترتكز على أخـذ عناصر القوة واستجلائها واستخراجها، ونبذ عناصر السقوط والتهافت، بعد التعرف عليها ورصد أسبابها ومسبباتها وآثارها وسيرورتها في نخر الحضارة الإسلامية وانحرافها وانحسارها عن أدوارها الصحيحة.

الركيزة الثانية: الوعي بالواقع المعاصر (بالآخر):

وتلـك ركـيزة أخـرى تمثل الجناح الثاني بعد جناح الركيزة الأولى إزاء الانطلاق لعملية الإبصار المطلوبة.. والوعي هنا ينبغي أن يكون عاماً مع درجة تخصـص في صعيد المجال الإنساني، لأنه يعد المدخل الرئيس للحاجة الإنسانية الحضارية المتأزمة للدور الرسالي.

وهذا يستدعي منا دراسة استغرابية، على وزن الدراسات الاستشراقية التي سـبرت أعماق تراثنا، واسـتقرأت حالنا المعاصر فأحسـنت البناء على ذلك

إمـــا بسيطرة علينا في صورة الاستعمار أو بتوجيه منهجي لأفكارنا من خلال موجات الاستلاب الفكري والغزو الثقافي.

ولـــيس بخـــاف عـــلى العارفين دور الاستشراق في حياتنا الفكرية وأزمتنا الحضارية المعاصرة.

أهمية الركيزتين السابقتين:

وعندي أن هاتين الركيزتين السابقتين تمثلان معاً جناحي الطير والتحليق إزاء إبصـــار المســـتقبل، واستشـــراف القـــابل من الزمان، وتحقيق الموعود من ذلك الاستشـــراف.. ولا أراني بعـــيداً عن الصواب إن قلت: إن أي خلل في إحدى هـــاتين الركـــيزتين ســـيترتب عليه لا محالة خلل في التقييم ثم خلل في الرؤية، وبالتالي قصور في الاستشراف وتقاصر عن إدراك آفاق المستقبل.

وانظر عن أهمية الركيزتين السابقتين الشكل الآتي لمعرفة موقعهما من عملية الإبصار المستقبلي.

٤- خطوط عريضة في إبصار المستقبل للجزيرة العربية:

تأسيســـاً عـــلى تلك المقدمة السابقة، أستطيع أن أخلص إلى طرح النقاط الآتية، عساها توضح الرؤية في عملية الإبصار المستقبلي المرومة للجزيرة العربية.

وهـــذه الـــنقاط ليست رسماً لسيناريو المستقبل بقدر ما هي علامات على الطريق في سبيل رسم ذلك المستقبل:-

أولاً: لا تزال الجزيرة العربية هي قبلة العالم الإسلامي في كافة الأقطار والأمصار:

وقـــد يعظم هذا الدور الروحي مستقبلاً في ظل مشروع النهوض الحضاري المـــروم للاطلاع بالدور الرسالي، لتكون قبلة العالم الروحية بتجربتها الحضارية المـــتوقع تحقـــيقها، بحيث تغدو أرواح وضمائر الإنسانية من مسلمين وغيرهم

لتحقيق نبوءة القرآن عن نبوة محمد ﷺ ورسالته: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ولتحقيق بشارة القرآن عن دين الإسلام: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (التوبة:٣٣).

ثانياً: زيادة الهجوم والكيد الفكري المباشر وغير المباشر على الجزيرة العربية في ظل المتغيرات الدولية المعاصرة:-

ولا تخفى وطأة الحملة الصهيونية العالمية على الإسلام، باسم الإرهاب، للسيطرة على فلسطين ومقدسات المسلمين بها، ولفض المسلمين عن الاجتماع والالتقاء في أعظم ملتقى بشري في الكون وذلك في موسم الحج.

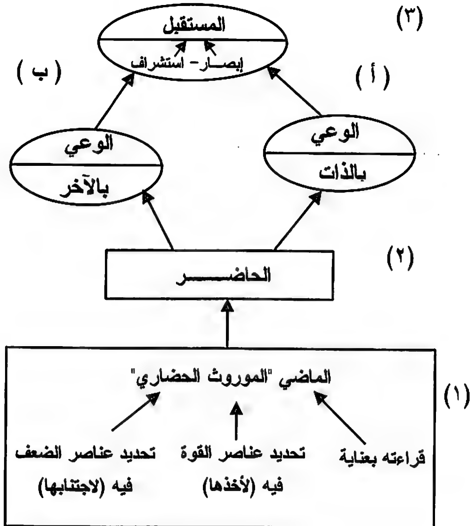
وهذا الدور الصهيوني مرشح للازدياد إن لم تتم مواجهته إيجابياً، أي بالرد المباشر وكشف زيف تلك المخططات وفضحها ونقضها كلما أبرمت، والسعي لتكوين «لوبي» إسلامي على المستوى العالمي لبيان حقيقة الإسلام وقيمه الحضارية التي تحتاج إليها الإنسانية جمعاء، وأنها دين مكارم الأخلاق، ورسالته الأولى كانت لإتمامها.

ثالثاً: توحد الرؤى وتعاضدها، والتخطيط العلمي العقلي الإيماني الصحيح، كفيل بعودة الجزيرة إلى ريادتها الروحية والحضارية على مستوى العالم:-

ويتحقق ذلك بالقدرة على توظيف المكانة الدينية للمقدسات في أرض الجزيرة، وتوجيه الموارد المالية الضخمة في الجزيرة في طرح البدائل الإسلامية، وأسلمة التكنولوجية لتصبح في خير الإنسانية.

إضافة إلى تحقيق الانسجام المجتمعي في الجزيرة، وتوفير خطوط عريضة للتفاهم بين السلطة والمجتمع.. إلى غير ذلك من محاور سيتم عرضها.

كل هذا كفيل بتحقيق الغاية المنشودة وبعث الدور الحضاري الريادي للجزيرة العربية.



شكل يبين منظومة إبصار واستشراف

مستقبل الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون)

الطرح الثاني
ومضات في سبيل البعث الحضاري للجزيرة العربية

مقدمة:

استكمالاً لما طرحناه سابقاً، فقد ارتأيت أن أذكر هذه الومضات التي تمثل هادياً نحو الإبصار النظري الصحيح والعمل الواقعي في سبيل استعادة الدور الحضاري للجزيرة للاطلاع بمسؤولية سد الحاجة الإنسانية للبعد الروحي المفقود في حضارتها المادية المفرغة في المادة واللذة والمحسوس على حساب الروح والضمير.

وقد ركزت في ذكر ومضات الخروج من المأزق الحضاري الحالي سعياً لتحقيق القياد الحضاري المنشود في الجزيرة العربية لإلحاق الرحمة بالعالمين، من خلال إحياء الدور الحضاري الرائد لأمة الرسالة الإسلامية.

وقد جاءت هذه الومضات في الآتي:

أولاً: تزاوج العقل والنقل في سبيل الانطلاق لتحقيق البعث الحضاري.

ثانياً: استرجاع الثقة في ابتناء الإيمان للحضارة.

ثالثاً: الصورة الحضارية في الحكم بالشريعة الإسلامية.

رابعاً: ضرورة الانفتاح على الآخرين.

خامساً: معاً نحو أسلمة التكنولوجيا.

سادساً: عقد المصالحة بين السلطة والمجتمع.

سابعاً: النظرية الإسلامية التربوية.

خاتمة وخلاصة.

أولاً: تزاوج العقل والنقل في سبيل الانطلاق لتحقيق البعث الحضاري:

فإن من فضل الله العظيم علينا أن يرزقنا نعمة العقل وتعبدنا به، فلا فرض ولا نفل، ولا تكليف ثم إلا من بابه.. وفضيلة العقل تقتضي بالمسلم أن يطوف بــه في خـــبر الحوادث وتصاريف المواقف، وسبر النوازل، يقرأ جديدها، ويعي مداخلها، ويلم بأطرافها، فتثمر لديه ثمرات جمة يفيد منها في دينه.

وهـــذا مقصود من مقاصد الشرع، دلت عليه الآيات الكثيرات: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ... ﴾ (غافـــر:٨٢)، وقوله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر:٢)، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٠).

وهذا يحدو بالقائمين على الأمر في الجزيرة (دول مجلس التعاون) أن يعملوا على عقلنة التخطيط الإداري جنباً إلـــى جنب مع أسلمة السلوك الحضاري، إذ لا شك أن العقل الصريح لا يخالف النص الصحيح، وإنما يتعاضدان ويتآزران؛ لأن النص خالد مطلق الصحة من الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ (الحجر:٩)، ولم يجعل له عوجاً، والعقل ومعطياته الظاهرة والكامنة هي من الله سبحانه أيضاً: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء:١١٣)، ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٥).

وهذه الثنائية المتناغمة تفضي إلى:

١-الـــتوازن في الفكـــر والســـلوك، إذ العقل والشرع هما جناحا التقدم والانطلاق نحو الأمام.

٢- تميز الدور الرسالي للجزيرة، فهو دور متوازن متكامل يسعى بالعقل والشرع معاً، وليس مجرد شعائر روحية، ومقامات زهدية تقام دون إعمال للفكر.

٣-قيادة الدور الرسالي في الأخذ بالشقين، العقلي والروحي معاً، حيث إن الصراع بين العلمانيين الداعين إلى استقالة الوحي عن الحياة العامة لدول الإسلام وقبوعه في المساجد وبين دفاف الأسفار، وبين دعوات معارضة من بعض الإسلاميين إلى نهوض الإسلام وتطبيقه دون التفات إلى معطيات العلم الحديث، بل ومقاطعة هذه الإمكانات العلمية والتكنولوجية، أو على الأقل مجيئها في الرتبة الثالثة، ما تزال قائمة.

ثانياً: استرجاع الثقة في ابتناء الإيمان للحضارة (نموذج الحضارة الإسلامية قديماً):

وهذا ينبغي استصحابه في ذلك الدور المستقبلي المأمول للحضارة الإسلامية، حيث نبع النور من مكة واكتمل في المدينة وانطلق يصوغ مجتمعات إسلامية وأنظمة حضارية مجيدة نعم المسلمون وغيرهم من اليهود والنصارى بل وغيرهم من الملحدين والوثنيين في كافة البلاد برحمتها وعدلها وتصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

كما كانت حضارة الإسلام حلقة الوصل بين الحضارات القديمة والحضارة الأوروبية الحديثة (كما كانت لبنة رئيسة من لبنات الحضارة الغربية الحديثة).

وهؤلاء هم منصفو الغرب يقولون بذلك من أمثال:

١- جورج سارتون.

٢- غوستاف لوبون.

٣- انطوان باسي.

وغيرهم الكثير والكثير، ونسمع معاً ما قاله لوبون عالم الاجتماع الفرنسي الشهير: «ما من مؤلف أوروبي حتى القرن الخامس عشر إلا وعلمه منقول عن علـــوم العـــرب»، ثم ذكر عدداً من علماء أوروبا في ذلك الزمان وقال: «إنهم كلهم إما متتلمذون للعرب أو نقـــلة لكتبهم، وإن الكتب المترجمة من العربية، ولا ســـيما الكتـــب العلمية منها كانت إلى مدى بعيد الأساس الذي قام عليه التعليم في جامعات أوروبا نحو خمسة قرون».

ولنذكر هنا على سبيل المثال جامعات الأندلس ومعاهدها العلمية وأدوارها في تحضـــير الأوروبـــيين، حـــتى إنهم بعدما هزم المسلمون فيها طفق الأسبان يفتخرون بحضارة بلادهم الإسلامية ويحتذون حذو المسلمين فيها.

وهـــذا ملك أرجوان لا يحسن الكتابة إلا باللغة العربية؛ لأنه تعلم في معاهد ومـــدارس وجامعات الأندلس المسلمة وفـــي ربوع حضارة الإيمان التي وسعته ولم تضق عنه ولا عن أمثاله.

وهـــذا ألفونســـو الســـادس ملك الأندلس يتسمى بإمبراطور العقيدتين الإسلامية والنصرانية، وقد جعل من طليطلة المسلمة بعدما سقطت في يده منارة معارف.

كمـــا احتفظ خلفه ألفونسو الثامن بالكتابة العربية على نقوده، وكانت المســـكوكات الإســـلامية والفرنسية عملة مملكة النصارى في إسبانيا وجنوب فرنسا على طول أربعمائة عام.

كمـــا استفاد الأوروبيون من النظام الإسلامي في القضاء وفي الإدارة وفي الأحوال الشخصية والاجتماعية.

ولو أتينا على بعض آثار الحضارة الإسلامية ودورها في النهضة الغربية لطال بنا المقام كثيراً، ولكن نكتفي بتلك النبذة السابقة لنستخلص منها الآتي:-

١- أن التجربة الحضارية الإسلامية القديمة تدعو إلى الفخر والاعتزاز، وأنها قابلة للاسترجاع.

وهـــذه نتيجة مبرهن عليها بشواهد جمة في شقها الأول، حيث إنها وقعت بالفعل، وما وقع وكان قابلاً لأن يكون وتوفرت له العوامل المناسبة، فهذا داع لاستجلاء آفاق البعد الرسالي للجزيرة في الماضي مروراً بواقعنا العاثر ونهوضاً إلى مستقبل مشرق.

ولله در القائل الذي أحسن التصوير والتعبير:

نـــبني كمـــا كانـــت أوائلـــنا   تـــبني ونفعـــل مثل ما فعلوا

٢- ابتـــناء الثقة في الحضارة الإسلامية على الوجه الصحيح هو سبيل مكين لاسترجاعها:

وهذا حاصل عندما نغرس روح الاعتزاز والفخر بالحضارة الإسلامية على الوجـــه الصحيح، بحيث لا يكتفى بالإشارة إليها والتنويه بها وإنما باستعراضها حسب:

أ- خطة منهجية مدروسة تعمم على الجيل المسلم الواعد، ليكون لهم سلف ينتسبون إليه، وعز يتواصلون معه.

ب- التدلـــيل عـــلى الآثار الحضارية للحضارة الإسلامية والتي لا ينحصر التعريف بها في مجرد كلمات مسجوعات وإنما يتعرفون عليها من خلال:-

- معارض الحضارة الإسلامية التي أدعو لإقامتها في كل مدينة أو في أشهر المدن على الأقل.

- دراســة نماذج من تحضر السابقين، كل في مجاله بحيث يكون هناك جزء مقرر حضارة إسلامية في كافة الفروع.

- بــث الروح الإسلامية في الممارسات اليومية من خلال تسمية الجامعات والمعاهد العلمية بأسماء علماء المسلمين الكبار.

ثالثاً: الصورة الحضارية في الحكم بالشريعة الإسلامية:

وعمــاد هذا أن مقصد الشريعة الأول وهدفها الرئيس إنما هو صالح العباد في الدنيا والآخرة، وبرهان ذلك ما ذكره علماء الأصول من أن شريعة الإسلام إنما وضعت ابتداءً لمصالح العباد، في العاجل والآجل معاً، ومعنى كونها موضوعة ابــتداءً لهــذا أنه قصد ذلك من وضعها في المرتبة الأولى، ويكون ما عداه كأنه تفصيل له.

وعــلى هذا القصد والوضع أجمع علماء الإسلام، ولم ينازع في ذلك منهم أحد، وذهب الإمام الشاطبي في الموافقات إلى أن ذلك يعد مسلمة لا مرية فيها، ولا جدال حولها، فقال رحمه الله: «والمعتمد إنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراءً لا ينازع فيه».

وهذا ما نص عليه الإمام الشافعي في "الرسالة" فقال: «.. فكل ما أنزل الله في كــتابه- جــل ثناؤه - رحمة وحجة، عَلِمَه مَنْ علمه وجَهِله مَنْ جهله».. وفصــل ذلــك الإمام ابن القيم، رحمه الله، فقال في "إعــلام الموقعين": «فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها».

وعلى هذا دلت نصوص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾ (المائدة:٦)، وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ (البقرة:١٨٥).. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرات المتواترات المعنى على ذلك، إذ تقطع بأن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في الآجل والعاجل، وهذا الأمر متصل في جميع تفاصيل الشريعة.

وتأسيساً على البرهان السابق والمسلمات المستخلصة به، فإننا نخلص إلى:

أن الحكم بالشريعة الإسلامية في دول الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون الخليجي) على الوجه الصحيح بتحقيق مقاصدها وأعمال أحكامها بحسب ذلك هو سبيل مكين ونهج مبين لتحقيق ما يلي:

١- حفظ الهوية الإسلامية العربية للجزيرة العربية:

فتبقى في مأمن عن حروب الشبهات، ومنابت الفتن، وقلاقل التغريب، وفتن الاستلاب الفكري والغزو الحضاري..

وكيف لا وهي تعد بؤرة لنشر العدل، ولروضة الحضارة العالمية، ولسطوع شمس عدالة الإسلام على العالم أجمع، من خلال تحقيق مقاصد الشريعة في حفظ مصالح العباد، وجلب كل ما يفيدهم، وينفعهم في دنياهم وأخراهم معاً.

وقارن ذلك بدول أخرى ولجت في دهاليز الفتن وراحت ترقع مناهجها في الحكم، وفي الابتناء والعدل الاجتماعيين، فوجدت نفسها حائرة بائرة تشكو أزمة الهوية، ويلفها ثوب الغموض والقلق الفكري والحضاري.. ولتفصيل ذلك مقام آخر.

٢- حفظ مكانتها الروحية في العالم الإسلامي:

وهـــذا واقـــع ورهـــين بالتطبيق الصحيح للشريعة فـــي ضوء مقاصدها العصـــماء، وفي ركاب الواقع المتجدد والمجتمع المتحرك وفي واقع العولمة الذي يحوطنا في كل شيء.

إذ إن إبصـــار المستقبل يبين لنا أن الريادة الروحية لا تكون بالمادة والثراء، ولا بالرفاه الاقتصادي، ولا بالتقدم التكنولوجي فقط.. وإنما هو بادئ ذي بدء بتطبيق تعاليم الإسلام الصحيح على الوجه الفضيل، تطبيقاً متكاملاً منسجماً مع المجتمع العولمي ومعطيات الواقع المعلوماتي.. بحيث تنشده العقول وتختاره الفهوم وتتمتع به الأبصار والأسماع في الإنصاف والرؤية والكتابة والقراءة معاً عن ذلك التطبيق الواقعي للشرع الإسلامي.

وهذا مدخل المداخل لدرك نعيم الدنيا ورفاهها كما وعد الله بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦).

٣- تجديـــد القـــيادة الروحـــية للجزيرة ضمن عملية البعث الحضاري الإسلامي:

وفي ذلـــك اســـتعادة للقـــيـــادة الروحية للجزيـــرة على مستوى العالم الإســـلامي حيث كانت المدينة المنورة مركزاً للوحي بعد مكة وكانت بدورها أول عاصـــمة روحـــية وإداريـــة للإسلام في عصر الرسول ﷺ ثم تنحت عنها العاصمة الإدارية شيئاً فشيئاً غير أنها ظلت العاصمة الروحية للتطبيق الإســـلامي عـــلى مستوى الدولة، ومستوى الإدارة (حيث تطبق الأحكام الإسلامية على القائد والمقود هناك) وعلى مستوى المجتمع، وعلى مستوى الأفراد، حتى ذهب

الإمـــام مـــالك رضي الله عنه إلى الأخذ بعمل أهل المدينة كمصدر من مصادر التشـــريع... بمـــا يسميه الأصوليون "عمل أهل المدينة" ابتناءً على أنها عاصمة الإسلام الروحية وأن ما يمضي فيها من العمل والســلوك هو نفســه اتــصال لما مضى في عهد الرسولﷺ[1] ولهذا مغزاه ومعناه في موضوع بحثنا هذا.

رابعاً: ضرورة الانفتاح على الآخرين:

وهو كلمة يكتنفها غموض بعض الشيء، لذا يتوجب علينا ضبطها، ونعني بها في سياق حديثنا التعرف على (الآخر)، والانفتاح على ثقافته وفكره في إطار قيمنا، وهذا مطلب قرآني لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات:١٣).

وعـــندي أنـــه لا إشكال في جواز التعرف على الآخر مطلقاً بمجرد معرفة ذهنية تصورية، لنتعرف عليه من قرب، فهذا لا ضير فيه، بل الجهل بهذا (الآخر) يعد من دروب الجهل التي تستوجب اللوم.

ثم هناك مرحلة أخرى هي مرحلة الانفعال والتجاوب مع ذلـــك (الآخر)، وهـــو مـــا يتبع المعرفة غالباً، ولا يشترط هذا التجاوب والانفعال تصديق هذا (الآخـــر) والإيمان بما عنده وتبني أطروحاته، فهنا يبرز الإطار الحضاري والمعرفي لثقافتي وحضارتي، إذ تقتضي هذه المرحلة مرحلة أخرى هي :-

"**مـــرحلة الـــنقد والتبصـــر" ثم الإقدام للتجاوب والانفعال**، عن طريق خطوتين:

---

(1) مع ملاحظة مخالفة جمهور العلماء لمالك في ذلك، حيث لم يأخذوا بعمل أهل المدينة كأصل من أصول الشريعة.

الخطوة الأولى: اكتساب المعرفة الجديدة النافعة لي:

والاكتساب هنا مطلق لكل ما هو مفيد وجديد من معارف وتصورات وتطبيقات، ووسائل وآليات، فهذا يقع تحت طائلة الحكمة التي نطالب بدركها وأخذها من كل أحد إذ: «...**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**»[1].. وهي إرث إنساني لا يقتصر على جنس أو موطن ولا على دين.

والاكتساب هنا إما أن يكون:-

١- لجديد مطلق الجدة، وهذا يؤخذ بعدما تضبط أهدافه وغاياته بما يتلاءم مع حضارتي وقيمي الإسلامية.

٢- مطور في صورة جديدة، فهذا أسعى لربطه بما عندي من أصول حضارية بمعنى أني أسعى لربطه بأبوة حضارية، من عندي فيصبح حلقة وصل معها وسبيلاً لتطويرها.. ولا عجب أن يكون الابن أكثر تفوقاً من أبيه، غير أنه يدين له بالأبوة وفضل السبق.

الخطوة الثانية: نقد المعرفة غير الملائمة وطرح بديل مناسب لها:

وهذه مرحلة لا تقل عن الأولى أهمية، إذ لسنا نجزم بأن كل جديد عن (الآخر) هو مناسب لي فهناك ما لا يناسبني ولا يليق بي غير أني أتجاوز مرحلة الرفض الأعمى إلى مرحلة النقد المتبصر، بل والاقتحام وطرح البديل.

وما أكثر تلك البدائل التي يناط العمل على طرحها ونحن في الجزيرة بما آتانا الله من فضل التاريخ التليد، والحضارة الخالدة، جديرون بأن نعمل على طرح البدائل المؤسلمة، سواء في الجانب التكنولوجي والمعرفي، أو في الجانب الاجتماعي الإنساني.

---

(1) أخرجه الترمذي.

والحاصل أنني أخلص إلى الآتي:

١- أن الانفتاح مطلب إسلامي ضروري تمليه الظروف الاجتماعية والقيم الدينية من باب نشر الرسالة الإسلامية، سعياً إلى ريادة العالم روحياً والاضطلاع بتلك الأمانة التي فيها ذكرنا ومجدنا: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء:١٠).

٢-أن الانفتاح هو السبيل الرئيس لتلقيح الأفكار وتعضيدها وتجددها وانتعاشها، وهو مفتاح تذويب الجليد بيننا وبين الآخرين، وخاصة بعد تلك الأحداث العارمة التي اجتاحت عالمنا الإسلامي.

٣-أن الجزيرة كما كانت منفتحة على العالمين أولاً بقيمها الروحية، فهي مؤهلة لإعادة ذلك الدور، عن طريق انفتاحها على العالمين ثانياً، معطية وآخذة، وليست معطية كما كان الحال من قبل، وهذا نلمحه في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ...﴾ (الحج:٢٧).

خامساً: نحو أسلمة التكنولوجيا:

ابتناءً على ما سبق ذكره من امتلاك الجزيرة لموارد الطاقة ورؤوس الأموال، وكونها القبلة الاستراتيجية للطاقة في العالم، فإنها قادرة على توظيف التكنولوجيا في كافة المجالات والبنى الاقتصادية والاجتماعية.

ومن المعروف أن التكنولوجيا الحديثة غربية المنشأ غربية التطور، غربية الآثار والنتائج، وإن كانت تهدف إلى رفاه الإنسان ومتعته وهي غاية منشودة، وهدف نتفق معه إجمالاً، غير أنه يستوقفنا وقفات متتاليات.

فهـــي وإن كانـــت تكنولوجيا مادية في معظم وجهها الحضاري، يمكن أن نختـــزلها مجـــازاً في آلات وأجهزة ومعدات إليكترونية صامتة تتحرك بنظريات علمية مدروسة، إلا أنها إنسانية التشغيل، إنسانية الصنع والهدف والتوجيه.

وإن شئت وضوحاً فقل: هي غربية السلوك والوسيلة والهدف والتوجيه .. قد انعكســـت عليها قيم الحضارة الغربية بدرجة كبيرة فانطبعت بطابعها الاجتماعي وبنمط حياتها اليومي حتى أصبحت الآلة لصيقة بحياتهم، تعمل بنمط حياتهم.

فهذا مصنع يعمل فيه رجال ونساء متلاصقون معاً في وردية ليلية، وهذه آلة تقتضـــي مـــن المرأة مشاركة وانقطاعاً لها على فترات متناوبة بحيث يمنع عليها الحمـــل والإنجاب وإلا فقدت وظيفتها، وهذا عمل آخر يتطلب انقطاعاً وتبتلاً وعـــدم الاعـــتراف بالعلاقة الشرعية من زواج وأولاد والاستمتاع بأسرة هانئة تحوطها روح المحبة.

وبـــناءً على ذلك نشأت أنماط حياتية خاصة لها قيمها الخاصة لكي نتماشى مع تلك التكنولوجيا .. مثل:-

١-تعظيم الحياة الفردية على حساب الحياة المجتمعية، وإطلاق حريات الفرد حسبما شاء.

٢-انتشـــار الممارسات الجنسية خارج إطار الأسرة للترويح عن النفس في أوقات الإجازات (الويك إند)(!)

٣-انتشـــار بيوت الدعارة والملاهي الليلية والقمار والخمور في المتنـــزهات لكي تستوعب ذلك العامل المضغوط في عمله (!)

٤-انتشـــار المواد الإباحية مطلقاً في وسائل الإعلام على اختلافها، وعلى تنوع تلك الإباحات.

٥-انتشـــار العلاقات المثلية (رجال ورجال)، (نساء مع نساء)، وترخيص الدول الغربية لهذا.

وكل ما سبق يدار أيضاً بوسائل تكنولوجية حديثة، لبلوغ أقصى درجات المتعة، عوضاً عن التعامل الشاق والجاف مع الآلة.

وكـــل هذا يحمى بسياج قانوني وإطار مؤسسي لكي يضمن للمصانع أن تنـــتج وللآلـــة أن تعمـــل وللتكنولوجيا أن تثمر وتدر الأموال الطائلة، ليعظم الاقتصاد ويحل الرفاه الإنساني (!)

إبصـــار المستقبل التكنولوجي في الجزيـــرة العربية:-

نعـــود هـــنا إلى حلقـــة الوصـــل بينـــنا وبين ما سبق، من خلال طرح السيناريوهات الآتية:

١-هـــل نـــترك التكنولوجـــيا الغربية جملة ونلزم خاصة أنفسنا ونولي لها ظهورنا؟!

٢-هل نأخذها بخيرها وشرها وبيئتها التي نشأت فيها؟!

٣-هـــل نـــبدأ من حيث انتهوا وكيف ذلك وليست عندنا قاعدة علمية وتكنولوجية مثلهم؟

٤-هـــل نـــأخذ بعضاً ونترك بعضاً، وما هو مقياس الحاجة وآليات الأخذ والـــترك؟ وماذا لو كانت المنظومة التكنولوجية متكاملة لا بد من أخذ جملة منها...؟!

٥- وماذا لو أخذنا منهم ما نريد وحاولنا أن نكيفه حسب عاداتنا وقيمنا، أنظل مستهلكين وتابعين؟!!

وبين هـذا وذاك من الأسئلة السابقة تحار العقـول وتنقطـع السـبل.. ولا يصـح إلا الصحيح وهو: أن نؤسلم منظومة التكنولوجيا الغربية في الجزيرة العربية، ثم في البلاد الإسلامية، مع الاستعداد لاقتحامها ومنافسة الغرب فيها.. وهـذا مطلب ليس بالعسير فقد سبق أن مهدنا له بالإمكانات المادية والروحية التي حبا الله بها الجزيرة.

وفي الأخذ بالفرضية السابقة، أرى الآتي:

١- أن أسـلمة التكنولوجـيا هو السبيل الذي ينبغي أن نحققه في المنظور العاجل تمهيداً لمنافسة الغرب فيها على المدى الآجل.

٢-أن في أسلمة منظومة التكنولوجيا أهداف عدة:-

أ- حفظ مجتمعنا من تلك الآثار الاجتماعية التي تحيط بالآلة الغربية.

ب- طرح بديل إسلامي لتسيير تلك التكنولوجيا قادر على إثبات أهمية التوظيف والتوجيه الحضاري المحاط بسياج القيم وبنور الوحي، وأنه أكثر إثماراً من محض التوجيه المادي الخاوي عن الروح والقيمة.

٣-التمهـيد للتجربة الإسلامية الواعدة في التقدم التكنولوجي، وإثبات أن الإسـلام يحـث على النظر والاعتبار والالتفات إلى الظواهر الكونية والقوانين الإلهية فيها، واستثمارها في الحياة لإعمار الأرض ولرفاه الإنسان.

وهكـذا تقودنا الأسلمة إلى تجربة إنسانية لا تزال مقتعدة ألا وهي المزاوجة بـين الآلة والقيمة، وبين الروح والجسد، وبين السماء والأرض.. وأن مردود

هذه المزاوجة هو أثرى وأوفر حالاً من مردود محض التوجيه المادي كما هو عند الغرب؛ لأن الإسلام خير كله وهو دين الدنيا والآخرة، وهذا ما يجب أن تطّلع به الجزيرة قبل غيرها.

سادساً: عقد المصالحة بين السلطة والمجتمع:

ينبغي للأنظمة أن تنمي هذا التوجه لديها، وأن تدرك أهمية المصالحة والتحالف مع الملتزمين بالقيم الإسلامية لتحقيق المقاصد الإسلامية، مع تجنب كل منهما الصدام وافتعال الخلاف مع (الآخر)، وإلا هدرت الطاقات، وتبددت الجهود، واستنزفت الأمة، وانحرفت المسيرة في الجزيرة الخاصة.

وعلى الملتزمين بالإسلام كذلك تطوير أنفسهم من الداخل، وتجاوز الحدود الداخلية إلى آفاق الأمة نفسها، كما يجب عليها أيضاً الخروج من دائرة رد الفعل للحركات العلمانية إلى وضع البديل الذي لا يقنع بالجهل أو التجاهل لما لدى (الآخر)، وإنما يسعى جاهداً لامتلاك الوعي بما لدى (الآخر)، سواء منه ما يدخل في إطار النافع الذي يُستلهم أو الضار الذي ينبغي رده بالدليل والبرهان، ومواجهته ببديل إسلامي نافع.

كما أن على الملتزمين بالإسلام الابتعاد عن الروح الحزبية التعصبية، والعمل تحت مظلة الأخوة الشاملة، واستيعاب كل الطاقات والأنشطة والمواهب.

سابعاً: النظرية الإسلامية التربوية:

جدير بالذكر أن أي تغيير لا بد أن يكون تغييراً مجتمعياً كاملاً لكي يحدث أثره، ولتتضافر الجهود حوله، ولكي لا ينقلب المجتمع عليه عشية أو ضحاها.

وفي مقام حديثنا هذا ينبغي لفت الأنظار إلى أهمية التهيئة المجتمعية، إلى تلك

الغايـة الـتي نـتحدث عنها من خلال محور الرؤية المستقبلية للاطلاع بالدور الرسـالي ضـمن إطار الموضوع الكبير عن «البعد الرسالي لمجلس التعاون، من استشراف الماضي إلى إبصار المستقبل».

وممـا يساعد على ذلك الحديث هو الانسجام المجتمعي في الجزيرة العربية، حيث لا تشكو إثنية دينية، ولا يلفها هاجس تفـجر العرقيات المختلفـة، وإن لم تخـل مـن بعض الأطر الضيقة التي لا يستهان بها، في سياق ذلك المستقبل المأمول لها أن تقوم به في الاطلاع بالدور الرسالي.

ومن هذه الأطر الضيقة:

١- إطار القبلية.

٢- إطار الحزبية.

٣- إطار المذهبية.

٤- إطار الاستغراب.

وهذه الأطر قد لا تمثل أثراً ظاهراً في المنظور الآني أو القريب، غير أنه ينبغي الالتفات إليها وإبصار الحلول لها قبل استفحال خطرها وتوسع دائرتها.

ولعل أهم المخارج من ذلك العثار المخوف هو:

١- تقوية الولاء الديني والوطني:

وفي ذلـك تغلـب على حالة القبلية التي تأخذ منحنيات خطيرة في بعض الأحوال.

٢- العـــود إلى مصـــدر التشريع النقي (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة) كأساس لدفع حالة التمذهب المقيت:-

وجديـــر أن نذكـــر أن المذهبية بمعناها التزام مذهب فقهي صحيح الدليل صـــريح الفهم لا شيء فيه ما دام قائماً على الاتباع واستبصار الدليل .. أما إن قام على الجهل ومحض التقليد، وأدى إلى عنصرية بغيضة، وولد طائفية مهلكة، فهذا هو المنبوذ، الذي نسعى لدفعه، وعليه يدور حديثنا الآن.

٣- إبـــراز الهويـــة الإســـلامية والاعتزاز بالعادات والتقاليد الإسلامية والعربية الموافقة هو سبيل دفع الاستغراب:-

لأنهـــا حالة عارضة تنشأ عند ضعف الهوية، وتتشربها النفوس عند ضعف الولاء والانتماء وعند افتقاد البديل المشبع.. وهنا تبرز التساؤلات الآتية:

أ- كيف نحقق الانسجام المجتمعي؟

ب- وما هو السبيل الصحيح لدفع القيم المجتمعية السلبية؟ وتجاوز القيم الأخرى المتوقعة؟

ج- وكيف لنا أن نهيىء المجتمع في الجزيرة لمرحلة الاطلاع بالدور الرسالي؟

هذه أسئلة متراكبة يفضي بعضها إلى بعض، وقد يسعنا المقام لطرح "معقد الحل" وهو ما اقترحه قبلنا غيرنا، ونسعى لتوكيد طرحه عن:

«ضـــرورة تطويـــر نظرية تربوية إسلامية شاملة تستوعب المجتمع بأنماطه، وتعمل على تنقيته وتهيئته للقيم الإسلامية وللدور المنوط بمجتمع الجزيرة في بعث الدور الحضاري الرائد لها...».

النظرية الإسلامية التربوية لصياغــة المجتمع وتهيئته:

لــيس هذا مقام التفصيل لهذه النظرية[1] وإنما هو بالأساس مقام للتنويه بها، وتوكيد طرحها، وبيان ضرورتها، ضمن مخطط إحياء الدور الرسالي للجزيرة.

معالم النظرية:

تنطلق معالم هــذه النظــرية المطلــوب صياغتها وتطويرها، عن:

أ- القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

ب- التراث التربوي عند المسلمين وما دار حوله من دراسات حديثة.

ج- التراث التربوي المعاصر (مع استبعاد ما لا يتلاءم معنا، وأسلمة أجزائه الأخرى بما يتناسب مع حضارتنا وقيمنا وأهدافنا..).

أسس ومنطلقات النظرية:

وتنطلق هذه النظرية كذلك عن التصور الإسلامي المميز:-

أ-الله سبحانه وتعالى.

ب-الكون.

ج-الإنسان.

أهداف النظرية[2]:

تستهدف هذه النظرية عموماً ما يأتي:

١-التعبد (وهو غاية الغايات، أن يتعبد الناس لربهم).

---

(١) انظــر فــي الحديث عن تلك النظرية مؤتمر تهيئة الأجواء التربوية لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية (المحور الأول: التربية في صدر الإسلام) ضمن أعمال اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، ص٤٠ وما بعدها.

(٢) انظر المرجع السابق، ص ٥٦-٦٠.

٢-التحرر عن كل قيد وكل ذل واستعباد إلا لله.

٣-إتمــام مكارم الأخلاق، وهذا من غايات الرسالة المحمدية: «**إنَّما بُعِثْتُ لأتَمِّمَ مَكارِمَ الأخلاقِ**»[1].

٤-التعليم.

٥-التعقيل.

٦-التوجيه الاجتماعي.

٧-التعمير.

٨-الإعداد البدني.

٩-الإثراء الجمالي والوجداني.

ولعل أهمية هذه النظرية في مقامنا هذا هو:

تهيــئة مجــتمع الجزيرة لهذا الدور المنوط به من البعث الحضاري والاطلاع بالدور الرسالي، وتوجيه المجتمع في العمل والممارسة لتحقيق هذا الدور.

وعليه، ففي ظل إبصار المستقبل نجد :

"أنــه عــلى دول الجزيرة (مجلس التعاون) التعاضد معاً لبلورة هذه النظرية وتنقــيحها لإنفاذها في روح المجتمع وثقافته ورؤيته وحراكه، لنصل إلى الدور الصحيح المرتقب".

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني.

الخلاصة

نخلــص من جميع ما سبق إلى ضرورة تحقيق الوصايا الآتية في سبيل تحقيق الغاية المنشودة من البعث الحضاري للاطلاع بالدور الرسالي، وهي:-

١- ضرورة استنبات الكوادر الفذة من نابغي الأمة وقوادها، تمهيداً لقيادتها وتوجـيهها انطلاقـاً مـن دول الجزيرة العربية، التي قادت الفتوحات الإسلامية ومشاعل الحضارة إلى العالم أجمع.

عـلى أن يعيش هؤلاء الأفذاذ والنوابغ والقواد حال الأمة، ويعتركون بواقعهـا، ويستشـعرون محـنها، ويتشبعون بالمناهج الشرعية والعلوم الإسلامية والعقلية.

٢-تكويـن مجلس علماء للجزيرة، يبحثون أوضاعها، ويخططون لمستقبلها، ويـتعاونون فيما بينهم ومع غيرهم من مجالس أخرى للعلماء للاتفاق على خطوط مستقبلية عريضة تتوحد عليها الجهود.

٣-تنقـيح المـناهج الشرعـية، بحيث تدرس فـقه الشريعة والواقع معاً، لـتخرج لنا قادة ومفكرين وليس علماء متخصصين فـي بعض فروع العـلم الشرعي فحسب، وتعميم تلك المناهج فـي المؤسسات العلمية لدول الجزيرة.

٤- استلهام الموروث الحضاري بعد فرزه جيداً، أو استبعاد ضعيفه ومتهافته، واستخلاص قويِّه وصحيحه، للانطلاقة عنه ووصله بالحاضر، والانتماء إليها اعتزازاً وقيمة.

٥- تجاوز النظرة الإقليمية الضيقة، إلى نظرة أممية تهتم بقضايا الأمة وإشكالاتها، وليست قضية حزب أو جماعة أو فئة فقط، وإنما ينصهر هذا جميعاً في حدود الأمة.. وقد تعرضت لهذا في مقال مطول لي في جريدة الوطن[1].

٦- التفريق بين القضايا الحقيقية والقضايا الزائفة، وترتيب أولويات قضايا الأمة ابتداءً بدول الجزيرة، فلا يقدم المهم على الأهم.

(1) انظر جريدة الوطن الكويتية.

الإسلام.. دين المستقبل

الدكتور عارف الشيخ[*]

ليس من قبيل المصادفة أن تتجه أنظار العالم إلى الجزيرة العربية، وإنما لعلمهم بأهمية الدور الذي يمكن أن تضطلع به.. فهي موطن أقدس مقدسات العالم، ومهبط الوحي الخاتم، وفيها تكمن أغنى مناطق العالم من حيث الطاقة الروحية المحركة والثروة البترولية التي من أجلها تكالبت علينا الأمم اليوم.

إن الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن الحديث عن رسالة الإسلام ومستقبل أمة الإسلام يطول ويطول جداً، لأن البداية كانت شائكة والنهاية كذلك.

لكن المتأمل في بداية الرسالة المحمدية يجد أنه لا يصعب على الله شيء، وكما انتصر الإسلام في البداية، ينتصر في النهاية، إن شاء الله.

انظر كيف خلق الله الخلق أمة واحدة، ثم بعث إليهم أنبياء ورسلاً ليبشروهم وينذروهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وقد لقي كل منهما جزاءه على مرأى ومسمع الآخرين ، فذهب المطيع مثالاً يحتذى به، وذهب المخالف عبرة لأولي الأبصار.

(*) باحث وشاعر.. (دولة الإمارات العربية المتحدة).

هذه هي سنة الله في كونه، فترى الخير والشر يتصارعان، وفي النهاية البقاء للخير، وإننا اليوم إذا كنا نرى أن المسلمين يمرون بمرحلة حرجة فينبغي أن لا يثني ذلك من عزائمنا، لأن ما نرى من انتكاسات وهزائم ليس الإسلام سبباً فيها، بل نحن المسلمين.

إذن الإسلام هو الإسلام، ولو عاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى لعادت إليهم انتصاراتهم، وعادوا قادة العالم وسادته كما كانوا.

وها نحن سوف نستعرض في هذا البحث الرؤية المستقبلية للاضطلاع بالدور الرسالي من خلال العناوين التالية:

الناس أمة واحدة؛ الناس قبل الإسلام؛ بزوغ فجر الرسالة المحمدية؛ ما دعا إليه الإسلام؛ أسلوب الدعوة في الإسلام؛ الإسلام دين جاذب؛ سر جاذبية الإسلام؛ هل بقي الإسلام قويا؟؛ لماذا تأخر المسلمون؟؛ الإسلام يدعو إلى العلم؛ في الإسلام قدوة حسنة؛ كيف ننهض ثانية؟.

نفهم من هذه العناوين أن الإنسان مؤهل لتقبل الخير، وإذا كانت بعض صفحات الحياة مغبرة من حوله فإن بعض صفحاتها الأخرى مشرقة، والإنسان نفسه يلعب الدورين معاً، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ (البلد:٨-١٠).

فلنستلهم إذن من كبوة الحاضر انطلاقة الماضي، ولنستشعر من انهزام المسلمين عزة الإسلام، ولنعلم علم اليقين أن الإسلام هو دين الله الخالد، والجزيرة العربية هي المهد الأول لهذه الرسالة.

فالله المستعان وعليه التكلان.

الناس أمة واحدة:

عــندما نقــرأ الآيــة الكــريمة: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ (يونــس:١٩)، لا نجدها مختلفة كثيراً في غايتها عن الآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

فالآية الأولى تعيد إلى الأذهان بأن الوحدة هي أصل الإنسانية، الذي خلق الله الناس عليه ، وأراد منهم أن يبقوا عليه في ظل تعايش سلمي .

والآيــة الثانية مفهومها أننا لم نخلق عبثاً، بل خلقنا لعمارة الكون، وعمارة الكون لن تكون بالخلافات والمشاحنات بل بالحب، ولن نتحاب إلا إذا التففنا حول معبود واحد بحق.

ثم جعل لتلك العبادة أو لتلك الطاعة رموزاً وشعائر تجمعنا معاً مثل الكعبة، الصلاة، الصيام، الحج، القرآن، وهكذا.

إذن هذه الرموز والشعائر وإن اختلفت أساليب التعامل معها من فترة إلى فترة إلا أنها كلها كانت تدعو الناس، إلى الخضوع لرب واحد، وهذا هو التوحيد.

وفكرة التوحيد ليست مجسدة في العبادات فحسب، بل هي مطلب يتمشى مع الطبيعة الكونية التي خلق الله الناس عليها.

فمن الناحية النظرية، لو تأملت في الكون لوجدت أن هناك ظواهر متعددة مثل السماء والهواء والمطر والنور وغيرها، وكل منها في نفسها توحي للإنسان بأنها قوية، مما جعل الكثيرين يعبدونها ، لأنهم كانوا يرون فيها مظاهر القوة التي تستحق كل واحدة منها أن تكون آلهة تعبد.

لكن رغم ذلك فإن كثرة عدد الآلهة أدت بالناس أن يفكروا في تأليه الأقوى منها، إذ لا يمكن أن تكون كلها آلهة تتصارع، أو يتصارع الناس عليها.

من هنا، أي بعد نظرية التعدد، ظهرت نظرية "الثنائية"، بمعنى أن القوة انحصرت في الشيء وضده، فإذا وجد النور وجد الظلام، وإذا وجد الخير وجد الشر وهكذا، لكن رغم ذلك فإن العقل البشري لم يقتنع تماماً بهذه الثنائية، إذ لا بد أن يكون خلفهما خالق واحد ومُوجد واحد.

إذن المطلوب هو الألوهية المطلقة، وهي هذه التي أرادها الله لعباده منذ أن خلقهم، لولا أنهم اختلفوا على أنبيائهم وكذبوهم.

ومن الملاحظ أن شبه الجزيرة العربية احتضنت فكرة التوحيد منذ نشأتها الأولى، أمّا الوثنية واليهودية والنصرانية فإنها كانت طارئة عليها.

الناس قبل الإسلام:

يقول المستشرق الهولندي "رينهارت دوزي": «إنه كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية، وفي هذه الأحوال الحالكة ولد محمد بن عبد الله في عام ٥٧٠، ومن هذا نرى أن العالم الانساني كان بحاجة إلى حادث جلل يزعج الناس عما كانوا فيه،ويضطرهم إلى النظر والتفكير في أمر الخروج من المأزق الذي تورطوا به» [(١)].

ويقول "وليم موير" في كتابه "حياة محمد": «في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا السقوط في هاوية الفوضى، لأن العقائد التي تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، و لم يك ثمة ما يعتد به».

(١) راجع كتابه: تاريخ الدول الإسلامية في الأندلس والمغرب.

وكـان يبدو وقتئذ أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ كانت القبائل تتحارب، فلا قانون ولا نظام، أما النظم التي خلفتها الكنسية فكانت تعمل على التفرقة والانهيار[١].

ويبدو من خلال قراءتنا للتاريخ أن الوثنية الطارئة على شبه الجزيرة العربية كانت مرتبطة بالوضع القبلي آنذاك.

لذلك فإن بعض الأصنام كانت معروفة بأسمائها كرموز، وكانت خاصة لقبائل معينة[٢].

وكـان بعض سادات القبائل يبدل الآلهة إذا أراد، أو يدعو إلى عبادتها، بالإضافة إلى الصابئة الذين عبدوا الكواكب و النجوم.

أما اليهودية والنصرانية فلم تأخذا انتشارهما كثيراً كدين وكمعتقد، وهما وإن وجدتا في اليمن والحجاز إلا أن اليهودية انشغلت بالاقتصاد والزراعة، وهي بدورها كانت تعادي النصرانية.

وأما النصرانية فقد ظهرت في نجران نتيجة بسط الرومان و الحبشة نفوذهما في شبه الجزيرة العربية.

---

(١) راجع الكتاب بترجمة مصطفى فهمي وعبد الحميد السحار.

(٢) من هذه الأصنام اللات، والعزى، ومناة، وهبل، ويغوث، ونسر، وسواع، وود، وإساف، ونائلة، وسعد، ومناف، وذو الخلصة، والأقيعر، ونهم، وعائم، وسعيد، ومحرق، وعوض، وعوف، وذريح، وقيس، وأدال؛ راجع كتاب الأصنام لابن الكلبي.

أقول: إن الوثنية كانت تتمتع بنفوذ أكثر حيث عمت الجزيرة العربية، ولعل السبب أن العرب كانوا يحبون أن يستقلوا بآلهتهم، ويتميزوا بدينهم، وربما لأنهم كانوا إلى الحنيفية أقرب لولا إدخال عبادة الأوثان عليهم.

على كل حال فإن تمسكهم بعبادة الأوثان كان يعني أن فيهم حب التدين، لكن مع الأسف انحرفوا من عبادة الإله الواحد إلى عبادة عدد من الآلهة، وكانوا يعتقدون أن ذلك يقربهم إلى الله .

أما الذين بقوا على حنيفيتهم فإنهم كانوا ضد عبادة الأوثان، وكانوا يعادون أصنامهم حتى أن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من حكماء العرب، كان يقول:

فلا عُــزّى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور

أربّاً واحداً أم ألــف ربّ ... أديــن إذا تقسمت الأمور

وزيــد بن عمرو هذا أثنى عليه الرسول ﷺ حيث قال عنه : «...**إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً**»[1].

بزوغ فجر الرسالة المحمدية:

كان بزوغ فجر الرسالة المحمدية في وسط هذا المجتمع الذي يعج بالوثنية من جهــة، ويتشبث بأذيال اليهودية والنصرانية من جهة أخرى، بمثابة قنبلة مدوية ألقيت لتحدث انقلاباً تاريخياً عظيماً.

فالوضــع الاجــتماعي والديني والسياسي لا يحتمل أكثر، والحياة فوضى، وربما للناس عذر أيضاً حيث إنهم بعيدو عهد بالرسالات السماوية، إلا أن ذلك

(1) أخرجه أحمد.

لا يعني أن تستمر عبادة الأوثان وتنتشر اليهودية والنصرانية في أرض كانت تعتنق الحنيفية التي تدعو إلى عبادة الواحد الأحد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الاسلام عندما ولد لم يولد لينتقص من الأديان السماوية الأخرى ، كلا فهو امتداد للرسالات السابقة، ومكملة لها.

ولو أردت أن ترى القواسم المشتركة بينها فانظر إلى الوصايا العشر التي أتت بها الشريعة اليهودية وهي :

١- لا تجعل لك إلهاً غيري.

٢- لا تحلف باسم الرب إلهك...

٣- اذكر يوم السبت لتقدسه.

٤- اكرم أباك و أمك.

٥- لا تقتل.

٦- لا تزن.

٧- لا تسرق.

٨- لا تشهد زوراً.

٩- لا تشته بيت قريبك.

١٠- لا تشته امرأة قريبك.

ثم انظر في الشريعة العيسوية لتجد أنها تدعو إلى:

- الزهد المطلق والتخلي عن الدنيا.
- عدم مقابلة الشر بالشر.
- التسامح والحب.

— الصلة المباشرة بين الله والناس[1].

قـــارن بين تلك الوصايا وبين ما ورد في القرآن الكريم جملة تجد أنها كلها تدعو إلى الخير، وتهذيب الطباع، والكف عن الرذيلة والظلم وسوء الأخلاق.

وإن قلت: إن الإسلام اختلف عما قبله كثيراً، أقول: إن العصور اختلفت، والله سبحانه وتعالى كان يبعث النبيين واحداً تلو الآخر إلى أممهم، ويحملهم من الرسالات ما تطيقها أممهم .

وعـــندما بلغـــت الإنسانية مبلغاً من الكمال والاعتدال أرسل إليها أكمل الرسل بأبلغ الرسالات ، وجعله خاتماً للأنبياء، ورسالته خاتمة للرسالات، لعلمه تعـــالى أن الأمم مهيأة الآن لتلقي تعاليم السماء جملة وتفصيلاً، فما كان إلا أن قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾(سبأ:٢٨).

إذن لا تســـتغرب إذا وجدت الرسول ﷺ يقول : « **لا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»[2]، لماذا ؟ لأن الأديان السابقة انصهرت في دين الإسلام بحكم أنه خاتـــم تلك الرسالات.

نعـــم وجـــدت اليهودية والنصرانية والوثنية ، إلا أن قبل ذلك كله كانت الحنيفية الإبراهيمية ، وقد قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦١-١٦٣).

(١) راجع: مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي.
(٢) أخرجه مالك.

انظــر كيف قال عن النبوة الأولــى: إن المبعوث بــها كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

وقال عن النبوة الخاتمة: إن الدين عند الله هو الإسلام، وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران:٨٥).

إذن لا تعارض منذ الأزل بين الأديان السماوية التي جاءت كلها لتؤكد أن التوحيد هو دين الله الخالص.

ومن الناحية النظرية نستطيع القول: إن الجزء يندرج تحت الكل، فالإنسان والحــيوان والنــبات والحجر ربما تقسم إلى حياة وجماد، لكن في النهاية يطلق عليهما لفظ الموجود.

وهذا الموجود لابد أن يكون له من واحد فاض منه كل الموجودات .

هكذا يقول الفلاسفة مثل أفلاطون.. ويقول أرسطو: إن كل ما في الكون يــرجع إلى الســبب الأول الذي حرك كل شيء دون أن يتحرك القديم الأزلي واجب الوجود لذاته.

أقول والعلم التجريبي أو التطبيقي الذي لا يؤمن بالشيء حتى يُرى يؤكد لنا هذه الوحدة المطلقة، وكان يقول: إن عناصر المادة أربعة هي:

الهواء، والماء، والنار، والتراب، وهي تشكل الطبيعة.

ثم قــال: إن الطبيعة ليست عناصر مجردة بل مؤلفة من عناصر أخرى مثل الأكســجين والهــيدروجين والأوزون، ثم بدأت العناصر تتوسع أكثر وأكثر، وثبت للعلم أن كل عنصر صار مستقلاً عن الآخر.

ومن هنا قال العلماء: إن العناصر ترد إلى قوتين متغايرتين:

مادة منفعلة، وطاقة فاعلة، وكأنهم عادوا بذلك إلى الاعتقاد بالثنائية القديمة، وعندئذ اتفقوا على اسم موحد هو المادة أو الطاقة.

وبعد ذلك ومع التفجر العلمي قالوا: لا يوجد شيء اسمه مادة أو طاقة، وإنما إشعاع، والإشعاع أحد عناصر الضوء، فالضوء هو الأصل[1].

وهكذا ينتهي العلم الحديث إلى ما انتهت إليه النظريات القديمة، ليلتقيا في النهاية عند ما أثبتته الأديان السماوية.

ففي كتاب العهد القديم ورد ما نصه: في البدء كان النور.

وفي القرآن الكريم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥).

إذن الله الواحد الأحد خلقنا وأوجدنا، والله الواحد الأحد يجب أن يعبد، إذ لا معبود بحق سواه، قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(الإخلاص:١-٤).

ما دعا إليه الإسلام:

لو عدنا إلى كتب السير لوجدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يلخص لنا ما دعا إليه الإسلام في كلمة ارتجلها أمام النجاشي ملك الحبشة عندما هاجروا إليه.. يقول جعفر:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من

---

(١) راجع الأمة الإنسانية لأحمد حسين.

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

نعــم.. ونهانـــا عـــن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصـــيام، ونحن صدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومـــنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».

سمـــع النجاشي كل ذلك في هدوء ثم قال : هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟.

قال جعفر: نعم.

قال النجاشي فاقرأه علي، فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم.

وهـــناك موقف آخر شبيه بذلك الموقف، حيث وقف صحابي يقول لرستم قائد جيش الفرس إذ ذاك: إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، وإنما طلبنا وهمنا الآخرة .

فقال له رستم: ما دين الإسلام ؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال: وأي شيء أيضاً؟

قال: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.. والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم.

قـــال: ما أحسن هـــذا ؟ ثم دعا رستم قومه فأنِفوا من ذلك، ثم طلبوا من سعد بن أبي وقاص رجلاً آخر يكلمهم، فأرسل ربعي بن عامر، فلما وصل إلى رســـتم داس بفرســـه على النمارق والبسط والزينة والحرير، وامتنع أن ينـــزع سلاحه، وأخذ يمزق الوســـائد والبسط، ثم ركز رمحه على البسط، ومما قال : «إنـــا قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فأعجـــب بكلامـــه رســـتم وخلا بقومه، وقال لهم: هل رأيتم كلاما أعز وأوضـــح مـــن هذا ؟ قال: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب. ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة فجلس مع رستم على سريره فأنزلوه فقال: ما أرى قوماً أسفه أحلاماً منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، وإني رأيت أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم[١].

أقـــول وكـــم من تفاوت بين ما كان عليه الإسلام في بداية انتشاره، وبين العصر الذي نعيشه نحن اليوم.

لقـــد كان أهله أعزة به، أقوياء بما أوتوا من نعمة الإيمان، رغم قلة عَددهم وعُددهم، أما اليوم فنحن أذلة رغم كثرة عددنا وعُددنا.

أسلوب الدعوة في الإسلام:

بنى الإسلام صرحه الشامخ على أسس متينة لا تقبل الطعن فيها ، فمن تلك الأسس آيات كريمة :

- ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (البقرة:٢٥٦).

(١) راجع : الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري حول سورة الفاتحة.

- ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (النحل:١٢٥).
- ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل:١٢٥).
- ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ (آل عمران:١٥٩).
- ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾ (البقرة:١٩٠).
- ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ (الإسراء:٧٠).
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات:١٣).
- ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ ﴾ (الممتحنة:٨).
- ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (المنافقون:٨).
- ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ (فاطر:٢٨).
- ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الروم:٤٧).
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ (الرعد:١١).
- ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد:٧).
- ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ (النساء:٥٨).
- ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ (الحجرات:١٠).
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

وأحاديث شريفة :

- «**مَنْ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ**» (أخرجه النسائي).
- وفي الحديث أيضاً أن الرسول ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَتْ نَفْسًا**» (أخرجه البخاري).
- وقال: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلاثًا**» (أخرجه مسلم).
- وقال: « **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**» (أخرجه أحمد).
- وقال: «**روِّحوا قلوبكم ساعة فساعة**» (أخرجه أبو داود).
- وقال: «**خير الأمور أوساطها**» (أخرجه البيهقي).
- وقال: « **أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا**» (أخرجه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).
- وقال: «**مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**» (أخرجه مسلم).
- وقال: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ**» (أخرجه مسلم).
- وقال: «**من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام**» (أخرجه أحمد والطبراني).
- وقال: « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**» (أخرجه مسلم).

- وقال: « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**» (أخرجه مسلم).
- وقال: «**ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب**» (أخرجه الطبراني).

من كتبه إلى الملوك والرؤساء:

من محمد رسول الله إلى صاحب الروم:

إني أدعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فإن لم تدخل في الإسلام فأعط الجزية، فإن الله تعالى يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية.

فأجابه إمبراطور الروم وقال:

إلى محمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك[1].

ومن وصاياه ﷺ إلى قواده وجنوده:

« **انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلا تَقْتُلُوا شَيْخًا**

(١) راجع : كتاب منهاج الصالحين، لعز الدين بليق .

فَانيًا، وَلا طِفْلاً وَلا صَغيرًا، وَلا امْرَأَةً، وَلا تَغُلُّوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»[١].

- ومن وصايا أبي بكر في الحرب:

لا تخونـــوا، ولا تغلوا، ولا تغـــدروا، ولا تمثلوا، ولا تقـــتلوا طفلاً صغيراً، ولا شـــيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة ولا بعيراً، إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له[٢].

الإسلام دين جاذب:

من هنا نعلم أن الإسلام دين قوي وجاذب، والقرآن الكريم والسنة المطهرة يحفلان بالعديد من الآيات والأحاديث التي تدل على إنسانية دين الإسلام الذي أرسله الله إلى العالمين كافة.

كيف لا وقد جاء ليكون وسطا بين الأديان جميعاً، فلا هو أقر كل الشرائع الســـابقة، ولا هـــو ألغـــى كل الشرائع السابقة، بل أخذ منها ما كان صالحاً، وأضاف إليها ما كان ناقصاً، ثم قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٤).

ومـــا انـــتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وخضعت له أرض الجزيرة العربية، بل بعض البلاد المجاورة أيضاً.

(١) أخرجه أبو داود؛ راجع : فقه السنة للسيد سابق.
(٢) راجع : المرجع السابق.

ثم قــام الخلفــاء الراشدون من بعده، وأوصلوا رسالة الإسلام إلى خارج الجزيــرة، حيث امتد الإسلام من المدينة المنورة إلى إسبانيا، وإلى قلب أفريقيا، والصين، والهند، وغيرها من أرجاء العالم.

ومـــا يجب أن نعلمه أن الإسلام لم ينتشر فـــي أقطار الدنيا بقوة السيف، كمـــا يقول أعداء الإسلام، بل لما يتمتع به من عدل وإنصاف ونشـــر للحرية، ولمـــا كان يتمتع به رسول الإسلام ﷺ من قوة شخصية، وقدرة على الإقناع، وقد شهد له بذلك كل المنصفين.

هذا هو الدكتور " مايكل هارت "، وهو مفكر غربي، يقول:

«إن اختـــياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كـــثيراً مـــن القراء إلـــى حد قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقادي أن محمـــداً ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز فـــي كلا المستويين، الديني والدنيوي.

لقـــد أســـس محمد ﷺ أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالمـــيين السياسيين العظام، ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً تقريباً على وفاته لا يزال تأثيره قوياً عارماً»[1].

ويقول الباحث الإنجليزي "مونتجمري وات":

«كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام تملكنا الذهول أمام عظمة مـــثل هـــذا العمل، ولاشك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصاً للـــنجاح لم تـــتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى

(1) راجع كتابه : المائة الأوائل.

الظروف تماماً فلو لم يكن نبياً، ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله، ويقتنع بشكل ثابت بأن الله أرسله لما كتب فصلاً مهماً في تاريخ الإنسانية.

ولي أمـــل أن هـــذه الدراســـة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم»[١].

سرّ جاذبية الإسلام:

نستطيع القول: إن سر جاذبية الإسلام يكمن في أنه لم يبـــن على الإكراه ولا على الخداع ولا على الظلم، بل على العدل والإنصاف والرحمة والتسامح.

وهـــا هـــو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخرج من صلاة الفجر من المسجد ليجد على باب المسجد رجلاً طاعناً في السن يرتعد ويرتجف من البرد، فيسأله من أنت؟

فيقول: أنا فلان اليهودي، فيقول له عمر: وما الذي أتى بك ها هنا؟

فـــيرد الـــيهودي: الجوع والفقر والحاجة، فيأخذه عمر إلى بيت المال وهو يقـــول: «والله ما أنصفناك لو أكلنا شبابك، ثم ظلمنا شيخوختك»، وأمر بعد ذلك بأن يجرى له راتب شهري.

ويقـــول المفكر الفرنسي المسلم " روجيه جارودي ": «لا يمكن أن نفسر ظاهرة انتشار الإسلام بعوامل خارجية كالضعف البالغ أو الانحلال، الذي انتاب الإمـــبراطورية الرومانـــية الشرقية والساسانية والفيزيفون في إسبانيا، ولا يمكن تفسيرها بعوامل عسكرية صرفة».

---

(١) راجع كتابه: محمد في المدينة.

ولكن الأسباب العميقة لذلك الانتشار أسباب داخلية تتصل بجوهر الإسلام وروحـــه، فعشية موت النبي وعلى مدى اثنتي عشرة سنة (من ٦٣٣ إلى ٦٤٥) تمت سيطرة العرب على فلسطين وسورية وما بين النهرين ومصر، و لم تقف في وجـــه الموجـــة الأولى إلا الحواجـــز الطبيعية كسلسلة جبال طوروس في آسيا الوسطى، وجبال شرق إيران، وصحارى ليبيا والنوبة في الغرب[1].

نعم وتدافعت الأمم على اعتناق دين الإسلام، ولغة القرآن، عندما وجدوا أن هذا الدين جاء ليحرر رقابهم من نير الاستعباد، ويفتح أمامهم باب الحريات عـــلى مصراعيه، أليس عمر بن الخطاب هو القائل: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»؟

ثم إن إلغـــاء نظام الطبقية جعل الناس يقتنعون بعظمة هذا الدين، فمتى كان الحاكم و المحكوم يتساوون أمام القضاء ؟ و لكن نبي الإسلام ﷺ أعلن ذلك منذ أول يوم من الدعوة حيث قال : « **وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[2].

وفـــــي عرفات وأمام جموع الحجـــيج نادى عمر: أين القبطي المتظلم من ابن عمرو بن العاص والي مصر؟

فجـــاءه، وكان عمر قد أمر عمر بإحضار ابن عمرو بن العاص ووالده، ثم قال للقبطي: خذ درتي هذه واضرب بها ابن الأكرمين.

وبعد أن اقتص القبطي منه قال له عمر ضعها على صلعة عمرو بن العاص، لأن الابن لم يتجرأ عليك إلا بفضل منصب أبيه.

(١) راجع كتابه: ما بعد به الإسلام.
(٢) أخرجه البخاري.

الله أكـــبر.. وهـــل مـــن عدالة أكبر من هذه العدالة، ثم كيف لا تريد أن ينجذب الناس إلى هذا الدين الذي يبني حكمه على الشورى لا الطبقية؟

وهاهو أبو بكر الخليفة الأول للرسول ﷺ يقول في أول يوم من حكمه: إني قـــد وليـــت علـــيكم ولســـت بخير منكم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق، إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله.

هذا المنطق لاشـــك أنه يجعل دين الإسلام أكثر جاذبـــية من أي دين، لأنه لا يفرق بين جنس وجنس، ولا جنسية وجنسية، ولا لون ولون، إلا بالتقوى، والأكرم عند الله لا بالمال ولا بالجاه بل بالتقوى.

والتقوى ليست ثياباً تلبس، بل سلوكاً وممارسة إنسانية مع الناس والحيوان والجمـــاد ، وإن لم يكن كذلك فما الذي فضل بلالاً الحبشي وسلمان الفارسي على أبي لهب القرشي؟

وإلى ذلك أشار الشاعر:

علـــيك بتقوى الله فيما تريده ... ولا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقـــد وضع الكفر الشريف أبا لهب

هل بقي الإسلام قوياً؟

قلـــنا: إن الإســـلام عـــندما انتشر وصارت الجزيرة وما حولها قوة واحدة متماسكة كالجسد الواحد، لم يكن ذلك بفضل التفوق العسكري، ولا التفوق الاقتصـــادي، ولا الزيادة السكانية، بل لأنه جمع الناس على عقيدة بالله الواحد والكـــتاب الواحد، والرسول ﷺ الواحد فكان أول ما فعله عندما أسس المجتمع

المدني هو: بناء المسجد، والمؤاخاة بين المسلمين، وكتابة الوثيقة.. ولكل من هذه الأسس مدلولاته الخاصة به.

فمن المعلوم أن الرسول ﷺ عندما قدم إلى المدينة وجد مجتمعاً مختلطاً من الأنصار والمهاجرين واليهود، وكان المجتمع شبيهاً بمجتمع اليوم، حيث لا مناص من الحياة مع هؤلاء أو مع غيرهم، فكان لا بد من أن يضع نظاماً للتعايش السلمي بحيث يضمن لكل منهم حقه في الحياة مع الاحتفاظ بالإسلام قوياً.

فبنى المسجد أولاً، والمسجد في ذلك الوقت يعني الجامعة، ووزارة الدفاع، والبرلمان، ومجلس الشورى، والنادي في يومنا هذا، وكانوا يلتقون فيه كل يوم خمس مرات ويقفون صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص، وهو القائد الذي يؤمهم.

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أذاب الطبقية والتمييز بسبب اختلاف الأجناس والألوان، فصارت القاعدة التي تجمع الكل هي: الوحدة والتعاون والتضامن والمساواة والعدل .

ثم كتب الوثيقة التاريخية التي كانت بمثابة دستور يضمن حقوق المسلمين واليهود العائشين في المدينة.

يقول ابن هشام: «إن الرسول ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم».

كان هذا الكتاب عبارة عن (١٤) مادة، تتضمن كل مادة جانباً من جوانب الحياة التي يجب على المسلمين واليهود أن يراعوها، وبذلك وضع النظام، وأرسى دعائم العدل في المجتمع[1].

(1) راجع السيرة النبوية للمؤلف.

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : تدل هذه الوثيقة على أحكام مهمة منها أن:

١- الإسلام وحده القادر على تأليف وحدة المسلمين.

٢- ضرورة إقرار مبدأ التكافل و التضامن في المجتمع.

٣- ضرورة المساواة بين المسلم والمسلم، وبين الذكر والأنثى، بل إنصاف غير المسلم في الحقوق.

٤- ضرورة الرجوع إلى شريعة الله في حل الخصومات وشؤون الحياة[١].

أقول: ويتضح من هذا أن الإسلام لم يكن مواد نظرية غير قابلة للتطبيق، و لم يكن مواد صماء، بل روحاً و مادة، مما أوجد للمجتمع توازناً وتماسكاً بين ما يعتقده وما يمارسه، وأوجد انسجاماً بين فئات المجتمع مما جعل كل فئاته تشعر بالراحة من هذا الدين الجديد، كيف لا وقد عانت من التفكك والانهيار والطبقية والظلم كثيراً.

يقول المؤرخ الإيطالي "كايتاني": «إن معاقل المسيحية في الشرق قد تهاوت أمام المد الإسلامي بسبب تلك الجاذبية وسطوع مبادئه، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان العرب، ولا عجب فقد منح الإسلام العبد رجاءً، والإنسانية إخاءً، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية»[٢].

ويقول المفكر "برج": «ليس هناك من مجتمع غير المجتمع الإسلامي سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للإسلام في توحيد الأجناس الإنسانية المختلفة مع

---

(١) راجع كتابه: فقه السيرة النبوية.

(٢) راجع كتاب: حوليات الإسلام.

التسوية بينها في المكانة والعمل، وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة».[1]

إذن هــذه هي الأسس التي قام عليها الإسلام، وكان سر عظمته في تمسك أهله بمبادئه، والسير على نهجه القويم .

وما أن تراجع المسلمون عن هذه المبادئ حتى تراجع تفوقهم أيضاً، فصاروا يســجلون أرقامــاً تنازلية، رغم أنهم بقوا يظنون بأنهم مازالوا أقوياء، فصاروا يفاخرون الآخرين بعظــام الآباء والأجداد في حين أن أعمالهم تكذب واقعهم، ما ذلك إلا لأنهم كانوا متوهمين وما زالوا.

لماذا تأخر المسلمون ؟

قــبل أن نبحــث عن أسباب تأخر المسلمين يجب أن نذكر أنفسنا بأسباب تقدمهم، فالإنجازات التي سجلها الإسلام عبر عصوره الذهبية لم تكن كأي ثقافة، وإنما كانت شريعة، لذلك فإنها ظلت حضارة باقية وستبقى حتى لو فني أهلها.

أما لو كانت مجرد ثقافة ذهنية فكان من الممكن أن تندرس كما تندرس أي ثقافة مع اندراس أهلها .

يقول الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، رحمه الله:

«أكــثر الباحثين العرب خصص اصطلاح الثقافة لمفهوم الرقي في الجوانب الروحــية والأدبية من دين وأخلاق وفلسفة ولغة وفنون ، وخصص اصطلاح المدنــية لمفهــوم الرقي في الجوانب المادية من علوم طبيعية وهندسية واختراع واكتشــاف.. ومن الثقافة والمدنية تتكون الحضارة، وهي لها تعاريف عدة عند

(١) راجع كتاب: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، لمحمد شريف الشيباني.

العــلماء، وقــد عــرفها المعجــم الوســيط بأنها مظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضر».

ثم يقول الأميري: «أما في فهمي الخاص فالحضارة هي تحقيق غرض الوجود البشــري في إعمــار الأرض ومن نواميس الله بأسمى شكل تتجلى فيه إنسانية "الإنسان الخليفية"، والدين هو الدستور العام للوجود الإنساني»[1].

وبالمناســبة يقول الكثيرون عن حضارتنا إنها حضارة عربية، وإنني لا أوافق على ذلك، لأن الحضارة العربية لا قيمة لها إذا لم تقترن بالإسلام، والعلاقة التي بين العروبة والإسلام كالعلاقة التي بين القشرة واللب.

نعم.. إن العرب أعزهم الله بالإسلام، وجوهر الإسلام هو هذا القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين ، فالإسلام هو القرآن ، والقرآن هو الإسلام .

والقــرآن لم ينــزل للعرب وحدهم، بدليل أن محتواه من الأحكام و القيم موجــه إلى الــناس كافــة، وهو لم يهمل مبدأ الإنسانية التي تلتقي تحتها كل الأجناس وكل الألوان، بجانب تركيزه على القيم الأخلاقية، وبها أسقط التفاخر بالأنساب والمناصب.

وهذا يعني أن صهيب الرومي أفضل من أبي لهب القرشي، وبلال أفضل من أبي جهل القرشي، والسبب هو الإسلام .

أمــا في الجاهلية فلم يكن الأمر كذلك، بل كان فلان من الناس يكرم لأنه من القبيلة الفلانية، وفلان يهان ويهضم حقه لأنه من القبيلة الفلانية، وقد ورد

---

(١) راجع الإسلام وأزمة الحضارة للمؤلف .

في كتب الأدب قول الشاعر :

لـــو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنوا اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ويقول آخر:

ونشـــرب إن وردنـــا المـــاء صفواً ويشـــرب غيرنا كدراً و طينا

أما في الإسلام فإننا نجد أن الرسول ﷺ يقول لرجل قد دخل عليه مرة وقد أخذتـــه الهيـــبة: «**هَـــوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِك، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»[1].

ويجد الأعرابيُّ عمرَ رضي الله عنه، وهو أمير المؤمنين، قد نام تحت شجرة، واتخذ من التراب وسادة له، فيسأل الأعرابي: أهذا هو أمير المؤمنين؟

فيقال له نعم، فيقول مخاطباً إياه: حكمت فعدلت، فسلمت، فنمت يا عمر.

إذن هيبة الرسول ﷺ ليست في أنه قرشي النسب، وهيبة عمر ليست في أنه أمـــير المؤمـــنين ، بل لأنهما وعاءان لمكارم الأخلاق التي لا يمكن أن يظلم أحد أحداً في ظلها.

مـــن أجل ذلك فإن سياسياً بارزاً مثل شارل ديجول يقول: «إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئاً ثميناً جداً تحت وطأة تقدمها الضخم، ألا وهو الإنسانية، وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا».

ومن المعلوم أن ديجول كان يميل إلى الاقتراب من العالم العربي والإسلامي كـــثيراً، وعـــندما ســـئل عن السر قال: «أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية

(1) أخرجه ابن ماجه.

والإســـلامية التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها سينقذنا من مغبات حضارتنا».

أقـــول وما أحوج العالم الغربي إلى زعيم أوروبي مثل ديجول ليتكلم بالعدل والإنصاف في هذا اليوم الذي تكالبت الأمم على العرب والمسلمين ، ويتهمونهم بكذا وكذا وهم ليسوا كذلك.

وإننا في حاجة إلى اعتراف مثل اعتراف الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون عندما قال: إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ، ولكن ممزقين في الروح ، ونصل بدقة إلى القمر ، وأما على الأرض فنتخبط في متاهات[1] .

الإسلام يدعو إلى العلم:

رأينا أيضاً أن الإسلام دعا إلى إعمال الفكر والعقل، وقال: إن الحكمة ضالة المؤمن ، لذلك فإن العلماء فـــي صدر الإسلام لم يجدوا باباً إلا طرقوه، ولا فناً إلا وضعوا قواعده وأسسه، وصارت كتبهم فيما بعد حقولاً للغرب التي انتبهت من غفلتها بعد أن نامت الشرق .

يقـــول الدكـــتور عباس محجوب: عبثاً نسب علماء الغرب أصول المنهج العلمي إلى اليونان، مع أن الإسلام وضع إطاراً علمياً متكاملاً مبنياً على أساس: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وانعكست آثار هذا العلم في بحوث علماء المسلمين أمثال الحسن بن الهيثم الـــذي تنسب طريقته العلمية في فلسفة العلم إلى (بيكون)، والنظرية الجسيمية للضوء في الفيزياء إلى (نيوتن)؛

(١) راجع: الإسلام وأزمة الحضارة، لعمر بهاء الدين الأميري.

وجابـــر بـــن حـــيان صاحب النظرية الجزئية في الكيمياء والتي تنسب إلى (دالتون)؛

والخازني صاحب الفكرة الجاذبية المنسوبة إلى (نيوتن)؛

وابن يونس صاحب البندول المنسوبة إلى (جاليلو)؛

والبيروني صاحب مركزية الشمس في الفلك والمنسوبة إلى (كوبرنيكوس)؛

وثابت بن قرة صاحب نظرية التفاضل والتكامل في الرياضيات والمنسوبة إلى (نيوتن ليتنتز)؛

وابن النفيس صاحب الدورة الدموية في الطب والمنسوبة إلى (هارفي)؛

وابن القيم صاحب التولد الكلي في الحيوان والمنسوبة إلى (دارون)؛

وابن خردازبه مكتشف كروية الأرض المنسوبة إلى (ماجلان)،

والغـــزالي مكتشـــف الاســـتجابات المحفوظة في علم النفس والمنسوبة إلى (بافلوف)[1].

إذن كان سبب تقدم المسلمين أن وظفوا العلم في سبيل إقامة هذه الحضارة الممتدة من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

وهذا هو رجاء الله جارودي الذي بدأ حياته ملحداً ثم اعتنق الإسلام باقتناع يؤكـــد أن حضـــارة الإسلام هي التي تصلح لإرث الأرض، والسبب أنها توطد عقيدة التوحيد، وتوفق بين الإيمان والعلم، ولا تقيم حاجزاً ولا وسيطاً بين العبد

(١) راجع: تقديم د.عباس محجوب لكتاب أساليب التربية والتعليم في الإسلام للدكتور الشيخ الأمين محمد عوض الله.

وربه، وتحفظ كرامة الإنسان، وما يحققها من العدل والحرية والشورى[1].

ويقول الشيخ طنطاوي جوهري: «إنني أدعو جميع أمم الإسلام، في مشارق الأرض ومغاربهـــا، أن يمعنوا النظر في قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ (الفـــتح:٢٨)، وفي قولـــــه تعـــالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (يونـــس:١٠١).. وكـــيف يظهره إذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية و لم نمعن في العجائب الكونية؟ ومن المعلوم أن الديانات كلها لا تتعرض لعلوم الكائنات، في حين أن الإسلام يدعو إليها ويأمر بها».

ثم يقول: «والأحكام الشرعية التي تدرس في بلاد الإسلام آياتها محدودات، أمـــا آيات العلوم الكونية فإنها تبلغ نحو ٧٥٠ آية، كلها في عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه[2].

والقـــرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لا تتعارض آياته مع ما أقره الحديث، كما يقول الفرنسي المسلم "موريس بوكاي"[3].

إذن الديـــن ليس صلاة فقط تؤدى في المساجد، بل صلاة وإعمال فكر في ملكـــوت الله، وابتكارات في حقول العلم والمعرفة ويتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:١).

ثم إن الإســـلام دين الجماعة، ولقد دعا إلى الاتحاد والتعاون ونبذ الخلاف والاندمـــاج والتكامل، وجعل القرآن العظيم هو محور التلاقي، وصلة الربط بين

(١) راجع: الإسلام وأزمة الحضارة، لعمر بهاء الدين.

(٢) راجع: الجواهر في تفسير القرآن الكريم حول سورة الفاتحة.

(٣) راجع: الإسلام كبديل للدكتور مراد هوفمان، نقلاً عن كتابه: الإنجيل والقرآن والعلوم الطبيعية.

الجنسيات المتعددة والأهواء المختلفة، قال الله تعالى:﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران:١٠٣).. وقال أيضاً: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (المائدة:٢).

وقال الرسولﷺ:«...مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلا أَنْ يَرْجِعَ »[1].

في الإسلام القدوة الحسنة:

من أسباب تقدم المسلمين الأوائل أيضاً أنهم كانوا قدوة حسنة لمن خلفهم، فعندما فضلوا شظف العيش على التنعم جعلهم ذلك موضع احترام العالم الذي جرى وراء الرفاهية، وقد فعلوا ذلك اقتداءً بنبيهم.

يقول الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: «إذا أراد أحدكم أن يحفظ أحاديث الرسول ﷺ فليعمل بها».

ثم يقول: وإنني قرأت ذات يوم أن الرسول ﷺ احتجم ثم أعطى للحجام ديناراً، فذهبت إلى السوق واحتجمت وأعطيته ديناراً عملاً بالحديث الشريف».

ورؤي الإمام الجنيد، رحمه الله، في المقام فقيل له: ما فعل الله بك يا أبا عبد الله؟ قال: «لقد ذهبت تلك العبارات، واختفت تلك الإشارات، و لم ينفعنا إلا ركيعات كنا نركعها وقت السحر».

إذن لم ينل المسلمون الأوائل ما نالوا إلا بالجد والسهر، لعلمهم أن الجنة حُفّت بالمكاره ، وحُفّت النار بالشهوات، فهل انتبه المسلمون اليوم لهذا ؟

(1) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

نعم.. ظلت الأمة العربية والإسلامية برهة من الزمن تحافظ على هذه الركائز والقيم والسلوكات، واستطاعت أن تفرض هيبتها على الدول، وكم كانت الدول الكبرى آنذاك تحسب لها الحساب، وتعلم أنها أمة العلم والعمل، وأمة الجد والتضحية والفداء.

يروى أن هرقل عظيم الروم أرسل إلى أحد حكامه في القرن السابع رسولاً يعنّفه لعجزه عن صد جيوش المسلمين، فرد عليه الحاكم قائلاً: إنهم أقل منا عدداً، ولكن عربياً واحداً يعادل مئة من رجالنا، ذلك أنهم لا يطمعون في شيء من متاع الدنيا، ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط.. هذا في الوقت الذي يرغبون في الاستشهاد لأنه أفضل طريق إلى الجنة، في حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ، ونخشى الموت ياسيدي الإمبراطور[1].

وبالمقابل تعال وانظر لترى اليوم الأمة الإسلامية كيف تعيش في أبشع صورة من التخاذل والضعف والهوان، حيث نراهم يتعاطون الموبقات ولا يتغير لها وجه أحد منهم، وتستباح بلادهم وأعراضهم فلا نجد فيهم صاحب نخوة أو غيرة أو مروءة، وما أجمل قول الشاعر في أمثالهم .

مررت على المروءة وهي تبكي	فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي	جميعاً دون خلق الله ماتوا

إننا اليوم ينطبق علينا حديث الرسول ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟قَالَ:

(1) راجع تاريخ التربية للدكتور شفيق منير سليمان.

بَـلْ أَنْـتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَـنَّ اللَّهُ فِـي قُلُوبِـكُمُ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[1].

كيف ننهض ثانية؟

بدأ الإسلام ضعيفاً ثم اكتسب قوة، و لم يكن يقوى لولا أن المسلمين أخذوا بأسباب القوة والنصر.

والـيوم ما نرى من ضعف وتشتت وهوان ليس الإسلام سبباً فيه، بل نحن المسـلمين ، وإلا فـإن الله سبحانه وتعالى ضمن لنا العزة والنصر كما ضمن لأسلافنا حيث قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون:٨)، وقال أيضاً: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم:٤٧).

لكن يا ترى هل نحن اليوم أهلٌ للنصرة أم لا ؟

إذا قلنا لا فإن المطلوب أن نغير موقفنا ونعود إلى رحاب التقوى ، لأن الله يقول: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ولن نكون مؤمنين مادمنا نعظم غير الله أكثر من الله، ونحب الدنيا أكثر من الآخرة، وندعي الإسلام ولسنا بمسلمين.

إذن لا ينـتظر أن تنفتح أبواب السماء ما لم تستجب الأرض لنداء الباري، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١).

(1) اخرجه ابوداود واحمد.

ولقد أحسن الداعية الإسلامي العلامة أبو الحسن الندوي، رحمه الله، عندما قال: «إن رسالة الإسلام واضحة، والعالم الإسلامي اليوم لا ينهض إلا بالرسالة الأولى التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى».

إذن لابــد من الاستعداد الروحي، والاستعداد الصناعي والحربي، والتنظيم العــلمي الجديد ثم يقول: «وبرغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فــإنهم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تنافس الأمم الغربية في قيادة العالم، والــتي يعــزم علــيها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح»[1].

من هنا أقول: علينا نحن المسلمين أن نخطو عدة خطوات إذا أردنا أن تعود إلينا العزة والكرامة.

أولاً: يجب أن لا يداخلنا الشك في نصرة الله لنا متى تمسكنا بالدين من ألفه إلى يائــه، ذلــك أن الشك يخرجنا من دائرة الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات:١٥).

ثانــياً: يجب أن نعــد للنصر بالمال والعــتاد، إذ لا يكفي المال وحــده، ولا السلاح وحده.

والمال يجب أن يوجه حيث الاستثمار الأفضل، والسلاح يجب أن يكون من جــنس ســلاح العصر، لا أن نربي خيولاً ونحمل خناجر، ونظن أنهما وسائل الحرب، نظراً لأنهما كانا كذلك في صدر الإسلام.

(١) راجع: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للعلامة أبي الحسن الندوي، رحمه الله.

ثالثاً: يجب أن نتعاون فيما بيننا نحن المسلمين، وننسى الخلافات حتى تتلاشى الحدود الجغرافية، والفوارق الطبقية.

والحـــدود الجغرافية ما وجدت إلا لتكون بوابات تحجز بعضنا عن بعض، فـــلا تواصل ولا تراحم ولا تناصر، ولو كانت الحـــدود الجغرافية قائمة قديماً كما هي اليوم لما هب المعتصم لنجدة المرأة التي استغاثت به قائلة: وامعتصماه.

ثم إن التعاون والتناصر يجب أن يتجلى في أوقات السلم أولاً وإلا لن تجد له أثراً في أوقات الحرب.

وممـــا يـــروى عن تناصر الأجانب بعضهم لبعض ما يرويه الأمير شكيب أرســـلان حيث يقول: حدثني رجل ثقة أنه يعرف إنجليزياً ذا منصب في الشرق كـــان يأمـــر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل إنجليزي في البلد الذي هم فيها.

فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه به ٢٠ جنيهاً في الشهر، فسأله الإنجلـــيزي كـــيف وفرت هذا ؟ قال الخادم: تركنا دكان الإنجليزي الذي كنا نشتري منه، وصرنا نشتري من دكان أحد الأهالي من العرب.

فقال له الإنجليزي: ارجع إلى دكان الإنجليزي الذي كنا نشتري منه.

فقال الخادم: إنه يبيع بأغلى.

قال الإنجليزي: ولو كان ذلك.

رابعـــاً: يجب أن نكافح الجهل ونقبل على تعلم العلوم التي بها انتصر الغرب علينا، رغم أن الكنيسة وقفت تؤيد الجهل ضد العلم.

أما نحن المسلمين فقد دعانا ديننا منذ بزوغ فجره إلى القراءة وطلب العلم، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:١-٥).

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٨).

نعم.. ولن نستطيع أن نحقق أي تقدم علمي إذا وقفنا بين جاحد وجامد، لذا فإن المطلوب أن نحرر الفكر ولا نعقّد الحياة ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قال ذات مرة: « **أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[1].

ثم إن تراثنا الإسلامي مليء بالنصوص التي تدل على أن الإسلام يقبل التطور، فحديث مثل: « **تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّه، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إلا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلاَّ الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ**»[2]، ألا يعني هذا الحديث وغيره أن الدين مرن في تعامله مع الحياة[3].

خامساً: يجب أن نستعيد الثقة بأنفسنا، وإنني أسمع الكثيرين يقولون: لقد سبقنا الغرب بعشرات من السنين، ولا جدوى من محاولة النهوض.

أعتقد أن هذا هو اليأس بعينه، وفي ظله لا يمكن أن تكون نهضة أو حياة.

لذلك فإننا يجب علينا أن نستلهم من أسلافنا روح العمل ، ونردد قول ابن الوردي :

لا تقل قد ذهبت أربابه   كل من سار على الدرب وصل

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه أحمد.
(٣) راجع من أجل صحوة راشدة للدكتور القرضاوي.

والــثقة بالنفس لا أعني بها الاتكال، بل التوكل على الله أولاً، ثم الاعتداد بالنفس وهو من قبيل الأخذ بالأسباب.

ولكــي نستعيد هذه الثقة بأنفسنا يجب أن نبدّل منظارنا الأسود، ولا ننظر إلى العالم نظرة احتقار، ولا نختار الدرب الأصعب، وصدق الشيخ القرضاوي إذ يقــول: الإسلام الذي ننشده هو الإسلام الأول، إسلام القرآن والسنة، إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناحر، والتسامح لا التعصــب، والجــوهر لا الشكل ، والعمل لا الجــدل ، والعطاء لا الادعاء ، والاجتهاد لا التبلد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيّب، والوسطية لا الغلو ولا التقصير.

سادساً: يــجب أن نستعد للفداء، إذ لا يمكن أن نســجل أي انتصــار ما لم نقدم تضحيات مادية وبشرية.

وإن الــذي لا يضحي بالنفس والنفيس ومع ذلك يرجو السلامة مثله مثل الــثور الذي ضحى بالثورين الأبيض والأحمر ظناً منه أنه سوف ينفرد بالمرعى ويبســط ســلطانه على الحياة.. ولكن عندما رأى الذئاب التي هاجمت الثور الأبيض والأحمر هاجمته في النهاية قال: أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

ويعني بذلك أنه كان من الواجب أن يخاطر بنفسه ويدافع عن الثور الأبيض مــنذ الــلحظة الأولى، وقبل فــوات الأوان، لعله إذا أنقذه ينقذ نفسه أيضاً، ولكنه لم يفعل تــهاوناً منه فدفع الثمن غالياً، وإننا ســوف ندفع الثمن غالياً.. أليس كذلك؟

الخاتمة

استعرضنا في هذا الموجز كيف بدأت النبوة الأولى وكيف انتهت إلى النبوة الخاتمة، والنبوة الخاتمة كيف انطلقت قوية من قلب الجزيرة العربية إلى العالم كافة لتحمل إلى البشرية وسطية الإسلام.

فالوسطية الأولى كانت عندما اختار الله الكعبة قبلة العالم إلى الأبد.

والوسطية الثانية عندما اختار الله الإسلام ديناً خاتماً للأديان السماوية.

والوسطية الثالثة :اختيار الله محمداً ﷺ من العرب، ونبياً خاتماً للأنبياء والمرسلين.

إذن تبقى حمل أمانة الرسالة الخاتمة مسؤولية العرب بالدرجة الأولى، لأن الله اختارهم أهلاً لحمل هذه الرسالة.

ولكي يبقى الإسلام ميثاق الشرف لأبناء الجزيرة العربية الذين انتهت إليهم الخلافة الإسلامية، يجب عليهم أن يكونوا أوفياء لهذا الميثاق، لأن فيه عزهم وكرامتهم، وهم المعنيون بالحديث القائل: **«إنَّ هذَا الأَمْرَ في قُرَيْشٍ، لا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إلا كَبَّهُ اللهُ في النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ»**[1].

إذن ليس من قبيل الصدفة أن نرى أنظار العالم تتجه إلى هذه البقعة من الأرض، بل لعلمهم بأهمية الدور الذي سوف تلعبه شبه الجزيرة العربية في إدارة العالم.. إنها موطن أقدس مقدسات العالم، ومهبط أفضل الخلق على الإطلاق، وفيها تكمن أغنى مناطق العالم من حيث الثروة البترولية التي من أجلها تكالبت علينا الأمم اليوم.

فلنكن إذن كما أراد الله منا، وما علينا من تقلبات الزمن ،فالله متم نوره ولو كره الكافرون.

(1) أخرجه البخاري.

السبيل لمعاودة الدور الرسالي

الدكتور عبد الرزاق خليفة الشايجي (*)

السبيل إلى معاودة الإخراج من جديد يتطلب: إعادة البناء الفكري، والاهتمام بالعربية والبحث العلمي، وتحقيق التوحد بين أبناء المنطقة، والحفاظ على ثرواتها، وتفعيل نظامها السياسي والإداري والقضائي، وتبني سياسة الاستراتيجيات، والمحاسبة وفق أصولها وقواعدها، وإبراز دورها الحضاري والتواصل مع (الآخر).

بعد تصوير الواقع الذي تعيشه منطقة الجزيرة العربية اليوم ، وتقييم هذا الواقع في ضوء المنهاج الرباني، وأحوال العالم من حولها، وبعد تصوير العقبات والمعوِّقات التي تقف حجر عثرة في سبيل عودة هذه المنطقة لأداء دورها الرسالي، والحضاري، فتسعد، وترحم غيرها من العالمين، بعد هذا كله يأتي الحديث عن سبل خروج المنطقة من محنتها، وبعثها لأداء الدور الريادي والحضاري المنوط بها.

وتتلخص هذه السبل فيما يأتي:

(*) العميد المساعد للشؤون الأكاديمية والدراسات العليا في جامعة الكويت (سابقاً)، رئيس مجلس إدارة مركز المشكاة للبحوث والاستشارات (دولة الكويت).

السبيل الأولى: إعادة البناء الفكري:

وذلك يقتضي الإلمام بفروع عدة من الفقه، نذكر منها:

١- فقه الواقع .

٢- فقه التمكين .

٣- فقه الموازنات .

٤- فقه الأولويات .

٥- فقه المقاصد .

٦- فقه السُّنن النفسية .

٧- فقه السُّنن الاجتماعية .

٨- فقه الدعوة والإعلام .

٩- فقه التربية والتأديب .

١٠- فقه الحركة .

١١- فقه الخلاف والاختلاف .

١٢- فقه المكائد والمؤامرات .

١٣- فقه الحذر والحيطة .

١٤- فقه الجندية والقيادة .

١٥- فقه التزكية والسلوك .

١٦- فقه الاجتهاد .

١٧- فقه الجهاد .

١٨- فقه العلاقات العامة .

١٩- فقه تنمية التفكير .

٢٠- فقه الإبداع والنجاح .

٢١- فقه الاستراتيجيات واستشراف المستقبل .

٢٢- فقه العولمة.

إلى غير ذلك من فروع الفقه.

إن إعادة البناء الفكري لأبناء المنطقة على كلّ ما ذُكر آنفاً، من شأنه أن يُسهم في رسم معالم الشخصية الجامعة بين الأصالة والمعاصرة، والقادرة على الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.. ولا شك أن هذا مطلب يحتاج إلى تفاعل كلّ المحاضن، من البيت والمدرسة، والمجتمع والدولة، وتكاتفها مع بعضها بعضاً، والانتفاع بأحدث أساليب التعليم، والتدريب، وطول النفس، مع الصبر والتحمل، والعمل بأمانة، وصدق، وجدية، والضراعة الدائمة إلى الله أن يمنح التوفيق والسداد، والهدى، والرشاد .

السبيل الثانية: إعادة البناء النفسي:

وذلك بصورة تسهم في الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة:

إن البناء النفسي الصحيح على أساس من قيمنا الأصيلة، التي لا ترفض كل جديد لا يتعارض معها، إنما هو ضرورة لابد منها للخروج من المحنة واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.

غـــير أن إعـــادة هذا البناء ليسث بالأمر الهيِّن، ولا بالأمر اليسير، في ضوء عقبات ومعوِّقات الطريق، ومن أبرزها موروثات فكرية بالية عن المرأة، ودورها في الحـــياة، وكذلك عن الأقليات في الدولة الإسلامية، وحقوقها، وواجباتها، ثم هـــذه الـــثقافات الوافدة علينا، وما فيها من سقوط وانحراف، وتدخل غيرنا في حياتـــنا، وإصراره على أن يكون البناء النفسي لدينا وفق منهاجه ومنظومته، ثم طبـــيعة النفس البشرية وما تنطوي عليه من ضعف، وتقلب، وكذلك شياطين الإنس المتربصيـــن بالناس، والقاعدين لهم بكل طريق، وأيضاً أصدقاء الســـوء وما يلحقونه بنا من انحراف عن الطريق السوي، وكذلك والدنيا وما أقدمت به علينا من ثروات، وترف ورفاهية.

وإذا كـــان الأمر كذلك فإنه لابد من إحياء منهج التربية النفسية في العصر النبوي، مع الإفادة من تجارب المربين في الدولة الإسلامية، المعروفين بالتوسط، والاعـــتدال، وســـعة الأفق، وبُعد النظر، وشمولية التفكير، كمحمد بن الحسن الشيباني، وابن جرير الطبري، وأبي الحسن القابس، ومحمد بن الحسن العامري، وحسن البنا، وأبي الحسن الندوي، وغيرهم، وغيرهم.

يضـــاف إلى ذلـــك مراعاة التدرج في هذا البناء، والمعايشة، والسير بحكمة وعلى بينة وطول النفس كذلك، والصبر والتحمل، والصدق، والجدية في ذلك، ودوام الدعـــاء أن يُخـــرج الله هذه النفوس من الظلمات إلى النور، وأن يثبتها عـــلى الطريق حتى تصل سالمة إلى برِّ السلامة، وشاطئ الأمان. على أن تشارك كـــل المحاضـــن في هذه العملية من البيت إلى المدرسة، إلى المجتمع، إلى الدولة، ويكون بينها تعاون وثيق، وتكافل تام.

السبيل الثالثة: إعادة البناء السلوكي:

على نحو يسمح بالخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة:

ذلك أن السلوك في كل أمة هو عنوانها ، وقد جاء في كتاب الله عزَّ وجلَّ قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣)، ومعلوم أن مقتضى الشهادة أن نكون مستقيمين، وإلا فكيف تقبل الشهادة من فاسق أو فاجر؟

إذن لابد أن يعاد البناء السلوكي لأهل هذه المنطقة بحيث يعودون قدوة كريمة، وأسوة طيبة في أعين العالمين كما كانوا أول مرة.. ولاشك أن هذا سيكلف الكثير والكثير، خاصة في جو انفتاح الدنيا عليهم، وإحاطتها بهم من كل جانب، إن ذلك يقتضي مجاهدات من الورع، والتوسط في تعاطي المباحات، وحمل مسؤولية العمل بالنفس بدل هذه العمالة المستوردة التي علمت الناس الكسل والاسترخاء، ولقحت العقول والسلوكيات بأفكار وثقافات ما أنزل الله بها من سلطان .

ولابد كذلك من العمل بكل الأساليب والوسائل على تصدير هذه السلوكيات المنشودة لأهل الأرض جميعاً، خاصة في موسم الحج، وأثناء الأسفار والرحلات إلى بلدان العالم الخارجي، ومن خلال وسائل الإعلام الحديثة الممثلة في الصحافة والفضائيات والإنترنت، لتتغير الصورة التي استقرت في أذهان الآخرين عن أبناء هذه المنطقة من أنهم عشّاق النساء، والكأس، ومرتادوا صالات الأوراق، والقمار.

ولعمــري إن تحقــيق ذلك يتطلب إحياء دور البيت، والمدرسة، والمجتمع، والدولــة لــتعمل جمــيعاً متعاونة مع الجد، والمثابرة، والصبر، وطول النفس، والمحاســبة، والمتابعة، والجزاء، ثم الاستعانة بالله العليِّ الكبير أن يحسِّن السلوك كمــا حسَّــن الخِلقة، إذ كان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي...**»[1].

وكــان مــن دعائه كذلك: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ وَالأَهْوَاءِ...**»[2].

ولا بأس من التذكير: أن حُسن الخُلق، واستقامة السلوك ستحمل الآخرين على التأثر والتأسي، فيكون الأجر المضاعف انطلاقاً من قوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُــدًى كَــانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً...**»[3].. ومن قوله ﷺ: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِه**»[4].

السبيل الرابعة: إحياء البناء الاجتماعي:

وذلك بصورة تؤدي للتماسك والترابط، ويكون معها الإسهام في الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة:

ذلــك أن إحــياء البناء الاجتماعي القائم على بر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والأرملة، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، ومعــرفة حق العلماء، وتفقد الغائب، وتوديع المسافر، وحُسن استقبال القادم، والمواســاة في الشدة، والتهنئة بالنعمة، والتثبيت، وحفظ أسرار الناس، ورعاية

---

(١) أخرجه أحمد.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) أخرجه مسلم.

حرمة الدماء، والأموال، والأعراض، كل ذلك سيؤدي حتماً، وبمرور الزمن إلى الترابط والتماسك، وحينئذ يمكن الإسهام في الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.

ولا شك أن هذا سيكلف كثيراً من الجهد والوقت والمال، لا سيما بعد أن انفكت عرى هذا البناء بفعل الثقافات الوافدة، والجهل، والاسترخاء، وغياب التنبيه، والتذكير، حتى غدتْ المنطقة وكأنها ليست مهد الرسالة الخاتمة، وموئل الحضارة التي أنارت السبيل، وأزاحت دياجير الظلام التي كانت سائدة في العالمين من قديم، أجل إنه سيكلف الكثير والكثير، ولكنه ضرورة لابد منها للخروج من المحنة، واسترداد الدور الرسالي المنشود، من باب:

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وهذا يقتضي كذلك تفاعل المحاضن من البيت، والمدرسة، والمجتمع، والدولة، وتعاونها وتكاتفها مع التدرج، والصبر، وطول النفس، والمحاسبة، والمتابعة، والجزاء، والتذكير الدائم، والدعوات التامات أن يقوِّي الله العزائم، ويُعلي الهمم، ويسمو بالإرادات حتى يقوى هذا البناء، ويتماسك، ويكون معه تحقيق المبتغى والهدف.

ولدينا من فضل الله مرغبات ومحفزِّات ليست لدى أيِّ أمة أخرى، وحسبنا قول الله عز وجل: ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ (الحج:٧٧)، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ (المائدة:٤٨)، ﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ ﴾ (آل عمران:١١٥).

وقول النبيﷺ: « **كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ...**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري.

السبيل الخامسة: الاهتمام باللغة العربية:

وذلـــك لكونها وعاء ثقافة المنطقة وأبرز ما يميزها عن غيرها من الأمم من قديم:

لقـــد عرفت هذه المنطقة عرفت بين بلاد العالم بالفصحى، لغة الضاد، وبها نزل القرآن الكريم، وعليها بعث النبي الأمين محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٥).

وقـــال تعـــالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٤).

وقـــد عانت العربية في هذه المرحلة من إهمال شديد ، بسبب الهجرات غير العربية، والتأثر بثقافات الأمم الأخرى ولغاتها، لسبب أو لآخر.

واليوم، لم يعد هناك مجال لهذا الإهمال، بل لابد من العمل وبسرعة وجدية على إحياء الفُصْحى من خلال البيت، والمدرسة، والمجتمع، ومؤسسات الدولة، والحـــرص عـــلى تقريـــب العلوم العلمية في الطب، وفي الهندسة، وفي الفلك، والارصاد، وطبقات الأرض، ونحوها، وأن تكون أساس التوظيف والعمل لدى الجهـــات الرسمـــية، وغـــير الرسمية، وأن يصحبها التشجيع بالجوائز السخية، والمكافـــآت المجزية، وأن يشغل الناس بكتاب الله تلاوةً وحفظاً، وفقهاً، وتدبراً، وعمـــلاً وتطبـــيقاً، وكذلـــك بسنة النبي الأمين محمد ﷺ وسيرته، فإن هذين المصـــدرين هما أحسن ما يعيد للعربية عافيتها، ويضفي عليها النضرة، والحيوية، والشـــباب، كما أنه لابد من الاشتغال بالتراث الأدبي لهذه المنطقة، وهو تراث

غـــني للغاية، من تحقيق مخطوطه، ودرس مطبوعه، واستخراج جواهره، ودفائنه، بصورة تسهم في خدمة العربية، وإحيائها من جديد.

ولعمري أن الجِد والمثابرة، وصدق العزيمة، والصبر الطويل، والاستعانة بالله، كـــل هذا يؤدي إلى ثمرات طيبة، فيظهر من جديد كعب بن مالك، والفرزدق، وأبـــو تمـــام، والبحـــتري، والمتنبي، وأبو فراس الحمداني، والكسائي، والفراء، والجـــاحظ، كمـــا تظهـــر عائشة الصدِّيقة، وهند بنت النعمان، وسكينة بنت الحسين، وهلم جرا .

وحـــين يعود هؤلاء إلى الظهور من جديد، يمكنهم أن يخطفوا الأبصار إلى المنطقة ، فتخرج من المحنة، وتعود منارةً للعالمين، كما كانت أول مرة .

السبيل السادسة: السعي نحو خطوات أكبر لتحقيق الوحدة:

لا شك أن المنطقة لا تستطيع الخروج من المحنة وأداء الدور الرسالي المنوط بهـــا في جـــو التشـــرذم، والفرقة، بل لابد من الوحدة، في الأفكار والمشاعر، والصـــدور عن رأي واحد وإن تعددت منها الأجســـاد، وتنوعت الأقـــاليم، ولا شك أن المنطقة قطعت شوطاً لا بأس به من خلال مجلس التعاون الخليجي، والأمن المشترك، والدفاع المشترك ، ونحوها.

إلا أن الأمر يقتضي المزيد.

وأول ذلك: تفعيل المؤسسات المنوط بها الاضطلاع بهذا الدور، بحيث تصبح واقعاً حياً فاعلاً لا حبراً على ورق؛ ثم العمل على توحيد مناهج التعليم، أو على الأقل: المنطلقات والسياسات والتبادل الثقافي.

وكذلك إنشاء سوق مشتركة للتبادل بكلِّ أشكاله وصوره، وتوحيد سياسة

الاستيراد والتصدير بحيث تكون الأولوية للبلدان العربية الأخرى، ثم الإسلامية، ثم ما وراء ذلك من سائر بلاد العالم، ثم قدح الذهن لابتكار ميادين أخرى تنتهي إلى تعميق الوحدة بين أبناء المنطقة.

ولاشك أن عنصر النجاح في ذلك كله يتطلب صفاء القلوب، وطهارة النفوس، والارتواء من هدي النبوة.

ولا يتحقق ذلك إلا بالتقوى والصبر واليقين، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

إن الاشتغال بالتقوى، والصبر، واليقين، ليورث محبة الله، وإذا صحَّتْ محبة الله، صحَّتْ محبة الناس .. جاء في الحديث القدسي: « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **إِنَّ اللَّهَ قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ...**»[١].

ولقول النبي ﷺ: « **إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ...**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق.

(٢) أخرجه البخاري.

السبيل السابعة: إبراز الدور الحضاري للمنطقة على مدار التاريخ:

لا شك أن تاريخ أيِّ أمة جزء من تكوينها، تنتفع بإيجابياته، وتتقى سلبياته ولدى هذه المنطقة تاريخ مشرق، ودور حضاري فاعل وبناء، حسبها أنها مهد الرسالة الخاتمة، ومنها انطلق قبس النور إلى كل أنحاء الأرض، فأضاء فيها كل جوانب الحياة .

وحسبها هذه الجوانب الحضارية: سياسية، وفكرية، وقضائية، واقتصادية، واجتماعية، وجهادية، ودعوية، وتربوية، وحسبها أولئك الأعلام الذين كانوا مشاعل على الطريق: رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، رعاةً ورعيةً، قادةً وجنداً، وحقُّ الأجيال أن تتعرف على كل ما تقدم خالياً من أي تناقض وتشويه وتحريف، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالعناية التامة من خلال المعاهد، والجامعات، ومؤسسات البحث العلمي، وتحقيق التراث، وإخراج إصدارات تتضمن ذلك، واتخاذ مواقع ثابتة على شبكات الإنترنت، وتوظيف الفضائيات في خدمة هذا الهدف.

إن ذلك لو تمّ على النحو المذكور آنفاً، وبهذه الآليات، وغيرها، سيعطي أبناء المنطقة اليوم زاداً من الإيمان، ويفجر لديهم طاقات كامنة، وقوى خفية تدفعها إلى مواصلة المسيرة إلى نهايتها، فضلاً عن منحها قدراً كبيراً من عزّة النفس، والإباء، وعدم قبول الدنيَّة، أو الإذلال من أعداء هذه المنطقة، والمتربصين، إذ كل واحد سيفاخر أنه حفيد أبي بكر الصدِّيق، وعمر الفاروق، وذي النورين عثمان، وعليٍّ الإمام، وخالد القائد، ومعاوية الأمير، وعمرو داهية العرب، وفاتح أفريقيا ابن أبي السرح، وغيرهم ممن أسهم في أن تصل رحمة الله

للعالمين أجمعين، كما أن كل واحد سيملك ما يرد به على المتربعين على عرش البشرية اليوم، الذين سرقوا ميراثنا العلمي، وعملوا على تنميته ثم وظفوه لتدمير البشرية، وكل مظاهر الحياة، وتدمير أنفسهم بعد ذلك.

بـــل أكثر من ذلك، سنجد في حضارة هذه المنطقة دفائن لم تعرفها البشرية حـــتى الـــيوم لا سيما في مجال الدراسات النفسية، والتربوية، والاجتماعية، بل والعلمـــية التجريبـــية، حينـــئذ سيُدرك العالم كله الدور الريادي، والحضاري، والقيمي للمنطقة، فيلتفت إليه التفاتـــة اقـــتداء، وتأسيٍّ، وتواضع، ومتابعـــة، لا سياســـة اســـتعلاء، وغطرسة، وتكبر، بل إذلال، واحتقار، وإهانة ومحاولة السيطرة على خيراتها، وثرواتها، والحيلولة دون الانتفاع بها.

السبيل الثامنة: الاهتمام الشديد بالبحث العلمي، خاصة التجريبي التقني:

لقـــد وضـــع الشرع الحنيف أصول متابعة البحث العلمي بقوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤).

ومـــن خلال تطبيقاته ﷺ المتمثلة في إنشاء دار لتنمية الصناعات الجهادية، وأخرى لتنمية الصناعات المدنية، وقد وعى أصحاب النبي ﷺ فمن بعدهم، إلى عصـــور الضعف والتأخر، ذلك، وأولويات عمر الفاروق فـــي ســـائر الميادين لا سيما العسكرية معروفة، وتحضير معاوية للدولة لا ينكره إلا جاهل أو حاقد، وتنمية عبد الملك بن مروان لما بدأه معاوية دليل صدق على ما نقول .

وإذا كانـــت المنطقة قد أتى عليها حين من الدهر أصابها فيه سبات عميق فتوقف فيها البحث العلمي، وصارت عالةً على غيرها، فقد آن الأوان أن تعود إلى ذلـــك مَن جديد سيِّما ولديها إمكانات تؤهلها لذلك، وفي مقدمة ما ينبغي

عمله استقدام أمهر المتخصصين خاصة في العلوم التجريبية التقنية، وتوفير الحياة الكـــريمة لهـــم، عـــلى أن يكـــون في صدر هؤلاء: العلماء المسلمون العرب، فالمسلمون من غير العرب، فغير المسلمين، وأخذ خلاصة ما عند هؤلاء، وتفعيل نـــتائج البحث العلمي إلى تقنيات تثري الحياة، وتتحرك بها إلى الأمام، على نحو مـــا صنع أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حين فكر في إنشاء الأســـطول الإســـلامي، فقد سأل عن أمهر الناس في صناعة السفن، فدل على أقباط مصر، فاستقدمهم إلى بلاد الشام، وبذل لهم أعلى الرواتب، وكان يطلب مـــنهم أن يقوموا بأمرين: صناعة السفن، وتعليم أبناء المسلمين هذه الحرفة حتى يـــأتي يوم يتحقق للدولة فيه الكفاية، وكذلك ينبغي أن يكون العمل، فإن عزَّ اســـتقدام طائفة العلماء، والباحثين المتخصصين، وما أظن ذلك يحدث، فلنرسل الـــنابهين مـــن أبـــناء المـــنطقة إلى البلد الذي فيه حاجتنا، بدءاً بالبلاد العربية والإسلامية ثم الإسلامية غير العربية، ثم بلاد غير المسلمين، ولا يتم إرسال هؤلاء إلا بعـــد الحصـــانة الفكرية، والاطمئنان على دينهم وعفتهم، وتهيئ الدولة لهم محاضن خاصة ترعاهم في غربتهم لئلا ينحرفوا عن الطريق، وعند عودتهم يجدون مـــن العناية والتقدير، وتيسير سبيل العيش ما يرغبهم البقاء في خدمة وطنهم، دون الرحيل عنها إلى بلدان أخرى.

إن ذلـــك لو تم على النحو المذكور، ليكوننَّ خطوة جادة على طريق تحرير المـــنطقة من الســـيطرة عليها ، والمضيِّ قُدماً فـــي أداء الدور الرســـالي المنوط بهذه المنطقة.

السبيل التاسعة : تعميق التواصل الحضاري مع الأمم الأخرى:

شـــهد الواقع أن المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، وكذلك الأمم، كل أمة قليلة بنفسها، كثيرة بالأمم الأخرى، وقد فتح النبي ﷺ الباب لذلك حين أخذ مـــن الحضارة الفارسية: نظام الخندق، وصنع المنجنيق "الدبابة"، وحين أخذ من الحضارة الرومانية: نظام الخاتم ليختم به على الكتب منعاً للتزوير.

ومضـــى المســـلمون في كـــل عصـــور الـــتاريخ يفيدون الأمم الأخرى، ويســـتفيدون مـــنها، شريطة ألا يتعارض ما يفد إليهم من الآخرين مع مبادئ الشرع الحنيف.

والمـــنطقة وإن كانت تتعامل مع الأمم الأخرى، وتفيد منها، لكن ما زالت المسألة في بدايتها، ولا زالت سطحية، ودون تخطيط.

والأمـــر يقتضي: النظر فيما لدينا أولاً، وما نحن بحاجة إليه، ووضع سياسة لكيفية تحصيل ذلك دون المساس بقرارنا، ثـــم تأتي مرحلة ثانية، وهـــي معرفة مـــا عند هؤلاء مما لسنا بحاجة إليه اليوم وإن كنا نحتاجه غداً، ثم وضع سياسة كذلك لاستيراده دون التأثير على قرارنا.

وحـــتى نكـــون أحراراً في قرارنا فلابد أن تكون لدينا أوراق رابحة في هذا المجال وفي غيره يمكن المساومة عليها، والدنيا من أولها إلى آخرها مساومات.

ولا ننســـى أن يكـــون هذا التواصل في كل ميادين الحياة لا في مجال بعينه بحيـــث يشـــمل: الزراعة، والصناعة، والتجارة، والمحاسبة أو الموازنة، والإعلام، والمناهج، والتربية، والمواصلات، والأمن والدفاع، والتخطيط، ونحوها، فيكون هناك إثراء للمسيرة، والعودة إلى الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.

ولا يـتم ذلك إلا بالجد، والمثابرة، والصبر، وطول النفس، وتقوى الله حتى نميز الخبيث من الطيب، وحتى يرزقنا الله فرقاناً نفرق به بين الحق والباطل، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (الأنفال:٢٩).

هـذا مـع التدرج، والتأني، بحيث نغالب قدر بقدر ونكون قادرين على تسخير السنة الإلهية الخاصة بهذا الشأن، لا أن نصادمها ونقف ضدها، حتى يبلغ الكتاب أجله، وصدق الله الذي يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق:٣).

ويقـول: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٢١).

السبيل العاشرة: الحفاظ على ثروات المنطقة، وعدم تعريضها للضياع:

دعا رب العزة سبحانه إلى الحفاظ على المال بعدم وضعه في أيدي السفهاء، الـذي لا يحسـنون التصرف، مبيناً أنه واحد من المقوِّمات الأساسية التي تقوم علـيها الحياة، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (النساء:٥).

كما أكد إنفاقه وسطاً دون إسراف وتبذير، ودون شحٍّ وتقتير، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان:٦٧).

وقـال سـبحانه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء:٢٩).

ونعى على المبذرين والمسرفين، فقال: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (الإسراء:٢٦-٢٧).

وقد امتنَّ الله على هذه المنطقة بثروات ضخمة في باطن الأرض من النفط ومشتقاته، وعلى سطحها من الزروع، والثمار، وأعطاها مخازن الرزق من الجبال، والبحار، والعيون والآبار، وواجبها الحفاظ على هذه الثروة بتوظيفها فيما خلقت له، وعدم تعريضها للضياع .

وهذا لا يتأتى إلا بسياسة مالية حكيمة تستهلك جزءاً لا مفر منه في حاجة أبنائها الضرورية والحاجية دون التحسينية والترفيهية، ثم تستثمر جزءاً ثانياً في إنشاء صناعات وطنية تستغني بها المنطقة في مستقبل حياتها، ومن أبرز ذلك: صناعات المياه المعدنية، والنفط والذهب، والحديد، وسائر المعادن، والتوسع في الزراعة، والتجارة، وتشجيع التصدير، والتقليل من الاستيراد إلا في حدود الضرورة القصوى، وحمل أبناء المنطقة على الخشونة في العيش، والزهد في الدنيا، ليشاركوا بأنفسهم في الخروج من المحنة، وأداء الدور الرسالي المنوط بهم، كما لا ينسوا حفر الآبار، وإقامة السدود للانتفاع بمياه الأمطار.

ثم تُبقي جزءاً ثالثاً للأجيال اللاحقة ، يحملهم على الدعاء لنا بعد الممات، انطلاقاً من قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠).

السبيل الحادية عشرة: تفعيل النظام السياسي، والإداري، والقضائي في المنطقة:

لا شك أن للنظام السياسي والإداري والقضائي لكل أمة دوراً كبيراً في نهوضها، أو انحطاطها، فإذا كان محكماً فاعلاً فإنه ينتهي بالأمة إلى النهوض والتقدم، وإلا كان الانحطاط والتأخر .

وحتى تتحقق هذه الفاعلية، فإنه لابد في النظام السياسي من إحياء مبدأ الشورى إحياءً حقيقياً، وأن يكون اختيار أعضائها اختياراً أميناً على أساس من الكفاية والتقوى، وأن تكون نتائجها ملزمة، لا معلمة.

كما أنه لابد في النظام الإداري من وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، وأساس ذلك أيضاً الكفاية والتقوى.

وأن تكون الرقابة الإدارية، والمحاسبية،فلسنا بأحسن من رسول الله ﷺ الذي كان يختار عماله، ويحاسبهم، وكذلك كان يصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومع هذا فإنه لابد من توفير الكفاية لهم ولأهلهم وذويهم بحيث لا تتطلع قلوبهم وأعينهم إلى ما في أيدي الناس .

أما النظام القضائي فيجب أن يكون أميناً على دين الأمة، وأبنائها، فيتحرى العدالة، ويطبق الأحكام دون تمييز بين غنيٍّ وفقير، شريف وبسيط، ويكون القضاة على درجة من الفقه تؤهلهم للاجتهاد، على الأقل، في المسائل التي يقضون فيها، ويكون لهم مجلس أعلى للقضاء يتشاور في استخراج الأحكام لكل طارئ، وجديد، وأن تكون أحكامهم نافذة، على أن يوفّر لهم أعلى حدود الكفاية، فلا تميل نفوسهم عن الحق طمعاً في دنيا، أو وجاهة، أو رئاسة، وأن تكون لهم

الحصانة التي تحملهم على الجهر بالحق دون أن تأخذهم في الله لومة لائم .

هـــذا ولا جرم أن نشير إلى أن تحقيق المقترحات المذكورة آنفاً بحيث تكون فاعلة إنما يبدأ بالإصلاح الفكري، والنفسي، والسُّلوكي، لقوله سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعــلى:١٤-١٥)، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس:٩-١٠)

ثم الـــتذكير المستمر بخطر الإمارة، والولاية، وضخامة التبعة بيـــن يَديْ الله عز وجل غداً يوم نلقاه .

ولقـــد نبَّه النبي ﷺ بعض مَن طلب الولاية لعمِّه العباس وأبي ذر رضي الله عـــنهما بخطـــر الإمارة، « **وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَة خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذي عَلَيْه فيهَا**»[1].

السبيل الثانية عشرة: تبنِّي سياسة الاستراتيجيات أو استشراف المستقبل:

المســـتقبل غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل، لكن هذا لا يمنع أن تكون هناك أهـــداف كبرى بعيدة المدى، يسعى الأفراد والجماعات، والدول في التخطيط، والتنفيذ، والجدِّ، والمثابرة للوصول إليها، وعليهم أن يستخدموا المعطيات التي في أيديهم، والظروف المحيطة بهم في استشراف المستقبل، والاستعداد له، ومباغتته قبل أن يباغتهم .

لقـــد توقـــع الصدِّيق هجوم المشركين بمعونة المنافقين عـــلى المدينة، عقب موتـــهﷺ مباشـــرةً، فاستعد لذلك بتجهيز فِرقة عسكرية يرأسها بنفسه لحماية

(١) أخرجه مسلم.

المديـــنة، وكان ما توقع، فقد أغار المشركون فجر اليوم الثالث لوفاته ﷺ على المدنـــية، فتصدَّت لهم هذه الفرقة حتى أجلتهم عن المدينة إلى مكان بعيد خارج المدينة يعرف بـــ "ذي القَصَّة"، وهناك عسكر بفرقته للدفاع عن المدينة.

ولهـــذا الأنموذج نظائر كثيرة في تاريخنا، وتاريخ الأمم المحيطة بنا، سيَّما في العصـــر الحاضر حتى صار هناك علم يسمى علم الاستراتيجيات، أو استشراف المســـتقبل.. ولا ينـــبغي أن تهمل هذه المنطقة هذا العلم، سيما والطامعون فيها كثـــيـــر، لموقعهـــا الجغـــرافي، وثرواتها، وسعة أراضيها، وعمقها الحضاري، ومنهاجها المعصوم.

وأهـــم مـــا ينبغي التركيز عليه، والتخطيط له، إنما هو خروجها من محنتها الحالـــية، واستعادة دورها الرسالي المنوط بها من الشهادة على العالمين، والأخذ بأيديهم لإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ولا يتحقق للمنطقة ما تصبو إليه إلا إذا تصور الناهون من أبنائها هذا العلم بكل أبعاده، ومعالمه، ثم هضموه وأخرجوه شهداً جنيّاً، وعسلاً مصفىً .

ولابـــد من التنقيب في ميراثنا الفكري، وممارساتنا الحضارية عن أصول هذا العلم، وإنا لواجدون ذلك إن شاء الله، وهذا لا يمنع الأخذ بما اهتدت إليه الأمم الأخـــرى في هـــذا المجال، فالكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الـــناس بهـــا، على أن يكون ذلك مضبوطاً بضوابط الشرع الحنيف، موقنين أن الأخـــذ بهذا العلم سيجعل أبناء المنطقة في جهاد مستمر إلى قيام الساعة، فضلاً عن النجاح، والوصول إلى الهدف المنشود.

السبيل الثالثة عشرة: التفكير بعيداً عن الأضواء، وبصوت غير مسموع:

شهد الواقع: أن التفكير وسط الأضواء، وبصوت مسموع يسمح للمتربصين بالاختراق، والقضاء على الخطط، أو على الأقل إجهاضها لذا كان من هديه ﷺ خدعة أعدائه تطبيقاً لقوله: «**الحرب خدعة**»[1].

وأبرز صور هذه الخدعة: الصمتُ، ودقة الحركة، والتورية، وكانت النتيجة: النجاح في كل ما قصد وأراد.

والمنطقة لا ينبغي – في خروجها من المحنة، واسترداد الدور الرسالي المنوط بها– أن تغفل هذا الجانب، فتحسن اختيار مفكريها، وصناع القرار، وتلزم هؤلاء التفكير بعيداً عن الأضواء ، وتدربهم على أن يكونوا حكماء، وعلى بينة وبصيرة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل:١٢٥). وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ (يوسف:١٠٨).

وتعلمهم أسلوب التعريض، والتورية، إذ في المعاريض مندوحة عن الكذب.

ولا يتأتّى لأبناء الأمة استيعاب هذه المضامين إلا بالتعليم، والتربية، والتدريب، وفي تاريخنا روائع تخدم هذه المضامين، كما أن في عصرنا اهتماماً كبيراً بها، حتى صارت هناك كليات ومعاهد أمنية منتشرة في كل أنحاء العالم .

وعلينا الإفادة من ذلك، لكنا نزيد على غيرنا أننا نتعلم ذلك ونتربى عليه، ونتدرب امتثالاً لأمر الشرع الحنيف، إذ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ (النساء:٧١)،

---

(١) أخرجه أبو داود : الجهاد رقم (٢٦٣٦، ٢٦٣٧).

ويقـــول: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(النساء:١٠٢)، ويقول: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة:٤٩).

ونطمـــع أن نحصـــل من وراء ذلك على الأجر والثواب، إذ في الحديث: **«الأَعْمَـــالُ بالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّه وَرَسُوله فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّه وَرَسُوله، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَة يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه »**[1]

السبيل الرابعة عشرة: تبني سياسة المحاسبة وفق أصولها، وقواعدها:

معلوم بداهةً: أن المرء إذا أيقن أن وراءه مَنْ يراقب عمله فيحاسبه على هذا العمـــل، مطلعاً إياه على إيجابياته، وسلبياته، كي ينمِّي هذه الإيجابيات ويعمل عـــلى الـــتخلص من السلبيات، وكانت هذه المحاسبة خالية من أي مجاملة أو حـــيف، إذا أيقن المرء ذلك كله عمل بيقظة، وانتباه، ودقة، وأمانة، الأمر الذي يثمر نمو العمل بسرعة، ورقيه ونجاحه.

وقـــد دعا ربُّ العزة المؤمنين إلى إتقان العمل في الدنيا وتجويده عن طريق محاســبتهم أنفسهم قبل أن يحاسبوا غداً بين يديه في يوم العرض الأكبر ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:١٨).

كمـــا دعا النبي ﷺ إلى ذلك حين قال: **«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَـــهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّه»**[2]

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وكان ﷺ يحاسب عماله، وحين يطلّع على خلل لا يسكت، من ذلك أنه اسْـتَعْمَلَ ابْـنَ الأُتْبِـيَّةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَحَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْـدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **فَهَلا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا**، ثُـمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَخَطَبَ النَّاسَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ، فَـإِنِّي أَسْتَعْمِلُ رِجَالاً مِنْكُمْ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلانِي اللَّهُ فَيَأْتِي أَحَدُكُمْ فَيَقُولُ: هَـذَا لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَهَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَبَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِـيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَوَاللَّه لا يَأْخُذُ أَحَـدُكُمْ مِنْهَا شَـيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلا جَـاءَ اللَّـهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلا فَلأَعْرِفَنَّ مَا جَاءَ اللَّهَ رَجُلٌ بِبَعِيـرٍ لَهُ رُغَـاءٌ أَوْ بِبَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ**، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ: **أَلا هَلْ بَلَّغْتُ**»[1].

وانطـلاقـاً ممـا تقدم، فإن المنطقة إذا أرادت تحقيق ما ذكر آنفاً في هذه الـرؤية المسـتقبلية بدقة وسرعة، ونجاح، فإنه لابد لها من تبني سياسة محاسبية يراعى فيها:

الكفاية، بحيث يمكن اكتشاف جوانب الخلل التي لا يقف عليها سوى ذوي الخـبرة الفائقـة، والمهـارة العالية، ومعالجتها، وهي لا تزال في أوائلها قبل أن تستفحل وتستشري، ثم مع الكفاية التقوى بحيث يشعر كل واحد في الأمة أن الأمـر يسير وفق قواعد الشرع الحنيف، فلا ظلم، ولا مجاملة، ولا تغاضي عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام.

الخلـــل مهما كانت مترلة مقترفه، وألا تكون هذه الســـياسة في يد فرد بعينه، وإنمـــا لهـــا مؤسســـة خاصة بها، وفيها درجات من القائمين على هذا الأمر يراجع بعضهم على بعض، فإن مر خلل من أحدهم لم يفطن إليه أدركه مَنْ بعده، وهكذا.

إن هـــذه السياســـة لو نفذت وفق القواعد المذكورة أثمرت النجاح والرقي بسرعة وبلوغ الهدف المنشود.

السبيل الخامسة عشرة: جدية التنفيذ لكل ما تقدم مع الاستمرار وعدم الانقطاع:

وينـــبغي ألا يغيب عن البال أنه لابد من جدية التنفيذ، وإتقانه، إذ جـــاء قولـــــه ﷺ: « **إنَّ اللَّـــهَ كَتَـــبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[1].

كما أنه لابد من الاستمرار، وعدم الانقطاع، إذ قليل العمل مع الاستمرار وعـــدم الانقطـــاع، أبرك، وأعود على المنطقة بالخير من كثير منقطع، إذ قالت عائشة رضي الله عنها: « وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»[2].

ولا يـــتأتى تحقـــيق ذلـــك إلا إذا أيقن كل واحد من أبناء هذه المنطقة أنه مسؤول بين يدي الله غداً عن كل نعمة أنعم بها عليه، إذ يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (التكاثر:٨).

ويقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر:٩٢-٩٣).

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

ويقول ﷺ: **«لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ: عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ»**(1).

إن اليقين بهذه المسؤولية سيولّد الطاقات الكامنة في النفس، وسيبرز القوى الخفية، فيظل كل واحد يعمل على النحو المرسوم حتى يلقى الله، وهنا يمكن للمنطقة الخروج للناس، ومعاودة الإحياء والبعث لأمة الرسالة، لإلحاق الرحمة بالعالمين، وثقتنا في ربنا أنه لن يتخلى عنا، ولن يخذلنا أبداً، إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد:٧)، ويقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ (الحج: ٤٠).

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين!

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الإمكانات المذخورة

الدكتور عبد الغفار محمد الشيزاوي(*)

إن العالم اليوم منتظر ومترقب لحضارة من نوع جديد، لأنموذج إنساني ولمبدأ ينشئ إنسانية سعيدة، ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الأمم، متعاونة، شاملة لنواحي الحياة، وهذه الرسالة محتاجة إلى أمة تستطيع تمثلها والاضطلاع ببعثها والتبشير بها، إنها الأمة العربية التي أعزها الله بالإسلام، والتي حدد مسؤوليتها بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

المقدمة:

الحمـــد لله رب العـــالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

لقـــد نشـــأ المجتمع الإسلامي الأول حينما انتقل الناس في أرض انبعاث الوحي والنبوة والرسالة من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك، مهتدين بهدي

(*) باحث.. أكاديمي تربوي (سلطنة عمان).

رســـولهم محمد ﷺ، منظمين حياتهم على أساس هذه العبودية لله والاهتداء برسوله تحـــت شعار: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، اتباعاً كاملاً بلا تردد: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر:٧).

فقـــام هـــذا المجـــتمع تحت راية الإسلام ورابطة العقيدة الإسلامية، راية جمعت الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر، والعربي والرومي، والفارسي والحبشي، وسائر أجناس الأرض في أمة إسلامية واحدة، الأكرم فيها هو الأتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

تشـــكل هـــذا المجتمع المسلم على الأصول والقيم الإلهية الثابتة والمنهج والنظام والقانون الذي أقام حضارة عالمية تقوم على سيادة القيم الإنسانية النبيلة، التي تنمي إنســـانية الإنســـان وحرمة الأسرة والخلافة في الأرض القائمة على تحكيم منهج الله وشريعته في شؤون الحياة.

وهـــنا ينشأ التساؤل عن أولئك الذين أقاموا هذا المجتمع وهذه الحضارة العالمية، والذين كانوا أول المستجيبين لدعوة الإسلام الخالدة، ما أصـــولهم؟ وما مكوناتهم؟ وما أحوالهم؟ وما اســـتعداداتهم؟ وما طبيعـــتهم الاجتماعية؟ وما لغاتهم ولهجاتهم؟ وهل يجمعهم تاريخ مشترك وعادات وتقاليد متجانسة؟

وقبل أن تتم الإجابة على هذه الأسئلة، يود الباحث أن ينوه إلى أن هذا البحث يـــأتي تلبـــية لمطلب من مركز البحوث والدراسات التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، لاعتزامه إعداد كتاب حول: « البعد الرسالي لمجلس التعاون: مـــن استشـــراف الماضـــي إلى إبصار المستقبل» وذلك بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في دولة قطر.

فجاء هذا البحث محتوياً على أهم المباحث في المحور الثاني: الإمكانات المذخورة، التي تتناول الإمكان التاريخي، والإمكان الثقافي والاجتماعي، والإمكان الاقتصادي.

تضـــمن الإمكـــان الـــتاريخي: الجزيرة العربية أرض الوحي والنبوة، والتجربة الحضارية التاريخية للإسلام المنبعث من أرض الجزيرة.

أمـــا الإمكان الثقافي والاجتماعي فقد تضمن عالمية الرسالة وإنسانيتها، والطاقة الروحية العالمية لقبلة المسلمين، كما تضمن عوامل التجانس بين أبناء الخليج والجزيرة العربية، الذي اشتمل على:

أولاً: أثر العقيدة والقرآن في حياة أبناء الخليج والجزيرة العربية؛

ثانياً: لغات ولهجات أبناء الخليج والجزيرة العربية؛

ثالثاً: تاريخهم المشترك؛

رابعاً: عاداقم وتقاليدهم؛

خامساً: سكان الخليج والجزيرة العربية وطبيعتهم الأسرية والقبلية؛

سادساً: الظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة العربية.

وأخيراً الإمكان الاقتصادي، الذي ورد فيه تمهيد لتوزيع الثروة بين الناس في نظر الإســـلام، والتجارة ومصادر الثروة في الخليج في العصور المختلفة.. وختم البحث موضـــوعاته بموضوع النفط باعتباره مصدر الثروة الأكثر أهمية لاقتصاد دول الخليج العربية.

أولاً: الإمكان التاريخي

١- الجزيرة العربية أرض الوحي والنبوة:

حاجة العالم إلى منقذ:

أثبتت النصوص والآثار والروايات التاريخية أن العالم كان قد فسد في القرن الذي ولد فيه الرسول محمد ﷺ، وعاش العالم في ضياع أفراداً وجماعات، وحيثما التفتنا وأنى قلبنا وجوهنا في جهات العالم الأربع فسوف لن نعثر إلا على الفساد والضياع.

ومروراً بالتجارب والممارسات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية؛ لا نجد إلا السوس ينخر في بنيان المجتمعات فيفسد كل شيء في حياتها.

إن العالم الذي بُعث فيه محمد ﷺ، عالم في أمس الحاجة إلى منقذ، وهو يفسر بوضعه الراهن ذاك، لماذا جاء الرسول ﷺ في ذلك العصر بالذات، إن القرآن الكريم ذكر طبيعة تلك الحقبة حينما قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١).

الهزة الوجدانية لشعار (لا إله إلا الله):

ما لبث الوحي الأمين أن جاء في اللحظة المناسبة والمكان المناسب، الذين اختارتهما العناية الإلهية لإرسال محمد ﷺ إلى الناس كافة، محمد الذي لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة المصير الذي ينتظره والدور الذي سيكلف بأدائه إزاء الإنسان والعالم.

وما أن اطمأن الرسول ﷺ إلى صدق رسالته في أعقاب تأكيدات خديجة رضي الله عنها وابن عمها ورقة بن نوفل وإثر تكرار نزول الوحي عليه، حتى بدأ بأمر من هذا الوحي بالعمل، فكان عليه أن يدع مرحلة العزلة والانقطاع وأن يمزق دثار الخوف والقلق والشك، وأن ينطلق ليبدأ أولى اتصالاته من أجل بناء الحلقات

الأولى من الدعاة، أولئك الذين كتب عليهم أن يتحملوا شرف الانضواء إلى أول قاعدة بشرية للدعوة الإسلامية في تاريخها الطويل.. وإذا كانت الدعوة الجديدة تتحرك تحت شعار (لا إله إلا الله) بكل أبعاده الشاملة وآفاقه الرحبة، فقد كانت تمثل رداً حاسماً على كل القيم الجاهلية.

وكان القرآن الكريم يتنزل خلال ذلك مؤكداً قضية واحدة وأمراً واحداً لم يتجاوزه إلى المسائل الأخرى إلا قليلاً، تلك هي قضية (العقيدة) التي راح القرآن يحبك بأسلوبه المعجز وآياته البينات جوانبها الشاملة وبناءها المتشابك في نفوس أتباعه وعقولهم وضمائرهم، ويحيلهم واحداً بعد الآخر ويوماً بعد يوم إلى شخوص حية تتحرك بالقرآن، فتكون حركتها تعبيراً حيوياً واقعياً عن التصور الجديد الذي طرحه القرآن.

إن التركيز والعمق الذي تميز به كل واحد من هؤلاء، جعل المنتمين إلى الإسلام قادرين بعد قليل على تحمل الضغوط الوثنية القاسية التي ستصب عليهم من أجل فتنتهم عن دينهم: تعذيباً واضطهاداً وقتلاً ونفياً وسخرية وقطيعة واحتقاراً، وعلى تجاوز المحنة السوداء وهم أصلب عوداً وأعمق ثقة وأشد إيماناً.

كم من المسلمين قادتهم إلى الإسلام تلك الهزة الوجدانية التي أحدثتها آيات القرآن الكريم الساحرة المعجزة وهي تتلى عليهم، فتغسل ضمائرهم وتزيل ران قلوبهم وتعيد ألق الذكاء إلى عقولهم، ونور اليقين إلى بصائرهم وأفئدتهم[1].

ما الذي دفع عثمان رضي الله عنه وهو في قمة قريش غنى ومكانة وأماناً ومحبة وجاهاً إلى أن يتمرد على جاهليته؟

وما الذي دفع أبا بكر رضي الله عنه وعشرا ت غيره إلى أن ينفقوا من أموالهم الخاصة التي سهروا وكدحوا على جمعها وتنميتها لينفقوها حتى آخر درهم؟

(١) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٨م، ص ٩٧-١٠٦.

وما الذي دفع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الغني المدلل إلى أن يرفض توسلات أمه وقد أوثقته رباطاً من أجل أن يرتد عن دينه، قائلاً لها: والله يا أم لو رأيتك تموتين مائة مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ما ردني ذلك عن ديني؟

إن شعار (لا إله إلا الله) الذي أمر محمد ﷺ برفعه في وجه الجاهلية، جاء انقلاباً شاملاً، على كل المستويات الإيمانية والفكرية والنفسية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والسياسية.

أحكام القرآن تصوير لجوهر الإسلام:

يصف الوحي نفسه بأنه رسالة تبين الدين والقيم، وقد عرض الوحي فكرته الأساس أو جوهره، أي التوحيد، على أنه شهادة الله بأن لا إله إلا هو.. أما بخصوص البشر فإن الإسلام يرى نفسه دين الفطرة أو الديانة الطبيعية التي فطر الله الناس عليها لما وهبهم من القدرات العقلية التي يميزون بها قوانينه أو أنساقه في جميع ميادين الحياة والعمل.

مع أن القرآن الكريم هو في الحقيقة تصوير فكري لجوهر الإسلام، الذي وضع في عبارة عربية نفيسة، فليس كل كلمة في نصه تعود إلى ذلك الجوهر بنفس الدرجة أو على نفس المستوى من الأفضلية، فاختلاف الأهمية بين عناصره المكونة لصوره الفكرية يعود بشكل جزئي إلى شموليته: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:٣٨).

وإذا كان الكتاب يشمل كل شيء فيجب أن يرتب تلك الأشياء بشكل مختلف؛ لأنها بطبيعتها لا تنتمي إلى المرتبة نفسها، ثم إن القرآن الكريم يحتوي على أسس الدين والأخلاق، إضافة إلى تشريعات تعالج الحياة اليومية، وبعض هذه التشريعات لها مكان في القرآن بسبب الأهمية البالغة لمحتواها في الخطة الإلهية الشاملة، وهذه التشريعات القرآنية التي تخص الزواج والطلاق والإعالة والميراث، وهذه التشريعات

التي تهتم بالعائلة، وهي مؤسسة يعاملها الإســلام بجدية كما لو كانت تتصل بجوهر الحــياة البشــرية، وبمــا أن الحــياة البشرية غير ممكنة من دون مؤسسة العائلة فإن التعلــيمات التي تحكم تكوينها ونموها وفاعليتها هي من ذلك الجوهر أيضاً، وهناك تشــريعات قرآنية أخرى توضح التشريع الذي يسنه الإنسان بناءً على أسس يحددها القــرآن، مــثال ذلك، تلك التشريعات التي تتصل بتنظيم المجتمع ومن ذلك الجوهر يــتحقق تنظــيم المجتمع والنظام الاجتماعي والعلاقات البشرية بعدالة ومساواة بين الجمــيع، لكــن الأشكال التي يتخذها النظام الاجتماعي يمكن أن تتغير، وهي تتغير فعــلاً، والأحكــام التي يصدرها القرآن بهذا الخصوص تعتمد على الأحوال، خلافاً لبعض المبادئ الأساســية مثل التوحيد والعــدل والحرية الإنسانية والمسؤولية وغير ذلك من الأمور القطعية والشاملة[1].

جمال النص القرآني:

القــرآن الكريم جميل دون شك، والواقع أنه أجمل نص أدبي عرفته اللغة العربية، وجماله ليس نتيجة الإيمان به، بل هو بعينه سبب الإيمان.. والحكم الجمالي له أن القرآن جميل بل جليل ليس تعبيراً عن الإيمان فقط، إنه حكم نقدي تم بلوغه بالتحليل الأدبي، لــذا فــإن جمــال القرآن لا يعتقد به المسلمون وحدهم بل غير المسلمين كذلك من المتمرسين بالجماليات الأدبية في اللغة العربية.

والقرآن الكريم تنــزيل من الله حقاً، يتعلق بخيط واحد هو جمال النص القرآني، كــان محمــد ﷺ يقول، ويدعمه القرآن في ذلك، بل يملي عليه أن يقول إن القرآن جميل إلى حد لا يمكن تقليده بل إنه يبلغ حد الإعجاز، لذلك فالقرآن ليس من كلام البشر وإنما هو كلام الله، وهذه الخصيصة في القرآن تسمى (الإعجاز).

---

(١) إســماعيل راجــي الفاروقــي ولويــس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية،١٩٩٨، ص ١٧٢– ١٧٤.

وإذا كان شعراء مكة وأدباؤها قد فزعوا من نتيجة مثل هذه المنافسة فإن زعامة مكة لم تفزع فاستدعي الشعراء والأدباء من أنحاء بلاد العرب لينقذوا الموقف ووُعدوا بأجزل العطايا لقاء ما يؤلفون، وقام أحدهم وهو الوليد بن المغيرة يصغي إلى القرآن يتلوه النبي ﷺ فأخذه الإعجاب به، فجاء إليه أبو جهل وهو من زعماء مكة ليدعم مقاومته ووعده بثروات مكة فأصغى الوليد إلى التلاوة ثانية وهتف دون تردد: ليس فيكم من هو أعلم مني برجز الشعر وقصيده، والله ما هذا القرآن من صنع بشر ولا جن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمشرق أعلاه، منير أسفله، يفوق كل ما قيل أو عرف[1].

لقد بقي القرآن الكريم موضع إجلال عظيم واحترام وتقديس عند المسلمين لأنه كلام الله الحرفي، فحمله كل مسلم واقتناه وحفظه وتلا آياته، وفسر جمله وفهم معانيه، واجتهد على العمل بما جاء في هديه وتشريعه.

فرضية الدعوة إلى الله:

إن الدعوة في حق الجاحدين والمعاندين تعريف وبلاغ، وفي حق المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة بناء وتكوين، فإذا حاولنا مع الجاحدين والمعاندين البناء والتكوين بعد التعريف والبلاغ فقد تجاوزنا بالدعوة حدودها وعرضناها للعبث والضياع، وإذا وقفنا بها مع المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة عند حد التعريف والبلاغ، ولم نتخط ذلك إلى البناء والتكوين، فقد حجرنا واسعاً وعرضناها مع أولئك إلى الدمار والزوال[2].

ولعل ذلك هو ما ينطق به قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ

(١) المرجع السابق، ص ١٦٦- ١٦٩.

(٢) السيد محمد نوح، من أساليب الدعوة إلى الله : الدعوة الفردية، جمعية الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩١م، ص٧.

يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٤)، ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (المائدة:٩٩)، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (الشورى:٤٨)، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران:١٦٤).

والدعوة إلى الله تعالى مشروعة على سبيل الفرض والإيجاب لا يصح إهمالها أو التواني والتفريط فيها، وذلك للأوامر الواردة في هذا الشأن مباشرة أو غير مباشرة، صريحة أو ضمنية، فمن الأوامر المباشرة قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران:١٠٤)، وقوله ﷺ: «... لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ »[1]. وقوله: «...بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[2] ، فهذه جميعاً أوامر، والأمر إذا أطلق يفيد معنى الوجوب والإلزام ما لم تكن قرينة تصرف عن الوجوب إلى غيره، ولا قرينة هنا، ومن الأوامر الصريحة غير المباشرة قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥)، ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج:٦٧).

وقد بلغ النبي ﷺ في حياته بكل الأساليب والوسائل التي أتيحت له من الكلمة شفاهاً ومكاتبة، مباشرة أو بواسطة رسله، وكذلك بالسلوك التطبيقي، إذ هو الأسوة والقدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، وبلغ الدعوة أصحابه من بعده، وتتابع المسلمون في تبليغ الدعوة الإسلامية، فيجب أن يبقى الأمر على هذا النحو ما بقيت الحياة لا سيما ما يأتي زمان إلا وما بعده شر منه، والشر لا يواجه

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

بالسكوت وإلا لتحولت الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد[1]، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة:٢٥١).

٢- التجربة الحضارية التاريخية للإسلام:

عرب الجزيرة حملة الفكر الإسلامي:

الحالة الجديدة التي دخل فيها العرب في الحياة الإسلامية أعطتهم التصور الواسع والدقيق عن الكون والحياة والإنسان، وأمدهم بالحضور في مواقع الأحداث ليكونوا هم صانعيها، إن هذه الحالة هي الفكر العربي الإسلامي، وهي حالة لم تأت نتيجة تطور اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي أو فلسفي أو عسكري، وإنما جاءت عطاء من عند الله تعالى على غير موعد، منحة غير متوقعة ونعمة كبيرة لهذه البشرية التائهة.. لقد كان دور الإنسان في هذا الفكر دور التلقي والأخذ، ثم الوعي والفقه، ثم العطاء والبذل، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٦-١٩) ، فلقد تكفل الله بإقرائه الفرد وإن كان أمياً، وتكفل بحفظه في الصدور، وتكفل ببيانه.

وقد نتساءل: من هم أولئك الذين حملوا هذا الفكر واستجابوا له، وكانوا أول المستجيبين له؟ ما أصولهم؟ وما مكوناتهم؟ وما درجة استعدادهم؟وكيف كان حالهم عشية نزول القرآن عليهم؟.

إنهم قوم لم تكن لهم دولة ولا حضارة، وكانوا يعيشون على أطلال ذكريات تربطهم بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهم نسب وصهر لهذين النبيين الكريمين، جمعوا في أنفسهم وفطرتهم بين نقاء الأصل وكرم المعدن وعظمة الاستعداد من جهة،

---

(١) السيد محمد نوح، مرجع سابق، ص١٣-١٤.

وبـــين ضياع الهدف وجاهلية السلوك والاعتقاد والتشريع من جهة أخرى، وكانوا يـــتحركون بين هذين النقيضين، فتارة يشهد لهم كرم الأصل ونقاء الفطرة، وطوراً يقعـــون في حمـــأة الجاهلـــية وأرجاسها إلى أن جاء الإسلام، فخلصهم من أرجاس الجاهلية، وكشف عن استعداداهم الكامنة ومعادهم الكريمة.

إن العرب لم يصابوا بعيوب الحضارة بل كانوا في جزيرهم كالأرض البكر التي لم يجـــر عليها المحراث، ولم تزرع، حتى جاء أوان الحرث والزرع فكان الزارع نبياً رسولاً، علمه ربه تبارك وتعالى كيف يحرث وكيف يزرع: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ (الفتح:٢٩).

لقـــد التقى الإسلام بعقيدته الواضحـــة وشريعـــته الكامـــلة مع العرب، الذين لم يخوضـــوا تجـــارب حضارية معقدة قبل ذلك، فكان اللقاء لقاءً فجر طاقات تلك الأمة الوليدة الجديدة.

صفات تأهيلية:

على الرغم مما كان عليه العرب من فساد في التصور وبعض الخلق إلا أنهم كانوا يمتازون من بين سائر الأمم بصفات تؤهلهم لحمل هذه الرسالة العظيمة، فقد كانوا مشهورين بالصدق، وكانوا مشهورين بنصرة الجار وإغاثة اللهفان، وبلغ من نصرهم للجار أن وقعت فيهم حرب البسوس.

كمـــا تمـــيز العـــرب قبل الإسلام بخلق يعتبر بمثابة القيم المعنوية التي يجاهدون لتحقـــيقها، فمكـــارم الأخـــلاق والمروءة هي مناط المدح والذم، والفخر والهجاء،

فالعربي لم يكن مادياً متهالكاً على اللذة، ولا أنانياً شهوانياً، وهو على قلة القوت في أرضـــه وشح الطبيعة فيها لا يبيع شرفه ليأكل، وليس الطعام والشراب غاية حياته، حتى أنه يفضل الجوع مع العزة على الشبع مع الذلة وتحمل المنة، قال عنترة:

لا تســـقني مـــاء الحـــياة بذلـــة　　بـــل فاسقني بالعز كأس الحنظل

مـــاء الحـــياة بذلـــة كجهـــــنم　　وجهـــــنم بالعـــز أكرم منـــزل

لقـــد كـــان العربي قبل الإسلام يتجه نحو المثل العليا، ولا شك أن هذه المثالية في الـــنـــزعة والاتجـــاه والدافع كانت تظهر في الوفاء والنجدة والإباء والشمم والكرم وحسن الجوار وغيرها من المكارم، وإن كانت كثيراً ما تضل طريقها حتى تذهب إلى إتلاف المال باسم الكرم ، وإزهاق الروح وقتل الولد خوفاً من العار وحفظاً للشرف.

وهكـــذا انتقل عرب الجزيرة في فترة قصيرة من الزمن إلى أمة موحدة منسجمة، اســـتبدلت بالـــتوزع إلى مجموعات قبلية وحدة مشتركة في العقيدة وفلسفة الحياة والسلوك، وبأفق القبيلة الضيق صعيد الإنسانية الرحب، وبدوافع الكسب والشرف بمفهومه القبلي دوافع وغايات بعيدة هي تحرير الإنسانية من الخضوع لغير الله وتحقيق العدالـــة بـــين الـــناس جميعاً على أساس من الإيمان بالله، وجعلت فوق روابط الدم والقرابة روابط الخضوع لله وحده، أي روابط الأخوة الإنسانية، وبدلاً من الغزو في سبيل العيش أو في سبيل كرامة القبيلة، أصبحت العرب تجاهد في سبيل الله، أي في سبيل الحق والخير وكرامة الإنسانية[1].

إن العـــالم اليوم منتظر ومترقب لحضارة من نوع جديد، لنموذج إنساني ولمبدأ ينشـــئ إنســـانية سعيدة، ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الأمم، متعاونة شاملة

---

(١) إبراهـــيم زيـــد الكيلاني وآخرون، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٨م، ص١٠-٣١.

لـــنواحي الحـــياة، وهـــذه الرسالة محتاجة إلى أمة تستطيع تمثلها والاضطلاع ببعثها والتبشـــير بهـــا، فهذه الأمة قد اختيرت منذ الأزل، إنها الأمة العربية التي أعزها الله بالإســـلام، والتي حدد الله مسؤوليتها بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٤)، وبقوله: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

الإسلام منهج للحياة:

المجـــتمع المسلم ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله إلى العـــبودية لله وحده بلا شريك، ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها عـــلى أساس هذه العبودية، وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ومواجه له، بعقيدة جديدة ونظام للحياة جديد يقوم على أساس هذه العقـــيدة، وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديـــم بكاملـــه إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه وإن كانت السنة جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه - وهو أفراد أو مجموعات- أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً، وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإســـلامية منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ بغير استثناء.

فمـــا الأصـــل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم علية؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة؟ أم هو الواقع البشري أياً كان؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة، إن الأصـــل الـــذي يجب أن ترجع إلية الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحـــياة، إن شـــهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، التي هي ركن الإسلام الأول، لا تقـــوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل، وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ثم يتبع اتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ (الحشر:٧)، ثم إن الإسلام يسأل: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ ﴾ (البقرة:١٤٠)، ويجيب: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (النور:١٩)، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الإسراء:٨٥).

وديـــن الله لـــيس غامضاً، ومنهجه للحياة ليس مائعاً، فهو محدد بالشطر الثاني للشـــهادة: محمد رسول الله، فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص في الأصـــول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ولا اجتهاد مع النص، وإن لم يكن هـــناك نـــص، فهنا يجيء دور الاجتهاد وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته لا وفق الأهواء والرغبات: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (النساء:٥٩).

إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونـــه فكان، وأودعه الله سبحانه قوانينه التي يتحرك بها، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، كما تتسق بها حركته الكلية سواء: ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل:٤٠)، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ (الفـــرقان:٢)، إن وراء هـــذا الوجـــود الكوني مشـــيئة تدبره، وقـــدراً يحركه، وناموساً ينسقه[1].

---

(١) سعيد حوى، الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٦٩، ج١، ص٣٦-٤٢.

العقيدة رابطة التجمع:

المجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر، والعربي والرومي، والفارسي والحبشي، وسائر أجناس الأرض، في أمة واحدة، ربها الله، وعبوديتها له وحده، والأكرم فيها هو الأتقى، والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم، ولم يشرعه أحد من العباد، إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع، والخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار.

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة، لأنها هي مقومات هذه الحضارة، العبودية لله وحده، والتجمع على آصرة العقيدة فيه، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة، وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته، وحرمة الأسرة والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة[1].

إن صور الحضارة الإسلامية التي تقوم على تلك الأسس الثابتة لها مرونة التأثر بدرجة التقدم العلمي والتكنولوجي في كل بيئة ومجتمع، ومن ثم لا بد أن تختلف صورها لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمجتمعات والمستويات والتكيف معها بالقيم والمقومات وفق الإطار والمنهج الإسلامي للحياة.

مظاهر الحضارة الإسلامية :

الحضارة الإسلامية هي مجموعة القيم والاتجاهات المستمدة من الوحي الإلهي، التي تحكم النشاط المعنوي والمادي في المجتمع الإسلامي.. ومظاهر النشاط تبرز في الآتي:

(١) المرجع السابق، ص٤٩-٥٧.

١- **المظهـــر العلمي**: العلم عـــند الأمم إنما يكـــون لغايات معيـــشية دنيوية، وأمـــا في الإســـلام فأهميته تنبع من أنه السبيل إلى معرفة الله تعالى وحسن عبادته، وبه تصلح الدنيا والآخرة .

٢- **مظهـــر الحفـــاظ عـــلى المنجزات الإنسانية**: تعاملت هذه الحضارة مع مـــنجزات الأمـــم الأخـــرى والحضارات السالفة من خلال أن الحضارة الإســـلامية لم تـــبدأ من الصفر بل سبقتها حضارات، وأن الحكمة ضالة المؤمن، وأن التراث الإنساني هو ملك للبشرية جمعاء.

٣- **مظهـــر الحفـــاظ على البيئة**: البيئة الطبيعية تتكون من الماء والهواء والتربة والمعـــادن ومصادر الطاقة والنباتات والحيوانات، وجميعاً تمثل الموارد التي أتاحها الله للإنسان كي يحصل منها على مقومات حياته.

٤- **مظهـــر حقـــوق الإنسان**: جاء الإسلام لينقذ الإنسانية من قيود الطبقية والتمييز العنصري، وقد جاء هذا الإعلان في الصيغة الربانية، حيث قال الله تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات:١٣).

٥- **مظهر الإدارة والسياسة**: في الإسلام تنظيم لشؤون الناس في المجتمع المسلم ورعاية أمرهم وفق شريعة الله تعالى والسياسة كذلك، وقد عرفت السياسة الشرعية بأنها حراسة الدنيا بالدين.

٦- **المظهر الجهادي**: الجهاد هو بذل أقصى الجهد لتحقيق غاية معينة، والقتال نـــوع من أنواعه، والكلمة نوع من أنواعه كذلك، والجهاد يكون لدعوة الـــناس إلى الإســـلام، ونصـــرة المظلومين والمستضعفين، وإرهاب العدو المتربص بالأمة.

ثانياً: الإمكان الثقافي والاجتماعي

١- عالمية الرسالة وإنسانيتها:

الغرض السامي للرسالة:

لقد ظهرت أمة حضارية في جزيرة العرب، ووجد نوع جديد من البشر في هذه البقعة من الأرض، وهنا ينشأ تساؤل:

أي داع إلى ظهـــور أمة جديدة، والأمم على وجـــه الأرض كثيرة منتشـــرة، وما شغل هذه الأمة الحديثة؟ وما مهمتها في العالم؟

إذا كانـــت هذه الأمة إنما بعثت للزراعة وعمارة الأرض، فقد كان في فلاحي الطائف وأكاري مدينة يثرب وزراع وادي الفرات والنيل وربوع الجانج غنى عن أمة زراعية جديدة، فقد أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبناً وعسلاً، وإذا كـــان المسلمون إنما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فـــقط، فلماذا لم يبعثوا في العراق وفي مصر والهند وهي بلاد خصبة وزراعية، ولماذا كان مبعثهم في واد غير زرع؟

وإذا كانـــت هذه الأمة إنما بعثت للتجارة، فقد كان في يهود يثرب وفي أنباط الشـــام وفي أقـــباط مصر وتجار الهند كفاية، فقد أحكموا فن التجارة وانتشروا في العالم، وإذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقاً فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية وبقرب من أسواق التجارة الكبرى؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للصناعة وأعمال اليد، فقد كان في مراكز البلاد المتمدنة وأصحاب الصنائع والحرف غنى وكفاية!

مـــا هـــو الجواب؟ إذا كان الجواب في الإثبات، وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقـــيقة بشيء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة في العالم ورسالة خاصة إلى الأمم كانت هذه الأمة حقاً من فضول الأمم، ومن المتطفلين على مائدة العالم.

لقـد كـان مبعـثها لغـرض سام جداً، لمهمة غريبة طال عهد الإنسانية بها، وتشـاغلت أمـم الأنبياء عنها حتى نسيتها، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هـذه الأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت في الأرض كأشجار برية أو حشائش شيطانية، بل إنها أمة أخرجت ولأمر ما أخرجت.. وأنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم بل إنها أخرجت للناس، وذلك ما تمتاز به الأمة في التاريخ، فما من أمة إلا وهي وليد أغراضها ورهين بطنها وشـهواتها تعـيش لأجلها وتموت في سبيلها، أما الأمة الإسلامية فهي أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتجاهد في سبيل الله.

بهـذه الرسالة انبث عرب الجزيرة في العالم وحملوها إلى الملوك والسوقة ومختلف الألوان والأجناس، وفي سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا، و لم يزالوا يعتقدون أنهم مبعثون من الله إلى الأمم وحاملو راية الإسلام في العالم.

إن عـرب الجزيـرة قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى، ومراكزها الكبرى يقولـون: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد خلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني، والأمة الطورانية من عـبادة الذئـب الأبيض، والأمة الهندية من عبادة البقر، لقد أخرجوا تلك الأمم إلى عبادة الله وحده، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عـدل الإسلام، والعالم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية يهتفون: الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن إلى عبادة الله وحده،

ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد ونعيم الروح وطمأنينة القلب، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام[1].

فهل يسمع أبناء الجزيرة العربية - التي أشرقت منها شمس الإسلام- مرة أخرى صراخ الإنسانية وعويلها وأنين الثكالى والمستضعفين في الأرض، فيهبوا من نومهم العميق وسباتهم الطويل حالياً، لينشروا الهدى ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور؟

حقائق إنسانية في الرسالة:

يؤمن المسلم بأنه مكلف بدعوة الناس كافة إلى الإسلام، وأن هدف حياته يتمثل في هداية البشرية جمعاء إلى حياة يكون فيها الإسلام دين الله بما فيه من علوم الدين والشريعة والأخلاق والفرائض، هو دين البشر جميعهم، وقد جاء هذا التكليف للمسلم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل:١٢٥).

٢- الطاقة الروحية العالمية لقبلة المسلمين:

اختيار إبراهيم عليه السلام مكان البيت:

نتساءل: لماذا اختار إبراهيم هذه البقعة النائية الجرداء ليترك فيها طفله وأمه؟ ألم يكن هناك موضع آخر يليق بهما؟

لقد كانت الأماكن الخصبة الآهلة بالسكان مستعدة لاستقبال هذه الأسرة الصغيرة، ومقتضى التفكير العادي المستقل يقضي أن يتجه إبراهيم بفلذة كبده إلى المكان الخصيب المؤنس حتى يطمئن عليه، فما الذي دفعه إذن إلى هذا المكان المقفر؟

(١) أبو الحسن على الحسني الندوي، إلى الإسلام من جديد، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م، ص٨-٢٢.

لا نســـتطيع أن نقول: إنها محض المصادفة، ولا نقول إنها نتيجة تفكير في اختيار المكـــان المناسب، فلم يبق إذن إلا أن يكـــون توجيه الله المحض، خضـــع له إبراهيم ونفـــذه، وكان إبراهيم أمة قانتاً يخضع لتوجيهه ولو كان ذلك في ذبح ولده، وإننا لـــنجد تصديق هذا فيما رواه البخاري قال: بعد أن روى تعلق هاجر بإبراهيم عند تركه لها بمكة، وقولها له: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس؟ قالت ذلـــك مراراً، وهو لا يلتفت، فقالت أخيراً له: آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم! فقالت: إذن لا يضيعنا.

ونتساءل: هل هذا المكان (مكان البيت) كان معروفاً ومقدساً لدى إبراهيم عليه السلام؟ يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (إبراهيم :٣٧)، يتضح من قول إبراهيم: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أن إبراهيم كان يعرف أن هـــناك مكاناً مقدساً سماه بيت الله الحرام، وجعل الغرض من المجيء إليه والفائدة مـــن إسكان أسرته بجواره أنهم يقيمون الصلاة ويعبدون الله، فلا بد إذن أن تقديس هذه البقعة كان معروفاً على الأقل عند إبراهيم، وأن تقديسها سابق على عهده[1].

وهكـــذا وضـــع إبراهـــيم عليه السلام نواة الحج إلى هذا البيت الكريم هو وابنه إسماعيل عليهما السلام، وتابع العرب من بعدهما الحج إلى بيت الله، لم ينقطعوا عنه في أي عهد بل بقي مكان حجهم وموضع تقديسهم برغم الخلط الذي طرأ على عبادتهم حين أشركوا بالله واتجهوا إلى الأصنام، ثم جاء الإسلام الحنيف فأحيا لهذه البقعة المحرمة

(١) عـــبد المنعم النمر، بين يدي الحج والعمرة، رسالة الحج، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت،١٩٦٩م، ص٦-١٠.

روحها، وأعاد إليها شعائرها ومناسكها السليمة، ومكانتها وقدسيتها لدى المسلمين، وفرض عليهم حجها لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الجزيرة العربية مركز الإسلام الأول:

الحـــج رمـــز ارتباط هذه الأمة الإسلامية بأبيها إبراهيم عليه السلام، حيث يحيي المسلمون شعائره ويطوفون بالبيت الذي بناه.

وهـــو رمـــز عـــلى وحدة الأمة الإسلامية، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان، فوحدة المسلمين نابعة من عقيدهم ودينهم وشريعتهم.

والحـــج مظهـــر عمـــلي لكـــثير من قواعد الإسلام، فهو مظهر عملي للأخوة الإســـلامية، ومظهـــر عملي للمساواة بين الشعوب الإسلامية، ومظهر عملي للجهد والصـــبر والعبادة واللطف مع المؤمنين، وإلجام النـــزوات، والبعد عن القسوة، والتعود على الإنفاق في سبيل الله، وتعظيم شعائر الله[1].

كمـــا أن الحج عودة بالمسلمين إلى حواضر الإسلام الأولى بالجزيرة العربية حيث شـــعائر إبراهيم ومحمد عليهما السلام، فتقوى في المسلم رابطته بهذه الحواضر على أنها وطـــنه الـــروحي وقبلـــته الوحـــيدة ووجهته العباديه ومنطلق تطلعاته وآماله المرجوة والمســـتجابة، فيـــرجع منه وقد تغير كثيـــر من معالم وصـــورة الحياة لديه، فبعد أن كان ارتباطه بهذه الحواضر نظرياً، أصبح الارتباط حقيقة وواقعاً وحساً وعملاً.

فـــيخرج المسلم من هذه الرحلة وكأنه ولد من جديد: «**مَنْ حَجَّ لِلَّه فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[2].

(١) سعيد حوى، مرجع سابق، ص١٧٦– ١٧٨.
(٢) رواه الستة إلا أبو داود.

الحج مؤتمر عام للمسلمين:

الحـــج أوســـع وأروع مؤتمـــر اجتماعي وسياسي عرفه العالم، ففيه يجتمع مئات الألـــوف بـــل الملايين من البشر القادمين من قرى ومدن لا تحصى يمثلون أوسع تنوع ممكن من الأعراق واللغات والثقافات والعادات والآراء التي تتفاعل مع بعضها بعضاً، وحـــين يـــنوي الحجاج بالحج فإنهم يتخلصون من تلك الحياة اللاهية التي ألهتهم عن الـــتزاماتهم وتمسكهم بتعاليم الإسلام، التزاماتـــهم الخالصة لله تعالى وحســـن عبادته، ولا عجـــب أن الحـــج كـــان له مثل هذا الدور الكبير على الدوام، فهو وسيلة تربية وإعلام وتوصيل وتوفيق بين الملايين على أوسع نطاق.

والحـــج فرصة اجتماع عام لعدد كبير من المسلمين على مختلف المستويات في جو من الروحانية الخالصة، فلو اجتمعت قوى الأرض على أن توفر مـــثله ما استطاعت، وهو اجتماع سنوي تتغير فيه الأشخاص والأجناس ويصل تعدادها إلى مئات الألوف كل عام.

كمـــا أنـــه في هذا الجو الروحاني يمكن لقادة المسلمين ومسؤوليهم وعلمائهم أن يضعوا خططاً ومشروعات لتوجيه المسلمين التوجيه النافع لهم إيمانياً وروحانياً وإعلامياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

٣- عوامل التجانس بين أبناء الخليج والجزيرة العربية:

الـــتجانس البشـــري بين أبناء الخليج والجزيرة العربية ناتج من التشابه في النظم الاجتماعـــية والعادات والتقاليد، أما الاختلاف في نمط العيش فإنه ناتج من اختلاف البيئة الجغرافية وتضاريسها ومناخها الذي طبع سكانها بطابعها وقدرتهم على التكيف والتعايش معها.

وسوف نجد أن القبائل والتجمعات البشرية التي عاشت على السواحل البحرية من الخليج العربي والجزيرة قد تكيفت مع محيط البحر ومستلزماته المعاشية.

والأقـــوام التي عاشت في المناطق الصحراوية والجبلية من الخليج والجزيرة العربية قد عاشت عيشة متنقلة مترحلة تبحث عن قوت الحياة والتكيف مع قسوة الصحراء ووعورة الجبال بحثاً عن الماء والكلأ ورعي الغنم والإبل، سواء أكانوا بدو الصحراء أم سكان الجبال.

أمـــا الأقـــوام التي عاشت في الوديان والسواحل الموجودة في أسفل الجبال فإنها اكتسبت معيشتها من الزراعة في السهل وصيد السمك في البحر وهي أكثر استقراراً من الأقوام التي تعيش في الصحراء والبادية.

فهناك تنوع في نمط المعيشة وليس في العرق والقومية والدين، بل جميع أبناء الخليج العربي بقبائلهم وتجمعاتهم تدين بالدين الإسلامي الحنيف، وتتكلم اللغة العربية بلهجاتها المحلـــية، ولهـــا عاداتهـــا وأعراقها المتجانسة في علاقاتها الاجتماعية وتكوينها الأسري والعشائري ومصاهراتها وأكلها وشربها وثقافتها وآدابها وقضائها لأوقات فراغها.

وعند ظهور النفط حصل تجانس أكبر واندماج أكثر وتكامل في مختلف النواحي الاجتماعـــية والثقافـــية والاقتصـــادية والسياسية والتعايش مع طبيعة الحياة الحديثة، فتبدلـــت المهن وزاد الدخل وارتفع مستوى المعيشة لدى أبناء الخليج، وتحولت كثير مـــن الأعمـــال التقلـــيدية إلى أعمال ومهن ووظائف متحضرة ذات اتصال ثقافي وتكـــنولوجي وتجـــاري متصـــل بالعـــالم الخارجي من خلال الشركات والمصانع والتنظيمات والمؤسسات العالمية المختلفة.

تلـــك هـــي أهـــم العوامل التي كان لها أدوارها المتميزة في التجانس والتشكيل المشـــترك بين أبناء الخليج والجزيرة العربية والتي تؤهلهم فعلاً للدور الرسالي وانبعاث الأمة العربية والإسلامية من جديد.

وبناء على هذا.. سوف نعرض بالتفصيل لبعض عوامل التجانس بين أبناء المنطقة والتي تتمثل في: العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، ولغة ولهجات أبناء الخليج والجزيرة

العربـية، والـتاريخ المشـترك، والعادات والتقاليد، وسكان الخليج والجزيرة العربية وطبيعتهم الأسرية والقبلية ، والظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة العربية.

العامل الأول: العقيدة والقرآن:

دور العقيدة في تفجير طاقات أبناء الخليج والجزيرة العربية:

لعبت العقـيدة الإسلامية دوراً مهماً في حياة أبناء الخليج والجزيرة العربية، بل نجدهـا تصـوغ المجتمع صياغة جديدة، وتؤدي إلى تغيير كثير من مفاهيمه وطباعه ومثله وقيمه واتجاهاته وعاداته بل وتطلعاته، فإذا بأبناء الجزيرة العربية تتفجر طاقاهم التي كانت الصحراء المحرقة تمتصها، وتتوجه نحو هدف عظيم وغاية نبيلة.

انطلقـت هذه الأمة تحت راية العقيدة الجديدة التي آمنت بها تخترق الحدود المقفلة في وجههـا، وتحطـم الحواجـز التي تفصل بينها وبين دولتي فارس والروم، وقبل أن تصـحو هذه الدول من هول المفـاجأة، إذا بالرايات التي تعـودت ألا تنتكس أبداً تهوي صريعة مخضبة بالدماء تحت أقدام أولئك الذين حملوا لواء الإسلام شاقين طريقهم عبر الوهاد والصحارى والأنهار، يعرضون مبادئهم التي دفعتهم إلى هذا الانطلاق[1].

لقـد كـان المؤثر الأول لهذه الأمة هو القرآن الكريم، النور والهدى الذي كان الرسول الأمين ﷺ يتلوه عليهم صباح ومساء، فيفتح عيونهم وآذانهم وقلوبـهم على مـا لم يسمعوا به من قبل من عقيدة تتلاءم مع طبيعة الفطرة، يقودهم القرآن إليها بالحجـة والـبرهان والنظر والوجدان، فتطمئن نفوسهم وتدفعهم إلى الإيمان برسالة الإسـلام وتزيدهم يقيناً بحمل رايتها إلى البشـرية وتبشرهم بإحـدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله ونيل الجنة.

---

(١) أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية،دار الفكر المعاصر،بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٧ – ٤٨.

فالعـــرب في الخليج والجزيرة، بعد مجيء الإسلام، أصبحت لهم عقيدة واضحة ثابتة في التوحيد، حررت ضمائرهم ونظفت أسس تفكيرهم من كل ما لحق بالبشرية مـــن أوزار الشـــرك والتعدد والانحراف، فليس هناك أمة في الدنيا من أهل الأديان السـماوية كانوا أم من أهل الأفكار الأرضية ممن يؤمنون بوجود إله خالق يعتقدون بالتوحـيد المطلق النـزيه، ويثبتون لله جميع صفات الكمال دون تمثيل ولا تشـبيه ولا تعطيل ولا تأويل كأمتنا الإسلامية المجيدة[1].

دور العقيدة الإسلامية في تجانس أبناء الخليج والجزيرة العربية:

تعتــبر العقــيدة الإسلامية الأساس الأول لبناء المجتمع، وعلى هذا الأساس ربي رســول الله ﷺ أصحابه، فأوجد المجتمع الفاضل فـي المدينة المنورة ومكة المكرمة وجزيرة العرب، فتكونت الأمة الإسلامية التي دانت لها الدنيا من مشرقها إلى مغربها.

وســر توحيد العقيدة للمجتمع أنها تقوم على التوحيد المطلق لله في كل شيء، فالــرب واحــد، والرسول واحد، والرسالة واحدة، والقبلة واحدة، واللغة واحدة، والأهداف واحدة ، والآمال واحدة، فلابد معها أن تكون الأمة واحدة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٩٢).

وقــد أدت عقيدة التوحيد إلى تجانس أفكار أبناء الخليج والجزيرة العربية واتحاد مشاعرهم وبناء وحدتهم وتماسكهم بل وشعورهم بالمصير المشترك، مما زادهم ترابطاً وتكــاملاً خاصـــة في الآونة الأخيرة من هذا العصر الموصوف بعصر التكتلات بين أصحاب المصالح المشتركة.

وإذا كانــت العقيدة الإسلامية تبني مجتمعاً عالمياً، فكيف بهذه البقعة من أرض الجزيرة العربية، مهد الإســلام ومنبع هذه العقيدة التي ليـــست مقصورة على أرض أو فئة من البشر، فهي في رسالتها لا يحدها زمان ولا مكان؟

(١) محســن عــبد الحميد، حركة التغيير الاجتماعي في القرآن، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة، د.ت، ص ١٢٩.

العامل الثاني: اللغة واللهجات:

بين عربية جنوب الجزيرة وشمالها:

اللغــة العربية هي إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم منذ أن حلها قحطان رأس قبائل اليمن، ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لأصالتهم في العربية، ومن قبائل اليمن قبيلة (جرهم) التي سارت إلى مكة قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم، وكثر بنوه بمكة، وأخذ إسماعيل لغة العــرب عــن جــرهم الذين عاشرهم، وإسماعيل وذريته يسمون في التاريخ بالعرب المستعربة، بسبب دخولهم في الأقوام العربية بالمصاهرة التي ليس أصلهم منها[1].

واللغة العربية الجنوبية بلهجاتها المتعددة قديماً تختلف عن اللغة العربية الشــمالية -الــتي هي المقصود بالعربية الفصحى- اختلافاً جوهرياً أساسياً في القواعد النحوية، والمظاهــر الصوتية، والدلالات المعنوية، فمثلاً ورد في النقش السبئي العبارة التالية: «عمقــم مراهــيمو عشتر شر قرن واشمسهو والال تمو وباخيل ومقيمت خميس»، ومعناها «مجد سيدهم عشتروت المشرقة وآلهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش)» [2].

إن لهجة قريش ذات الأصل العربي الشمالي التي لعبت مختلف العوامل: السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية في إبرازها وتبوئها المكانة العالية واعتــبارها اللغــة العربية الفصحى باعتراف جميع القبائل العربية، والذي اتضح من خــلال إنشادهم للأشعار وإبرازهم للخطب في نواديهم وأسواقهم الأدبية المعروفة، كانــت أيضــاً أغزرها مادة وأرقها أسلوباً وأغناها ثروة لفظية وأقدرها على التعبير

(١) محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، دار الفكر، د.ت ،ج١، ص٤٤-٤٥.
(٢) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص٥٢-٦٧.

الـــبلاغي الجمـــيل في أفانين الأقوال والآداب المختلفة، لذلك ارتفعت في الفصاحة والمنـــزلة عن غيرها من لهجات القبائل العربية في ذلك الوقت.

اللغة العربية لغة الحضارة الإسلامية:

اللغـــة العربـــية هي لغة الدين الإسلامي، التي يستعملها مليار مسلم أو يزيد في جمـــيع أنحاء العالم، يتلون بها صلواتهم اليومية وكتابهم المقدس (القرآن الكريم)، وهي كذلـــك لغة القانون الإسلامي الذي يهيمن على حياة المسلمين كافة على الأقل في مجـــال الأحوال الشخصية، فهي لغة الحضارة الإسلامية التي تدرس في ألوف المدارس خارج العالم العربي، من أقصى بلاد غرب أفريقيا إلى أقصى بلاد جنوب شرق آسيا، بوصـــفها وســـيلة التعلم أدباً وفكراً في ميادين التاريخ والأخلاق والشريعة وعلوم القرآن والحديث الشريف.

هذه اللغة هي لغة أهل الجزيرة العربية وما اتصل بها من أراضي الهلال الخصيب طوال ألف عام قبل ظهور الإسلام.

واللغـــة العربية تطورت واكتسبت عدداً كبيراً من الكلمات الفارسية والرومية والمصرية والسانسكريتية، لكنها استوعبت تلك الكلمات والمصطلحات فعربتها[1].

والإســـلام محتواه عقيدة وعبادة وسلوك، واللغة إنما هي تعبير عن هذا المحتوى، فهـــي وسيلة لاغاية، لذلك أرسل كل نبي بلغة قومه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ (إبراهيم :٤)، وقد ذكر الله في القرآن الكريم أن من آياتـــه اختلاف الألسنة والألوان: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ ﴾ (الروم:٢٢)، فشيء عادي إذن تعدد اللغات، غير أن رسالة الإســـلام كانت بلغة العرب، وأن العالم كله مكلف بهذه الرسالة التي يتوقف فهمها

(١) إســـماعيل راجي الفاروقي ولـــويس لمياء الـــفاروقي، مرجع سابق، ص٥٨-٥٩.

عـــلى تعلم اللغة العربية، إذن فلابد للمسلمين من تعلم هذه اللغة، يقول الشافعـــي رحمه الله: «إن الله تعالى فرض على جميع الأمم تعلم اللسان العربي بالتبع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له».

والاهتمام باللغة العربية لا يعني هذا إثارة عصبية، بل إن تعلم اللغة العربية آت من فهـــم المسلمين للدين الإسلامي وعقيدته ومنهجه ونظمه وشرائعه، فدينونة المسلمين للإسلام يعني نطقهم باللسان العربي المرتبط بدينهم لابقوميتهم أو تعصبهم بجنسهم[1].

مـــن هـــنا نجد أن مختلف الشعوب والأقوام الذين كانوا يقطنون أنحاء من الجزيرة العربية وخاصة في منطقة الخليج(شرق الجزيرة) والذين كانوا يتكلمون بلغات أقوامهم، بدخولهـــم الإسلام انصهروا في لغته، وقد ذكر التاريخ الإسلامي أن دخول أهل شرق الجزيرة في الإسلام كان طواعية ورغبة، مما حدا بهم إلى حب الإسلام ولغته، فامتزجوا جميعاً في بوتقته مشكلين شعباً واحداً متجانساً اجتماعياً وثقافياً، لغتهم الرسمية هي اللغة العربية الفصحى ولسانهم المحكي اليومي هو لهجاتها المحلية الدارجة.

سكان الخليج واللغة العربية:

في العصـــر الحـــالي اللغة العربية بمختلف لهجاتها هي اللغة الوطنية، واللغة العربية الفصـــحى هي اللغة الرسمية لسكان الخليج العربي وأرض الجزيرة، بجانب لغات أخرى مـــثل الإنجلـــيزية، والهـــندية، والأوردو، والكورية، والفليبينية، والبشتو، والفارسية، والســـمهالية، والملايـــية، كـــل هذه اللغات يتكلم بها أهلها الذين يفدون إلى الخليج والجزيـــرة مـــن أجـــل العمـــل، وتعتبر اللغة الإنجليزية إحدى اللغات الشائعة بسبب اســـتخدامها في التجارة والمصارف والاتصالات والشـــركات والعـــلاقات الدولية، كما أنها لغة وسيطة بين مختلف المجموعات الوافدة إلى الخليج للعمل.

(١) انظر: سعيد حوى، مرجع سابق، ص ١١٤.

وعموماً ما يمكن القول: إن هناك ثلاث لغات تعمل في الخليج العربي، بصفتها لغات ربط واتصال، هي: اللغة العربية الفصحى، اللغة الرسمية، ولهجاتها المحلية هي المحكية والرابطة بين شعب الخليج العربي؛ واللغة الإنجليزية بالرغم من عدم تطبيقها قانوناً إلا أنها الفارضة لنفسها بشكل واسع كلغة ربط واتصال في المعاملات للمؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات الدولية العاملة في الخليج؛ واللغة الهندية بلهجاتها المختلفة كالأوردو تعتبر لغة ربط بين الهنود والباكستانيين العاملين في دول الخليج العربي.

والناظر إلى طبيعة اللغات المستخدمة في دول الخليج العربي وأرض الجزيرة، يجد أن هناك تزاحماً بينها في الاستخدام والربط والاتصال وتنافساً في المكانة والتنبوؤ والأهمية، مما يدعو إلى الاهتمام باللغة العربية الفصحى، لأن تأخذ المكان اللائق بها في الاستعمال والاتصال والربط، وقد كان من غير الناطقين بالعربية ممن اعتنق الإسلام ينصرفون إلى تعلمها بكل ما يقدرون عليه من جهد، ولذلك تفوق الكثير منهم قديماً وحديثاً في إتقانها، وهكذا أبرزت كثيراً من الشعراء والأدباء والكتاب والباحثين في مختلف العلوم الشرعية والعربية، فساهموا مساهمة كبيرة في تطوير الحياة في نواحيها المختلفة.

وإذا كان أبناء الجزيرة العربية قد ساهموا قديماً في نشر لغتهم من واقع حرصهم على نشر الإسلام ودعوته في بقاع الأرض خارج الجزيرة، فعم بها النور والهدى، وإذا كانت هذه اللغة (لغة القرآن) قد وحدت طوائف الخليج وسكانه منذ فجر اعتناقهم الإسلام.. فإنه حري بأهل الخليج والجزيرة في هذا العصر أن يهتموا بها بتمسكهم بالإسلام وهدي القرآن، هذا الدافع هو الذي سيحملهم على حفظ اللغة العربية والاعتزاز والارتفاع بها على بقية اللغات التي تزاحمها، كما أن استعمالها في الحديث اليومي مع مختلف الأجناس والأقوام في مختلف المعاملات والاتصال والمناسبات وزيادة معرفتهم بمصطلحاتها ومفرداتها وصيغها وأساليبها البلاغية، يجعلهم يتذوقونها ويحسون بجمالها فيفخرون بها في مختلف الأماكن والمحافل.

العامل الثالث: التاريخ المشترك:

انتشار الإسلام في الخليج والجزيرة العربية:

الدعوة الإسلامية لم تخص -كما أسلفنا- أهل مكة وحدهم، فلم تكن دعوة قبلية، و لم تخص الحجاز وحده، فلم تكن دعوة إقليمية، ولو كانت كذلك لاكتفى رسول هذه الدعوة عليه الصلاة والسلام بعد أن اتخذ من المدينة المنورة قاعدة لدولته الناشئة.. كما لم تكن دعوية عربية، ولو كانت كذلك لاكتفى الرسول ﷺ بانتشار الإسلام في قلب الجزيرة العربية، وعلى أطرافها في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين، لذلك فقد تجاوزت حدود الجزيرة العربية في حياة الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، انسجاماً مع أممية هذه الدعوة وعالمية هذه الرسالة؛ بأنها للناس أجمعين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨).

كما أن الرسول ﷺ عبر عن سياسته في تعميم نشر الدعوة الإسلامية بين العالمين من خلال الكتب والرسائل التي وجهها إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، وإلى ملوك وحكام العالم المعاصر آنذاك.

إن سرعة انتشار الإسلام في الخليج، في كل من منطقتي عمان والبحرين، كان مرجعه إلى الآتي:

١- ارتباطه بانتشار الإسلام في الحجاز في أعقاب صلح الحديبية، إذ أتاح ذلك للقيادة الإسلامية في المدينة المنورة التفرغ لمواجهة يهود خيبر في شمال الحجاز، وهذا الصلح وما ترتب عليه من فتح مكة وغزو الطائف وسيادة الإسلام لأول مرة على إقليم

الحجاز منذ السنة الثامنة للهجرة، أتاح للرسول ﷺ أن يوجه الدعوة إلى قلب الجزيرة العربية وأطرافها بما في ذلك عمان والبحرين، وإن سلسلة الانتصارات التي حققها المسلمون كانت مصدر قوة للإسلام والمسلمين في كل بقعة من الجزيرة العربية.

٢- ارتباطه بإرهاصات ظهور نبي جديد من قبل بعض سكان البحرين بحكم الاتصال الحضاري وملتقى كثير من الديانات كالنصرانية واليهودية والمجوسية على سواحل الخليج، وما ترتب على ذلك من أن بعض السكان أصبح على استعداد نفسي لاستقبال دين جديد.

فانتشار الإسلام في عمان تم حين أوفد الرسول ﷺ عدداً من الرسل محملين برسائل إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، بعد فتح المسلمين لمكة في السنة الثامنة للهجرة، وقد أوفد الرسول ﷺ عمرو بن العاص السهمي وأبا زيد الأنصاري إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ومعهما كتاب يدعوهما به إلى الإسلام جاء فيه «**بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإن أسلمتما وليتكما، وإن أبيتما فإن ملككما زائل، وخيلي تطئ ساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما**»[1].

أما انتشار الإسلام في البحرين فإنه لم يكن بنفس الشمول والدرجة التي حدث بها في عمان، وأول رسول أرسل إلى سكان البحرين لدعوتهم للإسلام هو العلاء بن عبد الله الحضرمي، حليف بني عبد شمس، سنة ثمان للهجرة، وقد حمل رسالة من الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوي التميمي وإلى سيبخت مرزبان هجر يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية، وكان نص الرسالة الموجهة إلى المنذر بن ساوي «**بسم الله الرحمن**

(١) محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية،دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص ٥٧.

الرحيم: من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك إلى الإسلام، فأسلم، تسلم، أسلم يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر»[1].

قانون الابتلاء للأمة:

لقد نعم أهل الخليج والجزيرة العربية بالعزة والقوة والوحدة تحت راية الإسلام الحنيف المتمثل في دولة الخلافة الإسلامية التي تعاقبت على حكم الأمة الإسلامية، ابتداءً من عهد الرسول ﷺ ثم عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ثم عهد الخلافة الأموية وتلاها عهد الخلافة العباسية، فكان الخليج العربي وبالذات سواحله وعمان الداخل بين الولاء الكامل لهاتين الخلافتين وبين محاولة الخروج عن هذا الولاء والحكم الذاتي، فكانت بين قرب وابتعاد، إلى أن جاءت الخلافة العثمانية، فأعادت القوة مرة أخرى إلى العالم الإسلامي وبقي الخليج العربي ضمن هذه القوة.

إلا أن طبيعة الاستعباد الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، خاصة في فترات الضعف التي أصابت هذه الخلافة الأخيرة، الاستعباد للشعوب المسلمة من حكامها في مختلف الأرجاء من البلاد العربية والإسلامية ومنها منطقة الخليج العربي، مما مهد لاستعباد أشد هو استعباد المستعمرين الأوربيين الأجانب.

لقد عبر عن ذلك العلامة أبو الأعلى المودودي قائلاً: إن الاستعباد الذي ابتلينا به في القرن الماضي إنما كان نتيجة محتومة لانحطاطنا الديني والخلقي والفكري الذي كنا متردين فيه من قرون عديدة، إذ كان قد بلغ بنا الأمر من الضعف والتقهقر والانحطاط، حيث لم يعد من الممكن أن يقر لنا قرار أو أن نثبت على أقدامنا بأنفسنا، ففي مثل هذا الوضع كان من المحتوم أن تحل بنا نازلة من النوازل، فها هي

---

(١) المرجع السابق، ص٦٤.

ذي قد نزلت في صورة الاستعمار الأوربي وفقاً لقانون الطبيعة[1]، فهذا القانون مقدر من الله تعالى على عباده: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦)، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران:١٠٣).

سوء الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي ومنطقة الخليج:

شهدت منطقة الخليج والجزيرة العربية في مطلع القرن السادس عشر تطورات تاريخية بالغة الأهمية، حيث يعد قدوم البرتغاليين إلى الخليج بداية للعصر الحديث في المنطقة، فقد فتح البرتغاليون بقدومهم إلى المحيط الهندي الباب أمام الدول الأوروبية الأخرى التي أخذت منذ ذلك التاريخ في البحث عن موضع قدم لها في المناطق المطلة على سواحل هذا المحيط.

ومما زاد الأوضاع سوءاً تلك الحالة السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي آنذاك، فقد كانت هناك ثلاث دول إسلامية كبرى تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على المشرق الإسلامي: المماليك في مصر، والصفويون في إيران، والعثمانيون في آسيا الصغرى.

أما على الساحة الخليجية فلم تكن الأوضاع السياسية بأفضل من غيرها من المناطق الإسلامية، ففي عمان كان النبهانيون يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وفي الخليج (البحرين) فإن إمارة بني جبر لم يكن بمقدورها فعل شيء تجاه هذه المتغيرات الإقليمية لعدم مواكبتها التطور الذي شهده ذلك العصر، أما مملكة هرمز في جنوب

(١) أبو الأعلى المودودي، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٩٨٥م، ص١٣١.

الخليج، والتي كانت أهم تلك القوى المحلية، فهي الأخرى انهارت قواها العسكرية بعد أن سيطر البرتغاليون على حركة الملاحة والتجارة في المحيط الهندي، الركيزة التي كانت تعتمد عليها مملكة هرمز[1].

العامل الرابع: العادات والتقاليد

تجانس العادات بين المسلمين:

تتميز الأمة الإسلامية بتجانس وتقارب في العادات والتقاليد والسلوك والآداب، لأن كل مسلم له في الرسول ﷺ أسوة حسنة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ (الأحزاب:٢١).

فالمسلون جميعاً يأكلون على هيئة واحدة، وينامون على هيئة واحدة، وحتى دخولهم الحمامات فإن لهم أدباً واحداً فيها، وآدابهم في السلام والزيارة والعيادة والجلوس والعطس.. وغيرها من الآداب، فإن لهم فيها تجانساً وتشابهاً واحداً.. ونجد ذلك التجانس واضحاً في المجتمع الخليجي المسلم في مختلف عاداته وتقاليده وأنماط سلوكه.

ويدعو الإسلام إلى بناء المجتمع الفاضل، الذي تسود فيه القيم الأخلاقية التي تضبط سلوك الإنسان، وتبقيه في إطار إنسانيته، وتحول بينه وبين الوقوع أسيراً بين غرائزه وشهواته التي تؤدي إلى انحراف المجتمع.

لقد وضع الإسلام لذلك نظاماً أخلاقياً ينسجم مع الفطرة السليمة، ويعالج الانحرافات السلوكية التي تقع نتيجة لتغلب النزعة الحيوانية على النزعة الإنسانية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف:٣٣).

---

(١) مجموعة من أساتذة جامعة الإمارات العربية المتحدة، دراسات في مجتمع الإمارات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٧م، ص ٣٨ – ٣٩.

ولم يقف الإسلام عند حدود المواعظ والتوجيهات والتحريم المجرد، بل وضع لذلك مخططاً تربوياً عملياً دقيقاً في سبيل الوصول إلى المجتمع الفاضل، يتلخص فيما يأتي:

١- الاعتراف الكامل بدور الغرائز في الحياة، والدعوة إلى صقلها وتهذيبها.

٢- اللجوء إلى التربية في المؤسسات الاجتماعية، كالأسرة والمدرسة وجمعيات الرعاية المختلفة.

٣- تهيئة الجو الملائم للقضاء على الأسباب التي تؤدي إلى الانحرافات، فكل ما أدى إلى الحرام فهو حرام.

٤- شرع الإسلام نظاماً عقابياً يتعمق إلى جذور المشكلات.

التجانس الاجتماعي بين أهل الخليج العربي:

البناء الثقافي أقوى البنيان في صياغة المجتمع الخليجي، لأنه يحتوي على المقدرات البشرية والتنظيمية والفكرية التي تعمل على المحافظة على تماسك المجتمع وعدم انحرافه، من خلال التوجيهات والتعاليم ذات الأصول العربية التي هذبها الإسلام بمفاهيمه السماوية، برغم التطور الذي حدث في المجتمع الخليجي بسبب المورد الاقتصادي (النفط) الذي غيّر من طبيعة حياتهم نحو الحياة العصرية، ومحاولة تأثر بعضهم بالحياة الغربية، إلا أن العادات والتقاليد الخليجية والمعتقدات ظلت سائدة، كطراز الأزياء وطريقة العيش في المسكن والمأكل ومراسيم الزواج والولادة والروابط الأسرية والقرابية والتنظيمات القبلية.

لقد حدثت بعض التغيرات في الحياة المادية والتقنية والعمرانية، بالذات في المدن والمراكز السكانية الكبيرة في المجتمع الخليجي، ووفد إليها العديد من الأجناس من المجتمعات غير العربية، وبعضهم من المجتمعات غير المسلمة الأوروبية والآسيوية،

فأحدثت تأثيراً في اللغة واللهجة المحلية، وتغيراً في بعض أساليب التنشئة الأسرية عن طــريق المربيات والخادمات في كثير من البيوت الخليجية، لكنه على الرغم من ذلك بقي بناء المجتمع الخليجي بناءً عربياً مسلماً في تركيبته وتعاملاته، محافظاً على مفاهيم وقيم وعادات الصحراء والبحر والقبيلة والأسرة الخليجية.

ويبرز التجانس الاجتماعي في التشابه الكبير في النظم الاجتماعية، وفي العادات والتقاليد والأعراف، فبالرغم من اختلاف أنماط المعيشة في المدن والقرى والبادية في الخلــيج العربي، إلا أن هنالك قاسماً مشتركاً أعظم في العادات والتقاليد والأعراف، وهذا لا ينفي أن أهل البادية هم أكثر تمسكاً ومحافظة على العادات والتقاليد العربية الــتي ترجع في أصولها القبلية الأولى إلى قلب الجزيرة العربية وجنوبها، ويظهر التشابه في الأهمية التي يوليها أبناء المجتمع الخليجي للأسرة وللجماعة القرابية (القبيلة) بعامة.. كما يظهر التشابه في عادات وتقاليد المناسبات الاجتماعية المختلفة، كالزواج والميلاد والوفاة والاحتفال بالأعياد والأحداث والمناسبات الدينية والوطنية.

التكافل الاجتماعي في الخليج العربي:

نظــام التكافل الاجتماعي في الخليج العربي مستمد من الأصول العربية القديمة ومــن الديــن الإسلامي الحنيف، خاصة وأن طبيعة سكان المنطقة يعيشون في إطار الأســرة والقبــيلة التي من سماتها التكافل والنصرة، أما الدين الإسلامي فإن نصوصه تدعــو إلى التكافل الاجتماعي والحث على التعاون والمساعدة والإنفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠)، ويتضح هذا النظام التكافلي في: الزكاة، والنفقة، والصدقة، وإسعاف الجائع والمحتاج، ومساعدة الداخلين في الإسلام والغارمين، والفقراء، وبذل

المـــال لـــلمجاهدين في سبيل الله وطلبة العلم، والإيثار، والوصية والهدية، والإعارة، والرهن، والوقف، والضيافة.

وتسعى أغراض السياسة الاجتماعية في الدول الخليجية عامة إلى[1]:

١- رفـــع المســـتوى المعيشي لأفراد المجتمع عن طريق تقديم الخدمات الصحية والتعليمية والخدمات التنموية.

٢- العمـــل عـــلى حل المشكلات الاجتماعية والصحية والاقتصادية عن طريق إشباع أكبر قدر من الحاجات.

كما سعت دول الخليج العربي أن تقدم الضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية لأبنائها عن طريق الآتي:

١- تقديم الخدمات الاجتماعية تلبية للحاجات الأساسية للمواطنين، مثل الرعاية الصحية، والاهتمام بالتعليم من خلال فتح المدارس الحكومية.

٢- توســـيع مفهوم الرعاية الاجتماعية من تقديم المساعدات العينية والمادية إلى الأخذ بالأساليب الوقائية والتنموية لدعم أفراد المجتمع.

٣- وضـــع قوانين وتشريعات للتكافل والرعاية الاجتماعية تستند على التعاليم الإسلامية والأصول والعادات والتقاليد والأعراف العربية.

٤- الســـعي إلى تقديم خدمات اجتماعية حديثة، وتقوية العلاقة بين المواطنين والدولة.

٥- طـــبع أنشطة التكافل والرعاية الاجتماعية بطابع مؤسسي حكومي وشعبي عبر المؤسسات والوزارات والجمعيات المختلفة.

٦- إفســـاح المجـــال للمنظمات الدولية في تقديم الرعاية الاجتماعية من خلال الدعم للمشروعات الاجتماعية.

(١) معـــن خلـــيل عمـــر، مجتمع الإمارات والمفاعيل العملاقة، دار الكتاب الجامعي، العين، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠١م، ص ٣٥٢.

العامل الخامس: الطبيعة الأسرية والقبلية

سكان الخليج والجزيرة العربية:

استقر العرب منذ القديم في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، وفي منطقة عمان والساحل الغربي للخليج العربي، ويذهب بعض العلماء والباحثين في أصل الأجناس والسلالات إلى أن العرب هم الأصل للعرق السامي، ومن أرومتهم تفرعت الأقوام الأخرى، كما يرى بعضهم أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للساميين، ومنها تعاقبت الهجرات إلى الهلال الخصيب منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، ثم تلاها هجرات إلى بلاد الشام، حتى أن الجزيرة العربية شُبِّهت ببحر يرسل أمواجاً بشرية متتابعة، في حقب متعاقبة، أو بخزان زود الهلال الخصيب بالسكان.

ورغم أن نظام الحياة العربية كان قبلياً إلا أن ذلك لم يمنعهم من إنشاء أنظمة اجتماعية، وتأسيس ممالك وأسر حاكمة، ولا سيما في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية، حيث قامت الدولة المعينية والسبئية والحميرية، حتى أن هذه الدول بسطت نفوذها في الشمال بما أنشأت من مراكز تجارية.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من أولى الأقوام التي نزحت إلى شواطئ الخليج حين طرأ الجفاف على أواسط شبه الجزيرة العربية الكنعانيين، ولعل ذلك كان في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد استطاب الكنعانيون الإقامة على بعض الينابيع في جزيرتي (تاروت) و(آراد) من جزر البحرين، ثم انتشروا على الساحل، ثم ما لبثوا أن رحلوا في وقت لاحق إلى سوريا، ومنهم تفرع الفينيقيون الذين امتدت أسفارهم إلى البحر الأحمر، فاحتكروا تجارته وتجارة بلاد العرب وسواحل الخليج العربي.

أصل عرب الجزيرة :

لقد صُنف عرب الجزيرة إلى قسمين رئيسين هما :

– **العرب البائدة**: وهي القبائل التي انقرضت ومنها: طسم وجديس وعاد وثمود.

– **العرب الباقية**: وهما قسمان:

– **العرب القحطانية**: وهم في الأصل من اليمن، ويطلق عليهم العرب العاربة، وقـــد تشعبت قبائلهم وبطونهم من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فكان منه بطون حمير، وأشهرهم: زيد الجمهور، والسكاسك، ومنهم بطون كهلان، وأشهرهم همدان، وأنمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد الذين منهم الأوس والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام[1].

– **العـــرب العدنانـــية**: وهـــم من عرب الحجاز وتهامة، ويطلق عليهم العرب المستعربة، وقد تشعبت قبائلهم وبطونهم من عدنان الذي ينتهي نســـبه إلى إسماعيل ابـــن إبراهيم عليهما السلام، والذي جاء إلى مكة وساكن جرهم وصاهرهم، وقام بـــناء البيت الحرام: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة :١٢٧)، ولم تزل أبناء إسماعيل بمكة تتناسل حتى كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنـــزارية[2].

ومـــن أولى القبائل العربية البائدة التي اســـتوطنت منطقة الخليج هي طســـم، كما امتد سلطان جديس حتى شمل اليمامة، ويجمع طسم وجديس أصل واحد.

---

(١) محمد الخضري، مرجع سابق، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤.

وأما العرب الباقية، فإن عرب الشمال العدنانية أول من سكنت بطوها البحرين، وتعد قبيلة قضاعة، وهي فرع من القبائل العدنانية، أول من نزح إلى هذه المنطقة في أوائـــل القرن الأول للميلاد، وقد حدث في هذه الفترة هجرة بعض القبائل إلى هذه المـــنطقة تتزعمها قبيلة الأزد فانضموا إلى قضاعة، ثم أصبح يطلق على القبيلتين اسم تنوخ وهي مزيج من قضاعة والأزد، ويبدو أيضاً أن مجيء إياد إلى البحرين تزامن مع وجود الأزد فيها وقد استقروا في أوال جزيرة البحرين الحالية.

كما أن بطون عبد القيس من العرب العدنانية انتشرت في أكثر أجزاء البحرين، وقـــد برز منها الشعراء والخطباء، فبرز منهم طرفة بن العبد صاحب المعلقة المعروفة التي مطلعها:

لـــية أطـــلال بـــبرقة ثمهـــد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ومن القبائل التي سكنت منطقة الخليج بكر بن وائل التي استوطنت هذه المنطقة قبيل الإسلام.

وأمـــا قبـــيلة بـــني تميم فتعد من أكبر القبائل العربية التي استوطنت هضبة نجد وامتدت سيادتها من الحجاز إلى الأطراف الشرقية للجزيرة العربية، وأصلها يعود إلى مضر وعدنان.

وتشـــير بعض الروايات إلى أن الأزد خرجت من اليمن بعد الهيار سد مأرب، ومـــن بطوهم التي توجهت نحو عمان: ربيعه وعمران بنو عمرو بن عدي بن حارثة ابـــن عمر بن عامر، ومن عمان انتشروا بالبحرين وهجر، أما روايات أخرى فتشير إلى أن الأزد أقـــاموا بـــتهامة، ثم وقعت الفرقة بينهم فصار كل فخذ منهم إلى بلد، فمنهم من قصد عمان، ومنهم من قصد اليمامة والبحرين[1].

(١) محمد أرشيد العقيلي، مرجع سابق، ص٣٢- ٤٠.

هجرات أهالي الجزيرة العربية:

كـــان أهـــالي الصحراء العربية يهاجرون إلى الهلال الخصيب في الشمال منذ أقدم العصـــور، وكـــانوا يرحلون سيراً على الأقدام أو على ظهور الجمال والحمير في طريق يـــدور حول الأصقاع الشمالية من الجزيرة العربية، وكانت الأقسام الغربية من الجزيرة هي الأكثر ازدحاماً بالسكان، ومن تلك المنطقة كان طريق الهجرة يتجه بشكل طبيعي نحو الشمال قدماً باتجاه الأردن وسوريا، ثم ينحرف شرقاً إلى الذروة الشمالية من حدبة الجزيرة، وينحدر إلى الجهة الغربية من بلاد ما بين النهرين نزولاً إلى الخليج العربي.

ولم تكن حركة السكان مقصورة على الهجرة من الصحراء إلى الهلال الخصيب في الشمال، فقد حدثت هجرة مشابهة في الاتجاه المعاكس[1].

وبعد الإسلام حدثت هجرات لأهالي الخليج والجزيرة العربية إلى بلدان مختلفة في العالم لنشر الإسلام، فقد هاجرت جماعات كبيرة وقبائل مختلفة من الخليج والجزيرة العربية إلى البلاد المجاورة وما تلاها من البلدان، وساعدت هذه الهجرات على انتشار الإسلام في مختلف بلاد العالم حتى إندونيسيا والفليبين.

أما الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا فقد مرت بمراحل ثلاث هي[2]:

الأولى: رحلات من الخليج والجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا طلباً للتجارة.

الثانية: مرحلة الإقامة بالجزر الساحلية كمحطات في الطريق.

الثالثة: مرحلة إنشاء المدن الإسلامية على ساحل شرق أفريقيا.

وهناك طرق أخرى سلكها أهل الخليج والجزيرة العربية لنشر الإسلام في عموم أفريقيا هي :

---

(١) إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٢) عبدالرحمـــن حمـــيدة وآخـــرون، الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي، الصف الثالث الثانوي، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، ١٩٧٧م، ص ٣٠.

١- طريق برزخ السويس.

٢- طريق الواحات عبر الصحراء حتى غربي القارة.

٣- طريق القوافل من تونس وجنوب الجزائر والمغرب إلى شمال نيجيريا.

٤- طريق بلاد اليمن وحضرموت إلى الصحراء الشرقية ووادي النيل.

الأسرة والقبيلة في الخليج والجزيرة العربية:

النظم الاجتماعية ظاهرة إنسانية عامة إلا أن طبيعتها وأهميتها وعلاقتها قد تختلف من مجتمع لآخر ومن وقت لآخر، ومن أهم النظم الاجتماعية التي عرفت في منطقة الخليج والجزيرة العربية النظام الأسري والقبلي: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣).

فتعد الأسرة والقبيلة عصب الحياة الاجتماعية والسياسية في مجتمع الخليج والجزيرة العربية.

وتتسم الأسرة والقبيلة بالتضامن الاجتماعي والترابط والتآزر والاحترام المتبادل.

وتمثل الأسرة الوحدة الأساسية للنظام القبلي، ومجموعة الأسر تكون عشيرة أو فخذاً، ومجموعة العشائر (الفخوذ) تكون قبيلة، ومجموعة القبائل تكون حلفاً قبلياً كبيراً، ويزداد النظام القبلي صرامة وتمسكاً به أكثر في الصحراء والبادية من أرض الجزيرة العربية.

لقد طرأت بعض التغيرات في النظام الأسري والقبلي في الوقت الحاضر في دول الخليج العربي، من ذلك:

١- قيام مؤسسات الدولة بالمشاركة في عملية التنشئة الاجتماعية، التي كانت في الماضي قائمة على الأسرة فقط.

٢- الاعتماد في تنشئة الأطفال والعناية بهم على المربيات الأجنبيات (الآسيويات) في كثير من بيوت الخليج العربي خاصة بيوت الموسرين منها، وكذلك بيوت فئات متوسطي الدخل فما فوق.

٣- زواج بعض أبناء الأسرة الخليجية من أجنبيات، خاصة من الدول الآسيوية وبعض الدول الغربية أحياناً، فوردت عادات وطبائع غريبة عن المجتمع، أثرت على الأبناء في الأسرة.

٤- انشغال الأب والأم بالعمل خارج المنزل أثر على رعاية الأبناء في الأسرة، لعدم وجود الوقت الكافي لرعايتهم من قبل الوالدين.

٥- بروز الاقتصاد والدخل عن طريق المؤسسات الحكومية والخاصة وانحسار وضعف الاقتصاد المهني الأسري.

٦- اعتماد الأسرة على التكنولوجيا الحديثة في تجهيزات المنازل كالغسالة والثلاجة والفرن الآلي وغيرها من الآلات والأدوات الميكانيكية والإلكترونية، مما أدى إلى توفير الوقت والجهد الذي كان يبذله أفراد الأسرة خاصة الأم.

العامل السادس: الظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة:

حدود جزيرة العرب والخليج العربي:

يطلق العرب على قطعة الأرض التي نشأوا فيها (جزيرة العرب) مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء، كما قال ياقوت الحموي في معجم البلدان نقلاً عن هشام بن محمد السائب عن ابن عباس: إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد

العراق حتى وقع بناحية البصرة والأيلة وامتد إلى عبادان، وأخذ البحر في ذلك الموضع مغـــرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها، فأتى منها على سفوان وكاظمة إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعمان والشحر، ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبين، وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان وحكم والأشعريين وعك، ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار ساحل المدينة، ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ القلزم فمصر وخالط بلادها وأقبل على النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وســـواحلها وأتى صور ثم سواحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفـــذ إلى ســـواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق[1].

أما حدود إقليم الخليج العربي فإنه يشكل الذراع البحري المتفرع من بحر العرب الذي يطوق الجزيرة العربية من الجنوب والمكمل للمحيط الهندي، ويتكون من خليج خـــارجي وهو خليج عمان وخليج داخلي وهو الخليج العربي، بالإضافة إلى مضيق هرمـــز الذي يصل الخليجين أحدهما بالآخر، ويصل عرضه إلى ٦٠ كيلومتراً، ويعتبر الخلـــيج الغـــربي بحراً ضحلاً لا يزيد متوسط عمقه عن ٣٥ متراً، بينما يصل أقصى عمق له حوالي ١٠٠ متر بالقرب من مضيق هرمز، ويبلغ طول الخليج حوالي ١٠٠٠ كـــيلو متر، بينما يتراوح عرضه بين ٢٠٠ و ٣٠٠ كيلو متر، ويغطي مساحة تصل إلى ٢٢٦٠٠٠ كيلو متر مربع[2].

---

(١) محمد الخضري، مرجع سابق، ص٤-٦.

(٢) يحـــيى فـــرحان وآخـــرون، الجغرافية الإقليمية، الصف الثالث الثانوي الأدبي، وزارة التربية والتعليم وشؤون الشباب، سلطنة عمان، ١٩٨٣م، ص٢٥٢.

الخليج العربي في العصور الإسلامية:

اكتسب الخليج العربي أهمية خاصة منذ الفتوحات الإسلامية، إذ أصبح الطريق الوحيد للتجارة بين الشرق والغرب، وترتب على ذلك أن انتهى التنافس الذي كان قائماً بين الخليج العربي والبحر الأحمر، إذ أصبحا بحرين في دولة إسلامية واحدة يكمل أحدهما الآخر، وظل الأمر كذلك إلى أواسط الحكم الأم٨ي حين تدهورت الحركة التجارية بسبب حركات المعارضة الانفصالية المذهبية، التي كانت تسعى للانفصال عن الدولة الأموية، وقد نتج عن ذلك ركود حركة القوافل التجارية المارة عبر الخليج مما اضطر على إثر ذلك أن يعتمد الأمويون على البحر الأبيض المتوسط.

وظل الأمر كذلك حتى قيام الدولة العباسية، فاستعاد الخليج العربي أهميته التجارية العالمية من جديد، فازدهرت موانئ الخليج بسبب كثرة تردد القوافل عبرها، وبسبب كبر حجم المبادلات التجارية بين الهند وبلاد فارس والبلاد العربية.

بيد أن منطقة الخليج ما لبثت أن تعرضت مرة أخرى إلى فترة ركود كهمزة وصل في حركة المبادلات التجارية على أثر الغزو المغولي للعالم الإسلامي.. ولم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما أصيبت حركة الملاحة والتجارة بشلل بسبب تعرض المنطقة للفوضى والصراعات المحلية فيها قرابة الثلاثة قرون، وبذلك ظل الخليج يمارس بعض النشاطات التجارية بشكل بطيء وعلى نطاق محدود حتى قيام الدول الاستعمارية في العصر الحديث بالتنافس على بسط نفوذها على مياه هذا الخليج.

أهمية موقع الخليج العربي:

البيئة الجغرافية لمنطقة الخليج والجزيرة العربية توضح معالم تاريخ المنطقة وتحديد موقعها، والأقاليم التي تتألف منها، كما توضح أهميتها التاريخية والحضارية على اعتبار أنها معبراً بحرياً والجسر الذي يربط الشرق بالغرب، وانتقلت من خلاله حضارات العالم القديم.

إن نظـــرة عابـــرة إلى الإطار الخارجي لخريطة الجزيرة العربية تشير إلى أن مياه البحر الأحمر تحدها من الغرب ومياه بحر العرب تحدها من الجنوب، في حين أن مياه الخليج العربي تحتضنها من الشرق، وتتداخل شواطئ هذا الخليج مع البر تارة في حين يـــتداخل الـــبر مـــع مياه هذا الخليج تارة أخرى، وكذلك فإن شواطئ هذا الخليج الشرقية تطل على بلاد فارس، وسواحلها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

ولأهمـــية هـــذا الموقـــع قديماً فإنه قامت على شواطئه المراكز العالمية للملاحة والـــتجارة، حـــتى أنه نافس في كثير من الأحيان البحر الأبيض المتوسط من الناحية الاستراتيجية.. وإذا كان الخليج قد جذب الفاتحين قديماً بما تناثر في جنباته من اللؤلؤ والمـــرجان، فـــإن هـــذا الخليج يحرك اليوم شهوات الطامعين اقتصادياً وعسكرياً وسياســـياً، بما تفجر من سواحل تربته من ذهب أسود (النفط) يعد عصب الحضارة وعمـــاد حـــياة البشـــرية في عـــالم الاقتصاد والإنتاج والتجارة والآلات والمصانع والتكنولوجيا الحديثة.

وتدخـــل منطقة الخليج العربي في إطار استراتيجية الدول العظمى، حيث الشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا، وغرب المحيط الهندي، والبحر الأبيض المتوسط، كل ذلـــك يشـــكل مســـرحاً واحداً للعمليات الحربية وكياناً سياسياً واحداً، فالدوائر العسكرية الأمريكية وجدت في شمال بحر العرب أحد أهم النقاط الاستراتيجية...[1].

ويشـــكل النقل البحري، خصوصاً نقل إمدادات النفط من الخليج العربي، أحد أهم المعطيات الاستراتيجية في المحيط الهندي، وإذا أخذنا في الاعتبار أن إنتاج النفط في الخلـــيج العربي يراقب بأكثريته من قبل الغرب، ندرك عندها أهمية نقل إمدادات

(١) انطوان متى، الخليج العربي من الاستعمار البريطاني حتى الثورة الإيرانية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ص٢٠.

نفط الخليج العربي وحرية تحرك ناقلات النفط عن طريق رأس الرجاء الصالح أو قناة السويس بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية واليابان، لكن الموضوع الرئيس بالنسبة إلى العالم الحر، يكمن في حماية حرية الطرقات البحرية، فالأخطار البحرية التي يمكن أن تتعرض لها حركة نقل النفط تأتي من الغواصات أو الألغام البحرية العائمة أو ألغام ترميها طائرات حربية من الجو، أي أنه من الضروري ألا تتعرقل حركة النقل هذه من أي نزاع قد ينشب في الخليج العربي أو إمكانية سد مضيق هرمز، أحد أضعف النقاط على طريق النفط الخارج من منطقة الخليج، إذ من الممكن أن تتعرض ناقلات النفط خلال سيرها إلى تدخلات وعمليات هجومية.

إن ناقلات النفط التي تترك عمق الخليج تمر أولاً في عرض البحرين وقطر ثم بين إيران والإمارات العربية المتحدة لتخرج أخيراً من مضيق هرمز في اتجاه خليج عمان في خط مستقيم نحو المحيط الهندي، أو تتجه نحو بحر العرب لتمر في مضيق باب المندب فتدخل في البحر الأحمر وتنفذ من قناة السويس إلى البحر الأبيض المتوسط، لتصل إلى الدول الغربية.

وخطورة طريق النفط المتجهة من الخليج مروراً بالمحيط الهندي تطرح للدول الغربية تساؤلات، إجابتها أنها لن تقبل بأية عملية ابتزاز أو إنذار تهدف إلى تعطيل أو قطع خط النفط الحيوي أو المساس بمثل هذه المصالح وتهديدها، وكأن ذلك بمثابة تهديد للدول نفسها ما دام اقتصادها وصناعاتها ومصادر الطاقة لديها غالبيتها قائمة على نفط الخليج، من هنا ندرك استراتيجية موقع الخليج وممراته البحرية لنقل النفط الخليجي إلى بلدان العالم.

ثالثاً: الإمكان الاقتصادي لدول الخليج العربي

توزيع الثروة بين الناس في نظر الإسلام :

بـين الله عز وجل في القرآن الكريم أن حياة الناس لا تستقيم إلا بتفاضلهم في الرزق، فذلك سنة من سنن الله في خلقه للبشر قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ (النحل:٧١)، وبين الحكمة في ذلك بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (الأنعام:١٦٥)، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف:٣٢)، فلـولا أن يـخدم الناس بعضهم بعضاً كل على قدر ما أوتي من طاقات، لتعطلت مصالح البشر.

وقد جعل الله عز وجل الغاية من توزيع الثروة في المجتمع الإسـلامي ألا تكون بأيد قليلة، فذكر عز وجل العلة من توزيع قسم من الأموال على بعض الناس: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ (الحشر:٧).

فمـن محاسـن الإسلام وشمول شرعه وتكامل نظامه أن اهتم حتى بالثروة التي تكـون في بـاطن الأرض (الركاز)، هل هي ملك عام أم ملك خاص؟ وفي عصرنا الحاضر فإن النفط والمواد الخام الموجودة في باطن الأرض هي مما يسمى عند الفقهاء (الركاز) أي ما ركز في الأرض خلقة أو بسبب.

التجارة ومصادر الثروة في الخليج في العصور المختلفة:

لقـد ازدهـرت التجارة في الحقب التي سبقت الميلاد في منطقة الخليج، ويرى الباحـثون أن هناك صلة كبيرة بين الفينيقيين وبين النشـاط التجـاري في منطقة

الخليج قديماً، وأنهم استقروا فترة في شواطئ الخليج، ثم انتقلوا إلى الساحل السوري، وأنهـــم سموا مدينة صور على ساحل البحر المتوسط باسم مدينتهم الأولى صور على شاطئ عمان.

وقد شهدت منطقة الخليج منذ أوائل القرن الرابع الميلادي حركة تجارية واسعة، وقـــد مثل الفرس هذه الحركة بإقامتهم علاقات تجارية مع الهند والصين ومنافستهم لحركة الأحباش التجارية عبر البحر الأحمر.

وظـــل الخلـــيج شرياناً حيوياً وهمزة وصل في حركة التجارة العالمية مع الصين والهند، وبقي التنافس قائماً بين الخليج في ظل السيادة الفارسية وبين البحر الأحمر في ظـــل السيادة الرومانية الحبشية قبيل الإسلام، ورغم ذلك كان للعرب على الخليج عـــدة موانئ وكانوا قادرين على حمايتها واستغلال الثروات المحيطة بها من ناحية البر والبحر معاً[1].

واشتهرت منطقة الخليج في العصر الإسلامي بنوعين من الصناعة:

أولها: الصناعة التحويلية، وثانيها: الصناعة الخشبية والحديدية.

فالصناعة التحويلية يتم من خلالها تحويل صوف الأغنام وشعر الماعز ووبر الإبل إلى منســـوجات متعددة الأشكال والألوان، وقد نسبت بعض الصناعات إلى البلـــد أو الأقاليم الذي نسجت فيه، فهناك الثوب الهجري الذي نسب إلى هجر، والقطري الـــذي نســـب إلى قطر.. ومن أبرز الأنسجة في البحرين ومناطق الخليج: المناشف والملاحف والأحذية، والثياب والبرود والأردية.

أمـــا الصـــناعة الخشبية والحديدية فهي صناعة السفن التي ساهمت في فعاليات

(١) محمد أرشيد العقيلي، مرجع سابق، ص ٢١٢-٢١٣.

حـــركة الملاحة عبر الخليج، فقد أشار الشاعر طرفة بن العبد في معلقته إلى سفن ابن يامن قائلاً:

عدولية أو من سفين ابن يا من   يجـــور بها الملاح طوراً ويهتدي

وكان من أبرز صفات السفن الإسلامية في العصر العباسي الشراع المثلث.

والصـــناعة الحديديـــة في منطقة الخليج صناعة يدوية بسيطة تطلبتها احتياجات المنطقة محلياً في أعمال الفلاحة كصناعة المناجل والمساحي من قبل من امتهنوا أعمال الحدادة أو لغايات الحرب[1].

وتـــتوفر في سواحل الخليج وبعض المناطق الداخلية منه المياه في جوف الأرض، وقـــد أدى ذلـــك إلى زراعة الحنطة والشعير فـــي بعض جزر البحرين، كما زرع القطن والحناء على شطوط بعض الأنهار.

وتبقى شجرة النخيل على رأس قائمة المحاصيل الزراعية، وينتج ساحل الخليج من البصـــرة شمالاً إلى عمان جنوباً أنواعاً كثيرة من التمور، وقد أصبح تمر هجر مضرباً للمثل فقيل: «كمستبضع التمر من هجر»، فالتمر بأنواعه المختلفة يعد سلعة دخلت ميدان المبادلات التجارية محلياً وعالمياً.

كما يزرع الموز والليمون والعنب وبعض الخضراوات الموسمية في مختلف مناطق الخليج وسواحله.

واهـــتم أهل الخليج في العصور المتأخرة باستخراج اللؤلؤ من البحار من خلال الغوص في أعماق المياه الخليجية، فيواجهون بثمنها متطلبات الحياة وتكاليف المعيشة من خلال هذا العمل الموسمي.

(١) المرجع السابق، ص ٢١٥ – ٢١٧.

كمـــا احـــتوت سواحل الخليج على أنواع متعددة من الأسماك، ساعدت بعض السكان على امتهان حرفة الصيد منذ القدم.

٣- النفط مصدر الثروة الأهم:

دول الخليج العربي تتشابه إلى حد بعيد في هياكلها الإنتاجية، فاقتصاديات هذه الدول تعتمد بدرجة كبيرة على المصدر الأهم، أي إنتاج وتصدير النفط الخام والغاز وإيـــرادات المصادر الهيدروكربونية سواء في شكلها الخام أو المصنعة، فتشكل جزءاً كـــبيراً مـــن صادرات هذه الدول، ومن إيرادات موازناتها العامة، ومن ثم من آلية تشغيل الاقتصاد المحلي في هذه الدول الخليجية.

وكـــان لاكتشـــاف النفط في حوض الخليج العربي الأثر الأكبر في تغيير معالمه الاجتماعـــية والاقتصـــادية، وتتوزع عوائد النفط في تلك الدول بين الميزانية العامة بهـــدف تنفـــيذ المشـــروعات التـــنموية المختلفة وبين المواطنين بهدف رفع دخولهم والارتفـــاع بمســـتواهم المعيشي، ويسهم النفط بأكثر من ٨٥% من الميزانية العامة لدول الخليج العربي حتى يصح أن تسمى هذه الدول بدول النفط[1].

لذا يمثل النفط مصدر الثروة الأهم حالياً بين المصادر الأخرى الضعيفة اقتصادياً، وقـــد ترتـــب عـــلى النفط ظهور طفرة عمرانية تتمثل في التحديد الشامل للمراكز العمرانـــية القديمـــة، والامتداد خارج أسوارها، والتمدد في ضواحيها، لإقامة مدن جديدة وحديثة العمران.

لقـــد جلب النفط الخير والنعم الوفيرة لدول الخليج العربي وسكانه، وأدى ذلك إلى تنفـــيذ الكثير من المشروعات التنموية في تلك الدول، إلا أنه بالمقابل يعتبر سلعة عالمية لاغنى لكثير من البلدان الصناعية الكبرى عنه، فهو شريان الحياة وتنفسها لدى

(١) يحيى فرحان وآخرون، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

الـــبلدان الغربية اقتصادياً، وكل ما يؤثر على هذه المعادلة يهدد النشاط الاقتصادي الغربي بأكمله، فحلقة النفط (إنتاج- نقل- أسعار) تعرضت دائماً لأخطار النـــزاع العربي-الإسرائيلي، علما أن مضاعفات هذا النـــزاع، شجعت تمركز القوى الكبرى حول المنطقة بشكل كبير وكثيف.

وأخيراً يمكن التمييز بين مرحلتين من مراحل الدخل والإنتاج الاقتصادي لدول الخليج العربي: هما مرحلة ما قبل النفط ومرحلة ما بعده.

ففـــي **المـــرحلة الأولى:** كانت عناصر الاقتصاد الخليجي قائمة على استخراج اللؤلؤ وصيد الأسماك والرعي والثروة الحيوانية والزراعية والحرف التقليدية والتجارة.

أمـــا المرحلة الثانية: فقد ترتب على اكتشاف النفط وصناعته حدوث تغيرات جذرية في العلاقات الأساسية للحياة الاقتصادية والاجتماعية، وأدت ملكية الدولة في الخلـــيج للثروة النفطية وازدياد دخلها إلى تعاظم دور القطاع العام في عملية التنمية .بمختلف جوانبها الاقتصادية والاجتماعية، وزاد متوسط نصيب الفرد منه مما أدى إلى تزايد المدخرات المحلية للدولة في تمويل الاستثمارات.

السبيل لاسترداد فاعلية الأمة

الدكتورعبد اللطيف محمود آل محمود(*)

أما وقد ثبت في الواقع، أن بلاد الجزيرة العربية والأمة المسلمة بشكل عام قد تخلفت عن القيام بدورها الحضاري في الوقت الراهن، بعد أن كان لها دور غير منكور، فإن البحث ينبغي أن ينصب على الأسباب، ومواطن الخلل التي عطلتها، ولا يجوز لنا الاكتفاء بالقول: بأن ذلك من فعل الأعداء!

إنه لمن المسلمات في الحياة الإنسانية أن الأحكام والمبادىء والخصائص والمقومات لأي رأي أو فكر أو دين أو قانون، لا تؤتى ثماره ولا يجنى جناه إلا إذا وجد من يؤمن به ويعمل على تحقيقه، وتوجد البيئة الملائمة والظروف المواتية لتطبيقه.

والأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم، ولا استثناءً من قواعد الحياة، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٥).

(*) باحث.. أكاديمي (مملكة البحرين).

قال الله تعالى :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ (فصلت:٩-١٠).

ولا يصلح القول: بأن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تقوم بدور حضاري أو ليس لها مقوماته، لأنه قد كان لها دور حضاري على أرض الواقع، بدأ في مهبط الوحي في الجزيرة العربية، ونطقت به المعالم الأثرية الحضارية في جميع البلاد التي استقر بها المسلمون، وتزخر بها المكتبات، ونتج عنها العلوم النظرية والتطبيقية التي عرفها المسلمون.

ولا يجوز لنا الاتكاء على أن الأعداء قد عملوا لإخراج الأمة الإسلامية عن دورها الحضاري باستعمارها والسيطرة عليها والتصرف في مقدراتها وقوانينها بالقوة والهيمنة، فذلك شأن الصراع بين القوى، والغالب يفرض سلطانه ورأيه على المغلوب، طبقاً لأحكامه وقواعده وأخلاقه وسياسته ونظرته إلى الآخرين.

أما وقد ثبت في الواقع أن الأمة الإسلامية قد تخلفت في وقتها الراهن عن القيام بدورها الحضاري أمام الحضارات الأخرى، والغربية على وجه الخصوص، بعد أن كان لها دور غير منكور، فإن البحث ينبغي أن ينصب على الأسباب التي عطلتها عن ذلك.

ويمكن التأكيد على ما سبق قوله من أن الأفكار والآراء والأديان لا تؤتي ثمارهـــا إلا إذا وجدت ثلاثة أمور: أولها الإيمان .. وثانيها العمل على تحقيقها.. وثالثها: البيئة الملائمة للتطبيق.

أما **الإيمان بالإسلام**، فإنه لابد أن نفرق بين الإيمان به كمعتقد شخصي، وبـــين الإيمان به كدين حضاري جاء من الله تعالى لتحقيق الحياة الطيبة للناس أجمعـــين في الدنـــيا، مـــن آمـــن به ومن لم يؤمن به: قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧)،ولتحقيق النجاة من عذاب النار ودخول الجنة يوم القيامة: قال الله تعالى: ﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ (آل عمران:١٨٥).

المؤمـــنون بالإسلام اليوم في العدد كثير، منـــتشرون في الكرة الأرضية، أغلبـــية في دول وأقلية في دول أخرى، ولن ينـــتهي المسلمون من على سطح الأرض إلا عـــندما تأتي الريح اللينة في آخـــر الزمان فتأخـــذ أرواح المؤمنين، كما أخبر بذلك الرسولﷺ.

لكن الإيمان بالإسلام درجات، مؤمن يمارس الإسلام في ذاته، عامـــل به في نطـــاق حياته وحياة من حوله. وهذا النوع من الإيمان نراه في سلوك عامة الـــناس وعوامهـــم، وهم الغالبية العظمى. وهذه الغالبية ـــ في الإسلام وفي أي معـــتقد وحضـــارة ودين ـــ يمكن أن تكون قوة معطلة لا يؤبه بها ولا تؤثر في الحـــياة، ويمكن أن تكون قوة ذات فاعلية كبرى تغير الحياة وتؤثر فيها إيـــجاباً أو سلباً.

إنها تكون قوة معطلة لا يؤبه بها عندما ترتبط بلقمة عيشها، وتتبع شهواتها وأهواءها، وتضعف عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها فحسب، ولا تجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي تربطها بالحياة وتطوراتها.

ولكنها تصير قوة ذات فاعلية إيجابية كبرى عندما ترتبط بلقمة عيشها وتسيطر على شهواتها وأهوائها، وتقوى عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها ولغيرها على حد سواء، كما كان الصحابة الذين تربوا على عين النبوة ثم انطلقوا لحمل الرحمة للعالمين، وتجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي توجهها إلى الحياة الإنسانية، وتربطها بها وبتطوراتها.

كما أنها تصير قوة ذات فاعلية سلبية كبرى عندما تسيطر عليها الانتماءات اللغوية الإقليمية أو المكانية أو الزمانية أو الجنسية أو العرقية أو النسبية، وترى لها الفضل والأفضلية على بقية البشر، أو يشتط بها إيمانها بنفسها فترى أن الدنيا لها وحدها وغيرها إنما خلق خادماً لها ومحققاً لشهواتها، وهي تلك الدعوات العنصرية والجنسية والدينية.. وتصبح هذه النزعة طامة كبرى في الحياة البشرية عندما تجد قيادة سياسية وقيادة فكرية تزكي في نار التميز والتميز وادعاء الأحقية على بقية البشر.

تلك درجة من الإيمان تجعل أصحابها غثاء كغثاء السيل.. ويمكن أن تتحول إلى قوة بناء، كالماء العذب يمر على الأرض الهامدة، فإذا بها قد اهتزت وربت وأينعت وأنبتت وأثمرت كما ضرب الله بذلك مثلاً: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

ودرجــة أخرى من الإيمان بالإسلام، يعيش صاحبها في الحياة وهو يحمل هم الحياة وهمومها، ويفكر في طريق خلاصها، عاطفته جياشــة لا تفتر، متزنة لا تحـيد، وهـو لا يعيش لنفسه فحسب وإنما يعيش لنفسه ولقومه وأمته، بل وللناس أجمعين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، متأسياً بالرسول ﷺ وصحابته خير القرون؛ تراه يتعبد في محراب العمل، ومحراب المعاملة، ومحراب التعامل مع جميع الخلق، كما يتعبد في محراب الصلاة والصوم والحج لله رب العالمين.

هــذه الدرجة من الإيمان إذا وجدت في القيادة السياسية والقيادة الفكرية الموجهــة لعقول أبناء الأمة وطاقاتها كانت بركة على المسلمين وعلى البشرية أجمعين، وجعلت من المسلمين أنداداً لغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى، يعملــون كما يعمــلون، وينتجون كما ينتجــون، ويتفاعلون مــع الحيــاة كما يتفاعلون.

وأمــا **العمــل على تحقيق الإسلام في الحياة** فهو ناتج من الإيمان بعالمية الإسلام وتنظيمه لشؤون الحياة كلها وشؤون البشرية جمعاء، من آمن به ومــن لم يؤمــن به، وإعطاء كل ذي حق حقه في توازن بين حق الفرد وحق الجماعة وحق الآخرين.

وهذا الوعي بين المسلمين، هو الذي نقل الإسلام من الحجاز إلى الجزيرة العربــية كلها، التي تشكل فيها الأنموذج ثم نقل إلى ما حولها من أرض، شمالاً وشرقاً وغرباً وجنوباً، حتى وصل إلى معظم أنحاء العالم المعروف، ويصل أبناؤه اليوم إلى العالم الجديد الذي لم يكن معلوماً لهم.

وأمـــا **البيـــئة الملائمة للتطبيق** فتقوم على وجود الضوابط والحدود، التي تحفظ لكل مؤسسة، صغرت أو كبرت، قواعد حركتها، وحدودها، وحقوقها، وواجباتها، ومرجعيتها عند الاختصام، وأسلوب عملها، فرداً أو أسرة أو سلطة تشريعية أو فكرية أو قوة إعلامية.

ولقـــد وجـــه الله تعالى هذه الأمة في أسلوب عملها فقال: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشـــورى:٣٨)، وإلى مرجعيتها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء: ٥٩)، وإلى أسلوب التقويم في حياتها فقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (آل عمران:١٠٤)، وإلى تعلق القلوب بابتغاء مرضاة الله فقـــال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (البيـــنة:٥)، وإلى الالـــتزام بأحكام الإسلام فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ ﴾ (المائدة:٤٨)، وقال: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ ﴾ (المائدة:٤٩).

هاهي أسباب عدم فاعلية الأمة في وقتها الراهن للقيام بدورها الرسالي، قد بانت وظهرت:

- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية وغياب البعد الرسالي عن واقع الكثير في الأمة المسلمة بشكل عام.

- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى الغالبية العظمى من عامة المسلمين بالدور الحضاري للأمة الإسلامية.

- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى بعض المفكرين المسلمين وعدم التصور العملي للبعد الرسالي.

- الانشغال بتنمية الكيانات الصغيرة للدول العربية والإسلامية، والانكفاء عليه، دون الاهتمام بالارتباط القومي والإسلامي.

- فقدان البعد الرسالي في بناء التعاون والتنسيق بين كيانات الدول العربية والإسلامية في جوانبها السياسية والاقتصادية والإعلامية والحضارية على وجه الخصوص.

- انتفاء سياسة العطاء الحضارية التي تقوم عليها الأمة الإسلامية وتدعو إليها خلال القرون الماضية والقرن الحالي (الإيمان بعالمية الإسلام).

- عدم اعتبار مصادر الإسلام الصحيحة المرجع الأساس لأخذ القوانين والنظم التي تسوس الفرد والجماعة، وللاحتكام بين المسلمين فيما يتنازعون فيه.

- عدم وضع الاعتبار لقوة الشعوب في حركة الدول العربية والإسلامية بحيث تكون قوة مساندة لحكوماتهم وأنظمتهم في عطائهم الحضاري

الإسـلامي، وفي دفـاعهم عن حقوقهم ومقوماتهم أمام طغيان القوى المسيطرة عالمياً.

- اختلاط الاختصاصات بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، أو وحدة الهيمنة عليها، وسرعة إحداث التغيرات في قواعدها وقوانينها في كثير من الدول الإسلامية لتحقيق المصالح الفردية والآنية.

- الـتجاوزات للقوانـين، وسد الأبواب على المتضررين عن المضي في الطرق التي توصلهم إلى حقوقهم عند حدوث هذه التجاوزات.

- ضـعف الـرقابة، وضمور حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطوير آلياتها، على الأداء الوظيفي للقطاع العام باعتباره القطاع الذي يسـوس أفراد الشعب ومؤسسات الدولة، ويحوي ميزانية الدولة، التي يسـتفيد مـنها المجتمع بكامله، مع ما لقوته وعطائه من الأثر الأكبر في استقراره والثقة فيه، داخلياً وخارجياً.

- ارتباط حركة الدول بالأفراد الذين يتولون المسؤولية دون مؤسساتها، ممـا يجعل الدولة لا تستقر في حركتها، وتتغير سياستها وحركتها بتغير الأفـراد الذين يتولون أمرها، ويؤثر ذلك في غالب الأحوال سلباً على مقوماتهـا وحركـتها.. كمـا أنه في هذه الأحوال، غالباً ما يتمكن الطفيلـيون والمـنافقون وأصحاب الأهواء والمصالح الخاصة من مصالح الدولة العامة، ويكثر الفساد الإداري، وتنتشر الرشوة والمحسوبية.

- انغـلاق أصحاب الفكر المذهبي أو العلمي أو العلماني على أنفسهم، ومحاولتهم القضاء على الآخرين أو طمس أفكارهم أو ردهم إلى أضيق

السبل في الحياة، مما يولد المعارضة التي تعطل الحركة، وتعمل على هدم المجتمع بالتعاون مع (الآخرين).

- عدم التأكيد على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والعمل في مجال المتغيرات، وانصباب الحركات الأخرى على تغيير الثوابت الإسلامية، مما ولد صراعات لم تنته بعد.

أزمة الحضارات الحالية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية:

لا بد من الاعتراف مسبقاً بما للحضارة العالمية الحالية من منجزات حضارية مادية، سواء في التقدم المدني، أو العلمي، أو التقني، أو وسائل الاتصالات، أو العمل التجاري، أو التنظيم الإداري، أو الاهتمام بالجسد البشري وبالنفس الإنسانية من خلال البحوث المكثفة والدراسات الميدانية والدراسات الموسعة.

ولا بد من الاعتراف ثانياً، أن هذه المنجزات الحضارية قد قامت في كثير من دوافعها وتطبيقاتها على أساس الانفصال بين الدين والحياة، وحصر الدين على أماكن العبادة والشؤون الخاصة للفرد، وجعل الحياة الاجتماعية واقعة تحت تخطيط الإنسان والنتائج التي يتوصل إليها انطلاقاً من تشريع الإنسان لنفسه.

ولا بد من الاعتراف ثالثاً، أن القائمين على هذه المنجزات قد تأثروا ببيئاتهم الثقافية، بما فيها من علوم وتاريخ وأساطير وأديان وخرافات ونظرة إلى النفس وإلى الآخرين.

ولا بد من الاعتراف رابعاً، أن الإنسان في طفولته الحياتية والثقافية والعلمية يرى أنه دائماً على الحق، وأن غيره مجاف للحق، ويود لو أن العالم تغير

إلى ما هو عليه .. ويصل به الاعتقاد إلى أنه يعجب كيف ولا يعرف الآخرون الحـــق الجــلي الذي يعتقده، وكيف لا يعرفون الباطل ــ في رأيه ــ الذي هم علـــيه؟! ولا يخـــرج من هذه الطفولة إلا من نمى بثقافته وعلمه حتى وصل إلى مرحلة الرجولة والشيخوخة التي تعرف بأن الحق قد يكون متعدداً، وأحياناً أنه لابد من التعايش مع ماهو باطل بكل المقاييس.

ولا بـــد من الاعتراف خامساً، أن الحضارة العالمية، رغم سماتها الأوروبية والأمريكية وسماتها المادية، إلا أنها لا تمنع الآخرين من الدخول إليها والعمل من داخلها للاستفادة منها والتأثير فيها بقوة البرهان والدليل، مع الاعتراف بأن هذا التأثير ليس بالأمر اليسير ولكنه ليس بالأمر المستحيل.. وتعمل على إشاعة القيم الديمقراطـــية والحـــرية والإخـــاء الإنساني وحقوق الإنسان ودولة المؤسسات والإعـــلام ــ المفتوح على كل شيء، بما له من سلطة فائقة حتى سمي بالسلطة الـــرابعة ــ لكل قادر أن يلج إلى تلك المجتمعات ويؤثر فيها، رغم ما سيحاوله الآخرون من عرقلة لتلك الجهود.

وإذا كان الإسلام يهتم بالجسد والروح، وبالمادة والقيمة، ويربط الإنسان بـــالكون وخالقـــه، ويعترف بالإنسانية جمعاء، فإن عمل المسلمين مع الحضارة العالمـــية الراهـــنة ينبغي أن يكون مكملاً لها، ومصلحاً لاعوجاجها إن وجد، ودافعاً لمسيرتها حتى ترتقي إلى أن تكون إنسانية عالمية لا إنسانية أوروبية أمريكية غربية.

ولقد أتيح للمسلمين أن يثبتوا صدق معتقدات الإسلام وصحة طروحاته، ســـواء النفسية أو الروحية أو الاقتصادية، في البلاد الإسلامية، والبلاد الغربية،

لكـــن جهودهـــم ما تزال جهوداً فردية، إلا أن هذه الجهود الفردية تحتاج إلى أوقات طويلة حتى تؤتي ثمارها على المستوى الحضاري.. ويوم أن يكون للدول الإسلامية سياسة للعطاء الحضاري يتم إقرارها من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي أو رابطـــة العالم الإسلامي، وتلتزم الدول الإسلامية بالعمل على تحقيقها داخل دولهـــا أولاً، وثانـــياً من خلال الروابط الثنائية والمنظمات الإقليمية كمجلس الـــتعاون لـــدول الخليج العربية، أو القومية كجامعة الدول العربية، أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أو المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، فإن الوقت سيقصر، والتأثير سيكثر، والإنسانية ستستفيد من هذا التلاقح والتكامل الحضاري بين الإسلام والغرب والشرق.

ولا بـــد من أن يتم تحديد الموارد المالية لتطبيق هذه السياسة الحضارية من قـــبل الدولـــة داخلـــياً، ومـــن قبل المنظمات داخلياً وخارجياً. وقد تبين أن المشـــروعات الدولـــية التي تنشئها الدول الإسلامية لا تستمر بسبب العجز في الميزانيات العامة لهذه الدول، وأغلبها من الدول المتخلفة.

لذا أدعو للعمل على إنشاء صناديق استثمارية وقفية لهذه المنظمات، بحيث يـــتم تمويلها ذاتياً بدل الاعتماد على المخصصات السنوية من الدول المشاركة، رغم الحاجة إليها في أول الأمر لإنشـــاء هـــذه الصناديق الاستثمـــارية، بحيث لا تتعدى فترة العشر سنوات من إنشائها لتعتمد على نفسها.

وأظـــن أن الاضـــطلاع بالـــبعد الرسالي لدول مجلس التعاون، أو العمل الحضاري الإسلامي بشكل عام، لا تنهض به أحزاب أو جمعيات، بل لا بد أن تقـــوم به مجموعة الدول والشعوب الإسلامية، وإن أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة المسلمة بكل مؤسساتها وأفرادها، ينطلق من:

١- استشعار البعد الرسالي في حركة الأمة.

٢- تقوية العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية وجماهير الشعوب الإسلامية.

٣- قيام دولة المؤسسات في الدول الإسلامية.

٤- الالتزام بقيم الشورى في حركة المجتمع، في كل مؤسساته.

٥- الالتقاء على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والالتزام بأدب الحوار في المواضيع التي تمس تلك الثوابت.

٦- الانفتاح بين أصحاب الأفكار والمذاهب الدينية وغيرها.

٧- الاهتمام بالتربية والتعليم والثقافة، المعتمدة على مبادىء الإسلام وقيمه.

٨- الحرص على السلوك الأخلاقي والعقيدي الذي يرعى الفرد والجماعة.

٩- وضع سياسة للعطاء الحضاري الإسلامي على المستوى الداخلي والدولي.

والله الموفق.

منطلقات لتفعيل دورنا الحضاري

الدكتور علي أحمد الكبيسي(*)

لا يحسن بهذه الأمة وهي تواجه تحديات متعددة أن تنسلخ من حاضرها وتغض الطرف عن مستقبلها لتستغني بماض عريق ومجد أثيل، بل هي مطالبة على وجه الوجوب أن تتأمل حاضرها، وأن تخطط لمستقبل أفضل يحفظ كيانها ويعزز مكانتها، لتصبح أمة متميزة قادرة على البقاء والنمو.

حظي القرن الحادي والعشرون باهتمام دول العالم، وأعدت دراسات تناولت عدد من قضاياه في التربية والتعليم والتكنولوجيا والاقتصاد والسياسة وغيرها، وكلها تهدف إلى الاستعداد له وتلمس معالم الطريق إلى ما هو أفضل وأحسن(1).

(*) عميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ـ جامعة قطر (قطر).

(1) انظر:

- هكـذا يصنع المستقبل. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١م، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

وقــد كان لأمتنا العربية الإسلامية نصيب في هذا الميدان فظهرت بعض الدراسات عن مستقبل التعليم والترجمة والثقافة والمعلومات وصناعة النشر[1].

ولا يحسن بهذه الأمة وهي تواجه تحديات متعددة أن تنسلخ من حاضرها وتغض الطرف عن مستقبلها لتتغنى بماض عريق ومجد أثيل، بل هي مطالبة على وجه الوجوب أن تتأمل حاضرها، وأن تخطط لمستقبل أفضل يحفظ كيانها ويعزز مكانتها لتصبح أمة متميزة قادرة على البقاء والنمو.

تأتي هذه المقالة لتعرض رؤية متواضعة حول أهم المنطلقات الضرورية من أجــل تفعــيل دورنــا الحضاري، ولا يعني التركيز عليها إهمال غيرها مما هو ضروري أيضاً، لكنني أكتفي بها عن غيرها لشدة قناعتي بأنها في حاجة إلى مزيد من العناية والاهتمام.

الأمة العربية الإسلامية ــ ومجلس التعاون الخليجي جزء منها ــ أمة ذات رســالة ســامية، وعليها واجبات مهمة، لا يمكن بأي حال وتحت أي ظرف

---

(١) انظر التعليم والعالم العربي، تحديات الألفية الثالثة. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠م، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

- تعلـيم الأمــة في القرن الحادي والعشرين، الكارثة أو الأمل. تحرير سعد الدين إبراهيم، منتدى الفكر العربي، ١٩٩٠م، عمان، الأردن.
- الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط٢، ١٩٩٠م، تونس.
- الخطة القومية للترجمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥م، تونس.
- العرب وعصر المعلومات، د. نبيل علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، القاهرة.
- استشــراف مستقبل الأمة، د. سهيل عناية الله، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ١٧، السنة ٥، صيف ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- صناعة النشر وتحديات القرن المقبل، د. محمد عدنان سالم، مجلة الكلمة، العدد١٦، السنة ٤ صيف ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

التهاون في أدائها أو النكوص عنها. أما الرسالة السامية فهي الدعوة إلى دين الله بتلطف ولين عملاً بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥) ولا يدرك عظم هذه الأمانة إلا من علم أن الله قد اختص هذه الأمة بأن حملها أمانة الشهادة على الناس كـــافة أن قد بلغوا رسالات ربهم، قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ (البقرة:١٤٣). وأمـــا الواجبات فهي كل عمل يحفظ لها كيانها، ويشد من أزرها، ويمنحها القوة التي تؤهـــلها لأداء تلـــك الرسالة. والواجبات نوعان: عامة لا تتقيد بزمن معين أو عصر محدد، وخاصة تفرضها متطلبات الحياة في زمن بعينه.

وإذا تحدثنا عن زماننا الذي نحن فيه متأملين واجباته الضرورية برزت لنا المنطلقات الآتية :

١ـــ العناية باللغة العربية ورعاية تعليمها:

منح القرآن الكريم اللغة العربية منـــزلة رفيعة وقدسية جعلتها محل اهتمام العرب والمسلمين في كل زمان ومكان، وتعددت صور العناية بها عبر العصور، وتواصلت الجهود، يكمل بعضها بعضاً من أجل خدمتها والمحافظة عليها، ومن يقـــرأ سير علماء العربية، ويطالع الكتب المؤلفة في علومها المتنوعة، يعرف بحق العناية الفائقة التي خصت بها.

ولست في حاجة إلى أن أتحدث عن تلك الجهود التي لم تنقطع حتى العصر الحاضر، ولعله من المفيد النظر في مدى عنايتنا بالمجالات الآتية: تعليم العربية لأبنائها، وتعليمها لغير أبنائها، وتعريب المحيط الاجتماعي.

أ- تعليم العربية لأبنائها:

يواجه تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات العربية عدة صعوبات تحول بينه وبين بلوغ أهدافه، ويعاني من قصور، لا يمكن معه إعداد متعلم متمكن من لغته حريص على توظيفها في حياته.

ومن أهم تلك الصعوبات مزاحمة اللهجات العامية للعربية الفصحى، والقصور في إعداد المعلمين، وبناء المناهج، وطرق التدريس. ولم تفلح محاولات التطوير والإصلاح، في تمكين المتعلم من إتقان مهارات العربية، وما زلنا نواجه السؤال الصعب: لماذا لم ننجح خلال اثنتي عشرة سنة في تعليم اللغة العربية لأبنائها؟ ويزداد هذا السؤال صعوبة وإحراجاً إذا أضفنا إليه سنوات الدراسة الجامعية !!!

ويغلب على ظني، أن أهم سبب في ذلك هو ضعف الحافز الدافع إلى تعلم العربية، فلقد استقر في نفوس المتعلمين العرب عدم أهمية العربية في حياتهم، وانتابهم خوف شديد من تعلمها لكثرة ما وصفت به من صعوبة وعسر، فأدى ذلك إلى الانصراف عنها، وعدم الرغبة في تعلمها.

يضاف إلى ذلك خلو المناهج مما يغري بتعلمها، لكونها مواد غير مترابطة وغير قائمة على حاجات الدارسين، بل وصل الأمر إلى أن يُدَرِّس العربيةَ غيرُ المتخصص فيها.

وتعظـــم المهمـــة إذا علمنا أن اللغة وسيلة لاكتساب كل المعارف، وأن العربية على ارتباط وثيق بالإسلام، والتراث العربي الإسلامي.

لهذا كله تبقى أهدافنا المستقبلية في هذا المجال رهناً بما لم نستطع تحقيقه عبر محاولاتنا السابقة.

ولقـــد كـــثر الحديـــث عن مشكلات تدريس اللغة العربية، وعقدت المؤتمرات والندوات، وملئت الصفحات توصيات[1] وبقي العمل الذي يجب أن يحظى بكل اهتمامنا خلال السنين القادمة، وهو ذو ارتباط وثيق بما ينبغي الأخذ به من تغيير حقيقي، يؤدي بنا إلى التدريس الفعال لمهارات اللغة العربية، ولابد من إعداد خطة عملية، تساعد على ذلك، ولعل من المفيد التركيز على:

ــ العـــناية بإتقـــان قراءة القرآن الكريم وحفظه، فهو الذي يقوِّم الألسنة ويصحح الأداء.

ــ تعليم العربية بطريقة سهلة ممتعة في مرحلة ما قبل المدرسة.

---

(١) انظــر: نـــدوة مشكلات اللغة العربية على مستوى الجامعة في دول الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، نوفمبر ١٩٧٩م، الكويت.

- اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦م، بيروت، لبنان.
- تعلــيم وتعلــم اللغة العربية وثقافتها، د. المصطفى بن عبدالله بو شوك، ط٢، ١٩٩٤، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، المغرب.
- مؤتمر التدريس الفعال لمهارات اللغة العربية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٩٩٨م.
- اللغـــة العربـــية بين الموضوع والأداة، د. أحمد مختار عمر، مجلة فصول، المجلد ٤، العدد٣، إبريل – يونيو ١٩٨٤م، القاهرة.
- مقدمة في علم تعليم اللغة العربية، د. نهاد الموسى، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ١٩٨٤م.

ــ اختــيار المعــلمين المتخصصين الأكفاء، ولا يعلّم العربية إلا من يحب تدريسها.

ــ وضع مناهج ذات محتوى يلبي الحاجات الفعلية للطلاب.

ــ اتــباع طــرق تدريـــس تعتمد على التدريب العملي والمواقف الحية والتدرج في إتقان مهارات اللغة.

ــ تعميق الوعي بأهمية اللغة العربية، ونشر ذلك بوسائل الإعلام المختلفة.

وهذا التغيير الذي أشرنا إليه، هو جزء من التغيير الشامل المطلوب إجراؤه في منظومة التعليم ككل، الذي هو ضرورة ملحة، أكدها الكتاب الذي أصدره منتدى الفكر العربي بعنوان: (تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين.. الكارثة والأمل)، والخطة الشاملة للثقافة العربية، التي صدرت عن المنظمة العربية للتربــية والثقافة والعلوم، وأخيراً تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٢م، الذي صدر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

ب- تعليم العربية لغير أبنائها:

أدى ارتباط العربية الوثيق بالإسلام إلى إقبال المسلمين، عرباً وغير عرب، عـــلى تعلمها، وهو الذي حمل العلماء من غير العرب، على دراستها والتأليف فـــيها، وأتاح لها أن تنتشر خارج جزيرة العرب لتصبح لغة الناس كافة في تلك البلاد، وبفضله ظلت لغة العلم والحضارة، حتى أواخر العصور الوسطى.

وحين برزت أهمية العالم العربي في العصر الحديث، وتوجهت الأنظار إليه أخـــذت العربـــية تفرض نفسها على الساحة الدولية، حتى صارت لغة عالمية، وازداد الطلـــب عـــلى تعـــلمها من جميع قارات العالم، وتعددت مظاهر هذا

الاهتمام عربياً ودولياً.. وللبلاد العربية جهود مشكورة في هذا المجال، فقد أنشئت المعاهد والمراكز والوحدات الخاصة بتعليم العربية لغير أبنائها، وعقدت الندوات والمؤتمرات[1] لتطوير تعليمها لهم، وقطع التعليم في هذا المجال شوطاً كبيراً، وأدى خدمات جليلة للعربية.

ومع هذا كله، فنحن مطالبون بالعمل على نشرها، والبحث عن أجدى الوسائل لتعليمها خارج البلاد العربية. ولعل من أولويات ذلك: العمل على توحيد الجهود، لإنشاء مراكز ثقافية عربية، تتولى هذه المهمة، ويتعاون في دعمها البلاد العربية، والبلد المضيف، إضافة إلى الجمعيات الخيرية، والقطاع الخاص، انطلاقاً من اعتبار ذلك التوجه مشروعاً إسلامياً، وواجباً عربياً، يلزم مساندته. ومن الضروري أيضاً التنسيق مع الجامعات غير العربية، التي تهتم بتدريس اللغة العربية ومساعدتها في هذا المجال بكل الوسائل الممكنة.

ج- تعريب المحيط الاجتماعي:

يقصد به استعمال اللغة العربية في مختلف مجالات المحيط الاجتماعي، والدافع إليه الرغبة في إحلال العربية محل غيرها من اللغات المستعملة في ذلك المحيط. وقد تبنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مشروعاً يهدف إلى

---

(١) انظر:

- السجل العلمي للندوة العالمية الأولى لتعليم العربية لغير الناطقين بها، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، السعودية، ١٩٨٠م.
- وقائع ندوات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، السعودية، ١٩٨٥م.
- برامج تعليم العربية للمسلمين الناطقين بلغات أخرى في ضوء دوافعهم. د. محمود كامل الناقة، معهد اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٥م.

الـــتعرف على واقع التعريب في البلاد العربية، لكن نتائجه لم تنشر حتى الآن، حســـب عـــلمي[1] ومهما يكن من أمر فإن استعمال العربية ليس على درجة واحـــدة في كل المجالات، بل هو متفاوت، ففي حين يقوى في صياغة القوانين والأنظمـــة الإدارية في المؤسسات الرسمية، وفي تسمية مرافق الدولة، والقضاء، والصـــحف والمجلات والكتب، وبعض برامج الإذاعة والتلفزة، والمراسلات بين المؤسســـات الرسمية، نجده متوسطاً أو ضعيفاً في البنوك والفنادق، وتسمية المحال التجارية، والمسرحيات، والأفلام السينمائية، وبرامج الفيديو.

ويمكـــن القـــول بصـــفة عامة: إن العربية متى خرجت من المجال الرسمي وجـــدت مزاحمة أو مشاركة من اللغة الأجنبية أوالعامية، ولعل السبب في ذلك أن كـــلاً مـــنهما صارت لغة تعامل في المجتمع، فالإنجليزية لغة التواصل الدولي، وتستعمل للتفاهم مع العمالة الأجنبية الوافدة لكثرتها وتنوع لغاتها، والعامية لغة تعامل مع الجمهور، الذي تغلب عليه الأمية.

واستعمال غير العربية أمر طبيعي، حين يكون في حدود الضرورة الملحة، أما إذا تجاوزها فهو خطر يهدد العربية، ولابد من مقاومته.

ويواجه تعريب المحيط الاجتماعي عدة مشكلات، من أهمها:

ـــ وجود صعوبات في استعمال العربية.

ـــ عدم وجود خطة للتأهيل لاستعمال العربية.

ـــ عدم توفر المصطلحات العربية في بعض المجالات.

ـــ قصور وسائل دعم التعريب ونشره.

---

(١) قـــام كاتب هذه المقالة بإعداد دراسة أولية عن واقع التعريب في دولة قطر بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معتمداً الاستبانة الخاصة التي أعدتها المنظمة.

إن مـــا ينـــبغي الاعتراف به هو وجود حاجة لتعريب كثير من قطاعات المحـــيط الاجتماعي، لكن هذه الحاجة تختلف من قطاع إلى آخر، وفقاً لدرجة استعمال العربية فيه.

وأول ما يحتاج إليه التعريب، تدخل الدولة ودعمها له؛ لأنه يساعد على تقبله، ويـــؤدي إلى الالـــتزام به، ثم القضاء على مظاهرالعامية في وسائل الإعلام، والعناية بتقديم برامج الأطفال بلغة عربية ميسرة، قريبة من مستواهم العقلي والمعرفي.

ولابـــد من إعادة النظر في طريقة تعليم العربية، للخروج بها من التلقين إلى اكتســـاب المهارات، وتنميتها بتهيئة كل الظروف التي تساعد المتعلم على ممارسة اللغـــة العربية، في مواقف عملية، ذات صلة بحياته، ومستقبله الوظيفي. كما ينبغي إيجـــاد حوافـــز، تشـــجع على إتقان العربية، كأن تكون إجادتها شرطاً للتوظيف والترقية، مع ضرورة العناية بتعليم العربية للعمالة غير العربية، وتشجيعها على ذلك.

ويتطلـــب التعريـــب تعاوناً وتنسيقاً بين الجهات المسؤولة عنه، والجهات المقصودة به، لوضع خطة عمل مرحلية، تتضمن إجراء دراسات مسحية شاملة لمعـــرفة المجالات، التي ينبغي أن تعرب في كل قطاع من المجتمع، ثم تؤلف لجان مشتركة متخصصة، تتولى تحديد منهجية العمل المناسبة لتعريب كل مجال.

٢- العناية بالترجمة (من العربية وإليها):

تكمـــن أهمـــية الترجمة في أنها وسيلة اتصال بين الحضارات لنقل العلوم والمعارف، تنمو بها الثقافات، وبها تتعارف الأمم. وتعد" عملية حاسمة ومؤثرة

للغايـــة في قضـــية العبور الحضاري، والدول التي أحرزت تقدما أدركت هذا المفهوم وعملت على الإفادة منه"[1].

وحـــين اتصـــل العرب في القرنين الأول والثاني الهجريين بثقافات الأمم الأخـــرى الفارســـية واليونانية والهندية، ورأوا أنهم أمام علوم جديدة دفعتهم رغبتهم الشديدة في معرفة ما في تلك الثقافات من علوم وآداب إلى الترجمة، التي بـــدأت في العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وأنشئ لأجلها بيت الحكمة[2].

ولا يـــنكر أحد، أن الترجمة كانت وسيلة الأوروبيين للإفادة من الحضارة العربية الإسلامية، وبناء نهضتهم الحديثة[3].

وإذا كـــنا نواجه اليوم تحديات علمية وتقنية، ونتطلع إلى أن نأخذ مكاناً بـــين الأمـــم، ويكـــون لنا إسهام بارز في مسيرة التقدم الحضاري، فلا بد من الاهتمام بالترجمة، كما اهتم بها مَن قبلَنا.

وقد أدركت الجامعة العربية أهمية الترجمة، منذ النصف الثاني من القرن العشرين، إذ طالبت الدولَ العربيةَ بالعمل على تنشيط الجهود، التي تبذل

---

(١) الـــترجمة قضـــايا ومشـــكلات وحلول، تطور الترجمة، ص٢٩، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، السعودية، ١٩٨٥م.

(٢) ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط ٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٢، ج١، ص١٧٧-٢٧٠.

- الـــترجمة قديماً وحديثاً. شحادة الخوري، دار المعارف، سوسة، تونس، ١٩٨٨م؛ فضل الإسلام على الحضارة الغربية.

(٣) فضـــل الإســـلام على الحضارة الغربية. مونتجومري وات، نقله إلى العربية حسين أحمد أمين، دار الشروق، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص٨١.

لـــترجمة عـــيون الكتـــب الأجنبية القديمة والحديثة، وتنظيم تلك الجهود. وتكونـــت لجـــنة ثقافية تتبع الجامعة، واتخذت قرارات وتوصيات تعضد حركة الترجمة[١].

كما اهتمت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالترجمة، وقامت بعقـــد عـــدد مـــن الـــندوات في كل من الكـــويت (١٩٧٣،١٩٨٣م) وتونـــــس(١٩٧٩م)، وتم إنشـــاء وحدة الترجمة عام ١٩٨٩م، وأعدت دراســـات عـــن واقـــع الترجمة في الوطن العربي، أسهمت في وضع الخطة القومـــية للترجمة، التي أقرها المجلس التنفيذي للمنظمة، في دورته الثلاثين عام ١٩٨٢م ومؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية، عـــام ١٩٨٣ م ودعوًا الدول العربية إلى تنفيذها[٢]وأحدثت المنظمة مؤخراً بالتعاون مع الغـــرفة التجارية العربية الفرنسية، جائزة سنوية للترجمة من الفرنسية إلى العربـــية، سميت (جائزة ابن خلدون للترجمة) وتهدف إلى مكافأة مترجمين عـــرب، أو نـــاطقين بالفرنســـية، في مجالي العلوم الاجتماعية، والتقنيات الحديثة[٣].

---

(١) الترجمة قضايا ومشكلات وحلول، مرجع سابق، ص٣١.

(٢) دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، القسم الأول، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م، ص٨.

- الخطة القومية للترجمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م.
- الخطة الشاملة للثقافة العربية، ط٢، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٠م، ص٣١١.

(٣) مجلة الفيصل، العدد ٣٠٦، فبراير – مارس ٢٠٠٢م، ص١٢٩، دار الفيصل للثقافة، الرياض، السعودية.

إضـــافة إلى تلـــك الجهود قام مكتب التربية العربي لدول الخليج، بإعداد سلسلة من الدراسات حول قضايا الترجمة ومشكلاتها وحلولها[1].

ومـــع كـــل هـــذه الجهـــود، فإن الترجمة في البلاد العربية تواجه عقبات وصعوبات، تحول بينها وبين الوصول إلى أهدافها، فما زالت الأنشطـــة متناثرة بلا تنسيق، ولم تتوفر بعد الوسائل اللازمة للترجمة، في كثير من البلدان العربية، وليس هناك برامج تنفيذية تعتمد الأولويات المناسبة لحاجات المجتمع، وخطط التنمية.

ولا تتوافر لديّ معلومات دقيقة عن حركة الترجمة في دول مجلس التعاون ســـوى الدراسة التي أعدها د. حسام الخطيب عن واقـــع الترجـــمة في دولة قطـــر[2]وهي تكشف عن حصيلة متواضعة وتطورات محدودة، وفيها إشارة إلى ضـــعف الـــترجمة في معظم دول الخليج، مما يقتضي المبادرة إلى إنشاء مراكز للترجمة، لإعداد المترجمين، ثم وضع خطة وطنية للترجمة، تعتمد على تعاون دول المجلس، فيما بينها، وتعاونها مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من أجل تنظيم جهود الترجمة وتفعيلها .

٣- المشاركة الإيجابية في الحوار بين الحضارات:

شهد العالم في القرن الماضي في بقاع كثيرة منه حروباً وصراعات خلفت دمـــاراً وآلافاً من القتلى، وأدرك بعد حين وهو على مشارف الألفية الثالثة أنه بحاجـــة إلى مـــنهج جديد يخلصه من الآثار السيئة لتلك الحروب والصراعات،

---

(١) الترجمة قضايا ومشكلات وحلول، مرجع سابق.

(٢) الترجمة في قطر: الواقع ومؤشرات المستقبل، د. حسام الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر، ٢٠٠٠م.

فظهرت فكرة الحوار بين الحضارات، على أنها أفضل الوسائل الممكنة للعيش في سـلام وأمان. وأقرت منظمة الأمم المتحدة هذا التوجه، وأعلنت سنة ٢٠٠١م سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، ودعت الحكومات والمنظمات الدولية وغير الحكومية، إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية، واجتماعية، وتعليمية، ملائمة لتعزيز فكرة الحوار بين الحضارات.

وقد استجاب المجتمع الدولي لهذه الدعوة، وبرز اهتمام كبير بتلك الفكرة من خلال عقد الاجتماعات والمؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية في بلدان عديدة[١].

وأكـدت الدول العربية والإسلامية، ممثلة بمنظمة المؤتمر الإسلامي، التزامها بتعزيز الحوار والتفاهم بين الحضارات وذلك في إعلان طهـران (ديسمبر١٩٩٧م)، وتولت المنظمة مهمة إعداد مشروعي الوثيقة العالمية للحوار بين الحضارات، وبرنامج العمل التنفيذي (جدة: فبراير وسبتمبر ٢٠٠٠م).

وبعد التشاور مع الدول الأعضاء بمنظمة الأمم المتحدة تم دمج الوثيقتين في وثـيقة واحدة صارت برنامجاً عالمياً للحوار بين الحضارات، بعد أن أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها السادسة والخمسين (نوفمبر ٢٠٠١م)[٢].

وإذا كان الحوار قد أصبح مهماً وضرورياً في عالمنا المعاصر، فإن مشاركتنا فيه نحن العرب والمسلمين ضرورية، ومهمة كذلك، وعلينا أن نستعد له، ونهيئ أنفسنا،

(١) انظر: تقرير الأمين العام، الأمم المتحدة، الجمعية العامة، الدورة ٥٦، البند ٢٥ من جدول الأعمال، سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، نوفمبر٢٠٠١م.

(٢) المرجع السابق، فقرة (برنامج عالمي للحوار بين الحضارات).

دولاً ومؤسسات وأفراداً، للمساهمة الإيجابية فيه على كل مستوياته، المحلية والإقليمــية والعالمــية، وفي كل مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

إن توجهـــنا إلى الحوار يجب أن يكون مبنياً على مبادئ ديننا الحنيف وثوابت حضارتنا الإسلامية الداعية إلى التعارف والبر والعدل.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجـــرات:١٣)، وقـــال الله سبحانه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨).

تستند فكرة الحوار بين الحضارات على حقيقتين لاجدال فيهما وهما: وحدة الجنس البشري وتنوعه، وإذا كانت الوحدة تثبت المساواة في الأصل، فـــإن التنوع يوجب التعارف الذي هو أعم من الحوار ومقدمة ضرورية له، ولعـــل هذا ما دعا أحد الباحثين[1] إلى استنباط فكرة "تعارف الحضارات" وتفضيلها على مصطلح "الحوار بين الحضارات".

ويتطلب الحوار تكافؤاً بين طرفيه، وتحديداً لأهدافه ومجالاته، ومناخاً مناســباً لـــه، ووعياً بالهوية الذاتية، واحتراماً للثقافات الأخرى، واهتماماً

(١) هـــو الباحث زكي الميلاد، في : تعارف الحضارات، مجلة الكلمة، العدد١٦، السنة٤، صيف ١٩٩٧م، ، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ص١٩.

بالقيم الإنسانية المشتركة، وتقديراً لدورها في تحقيق الألفة والسلام والتفاهم المتبادل، وتعزيز فرص التنمية للمجتمعات كافة.

ومما يسهم في نجاح الحوار: التأمل الواعي، في ما يعترضه من معوقات يغلب عليها بغض (الآخر)، وتشويه صورته، والجهل به أو تجاهله، وذلك يقتضي انتهاج موقف نقدي أمين واع من ثقافتنا وثقافة غيرنا، لاكتشاف أفضل القيم التي تقرب بيننا، وتتيح لنا فرصاً أكبر للتفاهم، والتعاون، والثقة المتبادلة.

وليس الحوار مقصوراً على أن يكون بين الحضارات، بل يكون داخل الحضارة الواحدة أيضاً، وهو الأولى أن يبدأ به لتنظيم الجهود والتنسيق بينها، ونشر الوعي بأهداف الحوار وقضاياه، وإتاحة الفرص لنقاش واسع وثري على كل المستويات، الرسمية وغير الرسمية، من أجل الوصول إلى رؤية واضحة، حول كل الأمور المتعلقة بالحوار داخلياً وخارجياً، إذ لافائدة من الحوار، إن لم تسبقه إجراءات عملية، وتعقبه نتائج إيجابية.

والرغبة الصادقة في الحوار هي التي تدفع إلى تهيئة الوسائل التي تشجعه، ولعل أولاها بالاهتمام: وسائل الإعلام، لما لها من أثر كبير في تكوين الاتجاهات وصياغة المواقف، ومن المهم توجيهها إلى تصحيح الصور المشوهة، عن الحضارات والثقافات، وزيادة التواصل البناء، والتفاهم المتبادل بين الشعوب.

وللتربية دورها المهم أيضاً في تنمية الوعي بالهوية الذاتية وخصائصها، والتعرف على الآخرين، واحترام التنوع، بوصفه مصدراً للارتقاء، والنمو، ووسيلة لتقاسم الخبرات، وتعظيم فرص التطوير والتنمية.

وتسهم كل صور اللقاء، من خلال الزيارات والاجتماعات والمؤتمرات والندوات، في تشجيع التفاعل، وتبادل الآراء، واكتشاف الجوانب المشتركة، بين الحضارات والثقافات.

إن الحضارة العربية الإسلامية، بما تمتلكه من رصيد غني متنوع وما تنفرد به من خصائص متميزة، يمكن أن تسهم بصورة إيجابية في تعزيز أسس الحوار بين الحضارات، وتحقيق العدل والتعاون والإخاء، للبشرية جمعاء. وفي هذا المجال يواجهنا تحد حقيقي، في اتخاذ المبادرات الملائمة على جميع المستويات، من خلال منظماتنا الإقليمية والدولية، لتشجيع الحوار وتفعيله في جميع المجالات، من أجل تحقيق التفاهم المتبادل بين الحضارات[1].

٤- العمل على مواكبة عصر المعلومات:

لايختلف اثنان أننا نعيش عصر المعلومات، الذي تحولت فيه المجتمعات إلى مجتمعات المعلومات، وأنه يفرض على البلدان العربية مواجهة ما نشأ عنه من تحولات وتغيرات، شملت كل جوانب حياتنا المعاصرة.

(١) انظر مرتكزات أساسية لحوار حقيقي بين الحضارات، د. المنجي بوسنينة، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، السنة٢١، العدد٤٢، مارس ٢٠٠٢م، ص١٢١.

ومـــن أهـــم مـــا يتمـــيز به هذا العصر، التدفق الهائل للمعلومات عبر وسائل الاتصالات، والتقنيات الحديثة، وارتفاع دور المعلومات، حتى عدت مورداً للتنمية يفوق الموارد المالية(١).

وإذا كـــان العرب، يدخلون هذا العصر وهم بحالة غير مرضية من عدم التكامل والتنســـيق، وضعف الثقة في الاستفادة من مخرجات التعليم، وتأخر في اللحاق بالعالم المتقدم، فإن وقع التحديات العلمية والتكنولوجية عليهم أشد ثقلاً من سوء واقعهم، إذ هـــم يمـــرون بمـــرحلة حرجة، لا تتناسب فيها أوضاعهم مع متطلبات هذا العصر، وتداعـــياته، ولا مفـــر لهـــم من المبادرة إلى اتخاذ خطوات عملية لوضع خطة عربية، لمواجهة ذلك الواقع، وتلك التحديات(٢).

وقـــد أفـــاض د. نبيل علي في كتابه القيّم: "العرب وعصر المعلومات" في بيان العديـــد من قضايا العلاقة المجتمعية ـــ المعلوماتية والمفاهيم المحورية والتوجهات الرئيسة لتكنولوجيا المعلومات، وأكّد في نهاية الكتاب الحاجة الماسة لسياسة عربية للمعلومات وقدم مقترحاً، باتخاذ المدخل المعلوماتي وسيلة لإعادة الاندماج العربي(٣).

ومن هنا فإن التعامل مع عصر المعلومات، يتطلب تجاوز حالة الانبهار إلى حالة الفعل، المتمثلة في عدم الاكتفاء باقتناء المنتجات الإلكترونية، ووضع استراتيجية محددة للتعامل معه، وصولاً إلى المشاركة الفعلية في إنتاج تكنولوجيا العصر.

---

(١) الـــثقافة العربـــية وعصر المعلومات. د. نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، ط٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م، ص١١.

(٢) العرب وعصر المعلومات. د. نبيل علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٥-٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢٥- ٤٣٢.

خاتمة:

تضـــمنت هذه المقالة أربع منطلقات أساسية لكل منها أهميته الخاصة، وبدأت بمـــا يعد رمز وحدتنا العربية الإسلامية وعنوان وجودنا، وهو لغتنا العربية، وإن أمةً لاتهـــتم بلغـــتها محكوم عليها بالفناء لامحالة. ولا يعني ذلك أبداً إهمال تعلم لغة غير العربـــية وتعلـــيمها، بل أصبح من الواجب علينا إتقان اللغة الأجنبية، للتعرف على غيرنـــا، والاستفادة من منجزات حضاراتهم وثقافاتهم ، ومن هنا تأتي أهمية العناية بالـــترجمة، بوصفها شرطاً من شروط النهضة والتقدم، وكلما قل اهتمامنا بالترجمة، طـــال مـــدى تأخرنا، وبعدت المسافة بيننا وبين ركب الأمم الصاعدة في فضاءات الرقي والتقدم.

وأمـــا الحـــوار بين الحضارات، فهو طريق التعارف بين الناس، ومنهج لتعزيز الســـلام والتنمـــية، ومشاركتنا فيه واجبة، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، لتصحيح ما ترسخ في أذهان الغرب، من صور مشوهة وزائفة عن العرب والمسلمين.

والعمل من أجل الاستفادة من عصر المعلومات، مهمة لازمة لتعزيز قدراتنا في كل المجالات، لمواجهة كل ما يعترض حاضرنا ومستقبلنا من تهديدات وتحديات.

وغايـــة مـــا أرجوه، أن تسهم هذه المقالة، مع غيرها مما كتب من دراسات وأبحـــاث قيمة حول هذه المنطلقات، في نقل الاهتمام من التأطير النظري، إلى ميدان الفعل والتطبيق، لتصبح هذه التوجهات منجزات ملموسة في حاضرنا ومستقبلنا.

لتكونوا شهداء على الناس

الأستاذ عمر عبيد حسنه(*)

> إن اختيار الجزيرة العربية، بأرضها وإنسانها ولسانها، لبدء خطوات النبوة الأولى عليها، وانتهاء الوراثة الحضارية والرسالات السماوية إليها، وتكليفها برسالة عالمية، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لتوفر خصائص وصفات ومؤهلات تجعلها محلاً لهذا الاختيار.. فالمهازيل ليسوا محلاً للصناعة الثقيلة.. والحمل الثقيل لا يطيقه إلا الأقوياء.

الرؤية الدقيقة المطلوب إدراكها، والإحاطة بها، للانطلاق صوب التنمية والنهوض، ومعاودة الإقلاع من جديد أو إخراج الأمة، ترتكز -فيما نرى- على ركائز ثلاث، يأتي في مقدمتها:

العقيدة، أو عالم الأفكار والرؤى، التي تشكل بمجموعها فلسفة الحياة، أو الشاكلة الثقافية، التي تقبع وراء السلوك الإنساني: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء:٨٤)، والتصور العام للكون والإنسان والحياة، وما يبلور من قيم تضبط مسيرة الحياة، وتشكل المعايير والموازين، التي تمكن من النظر والتقويم،

(*) مدير مركز البحوث والدراسات.. (دولة قطر).

والمعايرة، والقبول والرفض.

والعقيدة، أو عالم الأفكار، كانت وما تزال هي المحور الأساس، الذي يتمحور حوله الإنتاج الفكري والثقافي، ويشكل في الوقت نفسه الدافع السلوكي، والمحرض الحضاري، ودليل العمل، أو البصيرة والمعالم الهادية.. فالعقيدة هي التي تحيي روح الأمة، وتشكل عقلها، ونسيجها الاجتماعي، وتحقق وقايتها الحضارية والثقافية.. لذلك فهي المسؤولة عن نهوض الأمة ورقيها الحضاري، كما أنها المسؤولة، إلى حد بعيد، عن الانتهاء بها إلى الركود والنكوص والعطالة والاستنقاع الحضاري.

وبمقدار ما تكون العقيدة، أو عالم الأفكار، سليماً نقياً ملائماً لفطرة الإنسان، بكينونته الطبيعية، مستجيباً لحاجاته الأصلية، وبمقدار ما تكون العقيدة سليمة قادرة على تقديم الإجابة الشافية والمقنعة على الأسئلة الكبرى في الحياة، عن النشوء والمصير والأهداف المحركة للإنسان، قادرة على تحقيق إنسانية الإنسان، بمقدار ما تكون مؤهلة للنهوض الحضاري، قادرة على التجاوز، وشحذ الهمم، وتجميع الطاقات، وإعادة الفاعلية في فترات السقوط الحضاري، للإقلاع من جديد.

يلاحظ ذلك وبشكل خاص عندما تلحق بالأمة الهزائم الكبرى، وتُدمر أشياؤها ومنتجاتها، فنرى أن العقيدة، أو عالم الأفكار، هو الكفيل بمعاودة النهوض.. لكن الإشكالية الكبرى عندما تكون الهزيمة في العقيدة، والإصابة في عالم الأفكار؛ لأن ذلك مؤذن بالدخول في مرحلة التيه والضلال الثقافي، الذي لا تدرك نهايته.

والتاريخ الحضاري العام، وتاريخ الأمة المسلمة، بشكل خاص، خير شاهد

عـــلى قـــدرة الأمم المستمسكة بعقيدها على تجاوز الهزائم، إذا كانت عقيدها سـليمة، وعـالم أفكارها معافى؛ نلمح مدلول ذلك واضحاً في قوله تعالى بعد الهـزيمة الكـبرى للمسلمين في معركة أحد، بكل إصاباها : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٩)، فإذا كنا مؤمنين حقـاً كان الإيمان، أو عالم الأفكار والقيم، كفيلاً بردم الفجوة، وتحقيق القدرة على التجاوز لإصابة عالم الأشياء، ومعاودة النهوض، حتى لو دمرت أشياؤنا.

فـإذا كـان للعقيدة، أو عالم الأفكار، هذه الأبعاد الحضارية، والإنسانية، والاجتماعية، والثقافية، كان من الأهمية بمكان التوقف طويلاً عند مصدر التلقي لهـذه العقيدة، واختبار أدوات التوصيل، ومنهاج التعامل، والعمل على الحراسة الدائمة لسلامتها، والمراجعة المستمرة لنفي أي غبش أو نبتة سوء يمكن أن تحيد بالإنسـان عـن الجادة، بل أكثر من ذلك نقول: إن هذه المراجعات المطلوبة باسـتمرار، والتنقية الدائمة لعالم الأفكار، تتأكد أكثر فأكثر في فترات السقوط والهزائم؛ لأن السقوط والهزيمة مؤشر خلل واضح في مسيرة الأمة وكيفية تعاملها مع قيمها وأفكارها.

ولعلنا نرى أن الفيصل الأساس في مجال العقائد، أو عالـم الأفكار ابتداءً، إنما يكون في مصدر التلقي، وسلامة التوصيل، والقدرة على تجسيدها في الواقع من خلال عزمات البشر واستطاعاهم، وحسبنا في هذا المجال أن نقول: إن نقاء العقـيدة وسلامتها من التحيز، وتحقيقها للعدل الإنساني والاجتماعي، حتى مع الأعـداء، وإيقاف الظلم وتسلط الإنسان على الإنسان، هو الأمر الأهم في هذا المجـال، إذ لا يمكـن أن يعقـل أن يكون الإنسـان بعلمه المحدود، وعمره

المحدود، ووقوعه تحت مجموعة مؤثرات حزبية أو طائفية أو نسبية قبلية أو مناخية أو تاريخية أو مرضية، هو مصدر تلقي العقيدة (!) والخلل الذي لا يقل عن ذلك سوءاً أن يكون الإنسان مصدر العقيدة ومحلها في الوقت نفسه.. هو الذات وهو القيمة.. هو المعيار والمقياس، وهو موضوع القياس والتقويم (!)

وقد يكون الاستقراء الحضاري لتاريخ الأمم العام وما أصابها هو الذي انتهى بالكثير من المفكرين والعلماء إلى تقرير هذه الحقيقة، أو هذه السنة الحضارية، التي لخصها الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) في قوله: إن الحضارة لا تتجلى أو تظهر إلا في صورة وحي يهبط من السماء (مصدر التلقي) يكون للناس شرعة ومنهاجاً.. وتقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي، بالمعنى العام.. فالدين ظاهرة فطرية، كونية، اجتماعية، تشكل حضارة الإنسان وتحكم فكره، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في مساراتها. وعلى هذا، يبدو الدين وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية.

ولا شك عندنا أن العقيدة كانت على مدار التاريخ ولا تزال، تشكل المحور وبؤرة الاهتمام في الحراك الثقافي والتحريض الحضاري، سواء في ذلك الذين يناصرونها ويدافعون عنها، ويجتهدون في البرهان على صحتها ودورها في تحقيق إنسانية الإنسان وسعادته وتخليصه من تسلط الإنسان على الإنسان، أو الذين يواجهونها ويحملون لها العداوة، ويحاولون إسقاطها واستغلالها للتسلط باسم الدين، بشتى الوسائل، وإن كنا نقول هنا: إن الإشكالية، أو محل المعركة حضارياً وتاريخياً، كانت غالباً في ممارسة الكهانات الدينية أكثر من أن تكون في

العقيدة الدينية ذاتها؛ لأن العقيدة لازمة فطرية بشرية، حيث لا إنسان بلا عقيدة، أياً كانت تلك العقيدة، ابتداءً من الإنسان البدائي الوثني بعقائده، ومروراً بالعقائد السماوية، وانتهاءً بالرسالة الخاتمة التي خلصت البشرية من الاستغلال والكهانات ووضعت الإنسان أمام الله بدون وسائط البشر.

وقد تكون المحصلة النهائية للذين يمارسون محاربة العقيدة، أهم إنما يحاولون القيام بعملية إخلاء وإملاء، أو عملية استبدال، لتصبح نظرياتهم وأفكارهم هي عقائد للناس، وبذلك تُستدعى عقائد بديلة أو كهانات بديلة، أو آلهة عصرية سياسية واقتصادية.. إلخ، ويصبح أصحاب النظر والفلسفات والعقائد هم الكهانات الجدد والآلهة الجدد.

فالإشكالية ليست دائماً في طبيعة العقيدة وخصائصها ومدى ملاءمتها للفطرة، بل قد تكون الإشكالية كلها في الكهان، الذين يستغلون العقيدة، بحيث تلتبس الذات بالقيم، وتغيَّب تعاليم العقيدة الدينية لتحل محلها تفاسير ومفاهيم وشروح وتقاليد الكهانات، وعند ذلك يسود ضرب من الإرهاب الفكري باسم الحفاظ على العقيدة، فيصبح الكلام عن الكهانة ونقائصها ونقائضها كلاماً على العقيدة.

وبالإمكان القول: إن النبوة الخاتمة الخالدة، التي كان محلها أرض الجزيرة العربية، وقاعدهّا البشرية الأولى إنسان الجزيرة، ووعاء تعبيرها لغة أهل الجزيرة، واستيعابها يحدده مفهوم العرب ومعهودهم في الخطاب، ومعجزتها ممتدة ومجردة عن حدود الزمان والمكان والأشخاص والكهان، بحيث تمتلك المعيار (النص الإلهي) السليم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ذلك أنه على

الـــرغم من تقدم العلوم وتطور الفلسفات وتواصل الحضارات، لم تسجل عليه إصـــابة واحدة؛ هذه النبوة الخاتمة بتجربتها التاريخية الحضارية في مهبط الوحي، تعتبر من أهم الإمكانات التي تهيء إنسان الجزيرة لمعاودة الانطلاق صوب الذات وصـــوب (الآخـــر)، وأعظـــم القدرات الكامنة التي يمتلكها منطلقاً من عقيدة التوحيد التي تحمل المساواة، وتوقف تسلط الإنسان على الإنسان، وتلغي جميع أنواع الوثنيات، وتلغي الكهانات التي يمكن أن تقوم باسم الدين، وتسوي الناس أمام الله وعبادته بدون واسطة.

أمـــا **الركـــيزة الثانية** التي يقوم عليها النهوض -فيما نرى- فهي **التاريخ. فالـــتاريخ هـــو التجســـيد العملي للعقيدة، أو لعالم الأفكار، أو هو التجلي والاســـتجابة للقـــيم والأفكـــار في سائر الأنشطة الإنسانية.. وهو الذاكرة الجمعـــية المتراكمة للأمة، وسجل حركتها، ومرآة مستقبلها، أو هو المختبر الحقيقي للمبادئ والأفكار ومدى قابليتها للتطبيق ونصيبها منه**، وقدرتها على البناء الحضاري ابتداءً، ومعاودة النهوض الحضاري عندما تتعرض الأمم للإصابة أو السقوط، لسبب أو لآخر.

والـــتاريخ لـــيس شيئاً منفصلاً من عالم الأفكار، بإطاره العام، وإن بدا فيه بعض الجنوح والخروج والانفلات في بعض الأحيان، ونشأت على جوانبه بعض نباتات السوء التي لا تلبث أن تتضاءل وتغيب، لعدم توفر المشروعية العليا لقيم العقـــيدة وعـــالم الأفكار في صياغتها؛ لأن العقيدة هي روح التاريخ ومرتكز تدفقـــه، مـــنها تستمد القيم والموازين التي تقوم الفعل البشري، وتبيِّن مواطن الإصـــابة، وتحـــدد أسباب القصور ومواطن التقصير ، وتصوب مسيرة التاريخ

وتحميها، وتبين سبيل الخروج ومعاودة النهوض.

والتاريخ يمنح البصارة للأجيال، في حاضرها ومستقبلها، ويختزل أعماراً في عمـــر، وتجارب في تجربة، وهو تراكم معرفي لأجيال في جيل،بحيث يقف على أكتاف من سبقوه، فيبصر الماضي ويستشرف آفاق المستقبل.

والتاريخ يُوقف الإنسان على قمة التجربة التاريخية للأمم، ويتحقق برصيدها، ويمكّن من استقراء قانون الحركة الاجتماعية واكتشافه، ذلك القانون الذي ينتظم ســير الأمـــم، ويبين فاعلية السنن في الأنفس والآفاق، ويؤكد اطرادها، ويبصِّر بكيفية التعامل معها، ويحذر من الغفلة عنها، والعدول عن تسخيرها.

وخلاصة القول: إن التاريخ بيان، ومعرفة، وعلم، واهتداء إلى السنن الفاعلة في الحـــياة والأحـــياء، وعبرة وموعظة بمن سبق من الأمم، ووقاية حضارية من إصابات السقوط.

وحيث كان للتاريخ هذه الأهمية والدلالة والدور الأساس في تلمس وسائل النهوض الحضاري وتصويب المسيرة البشرية وتحقيق الوقاية، فقد جعل الإسلام تاريخ الأمة، وعلى الأخص الذي تشكل وانطلق من مهبط الوحي (بلاد الجزيرة العربـــية) لا يقتصر علـــى تاريخ الفترة الزمانية والمكانية الخاص بمهبط الوحي، وإنما أوقفت معرفةُ الوحي إنسانَ هذه المنطقة المنطلق، على قمة التجربة البشرية، وجعلت رصيد المسيرة التاريخية للأمم، بكل ما فيها، تاريخاً لحملة الوحي الخاتم، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان، وبذلك امتلكت أرض الوحي المخزون الـــتاريخي العـــام والجـــذور الضاربة في عمق الزمان والمكان، وشكَّل القصص القـــرآني، الـــذي يمـــثل تاريخ النبوات، ويبصِّر بتضاريس السقوط والنهوض،

المساحة التعبيرية الأكبر في نصوص الوحي (القرآن) لأهـــل مهبط الوحي ومن ثـــم المســلمين بشكل عام، ليتحركوا على بينــة، ويستشرفوا الماضي بكل عبره، ليصلحوا الواقع ويبصروا المستقبل تماماً، ويعيدوا البناء وفق سنن الله التي لا تحـابي أحــداً، وتكــون عندهم القدرة على الانفتاح والانتفاع بتجارب الآخرين، التاريخية منها والمعاصرة، حتى لنكاد نقول: إن التاريخ الإنساني انتهى إلى مهبط الوحي ابتداءً.

فــتاريخ الجزيرة في أبعاده الحقيقية هو التاريخ الإنساني، عبرة وعطاءً، قال تعـــالى: ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨)، حيث لم يرض الله لأهل هذه المنطقة، قبلة الأمة المسلمة بشكل خاص، أن تقتصر على التاريخ الخاص، وإنما طلب إليها التحقق بالتاريخ العام.

وقــد لا نســتغرب بعد ذلك أن يأتي الأمر الإلهي، على الرغم من امتلاك نصــوص الوحــي الخـــاتم وبيانه النبوي، يطلب السير في الأرض، والتوغل في الـــتاريخ العام، والتزود بالقوانين الاجتماعية، والتحقق بإدراك السنن الفاعلة في الحياة والأحياء (الفرض الحضاري).

إن أرض الجزيرة بدأ تاريخها بالنبوة الأولـــى، وتـــعاليمها بدأت بـــتاريخ أبي الأنبـــياء، علـــيه الســـلام، عندما أسكن ذريته بوادي مكة المكرمة، وحدد الهدف، ورسم المسار، وقص الله ذلك بقوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ... ﴾ (إبراهـــيم:٣٧)؛ وانتهت إلـــيها النبوة الخاتمة: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ (الأحزاب:٤٠)؛ وفيها بُني أول بيت لعقيدة التوحيد والمساواة وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان ، وعندها ألغيت الوثنيات بجميع أشكالها: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٦)، وإليها انتهت وراثة التوحيد: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج:٧٨).

وهنا قضية قد يكون من المفيد لفت النظر إليها، وهي: أن هذه الأرض، أرض الجزيرة العربية، أو أرض النبوة ومهبط الوحي، إضافة إلى أنها منطلق التاريخ الإسلامي وامتداده بكل أزمانه وأقاليمه ورجاله، إلا أنها تتميز دون سواها من أرض الإسلام بأنها كانت الوعاء لمرحلة السيرة وبناء الأنموذج وسيرة جيل خير القرون.

والسيرة النبوية، رغم أنها حلقة في تاريخ الأمة المسلمة، إلا أنها حلقة متميزة؛ لأنها تشكلت على عين الوحي وحركة المعصوم ﷺ وبيانه، من خلال تأييد الوحي وتسديده، وغطت جميع المساحات التاريخية والإنسانية بما في ذلك: فترة الدعوة، والمجتمع والدولة، والسرية والعلنية، والضعف والقوة، والتمكين، والنصر والهزيمة، وبناء المجتمع، والمواجهة، والمعاهدة، والحوار .... إلخ، ابتداءً من الخطوات الأولى للنبوة وحتى بناء الأنموذج، كمالاً واكتمالاً، كل ذلك على أرض الجزيرة، ابتداءً من قوله تعالى:﴿ ٱقْرَأْ ﴾، ووصولاً إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة:٣)، فهي مرحلة الأسوة والقدوة، لأنها الفترة المعصومة، المسددة بالوحي والمؤيدة به، إلى جانب كونها حلقة في التاريخ.

فإذا كان تاريخ الإسلام، أو تاريخ المسلمين فيما بعد مرحلة السيرة، يشكل

عــبرة وعظة، فإن فترة السيرة العملية في الجزيرة تمثل الأسوة والقدوة، ومصدر التشـــريع، والمعـــيار لتحويل الفكر إلى فعل، أو العقيدة إلى عمل.. وليس ذلك فقـــط، بل تعتبر السيرة مع فهم القرن الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية، إلى جانـــب قـــيم الوحي، أو معرفة الوحي، المرجعية الشرعية لكل فترات التاريخ الإسلامي والحاضر والمستقبل الإسلامي.

فالـــتجربة التاريخـــية (السيرة) لتنـــزيل القيم في الكتاب والسنة على واقع الناس، وتحقق تطبيقها، والالتزام بها، من خلال عزمات البشر وخصائص إنسان بلاد الجزيرة العربية، أو إنسان المنطقة، الذي أهلته خصائصه وصفاته لأن يكون مهبط الوحي ومحله ووعاءه وأنموذج تطبيقه، تعتبر تكليفاً من جانب، وهو أهل لهذا التكليف بما يمتلك من خصائص وصفات تؤهله لمعاودة الانطلاق، وتشريفاً مـــن جانـــب آخر لاختياره محلاً للرسالة الخاتمة وحملها إلى العالم، وهذا شرف عظيم، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وتأتي على قدر الكرام المكارم.

فالـــتجربة الحضارية تعني - فيما تعني - أن الأرض التي أنبتت هذا العطاء، على مستوى الإنسانية جميعاً، مؤهلة لمعاودة الإخراج لخير أمة، تستأنف العطاء الإنســـاني إن هـــي أحســـنت التعامل مع القيم، واهتدت بتجربتها التاريخية، واكتشفت ذاتها ومؤهلاتها، ومسؤولياتها تجاه العالم.

فـــإذا قلـــنا مع رؤية المفكر الكبير مالك بن نبي (رحمه الله): إن نهوض أي مجتمع مرهون إلى حد كبير بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأول، أدركنا أهمية الاهتداء بالتجربة التاريخية الحضارية وإمكان ذلك.

فالجزيـــرة ابتدأت فيها النبوة واختتمت في أرضها: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ

ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى:١٨-١٩)؛ والجزيرة أُضيف إليها رصيد التاريخ البشري؛ والجزيرة مهبط الوحي تمتلك النص الإلهي السليم ومدلولاته ومواطن نزوله وحركته، وهو النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ والجزيرة تمتلك التجربة التاريخية الحضارية؛ والجزيرة تمتلك الفترة التي تمثل المعيار للفعل التاريخي، والجزيرة بُني على أرضها الأنموذج، بكل تشكيلاته وتطوراته وحالاته المتنوعة.

فهي بذلك كله مؤهلة، إن هي أدركت مسؤوليتها الرسالية، لمعاودة الانطلاق، وإيصال الرحمة للعالمين، حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، أو كما قال إمام دار الهجرة، الإمام مالك رحمه الله.

والركيزة الثالثة في البناء والنهوض الحضاري إنما تتمثل في **فقه الواقع**.. وهو الأمر الغائب اليوم عن الكثير من فقهنا وفكرنا، ولا بد أن نعترف ابتداءً بالتقصير في امتلاك أدواته، ذلك أن **الواقع بكل مكوناته، بعالم أفكاره، وعالم أشيائه ومنتجاته، يشكل إلى حد بعيد ثمرة الماضي ومستقبله وامتداده، فالحاضر مستقبل الماضي، وبعده ومداه، وهو في الوقت نفسه يشكل ماضي المستقبل**.. فصناعة المستقبل والصورة التي نريدها للمستقبل يبدأ رسمها ونسجها من خيوط الحاضر، ويُستشرف لها الماضي بكل عبره ودروسه والإصابات التي لحقت به، بسبب العجز عن حسن التعامل مع القيم، حتى تشكَّل الحاضر على الصورة التي هو عليها.

فهاجس التغيير والقلق الحضاري- إن صح التعبير- أوالقلق السوي، حيث القلق سويّ ومرضي، هو الذي يبني إرادة التغيير، ويشكل الهم الذي يصنع

الهمة، ويجمع الطاقة، ويسترد الفاعلية، ويدفع للبحث عن مواطن الخلل وتحديد مواطن القصور وأسباب التقصير؛ يدرس الظواهر الاجتماعية ويتعرف إلى أسبابها، ولا يقتصر على معالجة آثارها السلبية، وإنما يتجاوز إلى معرفة السنن والأسباب وقوانين الحركة الاجتماعية التي تحكمها، ويتحول إلى دراسة هذه السنن وكيفيات تسخيرها، والتعرف على سنن المدافعة وكيفية تفعيلها، ومغالبة سنة بسنة، أو قدر بقدر.

وليس ذلك فحسب، وإنما التعرف على الإمكانات بكل أبعادها المادية والمعنوية، والمحركات الاجتماعية، وتصميم الخطط والبرامج لحركة المجتمع، ووضع الأوعية الملائمة لحركة الأمة، ضمن إطار الإمكانات، بعيداً عن الأمنيات؛ وإن كانت الأمنيات هي التي تخصب الخيال وتحرك الحماس وتنشئ الحافز وترسم الفضاء، الذي تتحرك من خلاله الإمكانات بدون مجازفة وهدر لها.

ولا شك أن دراسة الواقع بكل مكوناته، وتحليله، والتعرف إلى المحركات الاجتماعية أو السنن التي تحكمه، لم تعد قضية خاضعة للتأمل والتمني والشعارات المرفوعة، وإنما أصبح لذلك علوم وأدوات بحثية وتخصصات معرفية في العلوم الاجتماعية بكل فروعها، إلى جانب ما تقتضيه الدراسة من عمليات الاستقراء والمسح الاجتماعي والإحصاء، بكل فروعه ومجالاته، وبعد ذلك كله يمكن أن تتوفر لدينا الرؤية الكاملة والدقيقة والموضوعية لوضعه في السياق التاريخي المناسب للأمة، بكل تضاريسه ومنحنياته، سقوطاً ونهوضاً، ومن ثم القيام بعملية المقاربة، للتحقق بالخبرة والعبرة التاريخية التي تعين على إبصار العلاج وتداعيات المستقبل.

إن عملية النهوض، وردم فجوة التخلف، ومعالجة الخلل، وتسديد الطريق

إلى المستقبل، تتطلب العودة إلى مسيرة السيرة، بكل مراحلها وعطائها وتطوراتها، ذلك أن السيرة بخلودها هي منجم عطاء ودليل تنزيل للنص الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان، خاصة وأن معاودة النهوض على أرض النبوة نفسها، ومن خلال إنسانها، إضافة إلى أن السيرة محل التأسي والاقتداء، الأمر الذي يقتضي وضع هذا الحاضر أو هذا الواقع في موضعه من مسيرة السيرة، ومن ثمّ تحديد موقع الاقتداء من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، إذ لا يمكن أن تكون مرحلة القوة والتمكين والمجاهدة لدرء الفتن في السيرة، هي محل الاقتداء لمجتمع يعيش مرحلة الاستضعاف والتخلف، بل الاقتداء لابد له أولاً من تحديد موقع الحاضر من مسيرة السيرة الطويلة، ابتداءً من بدء الخطوات الأولى من بدء الوحي: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾، وانتهاءً بالوصول إلى بناء الأنموذج وتحقيق حالة الكمال، بكل ما بينهما من منعرجات، من نصر وهزيمة، ودعوة ودولة.... إلخ.

وتشتد الحاجة أكثر فأكثر هنا، عندما يكون التفكير في إعادة إخراج الأمة إنما يتم على أرض النبوة نفسها وفي إطار إنسانها، بكل ما يمتلك من رصيد تجربة حضارية تاريخية تشكل معالم هداية، وتمنح الأمل بالقدرة على معاودة البناء لنسق التجربة على الأرض نفسها وبإنسانها ومناخها وأرضها وجبالها.

وهنا قضية تكاد تكون مسلمة حضارية، تبلورت نتيجة لاستقراء التاريخ الحضاري الإسلامي، إضافة إلى مواعيد الله سبحانه وتعالىومواثيقه، وهي أن خلود الرسالة، أو خلود عالم الأفكار، يعني تجردها عن حدود الزمان والمكان، وقدرتها على الإنتاج في كل زمان ومكان، إذا أحسنا التعامل معها، وذلك بتجريدها من قيود الزمان والمكان، وتوليدها في كل زمان ومكان.

وهــذا الخلــود بمقدار ما يصدق على سلامة القيم الإسلامية وقدرتها على الاســتجابة للمســتجدات والمــتغيرات في تاريخ البشرية؛ لأن الرسالة خاتمة وخالدة، بمقدار ما يصدق أيضاً على معاودة إنتاج الأمة التي تضطلع بهذه القيم وإخــراجها للــناس من جديد.. والتاريخ شاهد على أن المجتمعات الإسلامية عمومــاً كــلما أحسنت التعامل مع القيم تحقق لها النهوض والشهود.. فكيف ببلاد الجزيرة؟

ومــن الأهمية بمكان الإشارة إلى نوعية أدوات التقويم والقياس لواقع المجتمع وتحديــد مواطــن الخلــل فيه، حتى لا تطيش السهام، وتتنافر الآراء، وتتحكم الأهواء، ومن ثم وضع المجتمع بكل حاله في السياق التاريخي، لتحقيق العبرة، وفي الموضــع المناسب لمسيرة السيرة، لتحقيق القدوة، ذلك أن القيم وأدوات التقويم والبحث في الإسلام مصدرها معرفة الوحي وليس أهواء البشر.

فتقويم المجتمع إنما يتم من خلال معايرته بالقيم الإسلامية، وقياسه على أصوله الحضــارية، والنظر إليه من خلال عالم أفكاره، وتحديد مواطن الإصابة للوصول إلى كيفــية التعامل مع القيم وتنــزيلها على الواقع فــي ضوء ذلك، وإلا كيف يتســنى لنا تحديد الخلل واختيار نوع المعايير المستخدمة؟ فقضية المعايير على غاية من الأهمية، لأن الخلل في المعيار يقود إلى النواتج المختلة والنتائج غير السليمة.

لذلــك نقول: إنه بعد تحديد مواطن الخلل وأسبابه، من خلال سنة الله في الخلــق وقانون السقوط والنهوض الحضاري، ووضع الواقع في سياقة التاريخي للأمة، وتحديد موضعه من مسيرة السيرة، لتحديد مواطن الاقتداء وكيفياته، تبدأ عملــية التنــزيل والتسديد، ومعالجة الخلل، من خلال سنن التدرج والمدافعة، والنظر إلى الواقع في ضوء القيم، والتعامل مع القيم وكيفيات تنــزيلها للمعاجلة

من خلال الواقع.

أما محاولة تقويم المجتمع وتحديد إصاباته من خلال سياق تاريخي غير تاريخه، أو مـــن خلال أصول حضارية غير حضارته، فذلك نوع من تكريس السقوط وديمومة التخلف، إذ لا يمكن أن يُقاس واقع مجتمع ويحاكم بغير سياقه التاريخي وأصـــوله الحضـــارية وقيمه الثابتة، هذا على الرغم من اعترافنا أن الواقع اليوم بدأت تساهم بصنعه مجموعة اعتبارات داخلية وخارجية بعد أن كاد العالم يصير واقعـــاً واحـــداً.. لذلك فدراسة الواقع تتطلب أيضاً وضعه في السياق الدولي، وأخذ ذلك بعين الاعتبار، تأثيراً وتأثراً.

ومع ذلك، فعمليات التحديث والنهوض والتجارب العديدة، التي جاءت من خارج القيم والتجربة التاريخية والمعادلة الاجتماعية للأمة باءت بالفشل، كما أن محـــاولات الـــنهوض في الداخل الإسلامي اعتراها الكثير من الضمور والتخلف، وبقيت عاجزة عن الامتداد وتحقيق الخلود بأبعاده المطلوبة، لعدة أسباب، لا مجال لذكـــرها هنا، لكن حسب تلك المحاولات أنها احتفظت بالإمكان الذاتي للأمة، وإنْ عجـــزت عن التوليد، بينما التجارب القادمة من الخارج الإسلامي تجاوزت وأســـقطت الإمكان والأهلية وألقت بنفسها على (الآخر) المختلف، فلا الارتماء حقـــق الـــنهوض، ولا الانكفاء ساهم بالترقي، فلابد من تحديد الخلل واسترداد الدور الرسالي من خلال القيم الإسلامية والمسيرة التاريخية.

لذلـــك فإنسان الجزيرة العربية، أرض النبوة الأولى، ووارث الرسالة الخاتمة، مدعو قبل غيره للاستشعار بمسؤوليته الحضارية والثقافية والدينية، أولاً ليعي ذاته ويصوب مسيرته بتحقيق شهادة الرسول عليه ﷺ، ومن ثم يحمل الخير للعالمين.

ذلــك أن الأرض والإنســان، التي كانت مهبط الوحي، ومحلاً لحمل الخير للعـالم، والقاعدة البشرية الأولى التي انطلقت بالإسلام إلى الناس، وكانت محلاً لبناء الأنموذج تحت عين النبوة، وأنبتت جيل خير القرون، وأنتجت أجنة الدعوة الأولى، هــي مؤهلة بطبيعة الحال لمعاودة الإنتاج على مستوى الفكر والفعل إن هــي أحسنت التعامل مع رصيدها وإمكاناها الحضاري، فوعت ذاقما، وصوّبت شــهادة الرسول ﷺ عليها: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ (البقرة:١٤٣)، ومــن ثم انطلقت للمساهمة بالعطاء الإنساني: ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾ (الحــج:٧٨)، بحيث تدرك بدقة أن تخليها عن إدراك بعدها الرسالي، وانسحابها من الساحة، وتحولها إلى محلٍ للتلقي من (الآخر) دون معيار، وتخليها عن دورها في معالجــة الأزمة الإنسانية، بما تمتلك من قيم ومعايير إنسانية بعيدة عن التحيز والتعصــب، ســوف يؤدي إلى تفاقم أزمة الحضارة الإنسانية أيضاً واستحكام الفتن في الأرض، فالله تعالى يقول:﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال:٧٣).

فالعـالم يعـاني من الفساد والإفساد، بسبب غياب القيم العادلة التي تحقق المســاواة وتســترد إنسانية الإنسان، لذلك فالمسؤولية عظيمة، والعطاء عظيم، والثواب على استرداد الدور الرسالي العالمي عظيم أيضاً.

فــإذا كان المسلمون عامة مسؤولين عما حل بهم، ومسؤولين تجاه (الآخر) بطبــيعة التكلــيف وطبــيعة الرسالة وعالميتها وإنسانيتها، بعيداً عن الإقليمية والتعصب، فإن أرض النبوة، أو الجزيرة العربية، وإنسان النبوة، ومهبط وحيها، ووعاء حركتها الأولى، ولسان خطابها للناس، تصبح المسؤولية بالنسبة له آكد.

ولعلــنا نقــول: إن اختيار هذه المنطقة من العالم، بأرضها وإنسانها وزمانها ولسانها، لبدء خطوات النبوة الأولى عليها، وانتهاء الوراثة الحضارية والرسالات السماوية إليها، وخصها برسالة النبوة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات الســماوية، وكان تكليفها وخطابها للعالم، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لتوفر خصــائص وصــفات ومؤهلات تجعلها محلاً لهذا الاختيار ولهذه المهمة العالمية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ولهذا القول الثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ (المــزمل:٥).. فالمهــازيل ليسوا محلاً للقول الثقيل.. والحمل الثقيل لا يطيقه إلا الأشداء الأقوياء، فالرسول ﷺ يقول: «...**أنا خيار من خيار**»[1].

لذلك يمكن لنا أن نلمح في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:١٢٤)، بعض الآفاق والأبعاد التي تمكننا من استبانة بعض أبعاد حدود المســؤولية والمهمــة والأهلية وخصائص القيادة المركوزة في أرض النبوة، التي تؤهلها للاضطلاع بدورها الرسالي.

ولئن كان المدلول الأقرب لقولــه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ إنمــا ينصــرف نحــو اختيار الرسول ﷺ، من بين سائر الخلق، لما يتمتع به من خصائص وصفات ومزايا تؤهله لهذه المهمة، المعنى الذي أدركته السيدة خديجة رضــي الله عنها بفطرتها وعشرتها لرسول الله ﷺ عندما جاءه الوحي فعاد إليها

(١) أخــرجه الحاكم والبيهقي.. وفي صحيح مســلم: (إن الله اصطــفى من ولد إبراهيم إســماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كِنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)؛ وأخــرج الإمام أحمد عنه ﷺ: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً) (أخرجه الإمام أحمد).

مفزوعاً خائفاً مما لا عهد له به، فأدركت طبيعة المهمة وأسباب الاختيار والعواقب السليمة، في ضوء الخصائص والصفات التي يتمتع بها، فثبتت وطمأنت وقالت: « ... **أَبْشِرْ، فَوَاللّٰه لا يُخْزِيكَ اللّٰهُ أَبَدًا، فَوَاللّٰه إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ** »[1].

فالرسول ﷺ كان يهيأ منذ طفولته.. عصمه الله وهيأه لهذه المهمة.. ولئن كان ذلك للرسول ﷺ فإنه يصدق أيضاً على المكان، الجزيرة العربية، التي اختارها الله من بين سائر الأمكنة، لتكون مهبط الوحي، أو أرض النبوة، ومكان القبلة والوجهة، والمحور الذي يطوف به الناس (بيت التوحيد): ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:٧)، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران:٩٦).

فاختيار الرسول ﷺ، جاء خياراً من خيار، وقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، واختيار الجزيرة العربية مهبط الوحي لما كان عليه أهلها من السجايا النفسية والخصائص الخلقية من كرم، وشجاعة، ونبل، وصدق، ووفاء، ونصرة للمظلوم، وحسن الجوار، والرسالة إنما جاءت لتحقيق الاكتمال والكمال لهذه الأخلاق، ولا أدل على ذلك من قول رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [2].

كما يصدق أيضاً على الإنسان، الذي تشكلت منه القاعدة البشرية الأولى،

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري

واستطاع تمثل القيم والمبادئ السماوية في نفسه، ونزّلها على الواقع بكل مكوناته من خلال عزماته، وحفظها من التبديل والتحريف والانتقاص، وبُني من خلاله الأنموذج الذي يثير الاقتداء.

ويصـــدق أيضاً على الزمان واللحظة التاريخية، التي اختيرت للتنـــزيل دون سائر الأزمنة.

ويصدق أيضاً على اللسان: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف:٢)، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشـــعراء:١٩٥)، فاللغة العربية بما تمتلك من قدرات هائلة على مســـتوى الألفـــاظ والمعاني والمفردات والمترادفات والقدرة على النمو والتوليد والارتقـــاء، كانت مؤهلة لتصبح وعاءً للمعجزة البيانية، المعجزة الخاتمة، فتكون وعـــاءً للتعبير، وأداة للتفكير، ويكون معهود العرب في الخطاب معيناً على فهم وتفســـير مدلـــولات كلام الله الخاتم، ويكون أهل الجزيرة العربية ولغة قريش وأهـــلها طرق الاتصال والتواصل مع كلام الله وفهمه، ويكون أهلها وفهمهم حجة في البيان والتفسير.. و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:١٢٤).

فهل نجتهد لنعلم أسباب هذا الجَعْل، وندرك أبعاد مسؤوليتنا في هذا الجعل، ورســـالتنا من هذا الجَعْل، وموقعنا عالمياً من هذا الجَعْل، وخطورة نكوصنا عن هذا الجعل؟

نعود إلى القول: إن جعل الرسالة الخاتمة في هذا الموقع، واختيار هذا الإنسان محـــلاً لهـــا ابتداءً، وقدرته على الانطلاق بها إلى العالمين، إنما جاء عن علم من الخـــالق بالخصـــائص والصفات والمؤهلات.. هو جَعْل قائم على علم ومعرفة، وليس عبثاً ولا مصادفة.

لقد عرف العرب في الجزيرة، قبل الإسلام الكثير من القيم الإنسانية، عرفوا

الشورى كقيمة سياسية واجتماعية، وكانوا يتداولون الرأي، وكانت دار الندوة المشهورة محلاً مشهوداً للتداول والتشاور واتخاذ القرار، ولا غرو في ذلك حيث لا يزالون على بقايا ملة إبراهيم عليه السلام.

كما عرفوا نصرة المظلوم ووقع الظلم، فلقد تلمس العرب قبل الإسلام وجهة الخير، وتعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا على نصرة المظلوم ورد الحق إلى صاحبه، ولا أدل على ذلك من عقدهم لحلف الفضول، الذي تم في دار عبد الله ابن جدعان وحضره الرسول ﷺ، قبل البعثة، وكان مضمون هذا التحالف: ألا يبقى في مكة مظلوم إلا وترد له ظلامته، حتى أشاد الرسول ﷺ بهذا التوجه الخيّر بعد البعثة، وقال: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النّعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت**» [1].. ولابد أن ندرك أن هذا التحالف إنما كان قبل خمسة عشر قرناً تقريباً.

فالحنيفية، ملة سيدنا إبراهيم، لم تنقطع في الجزيرة العربية، وبقيت هناك مجموعة تأبت عن الوثنيات جميعها، فلم يقبلها عقلها، واستمرت في رحلة التأمل والبحث عن الحقيقة والاختبار للعقائد السائدة، حتى أن العرب وُصفوا قبل الإسلام بالضلال، والضال -من بعض الوجوه- هو الإنسان القلق، الذي لم يقبل بالواقع، ويشعر بالغربة فيه وعدم الوصول إلى الهدف، ويستمر بالبحث، لذلك فهو يحاول التفتيش عن الحقيقة ويسعى للوصول إلى الهدف، حتى جاءت معرفة الوحي، وحققت الوصول إلى الهدف المطلوب، فكانت ضالة الضالين بالإسلام.

فالعرب الذين وصفوا بالضلال، وجدوا ضالتهم بالإسلام، وكأنه كان

---

(١) أخرجه ابن اسحاق وابن هشام وغيرهم.

بينهم، بخصائصهم وصفاهم، وبين الإسلام بعقيدته وقيمه، تواعد والتقاء.

وعلى هذا، فلم يكن العرب قبل الإسلام من المجتمعات الساكنة الراكدة، وإنما كانوا من المجتمعات الدينامية المتحركة القلقة من الواقع، الباحثة عن المثل الأعلى.. حتى عبادة الأوثان التي كانت تشكل وراثة اجتماعية، لم تكن مقنعة، فكم من موقف يحمل دلالات نحو هذا الاتجاه، ونكتفي هنا بموقف واحد لعله يشكل نافذة للإطلالة منها على الحال في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وذلك عندما ذهب أحدهم إلى وثنه يتعبد عنده فوجد ثعلباً يبول عليه - وكثيراً ما تهوى هذه الفصيلة من الحيوانات البول على النصب- فاغتاظ لذلك وأحس بالهوان والاستصغار لنفسه وعقله وكرامته، فقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب

ولا معرة في ذلك، فقد وصف الله سبحانه الرسول ﷺ الذي ترفع عن عبادة الأوثان وكان دائم التفكير والخروج إلى الخلاء والبحث عن الحقيقة، وصفه الله بالضلال عن الحقيقة، رغم البحث عنها، حيث لا تتأتى مثل هذه الحقيقة الكبرى إلا من طريق الوحي، أو يستمر الضلال، قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى:٧).

ومن جانب آخر، تعتبر الجزيرة العربية من البلاد التي بقيت في منأى عن التأثر بالديانات الأخرى، وعاشت اليهودية والنصرانية على هوامشها و لم تصل إلى عمقها، و لم تكن مقنعة لإنسانها، فجاء اختيار الجزيرة العربية عن علم وعن مؤهلات واستحقاقات وصفاء وفطرة سليمة.

وقد يكون من الأمور اللافتة حقاً، أن العرب بشكل أخص، كانوا قبل

الإسلام يعانون من عقدة الزعامة، وإشكالية السلطة، وأن الكثير من العداوات والحروب والثأرات والصراعات، يمكن تفسيرها على أنها كانت بسبب النـــزاع عـــلى السلطة والنفوذ، وهذا من بعض الوجوه يشكل ظاهرة صحيّة، إذ كيف يمكـــن عـــلى العموم أن يقبل الإنسانُ من إنسان مثله، أن يكون له عليه حق السـيادة والتشريع والسلطان، خاصة وأن الناس، يولدون متساوين، وينظرون لبعضهم وكأنهم يجلســون على مائدة مستديرة، بالاصطلاح الدبلوماسي، وأنه لا حق لأحد بميزة عن الآخر؟

ولعـــل هذه العقلية هي إحدى مقومات التأهل والقابلية لاعتناق الإسلام، والقـبول به؛ لأنه سوى بين الناس أمام الله، وألغى الكهانات، والواسطات بين الإنســان وبين ربه (طبقة الأحبار ورجال الدين) تلك الوساطات التي تتحول لتصــبح وســيلة للاستغلال والابتزاز، ويمكن أن نقول: إن ذلك كان السبب الرئيس لعدم انتشار الديانات السائدة قبل الإسلام، حيث لم تجد عندهم القبول لوجود هذه الوسائط، ذلك أن قيم التشريع في الإسلام تُستمد من الله وليست مـــن البشـــر، والعبادةُ تمارس بدون وساطة بشرية، والمساواة أمام الله متحققة للجميع... إلخ.

وقد لا يكون مستغرباً أن نقول: إن الاستقراء لتاريخ العرب يدلل على أنه كـــلما فترت العقيدة في نفوسهم وهبطت أقدار التدين في حياتهم، برز الصراع عـــلى الزعامات والخلافات؛ وإن العرب، لم يتوحدوا تاريخياً إلا بالإسلام؛ وإن جميع الطروحات والبدائل القادمة من خارج القيم الإسلامية لم تزدهم إلا فرقة وشتاتاً وتنازعاً على الزعامة؛ وإنهم إذا لم يُحْكَمُوا بقيم السماء فلن يقبلوا بحكم قيم البشر أمثالهم ويقبلوا بالخضوع لها.

ولا يتسـع المجـال للمضي في التتبع والاستقصاء للحال التي أهّلت إنسان الجزيرة لهذا الجعل وهذه المهمة الكبيرة والمسؤولية العظيمة، على الرغم من أنها تكلـيف وأعباء ومسؤوليات عن الخلق أجمعين، ورسالة إلى العالم، إلا أنها من وجـه آخـر تشريف، فلولا المؤهلات والصفات والخصائص لما كان التكليف والجعـل من الله سبحانه وتعالى.. وجاء التاريخ يصدق هذه الأهلية، وأن هذا الجعل كان في محله، فكان العطاء الكبير والتفاني الكبير، ولا يُستغرب الخير من معدنه، وكيف لا يكون ذلك وهو من الله العليم الخبير.

إن القيم الإسلامية -كما أسلفنا- تحققت في قاعدتها البشرية الأولى (عرب الجزيـرة) مـن خـلال عزمات البشر، حيث كانوا في مستوى الجعل الإلهي، فحققـوا الانتصار بالإسلام، على الرغم من كل الظروف الصعبة، وحملوه إلى العـالمين، مستوعبين سنن الله المطردة في الحياة والأحياء، ويمتلكون القدرة التي منحتهم إياها معرفة الوحي على تسخير السنن الاجتماعية والارتقاء إلىمستوى المدافعة الحضارية.

والمـتأمل في مهبط الوحي وبلاد الجزيرة العربية، المتتبع لبناء الأنموذج الذي سـوف يكون محل أسوة للبشرية حتى قيام الساعة على الأصعدة المتعددة ابتداءً مـن: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾، يرى أن الأنموذج والـتعامل مع القيم الإسلامية استوعب الحالات الإنسانية جميعها، وقدم نماذج لجميع أنواع الاستجابات والمواجهات، على مستوى إنسان الجزيرة العربية:

فبعضـهم أسرع إلى الإيمان وكان له فضل السبق والريادة.. وبعضهم رفع رايـة المواجهة والعداء سنوات وسنوات، حتى إذا ما أسلم قفز بالإسلام قفزات نوعية، انتصر فيها للإسلام، وعوّض بها مافاته من الزمان.

ومـــن الناس من أسلم صغيراً وأبواه على الكفر، وقدم أنموذجاً يحتذى لمثل هذه الحال ضمن الأسرة.

وبعضهم أسلم كبيراً وفي سن متقدمة فكان له من العطاء ما كان.

ومـــن الناس من أسلم وزوجته على الكفر.. ومنهن من أسلمت وهاجرت وزوجها على الكفر.

ومـــنهم مـــن غلبـــته الشهوة في موقف ضعف إنساني –وهي حالة تلحق بالبشر– فزنى (ماعز والغامدية).. ومنهم من سرق (المرأة المخزومية).

ومنهم من تعرض لامتحانات في الإسلام عسيرة جداً وصبر واحتمل.

ومنهم من نفد صبره ونطق بكلمة الكفر واحتفظ بالإيمان في قلبه.

ومنهم من تخلف عن الجهاد وتثاقل ومن ثم أدرك خطأه واستغفر وأناب.

ومنهم من وقع في الخيانة لله ورسوله (حاطب بن أبي بلتعة).

وغير ذلك من الحالات.

لذلـــك قـــد لا يستغرب القول: إن أبعاد بناء الأنموذج امتد إلى الجوانب السلبية، لتكون دليلاً لكيفية التعامل معها.

ولعل من الأمور التي تتطلب الكثير من التفكير والتأمل، لتشكل ارتكازاً في الـــنهوض الحضـــاري، إنمـــا تتمثل في استيعاب مراحل بناء الأنموذج والمثل، والإحاطـــة به من جميع الجوانب، ذلك أن الشائع في الأذهان، حتى عند بعض المفكرين، أن الأنموذج هو الصورة المثالية والفعل الإيجابي الذي يتطلع الناس إليه، ويحاولون مقاربته ومحاكاته.. وهذا بدون شك من القضايا والأهداف الأساسية

لطرح الأنموذج، واستدعائه في التربية والثقافة، لكن شريطة عدم تغييب الجوانب السلبية التي رافقت مراحل البناء.

وتـــأتي أهمية وعظمة ذلك الأنموذج والمثل أنه إنما تحقق من خلال عزمات البشـــر، بكـــل مـــا يعتريهم من ضعف وفتور وشهوات وأهواء هي من طبيعة جبلتهم، ولولا هذه الجوانب السلبية في المثل وبناء الأنموذج لما استحق أن يكون محـــل اقـــتداء للبشر، الذي يجري عليهم الضعف والخطأ والخطيئة.. ولو اقتصر الأنموذج على الجوانب المثالية الإيجابية لما صلح أن يكون محلاً لتعاطي البشر.

من هنا نقول: إن الأنموذج الذي تشكل على أرض الوحي وتحقق من خلال عـــزمات البشر، عرض لكل الحالات البشرية، وقدم أدلة لكيفية التعامل معها، ليكون الأنموذج مثالياً وواقعياً في الوقت نفسه.

وقـــد يكون من المفيد الوقوف والتأمل في شأن البدريين، الأنموذج الأمثل، الذين هم أكرم خلق الله على الله: « **لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَـــا شِـــئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »(١)، «...**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ** »(٢).

هـــذه المكانة الخاصـــة العظيمة للبدريين لم تخرجهم عن كونهم بشراً ينالهم ما ينال البشر، وهنا تتمثل العظمة ويتحقق الإعجاز في تجسيد المبادئ في الواقع الإنساني ومن خلال عزمات البشر.

فلقد اختلف البدريون في قسمة الغنائم وتنازعوا، واعترى بعضهم الضعف وحظ النفس والنـــزوع البشري، حتى وصل الأمر إلى سوء العلاقة وفساد ذات

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه مسلم.

البين، يقول عبادة بن الصامت، أحد النقباء في بيعة العقبة: اختلفنا في غنائم بدر حتى كادت تسوء أخلاقنا فنزعها الله منا، وجعل أمر قسمتها لله ورسوله.. و لم يقتصر ذلك على الاختلاف في قسمة الغنائم، وإنما امتد لأكثر من حالة ومرحلة بين يدي الإعداد للمعركة وبعد انتهائها.

والمتأمل في آيات الأنفال يبصر نماذج من الضعف البشري، وكيف انتشلت الآيات الإنسان من ضعفه، وسمت به إلى الدرجات العلى، ليكون ذلك مرتقى لكل مسلم.

اختلف البدريون في الغنائم، وخرجوا للمواجهة مكرهين، وجادلوا الرسول ﷺ في الحق من بعد ماتبين لهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وتوهموا أن النصر إنما يتحقق بقوتهم وحكمتهم وتدبيرهم بعيداً عن المدد الإلهي.

ولعل إثبات الآيات للتأمل فيها يحقق بعض الدلالات التي أشرنا إليها.. يقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾(الأنفال:١-٦).

وعلى العموم يمكن القول: إن هذه الأرض، بلاد الجزيرة العربية، مهبط

الوحـــي، وهذا الإنسان محل التنـــزيل، اســـتوعبا جميع الحـــالات الإنســـانية ومـــا يعـــرض لها، فكان الأنموذج لكل حالة.. هذا الأنموذج الذي غطى جميع المساحات البشرية في كل الظروف، فلا توجد حالة إنسانية إلا ويوجد لها محل اقتداء في مسيرة النبوة.

لقـــد اســـتوعب بناء الأنموذج في بلاد الجزيرة العربية، مهبط الوحي، في تـــنـــزيل القـــيم في الكتاب والسنة، جميع مجالات الحياة، في الزواج، والروابط الأسرية، والطلاق، والظهار، والخلع، والأخطاء، والكفارات، وعلاقات الجوار، وعـــلاج مـــا يلحق بها من إصابات، كما عرض لأنواع من تطبيقات الشورى وإدارة الخلافـــات السياســـية في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ﷺ وعند اختـــيار أبي بكـــر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، كما قدم نماذج للمعاهدات والعهـــود الاجتماعـــية والوثائق الدولية والاجتماعية، من مثل صحيفة المدينة، وصلح الحديبية، ومعاهدات الجوار، كما كانت قضايا الجنوح إلى السلم والعدل والأمـــن، وشـــروط الحرب وأدابها وأهدافها، ومجاهدة الأعداء ومجادلة الخصوم وآليات التعامل معهم، في ضوء الآيات والأحاديث، أكثر من أن تحصى.

لقـــد اســـتوعب ذلك الجيل (أنموذج القدوة) تاريخ النبوة الطويل، وأصَّل وأســـس لكـــل الحـــالات البشرية والإنسانية، التي تعرض لمسيرة البشيرة على الأصـــعدة المـــتعددة، على المستوى السلبي والإيجابي، وكيفية التعامل معها من خـــلال معرفة الوحي، فهو أول من جسد الإسلام في حياته، ونزله على واقع الناس، ليصبح دليل هداية وسبيل عمل للأجيال على مر العصور.. لذلك، فإن الخطورة كل الخطورة عندما يتيه الدليل ويضل.

ذلــك أن الأرض الــتي أنبــتت أبا بــكر الصديــق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبا عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم، وأنبتـــت فاطمـــة بنت محمد ﷺ وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه، وخديجة بنـــت خويـــلد رضي الله عنهن جميعاً، أنبـــتت أيضاً أبا جهل وأبا لهب وعقبة ابن أبي معيط والوليد بن المغيرة وأم لهب وهند بنت عتبة، وغير ذلك من العتاة الأشداء الذين واجهوا الدعوة الإسلامية بكل الوسائل، فكان النصر من خلال عزمات البشر واطراد السنن والنواميس الحياتية.. والشر من لوازم الخير، وهذه سنة من سنن الحياة التي خضع لها المسلمون.

وهكـــذا تشـــكل العرب، المسلمون الأوائل، من خلال الظروف الصعبة والمعانـــاة الكـــبيرة، ومـــروا بكل أشكال المعاناة والمعاداة، وخبروا الحياة بكل أبعادها، ليتأهلوا لحمل الإسلام إلى العالم كله، بكل إشكالياته وظروفه وتداعياته وأقالـــيمه ومناخاته، ومن هنا صدقت فيهم قولة الشاعر محمد إقبال رحمه الله، تعبيراً عن الحال:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليجيء كل مسلم أسد

لقد كانوا صفوة الصفوة، وشكلوا الأنموذج الذي يثير الاقتداء على التاريخ الطويل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، على مختلف الأصعدة.. فعلى الصعيد السياسي لم تعط أية مرحلة من تاريخ المسلمين ميزة مصدرية التشريع والتنهيج بعـــد مـــرحلة الســـيرة النبوية ما أعطيت الخلافة الراشدة، يقول الرسول ﷺ:

«...عَلَـــيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا

عَلَـيْهَا بِالـنَّوَاجِذِ»[1]، حتى لم توصف أية فترة سياسية بالرشد والاكتمال والكمال على مدار التاريخ، على الرغم من عدم انقطاع الخير ضيقاً واتساعاً، إلا فترة الخلفاء الراشدين، وهذا له دلالاته الكثيرة، و لم يكن ذلك على المستوى السياسي فقط وإنما على المستويات جميعاً، الأخلاقي والاجتماعي والمعرفي والمنهجي...

إضافة إلى أن جيل الصحابة الذي فاز برضى الله، وبُشر بعضهم بالجنة وهم على قيد الحياة، يقول تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾، وفتح الباب لاستمرار الخير واستدعاء الرضا بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ (البينة:٨)، هذا الجيل بفكره وفعله والتزامه، جُعل خير القرون، قال ﷺ : «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي...»[2]، وقال: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»[3]، ولا يعني القرن هنا المائة عام فيما أحسب[4]، وإنما يعني أن استصحاب هذا الجيل بفهمه للقيم الإسلامية، وسيرته العملية، يشكل المرجعية وجماع الخيرية لكل المسلم، التي تقتضي باستمرار محاولات المقاربة معه والاستهداء بهديه.. صحيح أن الكثير من المسلمين في عصور التخلف لم يتجاوزوا دلالة الإخبار من الحديث، و لم يستشعروا ما فيه من

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) جاء في لسان العرب: القرن: الأمة تأتي بعد الأمة، قيل: مدته عشر سنين، وقيل: عشرون سنة، وقيل: ثلاثون، وقيل: ستون، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وهو مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان.. وفي النهاية: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران - بمعنى الصحبة - والقرن من الناس: أهل زمن واحد.. قال الأزهري: والذي يقع عندي، والله أعلم، أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي.. والدليل على هذا قول النبي ﷺ: خيركم قرني - يعني أصحابي- ثم الذين يلونهم يعني التابعين؛ انظر ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد الثالث، د.ط (بيروت: دار لسان العرب، د.ت) ص٧٤.

التكليف لكل مسلم، ليستوعب أبعاد تلك الخيرية وخصائصها، ومن ثم يحاول تنـــزيـــلها على حياته وحياة مجتمعه، حتى لقد وصل الأمر بالإمام مالك رحمه الله، أمـــام دار الهجـــرة، في ترتيبه لمصادر التشريع أن قدم عمل أهل المدينة في استنباط وتقرير الحكم الشرعي على بعض النصوص الظنية.

وليس أقل من ذلك في دلالته، ذلك الفضل الكبير والميزات الخاصة التي فاز بهـــا الـــبدريون، أجنة الدعوة ورجالها الأوائل، حيث كانوا مفترق الطريق بين وجهـــة الكفر ووجهة الإيمان، حتى أن معركة بدر سميت من الله بيوم الفرقان، كمـــا هـــو معلوم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ...﴾ (الأنفـــال:٤١)، وبقيت قصتها قرآناً يتلى على الزمن وأنموذجاً يحـــتذى لكـــل العصـــور، وحسبنا هنا أن نذكر بقول الرسول ﷺ على أرض المعـــركة: «...**اللَّهُـــمَّ إِنْ تُهْلِـــكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[1].. فالبدريون هم رسل الخلاص من الوثنية والعبودية، الذين أسسوا لـــــه، ورسمـــوا نهجه، وأغروا بالتزامه إلى يوم القيامة، ومن هنا جاءت قولة الرسول ﷺ: « **لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ** »[2]، وهذه منـــزلة لا تدانيها منـــزلة.. وهل هـــؤلاء البدريون إلا نبت الجزيرة وأسلاف إنسانها، الذين كان لهم هذا الفضل وهذا السبق؟

ذلـــك أنـــه من المعروف أن هناك معارك في التاريخ الإسلامي كانت أكثر ضـــحايا وأشد ضرواة من معركة بدر، ومع ذلك كان لبدر ما ليس لغيرها..

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه البخاري.

فهل للأرض التي أنبتت البدريين أن تعاود الإنبات من جديد لتعديل الوجهة وحمل الخير واستشعار المسؤولية؟

والنماذج في ذلك كثيرة، بل هي أكثر من أن تحصى، على الأصعدة المتعددة.

ولا يتسع المجال هنا لاستقصاء الآيات والأحاديث والآثار والسير التي تؤكد المعاني الكبيرة المركوزة في هذا الجيل، محل الأسوة والقدوة والريادة الأولى، ليكون منارات هدى لإنسان الجزيرة بشكل خاص وللمسلم أينما كان بشكل عام؛ لأن هذه الأرض التي كانت مهبط الوحي ووعاء الحركة الأولى، وهذا الجيل الذي تربى وتشكل على هذه الأرض، هو أكبر مصدر للإلهام والدلالة على الإمكان الحضاري والقابلية للنهوض، ذلك أن استشراف هذا الماضي هو السبيل الوحيد لتصويب الحاضر وتقويم مسيرته، وإبصار المستقبل، وبناء إرادة التغيير، والاهتداء إلى سننه.

ولعل من الأمور اللافتة حقاً، التي تستدعي الكثير من التفكير والتبصر والتأمل في المغزى، أن الإسلام لم يتجاوز بلاد الجزيرة العربية إلا بعد اكتمال بناء الأنموذج "المعيار".

فهل نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن بناء الأنموذج المحتذى، على المستويات جميعاً، اختير له وكان محله إنسان الجزيرة العربية دون سائر الخلق، وإن تطبيق الإسلام وتنزيله على واقع الناس، على الأصعدة المتعددة، كان اقتداءً وتأسياً ومقاربة مع ذلك الأنموذج الذي تربى على عين النبوة؟

ولعل من الأهمية بمكان، أن نشير إلى أن مرحلة السيرة (بناء أنموذج الاقتداء)، اشتملت على عناصر من غير العرب، من أمثال سيدنا بلال الحبشي، وصهيب

الرومي، وسلمان الفارسي، وغيرهم، رضي الله عنهم، ممن كان لهم عطاء متميز، ودور بـــارز في المشاركة، وكانوا نماذج للاقتداء في الصبر، والتحمل، والشورى، والجهـــاد، والعطـــاء بشكل عام، الأمر الذي يؤكد أن الإسلام ولئن كان لسانه عربياً، وقاعدته البشرية الأولى العرب، التي كانت محلاً للتنـــزيل وبناء الأنموذج، وجغرافيته الجزيرة العربية، إلا أن رسالته إنسانية وعالمية، لا فضل فيها لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح.

كمـــا أن مراســـلة الرســـول ﷺ للملوك والأمراء، ودعوتهم إلى الإسلام، والبشـــائر الـــتي بشـــر بها ﷺ أصحابه عن بلوغ الإسلام للعالم، إضافة إلى أن خطـــاب الإســـلام قبل قـــيام الدولة والمجتمع كان إنسانياً عالمياً منذ الخطوات الأولى، يـــدل عـــلى أن رسالة الإسلام رسالة إنسانية، لكل إنسان حيثما كان.. فـــأي إنســـان يؤمن بقيم هذا الدين، يصبح مواطناً عالمياً في أمة الإسلام، يتمتع بحقوق الأخوة الكاملة، التي يتحقق بها كل مسلم، حتى ولو لم يكن مجاوراً الحرم.

إضـــافة إلى أن مـــرحلة السيرة (بناء الأنموذج) لم تتجاور الدعوة والحوار والإقـــناع إلى المواجهـــة والقتال، بل كان التزامها قوله تعالى: ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ (النساء:٧٧)، إلى أن قامت الدولة والمجتمع، ومع ذلك كان الجهـــاد رداً للعدوان، ودفاعاً عن استمرار نشر الدعوة والعقيدة، وتأميناً لحرية الاعـــتقاد، وإيقافاً للإكراه وتسلط الإنسان على الإنسان، ولم يـــكن اعتداءً، كمـــا أنه لم يكن قرار فرد أو مجموعة أو جماعة وإنما كان قرار الدولة المسلمة، وكـــان الأفـــراد في مرحلة الأنموذج يدركون أن خطاب القتال والجهاد منوط بالسلطة المسلمة، وليس بالأفراد، وأن نصيب الأفراد من هذا الخطاب أن يعملوا

عـــلى إقامة السلطة المسلمة التي تقوم بمقتضياته، حيث إن المخاطر سوف تكون كبيرة إذا حصل العـــبث فـــي التعامل مـــع مثل هـــذه الأحكام الشـــرعية، ولم تستوعب مرحلة الأنموذج، ويصوب الاقتداء، ونَصَّب الأفراد أنفسهم بديلاً عـــن الدولة المسلمة وأعطوها الحق في ممارسة سلطات الدولة المسلمة في إعلان الحرب والأقضية وتنفيذ العقوبات.

إن هذه الأرض، أرض الجزيرة العربية، بما تمتلك من سبق له دلالاته وإشاراته الكـــبيرة عـــلى إمكانـــية النهوض، ما تزال بما حباها الله مؤهلة لمعاودة النهوض والقـــيادة إذا وعـــى إنسانُها ذاته، ووعى رسالته، واستوعب تاريخه، واستشعر مسؤوليته عن صناعة المستقبل، الذي يكتسب شرعية النسب للماضي.

إن إمكانـــات النهوض التي تمتلكها أرض الجزيرة العربية، قلب العالم وقبلة المسلمين، تؤهلها لمعاودة النهوض والتحقق بالبعد الرسالي والدور المنوط بها، إلى جانـــب ما أشرنا إليه من العمق التاريخي، والعمل الريادي، والجيل الذي شكل ولا يزال الأسوة والقدوة ومصدر الإلهام.

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما تزخر به الجزيرة العربية من الإمكان الحضاري عـــلى المســـتوى الروحي والمادي والعمق الثقافي، والتجربة الحضارية التاريخية، ومـــنطلق عقيدة التوحيد، التي أعلنت المساواة الإنسانية وأوقفت التمييز وتسلط الإنسان على الإنسان، ما يؤهلها للاضطلاع بدور عالمي وإنساني إذا وعت ذاتها وأدركت رسالتها واستشعرت مسؤوليتها تجاه نفسها و(الآخر).

والـــرؤية التاريخـــية والواقعـــية ترشدنا إلى تقرير الحقيقة: إن الأمم بقيمها وعقائدهـــا، أو عالم أفكارها، وعقول أبنائها وفعاليتهم، وليس بأشيائها مهما

تكدســـت.. ونحن لا نريد بهذا أن نغمط الجانب المادي حقه، أو أن نضعه في مقـــابل الجانــــب الفكري الثقافي الروحي الإيماني، وندخل في هذه الثنائية التي أنهكت الحضارات تاريخياً، ونضع الإنسان أمام الخيار الصعب، فلا قيمة لعقيدة أو فكـــر أو ثقافة تُسقط من حسابها البعد المادي أو تتجاوزه أو تحاول إلغاءه؛ لأنه بعض الإنسان، وجزء من فطرته ودوافعها، وأحد مرتكزات حياته، ولكن نقـــول: إن الخطورة هي في التوهم أن الإمكان المادي، أو تكديس الأشياء في المجـــتمع، حتى لو كانت مستوردة، دليل نهوضه، وأن زيادة الاستهلاك والنقل معـــيار ارتقائـــه، وميزان دخله مؤشر حضارته، حتى ولو غاب الإنتاج وتوقف الإبـــداع وانطفـــأت فاعلية الإنسان، بسبب ضمور عالم الأفكار وبروز العلل والإصابات في كيفية التعامل معها.

إن القيم والثقافة والعقيدة والإيمان هي الروح والمحرك لعالم الأشياء، ولعلنا نقـــول هـــنا: إن الجزيرة العربية حملت رسالة إنسانية وحضارية بلغت أنوارها ومعالمهـــا الهاديـــة الدنيا بأسرها وهي لمّا تمتلك بعد من عالم الأشياء والأموال والطاقـــات الماديـــة إلا ما يمكن أن يوصف أنه دون حد الكفاف، لدرجة فسر معهـــا بعـــض المؤرخين الفتوحات الإسلامية التي خرجت من الجزيرة بدوافع اقتصادية مادية، في محاولة للسيطرة على خيرات البلاد المفتوحة، فكانت الجزيرة في موقع العطاء للعالم بعقيدتها وقيمها ومعرفة وحيها وأنموذج إنسانها.

فكـــيف إذا اجتمعت لها هذه الطاقات الروحية الهادية مع الإمكانات المادية الهائلة، وأحسنت الاضطلاع بمهمتها، وأدركت بعدها الرسالي العالمي؟

إن الـــتوهم بأن المرتكز هو الإمكان المادي يحوِّل الأمة من واقع العطاء إلى موقع الأخذ، ومن موقع الإنتاج إلى واقع الاستهلاك واستيراد الأشياء، وسيطرة

الـــتوهم أن هذه الأشياء بريئة ثقافياً ولا تشكل خطورة، في الوقت الذي أصبح مـــن المســـلمات أن كل مُنْتَج يحمل رسالة أو ثقافة منتجيه لكن بشكل خفي، فيســـاهم بعطالـــة الإنسان وتغييب الأفكار، إضافة إلى أن غياب عالم الأفكار يخـــرج أصحابه من دائرة التفاعل الثقافي والمساهمة الحضارية والتداول المعرفي، ويجعلهم بدل ذلك محلاً للنفايات الحضارية، ويحول المجتمع من شريك حضاري إلى زبون تجاري، وبذلك يتحول المال والإمكان المادي لصالح (الآخر)، يوظفه لنهوضه وإنتاجه في المحصلة النهائية.

ولا شـــك أن بلاد الجزيرة العربية تختلف تاريخياً عن غيرها من سائر الأرض، ليس فقط لما كانت محلاً له من النص الإلهي السليم الخالد، والبيان النبوي المعصوم، والتنـــزيل للقيم على واقع الناس، ذلك أن كل حبة رمل تحمل تاريخاً وفكراً وعبرة ودلالة، وكل غار وجبل وسهل وشجرة وشعب وبئر وماء وطريق وموطن وبيت، ينطق ويستدعي الوعي ويثير الفاعلية ويحيي الذاكرة ويجدد المعاني الغائبة.

إن بـــلاد الجزيرة العربية تمتلك -كما أسلفنا- النص الخالد الذي انتهى إليه تاريخ النبوة، وتمتلك الإرث التاريخي للنبوة، وتمتلك البيت الحرام قبلة المسلمين في العالم، حيث يبدأون نهارهم ونشاطهم بالتوجه إليها، ويتابعون الوجهة خمس مـــرات يومياً، لتبقى اليقظة مستمرة والمعاني حاضرة، ويختتمون يومهم بالتوجه إلـــيها أيضـــاً، ويصرون على هذا التوجه حتى بعد الموت فيوضعون بقبورهم مـــتوجهين صـــوب القبلة، إنهم بذلك إنما يتوجهون صوب العقيدة، واستمرار تغذيتها بالعبادة اليومية، حتى جُعل التأمل في البيت الحرام (الكعبة) عبادة.

إنهم لا يتوجهون إلى أشياء ووثنيات، إنما يتوجهون إلى أفكار وقيم وثقافات

ومحـــركات اجتماعـــية.. يتوجهون صوب الهدف الأعلى، في محاولة للاسترداد وإعادة التأهل! ذلك أن المشروعية العليا في بلاد الجزيرة العربية سوف تبقى للقيم الإســـلامية.. حتى أن الشيطان، من الإنس والجن قد يئس، كما أخبرنا الصادق المصـــدوق، من النيل من هـــذه القيم، ومن حملة هذه القيم، لكن ذلك لا يعني الكـــف والتوقف، فالتحرش مستمر، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـــال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[1].. وفي حجة الوداع قال ﷺ: «... **أَلا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَدًا وَلَكِنْ سَيَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَيَرْضَى بِهَا...**»[2].. والمحاولات مستمرة.. فكيف نحاصر هذا التحرش من خلال التنبه لخطورته، وإعداد العدة لمواجهته وإدراكه؟

إن المعـــاني الـــتي تحملها الكعبة قادرة على تحريك الناس في أطراف الدنيا يومياً، هذا الأمر الذي لم يتحقق لأية عقيدة أو فكر أو ثقافة.. فكيف نستوعب هـــذه الحـــركة؟ وكيف نرشدها لتبلغ أهدافها؟ وكيف نقودها إلى الخير، وهي رصيد جاهز؟

إن المسلم يجتهد في جمع المال، ولو على حساب نفقته واستهلاكه ليختصر مسافة الزمان والمكان بينه وبين مهبط الوحي، ويذهب إلى الحج، ليرى البيت، ويعـــيش في رحابـــه، ويسترجع تاريخه.. يطوف بالبيت عكس حركة الدوران وحـــركة عقـــارب الســـاعة، ليسترجع الماضي ويعيش أجواءه، ويجدد العزم، ويتجدد في عقله ونفسه وسلوكه.

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص، وحسنه الألباني.

إن هـــذه المواقـــع هي الرحم الروحي والثقافي والعقيدي، الذي يعد ويعيد الداخلين إليه، القاصدين له بالحج والعمرة، بولادة جديدة: « مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].. فالجزيرة محل للتجديد والتجدد وإعادة الولادة، وتجديد العزم والعزيمة، ومراجعة النفس وشحذ الفاعلية للإقلاع من جديد، انطلاقاً من الإنسان المولود الجديد.

إن هـــذا الرصيد العالمي المتحرك بهذه القيم وهذه الأفكار، بحاجة إلى إعادة النظر والتأمل، للإفادة من حركته لصالح الإنسان من أهل القبلة، وأقصد بذلك أهل الجزيرة العربية، على الرغم من أن القبلة ملك للمسلمين جميعاً، فقد جعلها الله للـــناس، سواء العاكف فيها والباد، بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ (الحج:٢٥)، إلا أن المسؤولية هنا أكبر.

فـــإذا أبصرنا هذه الطاقات الروحية والفكرية والثقافية الهائلة، وهذه القيم السماوية الهادية، التي تحرك جميع أطراف الدنيا صوب الجزيرة، وأبصرنا ما حبا الله به بلاد الجزيرة العربية من الطاقات والخبرات والإمكانات المادية، التي تحرك عجلة الحضارة العالمية وتغذي تراثها، أدركنا الدور الممكن والمنوط ببلاد الجزيرة العربية عندما تكون في مستوى تاريخها وإسلامها وعصرها.

ولعـــل من أهم المقومات والعوامل المؤهلة لهذا الدور الرسالي، والاستئناف الحضـــاري، واسترداد الفاعلية، إضافة إلى ما أشرنا إليه من الإمكان الحضاري المـــادي والـــروحي، وجود عوامل مشتركة، وتجانس متميز، ونسيج اجتماعي

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري، وفي رواية لمسلم: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه».

متماسك، وجغرافيا واحدة تقريباً، الأمر الذي لم يتوفر للكثير من المواقع التي تحاول اليوم أن تبني جغرافيا ثقافية فكرية للتعويض عن الجغرافيا البشرية.

إن بلاد الجزيرة العربية تمتلك الجغرافيا الفكرية والثقافية والاجتماعية والبشرية، كما الجغرافيا التاريخية أيضاً.

فالعقيدة واحدة، والعادات واحدة، والوحدات الاجتماعية واحدة، والتاريخ واحد، والعدو واحد، والنظام الاجتماعي والتقاليد والعادات واحدة، ونعم الله موفورة ومذخورة، وجسور التواصل والعطاء موجودة، والمسؤولية أمام الله عظيمة وكبيرة، عن الذات وعن (الآخر)، فإذا توقف الرأس عن التفكير فسوف تطيش سهام الحواس وتتناكر، وإذا توقف القلب عن الضخ تجف الشرايين وتتوقف الحياة، والجزيرة تاريخياً في موقع القلب وموطن الرأس من العالم الإسلامي والعالم.

والسؤال الكبير المطروح على المستوى السياسي والثقافي والفردي والمؤسساتي على هذه الأرض خاصة:

من نحن في التاريخ؟

وأين نحن في الواقع المعاصر؟

وماذا نريد أن نكون في المستقبل؟

وكيف نحقق إرادتنا في التغيير وأهدافنا في الواقع؟

كيف نصوب شهادة الرسول ﷺ علينا، لنتأهل ونصبح شهداء على الناس؟

فالقضية ليست بالادعاء، وإنما بالعطاء، استجابة لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾.

النظام الإقليمي الخليجي

الشيخ الدكتور فهد بن عبد الرحمن آل ثاني(*)

إن المشكلة التخطيطية التي تعاني منها بعض دول المجلس، هي عدم الإفادة الكاملة من العقول المؤهلة، التي أنفقت عليها مليارات الدولارات، خشية على نفوذها من التقلص، لكن عزاؤنا الوحيد هو اتجاه بعض القيادات لإعطاء الفرصة للمشاركة الشعبية وتشكيل مجالس منتخبة.

تمهيد:

هذه الأمة هي أمة الخير والحق، والذي يسير على طريق الخير والحق لابد أن تقف في طريقه شياطين الإنس والجن لتثنيه عن مسيرة الخير المباركة، ولكن المؤمن الحقيقي الذي يريد أن يساهم في بناء الأمة الإسلامية، لابد أن يكون عنده عقيدة وإرادة قوية، تتصدع منها جبال الظلم والكفر والفساد.

ومن أفضل الروايات التي قدمها لنا الإسلام لقوة الإرادة هي قصة ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما منذ طفولتها ومساهمتها في دعم المجاهدين العظيمين سيد البشرية جمعاء رسول الله ونبيه محمد ﷺ ووالدها

(*) باحث أكاديمي.. جامعة قطر (دولة قطر).

أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما كانا في غار ثور، مختبئين من إمبراطورية الكفر، في طريق الهجرة العظيمة، التي غيرت مجرى التاريخ، من مكة إلى يثرب.

وعندما بلغت أسماء ما يقارب المائة سنة، سطرت في التاريخ ملحمة عظيمة، سوف تخلدها إن شاء الله تعالى إلى يوم يبعثون، وهي:

عندما حاصر الحجاج قائد جيش بني أمية ابنها عبد الله بن الزبير في مكة، وخذله الناس حتى أهله وولده، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال، ذهب عبد الله إلى والدته أسماء يستشيرها في عرض بني أمية، فقالت أسماء العظيمة لابنها عبد الله العظيم:

«يا ولدي، إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار، ولا فعل من فيه خير. كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقنع به يا ابن الزبير، والله لضربة بسيف في عز أحب إلي من ضربة بسوط في ذل». فمضى عبد الله بن الزبير كما أوصته والدته واستشهد، ومثل بجثته، وصلبت في مكة، وذهبت أسماء إلىالحجاج وقالت له: «أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟» وحدثت مشادة كلامية بين أسماء والحجاج، فقال الحجاج لأسماء: «اذهبي فإنك عجوز خرفت»، فقالت أسماء للحجاج: لقد سمعت الرسول يقول: «**يخرج من ثقيف كذاب ومُبير (مُهْلك)، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المهلك فأنت هو**[1]»[2].

(١) وفي صحيح مسلم: (... أمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلا إِخَالُكَ إِلا إِيَّاهُ...).

(٢) عباس محمود العقاد، عبقرية الصديق (بيروت: منشورات المكتبة العصرية) ص١٤٩.

الأحـــداث المذكورة حدثت في خير القرون الهجرية، إذًا ماذا تتوقعون بعد خمسة عشر قرناً للهجرة، ونحن في قمة قرون الهرج والمرج؟ طبعاً أنا على يقين بأن الأغلبية سوف تقول: لن نستغرب إذا رأينا في هذا الزمان الكذاب، والمهلك، والمفجع، والمفقر، والمتسلق، والمفتون بنفسه، ورغم هذا كله لابد لنا من وقفة مع أنفســـنا، لا ننكر وجود أصحاب هذه الصفات المشينة بيننا، ولكنهم والحمد لله قلة، ودليلنا على ذلك ما قاله الرسول ﷺ:

«لا تَـــزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»(١).

ربما يفتن بعض منا بعظمة أسماء رضي الله عنها، أقول لهم: لا تستغربوا ذلك فإنها ابنة العظيم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، واضع الجيوبوليتيكا الإسلامية، الذي قال عنه ابن الدُّغُنَّة عندما كان أبو بكر من المرشحين للهجرة إلى الحبشة لاتقاء إيذاء إمبراطورية الكفر، فذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر وأجاره، أي أعطاه الأمـــان، وطلب منه أن لا يهاجر إلى الحبشة، وقال ابن الدغنة عن أبي بكر: «إن مـــثلك يـــا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمـــل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك»(٢).

أمـــا التصور الجيوبوليتيكي للفتوحات الإسلامية عند أبي بكر رضي الله عنه، فنستطيع أن نستشفه مما أوصى به جيش أسامة، حيث قائلاً:

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) العقاد، مرجع سابق، ص٨٧.

«... إِنَّــكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّه فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ فَاضْــرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ.. وَإِنِّي مُوصِــيكَ بِعَشْــرٍ: لا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلا صَبِيًّا، وَلا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْــمِرًا، وَلا تُخَــرِّبَنَّ عَامِــرًا، وَلا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلا بَعِيــرًا إِلاَّ لِمَأْكَلَةٍ، وَلا تَحْرِقَنَّ نَحلاً وَلا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلا تَغْلُلْ، وَلا تَجْبُنْ»[1].

ما أوصى به أبو بــكر رضي الله عنه قبل خمسة عشر قرناً يمثل خــلاصة مــا توصــلت له جامعــات العالم المتقدم من علوم الجيوبوليتيكا، والسياسة، والاستراتيجية العسكرية، والقانون الدولي، والبيئة، وحقوق الإنسان.

واعتقد بأن علينا أن لا نستغرب ذلك، فأبو بكر رضي الله عنه خريج مدرسة محمــد ﷺ العظيمة.. ومن أقوال الرسول ﷺ والتي يعمل بها الغرب المتقدم أيضاً هي: «**إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**»[2].

أما بالنسبة للأمة الإسلامية فتركت التعاليم والأيديولوجيا العظيمة التي جاءت مــن السلف، وذهبت تلهث وراء الغرب والشرق لكي تجد لها مكاناً في التاريخ الحديث والمعاصر، ولا نستطيع أن ننكر أنها وجدت مكاناً بالفعل، ولكن للأسف في مؤخرة الأمم.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه.

نشأة الدولة العربية والإسلامية:

بقيادة الرسول تأست الدولة الإسلامية في المدينة المنورة (يثرب) عندما أذن الله له ولأصحابه رضوان الله عليهم بالهجرة إلى يثرب بعد أن هدى الله مجموعات من أهل المدينة، من الأوس والخزرج وغيرهم، في بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية.

وبعد أن استقر الرسول الكريم في يثرب بدأ تأسيس الدولة العربية الإسلامية والإعلان عن مبادئها من مؤاخاة بين المسلمين وعدل وعهود من غيرهم بالمحافظة معاً على كيان الدولة وتوزيع الحقوق والواجبات، وتم كل ذلك من خلال المسجد الذي كان مقراً للحكم والعبادة وتلقي العلم وإعلان الحرب وترتيب العلاقات المحلية والخارجية.

وفي عهده ﷺ بدأت الدولة في الاتساع وخاصة بعد أن من الله على المسلمين بفتح مكة ودخول العرب أفواجاً في دين الله، في السنة الثامنة للهجرة، وكذلك أثناء فترة صلح الحديبية الذي كان انتصاراً، حيث ازدادت مراسلات ودعوات الرسول الكريم ﷺ مع القبائل العربية والأطراف الأخرى في الجزيرة العربية، وكذلك في أجزاء من إفريقيا[1].

وقد اتسعت الأرض الإسلامية دون عودة للانكماش في عهد الرسول القائد ﷺ حتى شملت جميع الأرض العربية من اليمن جنوباً إلى الخليج العربي شرقاً، ودخول قبائل عربية أخرى في شمال الجزيرة العربية، وخاصة أثناء غزوة تبوك

(١) صالح حسن، البلدان الإسلامية في قارة آسيا، في كتاب: فتحي عثمان (محرراً)، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٩م، ص٤٨-٥٢.

وبعدها في السنة الثامنة للهجرة، والتي تعتبر آخر غزوات الرسول ﷺ، حيث تحقق مـــنها تأمين الحدود الشمالية مع الروم، وبوفاة الرسول ﷺ في السنة الحادية عشرة من الهجرة، كان الإسلام قد تربع على جميع شبه الجزيرة العربية.

فعـــلى ســـبيل المثال قبل أهل عمان والبحرين الإســـلام عندما دعـــاهم نبي الهـــدى ﷺ إلـــيه عن طريق رسوله أبو العلاء الحضرمي رضي الله عنه، والذي أوصل رسالة منه ﷺ إلى المنذر بن ساوي.

وقد اضطلع أهل الخليج وعمان بدورٍ مهمٍ في الدعوة إلى الإســـلام ونشره في فـــارس وإفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا في فترات تالية عن طريق التجارة على وجه الخصوص.

وعـــندما قبل أهل اليمن الإسلام ديناً لهم ومحمداً رسولاً، بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه يعلمهم أمور دينهم ودنياهم على نهج المصطفى ﷺ.

وفي حجـــة الـــوداع في السنة العاشرة، كما تقول الروايات، وصل عدد الحجـــاج إلى أكثر من (١٠٠) ألف، من كل أطراف شبه الجزيرة العربية ومن كل القبائل المنتشرة بها.

والمســـاحة المقـــدرة التي كانت تؤمن بالإسلام في تلك المرحلة قد تكون مساحة الجزيرة العربية والتي تقارب (٣) ملايين كيلو متر مربع.

التنمية في دول مجلس التعاون:

التنمـــية عبارة عن ممارسة الإنسان لأنشطة وفعاليات اقتصادية واجتماعية بصورة منظمة فـــي الحيز المكاني، وبهدف التخطيط إلى تحقيق تنمية تطبق أفضل

مـــا هو متاح من معرفة بقصد السيطرة على تيار التغيير وتوجيهه لضمان أفضل المكاسب الاجتماعية والاقتصادية.

إلا أن الـــنظام الإقلـــيمي لدول مجلس التعاون الخليجي يعاني من إخفاقات مـــتعددة في المجـــالات السياســـية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية والتكنولوجـــية في الوقت الحاضر. وعلى سبيل المثال هناك مؤشرات تدل على الإخفاق الاقتصادي، نذكر منها ما يلي:

- اخـــتلال البنية الإنتاجية، نتيجة ضعف أداء النمو الاقتصادي وانخفاض الإنتاجية الزراعية والصناعية.

- اخـــتلال الـــتوازن بين قطاعات الإنتاج السلعي وبين قطاعات التوزيع والخدمات، لصالح الأخيرة.

- اختلال الأمن الغذائي والأمن المائي.

- لا تـــزال دول المجلس تعتمد على النفط والغاز الطبيعي، أي على تصدير المواد الأولية بشكل كبير.

- يـــؤدي ضعف القاعدة الإنتاجية في دول المجلس إلى زيادة اعتمادها على الأســـواق الخارجية في استيراد معظم السلع اللازمة لسد الحاجات الاستهلاكية والإنتاجية والاستثمارية الخليجية.

- لا يتناسب الوضع الراهن للعمالة الوطنية الخليجية مع القدرات والطاقات الهائلـــة الـــتي تتطلبها احتياجات العمل، الأمر الذي يجعلها تعتمد على العمالة

الأجنبية مع ما يترتب على ذلك من إيجاد عدم التوازن السكاني واحتمالية الإخلال بالأمن والاستقرار في دول مجلس التعاون الخليجي.

- الانعكاسات السلبية للعولمة على الاقتصادات الخليجية من حيث تحرير التجارة العالمية وانفتاح الأسواق العالمية على بعضها بعضاً في ظل إزالة الحماية الجمركية تدريجياً، وتعرض المنتجات الخليجية لتحديات المنافسة في الأسواق، وهيمنة الشركات الكبرى الأجنبية وبخاصة الشركات متعددة الجنسيات على الأسواق.

وعلى الرغم من الإخفاقات سالفة الذكر، إلا أن هناك جوانب إيجابية يمكن أن تشجع على دعم المسيرة التنموية الخليجية ودفعها إلى الأمام. فقد سجلت أسعار النفط تزايداً في عام ٢٠٠٠م، مع ما يترتب على ذلك من زيادة في حجم الإيرادات المالية التي تسهم بدورها في نمو قيمة الناتج المحلي الإجمالي لدول مجلس التعاون الخليجي، مقابل ذلك يلاحظ من بيانات الأسعار في دول المجلس، أن معدل التضخم قد انخفض بدرجة ملحوظة في السنوات الأخيرة.

ويستدل من الاتجاهات الحديثة القائمة بدول المجلس على أن هناك سياسة متبعة لتقليص دور الدولة الاستثماري والاعتماد المتزايد على دور القطاع الخاص.

وفي مقابل ذلك قامت دول المجلس بتحسين مناخ الاستثمار لديها، والإسراع في تخفيف القيود الاقتصادية، وتبسيط إجراءات منح تراخيص الاستثمار، وتكثيف الجهود لجذب رؤوس الأموال العربية والأجنبية.

من أهداف خطط التنمية لدول مجلس التعاون الخليجي:

يمكن القول بشكل عام: إن خطط التنمية لدول المجلس تهدف إلى ما يلي:

١- تنمـــية وتهيئة المواطن اجتماعياً وثقافياً وصحياً حتى يتمكن من مواكبة متطلبات التنمية الحديثة.

٢- التأكـــيد عـــلى أهمية المبادرات الفردية ودور القطاع الخاص في عملية التنمية، ودور الحكومة في توجيه هذا القطاع وتشجيعه.

٣- التنسيق والتكامل وتقليل التباين في مختلف المجالات الحيوية.

٤- ترشـــيد الإنفـــاق العـــام وتنمية الأنشطة الاقتصادية الأولية والثانوية والثالثة.

٥- إيجاد قاعدة ذاتية أصلية للبحوث والعلوم التطبيقية والتقنية.

٦- العمل على مشاركة المستفيدين في تحمل تكاليف إنتاج الخدمات.

٧- تحقيق الترابطات الخلفية والأمامية للصناعة.

وعـــندما نقـــارن بـــين أهداف التنمية الشاملة في دول الخليج، والأهداف الأساسية الاستراتيجية الموحدة للتنمية الصناعية في الخليج أيضاً، سوف نجد أنها مـــتحدة في العناصـــر تقريـــباً، غـــير أن الأهداف الأساسية تعطي بعداً أكثر للاستراتيجية الصناعية في الخليج العربي، ونستطيع أن نضيف للأهداف المذكورة هـــذا الهـــدف الذي يشير إلى أن من استراتيجيات التنمية الصناعية في الخليج تشـــجيع توطين الصناعات في المناطق الأقل نمواً، وهذا يعتبر عاملاً سياسياً عند اختيار الموقع الصناعي.

أولويات الاستراتيجية الموحدة للتنمية الصناعية في الخليج العربي:

ولعل من المناسب أن نشير إلى إعطاء الأولويات التالية أهمية أثناء النظر في استراتيجية التنمية الصناعية:

١- التركيز على الصناعات التي تقوم على استغلال وتطوير الموارد الطبيعية المتوفرة في الخليج العربي.

٢- التركيز على الصناعات القادرة على المنافسة والنمو في الأسواق المحلية والعالمية.

٣- تنمية الصناعات الخليجية التي تؤدي إلى التكامل والتشابك في السلاسل الإنتاجية.

٤- التركيز على تنمية صناعات خليجية صغيرة ومتوسطة، وتكون مرتبطة بالصناعات الكبيرة، وذلك سوف يؤدي إلى وصول الخليج إلى مصاف الدول الصناعية.

٥- التركيز على مشاريع التكامل الصناعي ما بين دول الخليج، ويمكن ترسيخها من خلال الاستثمارات الصناعية الخليجية المشتركة[1].

---

(١) تشكل قضية التنمية في دول مجلس التعاون الخليجي (مركز القلب بالنسبة للعالم الإسلامي)، والمفهوم الاستراتيجي لتخطيط التنمية، الهاجس الدائم للباحث، الأمر الذي دعاه إلى وضع دراسة بعنوان: «استراتيجية التنمية في دول مجلس التعاون الخليجي» عرض من خلالها لرؤيته في العمل التنموي، وتعرّض لإخفاقات التنمية في المجالات المتعددة، كما اجتهد في وضع أهداف للخطط التنموية التي تحدد التوجهات الرئيسة وتشكل نقاط الارتكاز لأية عملية تنموية؛ إضافة إلى اهتمامه بقضايا الأمة المسلمة بشكل عام، حيث وضع كتاباً بعنوان: "العالم الإسلامي.. دراسة جيواستراتيجية وجيوبوليتيكية"، حيث رأينا أنه من المفيد إغناء المساهمة بإضافة تمهيده للكتاب الثاني، إضافة للمفهوم الاستراتيجي للتنمية وأهداف الخطط التنموية، كما جاءت في كتابه الأول (الناشر).

النظام الإقليمي الخليجي

إن التاريخ العالمي على مدى أكثر من خمسمائة ألف سنة، شهد أكثر من مائة وخمسين ألف حرب، بمعدل حرب واحدة كل ثلاث سنوات.. وشهد العالم في القرن العشرين، حربين كونيتين، كان ضحايا الأخيرة منها ما يزيد على أربعين مليون نسمة.. وفي النصف الأخير من القرن العشرين، شهد العالم ما يزيد على مائة وثمانين حرباً، بلغت ضحاياها أكثر من ثلاثين مليون نسمة[١]. ومعظم هذه الحروب نتجت بسبب طمع الكبار في ضم الصغار، أو سلب مواردهم.

ومن خلال هذه الدراسة، سوف أسلط الضوء على أهمية وضع تصور بالنسبة لمجلس التعاون الخليجي، من ناحية استراتيجية ومؤسسية، وسوف تلاحظون هنا أننا سوف نقوم بتجنب الخوض في بعض المواضيع عن دول مجلس التعاون الخليجي، كالجوانب السكانية والحضارية والاقتصادية، حيث تناولناها في أكثر من دراسة سابقة[٢].

ولقد حاولت أن يكون جل اهتمامي منصباً على الكيفية التي نشأ بها مجلس التعاون الخليجي.. ولمعرفة ذلك، لابد من التركيز على البعد المحلي، والإقليمي، والقومي، والعالمي بالنسبة لدول الخليج العربية.

فمنذ انطلاق مرحلة الكشوف الجغرافية الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي، أصبحت منطقة الخليج من المناطق المهمة في مسرح السياسة العالمية،

(١) عبد الخالق عبد الله،النظام الإقليمي الخليجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٢٤.
(٢) فهد آل ثاني، دراسات في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٠م.

فنلاحظ الصراع بين القوات المختلفة في الخليج، مثل: البرتغاليين، والهولنديين، والفرنسيين، والبريطانيين.. وفي الفترة الأخيرة، أي منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، أصبحت بريطانيا القوة الرئيسة المسيطرة في الخليج، وتعود أهمية ذلك إلى أن الخليج يعتبر الحلقة الرابطة ما بين المستعمرات البريطانية في الغرب الآسيوي، والشرق الآسيوي[1].

ومع أن الأمم تتقلص وتتفاقم همومها، إلا أن مشكلة الخليج المزمنة، التي نلاحظها في الأزمنة المختلفة، هي مشكلة المحافظة على أمن واستقرار المشايخ الخليجية، ووضع سيناريو لتحقيق ذلك. ففي اتفاقية الهدنة بين إمارات الساحل الغربي للخليج وبريطانيا عام ١٨٥٣م «تعهد الحكام فيها ألا يشنوا حرباً بحرية فيما بينهم»، وأعطت هذه الاتفاقية بريطانيا الحق في أن تتولى أعمال الشرطة على السواحل الخليجية. كما تولت بريطانيا أيضاً الشؤون الخارجية للإمارات الخليجية، وكانت حينئذ عشراً هي: الكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات السبع (المشكلة للإمارات العربية المتحدة حالياً).

وعموماً، تلى اتفاقية الهدنة البريطانية توقيع اتفاقية الحماية البريطانية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الاتفاق الأنجلو تركي، الذي نصت المادة الحادية عشرة للميثاق على أن تتنازل تركيا عن قطر، ويبقى حكمها عند الشيخ جاسم بن محمد (رحمه الله) وخلفائه من بعده (في ٢٨ يوليو ١٩١٣)، كما تتعهد بريطانيا بحماية قطر ضد أي اعتداء خارجي.. ثم تلتها اتفاقية الحماية ١٩١٦م

(١) محمد الفيل، الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨م.

الموقعة ما بين الشيخ عبد الله بن جاسم (رحمه الله) والحكومة البريطانية.. وكانت اتفاقية الحماية لإمارات الساحل المتهادن تسبق قطر بقرن تقريباً، عام ١٨٢٠م[1].

وبعد هذه الاتفاقيات الأمنية، بقي الوضع الأمني في الخليج هادئاً على أقل تقدير من غزو القوات الإقليمية الكبرى نسبياً، وإن بقي نوع من الصراع الداخلي ما بين الإمارات الخليجي، ولكن غالباً ما يكون تحت السيطرة البريطانية، وإن كان البعض يتهمها بإشعاله تارة وإخماده تارة أخرى. واستمر هذا الوضع السياسي والأمني إلى الستينيات من هذا القرن، حين أعلنت بريطانيا عن رغبتها في الانسحاب من الخليج، وقد شكل ذلك هزة بالنسبة للقوة الحليفة الأخرى في الناتو، والتي تعتمد على التوازن الاستراتيجي في المنطقة من خلال وجود المملكة المتحدة.

ومنذ إعلان حكومة هارولد ويلسون العمالية الانسحاب من الخليج، بدأ الحديث عن فراغ سياسي في الخليج، تزامن معه العديد من الدعوات بضرورة ملء الفراغ المحتمل من خلال إيجاد ترتيبات أمنية في المنطقة تهدف على:

١- الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة.

٢- المحافظة على الوضع السياسي القائم.

٣- ضمان وصول إمدادات النفط.

٤- صد أي هجوم محتمل على المنطقة.

٥- محاربة انتشار الأيديولوجيات المضادة للمصالح الغربية في المنطقة.

---

(١) أحمد الشلق، تطور العلاقات السياسية بين قطر وبريطانيا (١٩١٦م-١٩٣٥م)، سلسلة دراسات الشرق الأوسط، العدد ٢٤، القاهرة، ص١.

ومـــن هـــنا كان على المملكة المتحدة تسوية الأوضاع قبل انسحابها من الخليج، فكان من السيناريوهات التي وضعت لضمان أمن الخليج العربي أنه لابد من تشكيل اتحاد كونفدرالي أو فيدرالي ما بين الإمارات الخليجية، حتى تستطيع حماية نفسها.. ويقوم هذا التصور على أن يكون هناك ما بين المشايخ الخليجية التســع ممــثلين بقطــر والبحرين والإمارات السبع (المشكلين لدولة الإمارات الحالــية). وقد تــم التقارب وتوقيع الاتفاقية ما بين هذه المشايخ بالفعل فــي ٢٧ فبراير ١٩٦٨م[1]. ولكن لم تنجح هذه الفكرة كاملة ، ويعود ذلك لعدة أسباب منها:

١- احتجاج بعض القوى الخليجية الكبرى نسبياً على قيام هذا الاتحاد.

٢- مشكلة الزعامة الاتحادية.

٣- منهم من يؤيد تشكيل مجالس تشريعية منتخبة، ومنهم من يرفضها.

٤- الاختلاف على موقع العاصمة الاتحادية.

٥- ما موقف الاتحاد إذا احتلت دولة أو جزء من دولة؟

٦- بالإضافة إلى الخلافات القائمة ما بين هذه الدول على الحدود وغيرها.

٧- ما الطريقة التي سوف تُعتمد بها ميزانية الاتحاد؟

٨- البعد المكاني بالنسبة لبعض الإمارات الاتحاد نسبياً.

كل هذا أدى إلىعدم نجاح فكرة قيام فيدرالية ما بين الإمارات التسع. وبعد ذلــك، في ١٩٧١/٩/٣م، أعلنت دولة قطر استقلالها، وأعلنت دولة البحرين

(١) حسن العلكيم، الأمن والاستقرار في منطقة الخليج،المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، رأس الخيمة، العدد٣، يناير ١٩٩٩م.

استقلالها، وتشكل اتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة من الإمارات السبع (أبو ظبي، دبي، الشارقة، رأس الخيمة، عجمان، الفجيرة، وأم القوين)[1]. وهذا يعطينا مثالاً على أن فكرة الاتحاد والتحالف ما بين دول الخليج، سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عن طريق القوى الأجنبية موجودة منذ القرن التاسع عشر، وتطورت الفكرة ووصلت إلى قمة نضجها، في العقد السادس من القرن العشرين الميلادي، من خلال بريطانيا، ولكن للأسف لم ينتج عن ذلك إلا اتحاد الإمارات العربية.

أما بالنسبة لدور بريطانيا في المنطقة، فإنها رغم محاولتها وضع سيناريو استراتيجي لأمن منطقة الخليج العربي، إلا أنها أثبتت فشلها في احتواء الكثير من الأزمات الإقليمية والقومية قبل تفاقمها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

١- الشعور العربي الإسلامي الدائم بأن المتسبب الأول في ضياع فلسطين هو بريطانيا.

٢- بروز المد القومي العربي.

٣- فشل العدوان الثلاثي على مصر.

٤- انهيار حلف بغداد.

٥- أحداث اليمن.

٦- الثورة الظفارية في عمان.

أما أسباب خروج بريطانيا من المنطقة، من ناحية عالمية، فيعود إلى:

---

(١) محمد إدريس، النظام الإقليمي الخليجي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٤٢٩.

١- مــن الناحــية الجيوبوليتيكية، انتهى دور الدول النووية (مثل بريطانيا) بســبب نضــج القوميات في المستعمرات، وبدء بروز دور الدول القارية مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق.

٢- ضغوط حزب العمال البريطاني على حكومته للانسحاب.

٣- الــتدهور الاقتصــادي الذي أصاب بريطانيا وشروط صندوق النقد الدولي بتخفيض العملة.

٤- ميزانية التقشف الحادة في بريطانيا أواخر الستينيات.

ولاستيعاب الانسحاب البريطاني من الخليج كل لا بد من وجود قوة عالمية حليفة لملء الفراغ الذي سوف تتركه بريطانيا في المنطقة، والمرشح الوحيد لهذا الدور هو الولايات المتحدة الأمريكية لما لها من مصالح اقتصادية واستراتيجية في مــنطقة الخلــيج العــربي، ولكن الولايات المتحدة في هذه الفترة لم تكن تريد الدخــول المباشر في شؤون الدول الأخرى، وذلك بسبب الضغوط التي تتعرض لها الحكومة الأمريكية من الكونغرس بسبب الفشل الأمريكي الذريع في فيتنام، وتــبني الكونغــرس قرار الحد من صلاحيات الرئيس في إرسال قوات أمريكية للقتال خارج الأرض الأمريكية دون الموافقة المسبقة للكونغرس.

وبالتالي، لجأت الولايات المتحدة، في سياستها مع الخليج، إلى إنشاء قاعدة خليجية محلية تستطيع أن تحمي نفسها بنفسها، وذلك من خلال مبدأ العمودين المتساندين، وذلك بقيام تنسيق ما بين الحليفين الاستراتيجيين للولايات المتحدة والمتمــثلين في المملكــة العربية السعودية من ناحية وإيران من ناحية أخرى[1]. والمقصود هنا هو صد أي هجوم شيوعي من دول الشمال المركزي.

---

(١) إدريس، مرجع سابق، ص٤١٣.

وفي عـــام ١٩٧٦م كان هناك مشروع أمريكي لقيام منظومة خليجية تضم جمـــيع الدول المطلة على الخليج بما فيها إيران والعراق، تكون مسؤولة عن أمن واســـتقرار المنطقة[1]، ولكن جميع التصورات الأمريكية للمنطقة تأثرت بشكل كـــبير بعد قيام الثورة الإسلامية الإيرانية في أواخر السبعينيات، وأصبح الخليج منقســـم إلى ثلاث أيديولوجيات متناحرة ممثلة بالثورة في إيران، ونظام البعث العـــربي في العـــراق، والأنظمة الملكية في دول الخليج العربي.. لذلك أصبح من الصعب وجود أي تنسيق استراتيجي ما بين هذه الدول لمواجهة الخطر الشيوعي مـــن الاتحاد السوفيتي السابق، بل الأسوأ من ذلك أصبحت كل دولة تحاول أن تحـــافظ على توازن معين حتى لا تلتهمها دول الجوار، وبعد ذلك قامت الحرب العراقـــية الإيرانـــية الـــتي استمرت فترة ثمانية سنوات، وانتهت عام ١٩٨٨م، وشـــكلت هـــذه الحـــرب هـــزة إقليمية كاملة لجميع دول المنطقة من الناحية الاســـتراتيجية السياسية، ومن الناحية الاقتصادية.. إلخ. وهذا يبرز لنا فشـــل مـــبدأ نيكســـون في المنطقة، ولم يبق لها إلا مبدأ كارتر الذي ينص على وجود قـــوات للتدخل السريع، وتعدد الخيارات، أي انضمام باكستان للنظام الإقليمي الخليجي، من الناحية الأمنية، وإنشاء قواعد عسكرية في المنطقة، وبالفعل نجحت بعض تصورات هذا المبدأ كما سنذكر لاحقاً.

وبالطـــبع، لم تبق القوة المضادة للغرب مكتوفة الأيدي بالنسبة للتصورات الأمنـــية لمـــنطقة الخلـــيج والمحيط الهندي بشكل عام، فهناك بعض التصورات للمدرســـة الشرقية المضادة للغرب ولكنها فشلت تقريباً بفشل النظام الشيوعي

(١) العلكيم، مرجع سابق، ص٧.

الاشـــتراكي بشكل عام منذ عام ١٩٩٠م. ولكن التصـــور الأمريكي الحقيقي ربمـــا نستطيع أن نستشفه من تصور المستشار الأمريكي الأسبق للأمن القومي بريجنســـكي من قوله: «إن منطقة الخليج تواجه تهديداً متصاعداً ناتجاً عن عدم قـــدرة أنظمتها المحلية الصمود أمام ضغوط التحديث من جهة، ومواجهة تهديد الانبعاث الإسلامي من جهة أخرى.. وأضاف بأن على الولايات المتحدة وضع سيناريو كامل للاستقرار المطلوب، وحماية مصالحها في المنطقة"[١].

أما بالنسبة لأهم المبادرات التي قام بها زعماء الدول الخليجية، إنشاء مجلس الـــتعاون الخليجي، وإن كان الكثير من النقاد يعللون قيام المجلس بوجود الهزات الأمنـــية في المنطقة، وبروزها بشكل واضح في عام ١٩٨١م، وهي نفس السنة التي أنشئ فيها المجلس، ومن هذه الأحداث:

١- الثورة الإيرانية وسياسة تصدير الثورة.

٢- الغزو السوفيتي لأفغانستان.

٣- الحرب العراقية الإيرانية[٢].

وعمومـــاً، كمـــا ذكرنا في دراسة سابقة، فإنه لابد من وجود محور أساس لنشـــأة المنظمات الإقليمية والدولية، ومن ثم فإن المنظمات نفسها تقوم بأدوار أخرى، وهو ما لم نلمســـه من مجلس التعاون، لا من ناحية المحور الأســـاس، ولا المحـــاور الأخرى، كما سنذكر لاحقاً. وعموماً جرى العرف على تقسيم الـــدول مـــن ناحـــية سكانية ومساحية إلى دول عملاقة، ودول كبيرة، ودول

---

(١) العلكيم، مرجع سابق، ص٢٦.

(٢) آل ثاني، مرجع سابق، ص٢٩.

متوسطة، ودول صغيرة، ودول صغيرة جداً. ولو قمنا بتقسيم دول المجلس على هذا الأساس لوجدنا أن معظمها يتأرجح ما بين صغير وصغير جداً.

وعلى ذلك، فإن الدراسة التي عرضها مركز الدراسات الاستراتيجية في النرويج بالنسبة للدول الصغيرة يمكن أن تكون من الخيارات الأمنية الآتية الممكنة لاستمرارها كمؤسسات سياسية:

١- أن تنأى بنفسها عن الصراعات القائمة مع الاعتماد على قوتها الذاتية، وهذا مستحيل بالنسبة لدول الخليج لأنها تمثل مطمعاً لعدة أسباب منها: قلة عدد السكان، وخاصة عندما تعتمد كلاً منها على إمكاناتها البشرية والذاتية؛ وجود الاحتياطي الهيدروكربوني الكبير؛ والموقع الاستراتيجي؛ وعدم استيعاب جميع شرائحها الاجتماعية للمساهمة في التنمية وخاصة المؤهلين منهم.

٢- أن تتحد الدول الصغيرة اتحاداً فيدرالياً أو كونفدرالياً، وهذا يمكن أن نلحظه من خلال تشكيل اتحاد الإمارات العربية عام ١٩٦٨م، ولكنه فشل نوعاً ما في ضم جميع الدول العشر الصغيرة في منظومة واحدة، كما كان متصوراً لها منذ عام ١٨٥٣م، فهي لا تستطيع أن تعتمد على قدراتها الذاتية منفردة، كما ذكرنا سلفاً.

٣- أن تنسق الدول الصغيرة مع دول إقليمية كبيرة قوية، وهذا أثبت فشله أيضاً من خلال محاولة التنسيق ما بين دول الخليج الصغيرة والدول الخليجية الكبيرة، وربما أسوأها احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠م،

٤- أن تغذي الصراع بين القوى الإقليمية لكي تنشغل عنها، وهذه من الاتهامات التي وجهت بعنف لدول المجلس خلال الحرب العراقية الإيرانية، ولكن

في الحقـيقة فـإن الصراع الإيراني العراقي هو صراع أيديولوجي وتاريخي أيضاً وموجود حتى قبل أن يكون لدول المجلس كيانات سياسية مستقلة.

٥- أن تـتحالف مع دولة قوية من خـارج المنطقة التي تنتمي إليها، وهذا ما يحدث بالفعل لجميع دول المنطقة، وإن كان قبل احتلال الكويت، كان هناك كتمان كبير على هذا الأمر، أما الآن فقد أصبح هذا التحالف علني، ووصل إلى مسـتوى تقـديم التسهيلات والسماح بإنشاء قواعد عسكرية للدول الأجنبية، وعلى رأسها الولايات المتحدة وروسيا والمملكة المتحدة وفرنسا.

٦- أن تـتحالف الـدول الصغيرة مع دول قوية داخل الإقليم ودول قوية خـارج الإقليم. وهذا ما نستطيع تطبيقه على دول المجلس الصغيرة بحيث يحاول بعضـها المحافظـة على علاقة قوية مع المملكة العربية السعودية، التي تعتبر دولة قويـة داخل الإقليم بالنسبة للدول الخليجية الصغيرة الأخرى، وفي نفس الوقت تلجأ الدول الصغيرة إلى تحالفات خارج الخليج، كما ذكرنا أعلاه[1].

وأحـياناً تلعـب الدول الصغيرة لعبة التوازن السياسي، وهذا الدور رأى الـبعض بأن الكويت هي أفضل من لعبته من خلال العلاقة الإقليمية مع القوى الإقليمـية الثلاث الكبرى، ممثلة في المملكة العربية السعودية، والعراق، وإيران، وهـو يتم من خلال المحافظة على علاقة ممتازة مع القوى الثلاث، وإن حاولت إحـدى القـوى أن تفرض عليها نفوذها أو الضغط عليها مالت أكثر للقوتين المتبقيـتين للاحتفاظ بالتوازن.. ونفس سياسة التوازن هذه اهتمت بها الكويت أيضـاً من خلال علاقتها العالمية ومحافظتها على توازن معين في علاقتها ما بين

(١) العلكيم، مرجع سابق، ص٢٠.

المعسكرين الغربي وعلى قمته الولايات المتحدة، والشرقي وعلى قمته الاتحاد السوفيتي السابق.

وأيضاً للكويت دور ثالث في معادلة التوازن من خلال تقوية علاقتها مع الدول الصغيرة في الإقليم وحثهم على تشكيل فرع من الاتحاد الفيدرالي أو الكونفيدرالي أو التحالف في مواجهة القوى الإقليمية الأخرى.

وعموماً، فإن لعبة التوازن هي من الألعاب التي تعطي الدول الصغيرة دوراً بارزاً في إقليمها السياسي، ويمتد ذلك إلى أن يكون لها دور في مسرح السياسة العالمية، ولكن هذه اللعبة كالخلطة السحرية التي متى ما اختل أحد مركباتها، تدفع الدولة ثمن ذلك غالياً.

ومن خلال لعبة الشد والجذب في إقليم الخليج على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، لم يستطع المجلس الخليجي أن يقدم حلولاً مرضية لحل مشاكل دول المجلس الآتية:

١- مشكلة الحدود.

٢- المشاركة السياسية.

٣- العمالة الوافدة.

٤- عدم التنسيق فيما بينها في المنظمات الدولية.

٥- عدم وضوح صورة التنسيق الاقتصادي.

٦- تخوف البعض من إنشاء جيش موحد.

٧- عدم إعطاء ضمانات مرضية وكافية للمواطن الخليجي من حيث العمل والاستثمار والتنقل.

٨- وأخـــيراً لم نســـتطع أن نستشف من هذا المجلس بعد مرور ما يقارب عقدين من الزمن أي محاولة للتوجه نحو الفيدرالية أو الكونفيدرالية.

وحـــتى التنسيق الأمني ما بين دول المجلس لا توجد له صورة واضحة، رغم كبر الإنفاق العسكري الذي يصل معدله في دول المجلس إلى ٢٤ مليار دولار، كمـــا هـــو في عـــام ١٩٩٦م، تقابله ديون تصل إلى ما يزيد على ١٠٢ مليار دولار، وعجز في موازنة دول المجلس يصل متوسطه إلى ٢٥%، ورغم هذا كله نلاحـــظ أن دول المجلس تعتمد في الناحية الأمنية بشكل شبه كلي على الدول الأجنبية، مع عدم مراعاة أي هزة في السياسة العالمية.

وفي عام ٢٠٠٠م، وبسبب ارتفاع أسعار النفط، كان يتوقع أن يصل الفائض في ميزانية دول مجلس التعاون إلى أكثر من ٢٢%، ولكن جل مخاوفنا تتركز على أن لا تصـــنع الدول المستهلكة للنفط سيناريو مضاد للدول المنتجة لكي تسحب فـــائض الميزانية، وخاصة إذا علمنا أن أكثر من ٢٥% من الطاقة النفطية المنتجة تســـتهلكه الولايـــات المتحدة الأمريكية التي تعتبر الخليج بحيرة خاصة لبوارجها العسكرية، ودائماً يقال: إن مشكلة دول الخليج مشـــكلة ســـكانية، وهي التي لا تعطي هذه الدول إمكانية لحمـــاية نفســـها، وأن كنتُ اختلف اختلافاً كلياً مع من يقول هذا القول.

ذلـــك أن مشكلة دول الخليج مشكلة تنظيمية وتخطيطية، أما من الناحـــية الســـــكانية فهـــي تبلغ ٢٦ مليون نسمة، وحتى لو قلنا: إن سكان الخليج يبلغ عددهـــم ٥٠ % من إجمالي هذا العدد فهذا يعني أن عددهم يصل إلى ١٣ مليون

نسمة، وأكثر من نصفهم من الشباب (ذكور وإناث)، أي مجموع الشباب لا يقل عن ٦,٥ مليون نسمة، وهل يعقل أننا لا نستطيع أن نجند ما يقارب ١٥% من هذا العدد، وسوف يكون لدينا مليون جندي حاملين للسلاح، والباقون يمكن أن يخضعوا لتجنيد إجباري لفترة زمنية محددة، أي في النهاية يوجد عندنا ما يقارب من ٦,٥ مليون نسمة جاهزين لحمل السلاح والدفاع عن أوطانهم.

وبالمقارنة مع إسرائيل، سوف نجد عدد سكانها لا يزيد عن ٦ مليون نسمة، وتعتبر القوة الأولى في الشرق الأوسط، وربما يصدر تساؤل هنا عن مجموعة من المفكرين يقول: لا وجه للمقارنة بين مجلس التعاون وإسرائيل، وسوف أقول لهم: احترم رأيكم، ولكن ماذا لو أجرينا مقارنة ما بين العراق عندما دخل الكويت في أغسطس ١٩٩٠م، وكان يومها عدد سكانه أقل من ١٨ مليون نسمة، ويقابله عدد سكان دول المجلس الآن ما يزيد على ٢٦ مليون نسمة، وكان العراق يعتبر يوم دخوله الكويت رابع أكبر قوة في العالم، ولكي يخرج من الكويت تم تحالف يجمع نحو ٤٠ دولة لإخراجه، وربما يقول بعضهم: إن هذا التحالف مظلة أمريكية لتعبئة الرأي العام العالمي ضد العراق، ولكنني سوف أختلف معهم هذه المرة؛ لأنه لإخراج العراق من الكويت في عام ١٩٩٠م، لم يكن أمام أمريكا سوى خيار من خيارين، إما استخدام أسلحة غير تقليدية، وهذا مرفوض تماماً على جميع المستويات، أو إنشاء تحالف دولي ضد العراق، أو أن يخوض الأمريكان حرباً لوحدهم، وحتى لو حققوا فيها النصر، إلا أنها سوف تكبدهم خسائر كبيرة.

إذاً، فالـنموذج العـراقي يمكـن أن يطـبق على دول المجلس من الناحية العسـكرية، مع مراعاة ظروف كل إقليم.. ولماذا لا نكون صريحين مع أنفسنا، فالعراق سخر شريحة كبيرة من موارده لقوته العسكرية، وأخرج جيشاً قوياً قبل كارثـة ١٩٩٠م، ونحـن سخرنا معظم مواردنا وعائداتنا للتمويل العسكري، وازداد ارتباطنا بالقوى الأجنبية للدفاع عنا.

ويمكـن أن اجتهد فأقول: إن المشكلة التنظيمية والتخطيطية التي تعاني منها دول المجلس هي عدم احترام العقول المؤهلة الموجودة لديها، والتي أنفقت عليها الـدول الخليجية مليارات الدولارات، فغالباً ما تنظر بعض الحكومات إلى هذه الكفـاءات بعـين من الشك والريبة، وقد تكون هناك فئة من الصفوة (Elite) تخـاف على نفوذها من التقلص فتحاول أن تقفل جميع الأبواب أمام مفكري الأمـة بـكل مـا أوتيت من سلطان، ولكن عزاؤنا الوحيد هو اتجاه بعض القـيادات الخليجـية لمحاولة إعطاء الفرصة للمشاركة الشعبية، وتشكيل مجالس منتخبة، وهذا كله سوف يدعم خطط التنمية والأمن في المنطقة.

وعمومـاً، نـرى أن مـن أفضل الدول الخليجية في المشاركة الشعبية هي الكويـت، التي بدأ فيها هذا العمل منذ عام ١٩٢١م، وتم تشكيل أول مجلس للأمة الكويتي عام ١٩٦٣م وربما هاجم بعضهم الكويت سابقاً وقال: إن مجلس الأمـة الكويـتي لم يعط الحق للمرأة لا في الانتخاب ولا الترشيح، ونرد عليهم بالسـؤال: هـل أعطيتم الرجل حقه حتى تفكروا في حق المرأة؟ وعموماً صدر أخـيراً مرسـوم مـن سمو أمير دولة الكويت سمح بمشاركة المرأة الكويتية في الانـتخابات الـبرلمانية القادمة، لكن البرلمان الكويتي رفض التصديق على هذا

المرسوم! وفي سلطنة عمان هناك مجلس شورى منتخب.. وفي الإمارات المجلس الوطـني بالتعيين.. وفي السعودية، أُسس أخيراً، بعد حرب الخليج الثانية، مجلس شـورى بالتعـيين.. وفي البحرين هناك مجلس وطني نصفه بالانتخاب ونصفه الآخر بالتعيين.. وفي قطر مجلس شورى بالتعيين.

وفي رأيي أن من الأعمدة الأساسية للتنمية في دول المجلس هو إنشاء مجالس تشريعية منتخبة، على أن تكون هناك فرصة لجميع المواطنين للمشاركة فيها من ذكـور وإنـاث، مدنيين وعسكريين، وجميع الفئات الاجتماعية بما فيهم أبناء الأسـر الحاكمة في دول المجلس. ومن نفس المجلس المنتخب في كل دولة يقوم أعضـاء هـذا المجلس بترشيح خمسة أعضاء من مجلسهم للمشاركة في البرلمان الخلـيجي، عـلى شـرط أن يتم التجديد لهم سنوياً أو استبدالهم من مجالسهم الأصلية، ومن خلال هذا التوجه يمكن أن ننشئ نواة لمؤسسة خليجية واحدة.

وأخـيراً، فـإن مستقبل المنطقة يرتبط بعملية السلام مع إسرائيل، فإذا نجح السلام كان هناك خيار، فإن لم ينجح فهناك تصورات أخرى.

وعمومـاً، بالنسبة للتصور الأول، وهو نجاح السـلام مع إسرائيل فسوف يلغـي كـل ما هـو قومي أو ديني من ناحية تنظيمية، وسوف يستبدل بمظلة الشرق الأوسط، وسوف يفرض على جميع الدول في نظام الشرق أوسطية تطبيق الديمقراطـية وإنشـاء مجـالس تشريعية منتخبة، ومن يرفض ذلك سوف تُجمد عضويته مثلما يحدث بالنسبة لدول الكمنولث Commonwealth.

ولكـن هـناك تخوف من التلاعب بالعملية الانتخابية من خلال دعم بعض الفـئات معـنوياً ومادياً من بعض الجهات المتنفذة، أو العمل على إحياء التناحر

الفكـــري ما بين الناخبين الذين غالباً ما يمثلون مدارس فكرية مختلفة. وفي النهاية ســـوف يكون في ذلك ضياع للهدف الأساس من العملية الانتخابية، وهو تحقيق التنمية الشاملة ورفاهية وأمن المجتمع.

أمـــا الســـيناريو الـــتالي، في حالة فشل عملية السلام وأن الدول لم تطرح ســـيناريو بديـــل لفشـــل هذه العملية، فهو عودة الكرة مرة أخرى إلى ملعب المدارس القومية والدينية وخاصة الراديكالية.

وفي هـــذه الحـــال، فسوف يشيع ذلك نوعاً من المواجهة غير المستحبة بين الحكومـــات والمدارس الراديكالية التي وصلت في الخليج الآن إلى أكثر من ستة مدارس، وجميعها تنتظر الفرصة السانحة لكي يكون لها دور في المشاركة بشكل عام، وربما يطالب بعضها بالتغيير.

ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن مؤسسات دول مجلس التعاون يمكن أن يكـــون لديها، فـــي مطبخها السياسي، السيناريوهات البديلة لكل مرحـــلة، وإن لم نشـــاهد حتى الآن، على أرض الواقع، أياً من السيناريوهات البديلة في مواجهة الأزمات السابقة.

بين الجغرافيا والتاريخ

الدكتور مالك الأحمد (*)

تميزت هذه المنطقة بخصائص جغرافية وتاريخية، كانت حاضرة في حياة السكان ونشاطهم، فالطبيعة وقسوتها كان لها الأثر في تشكيل جيل متفرد في الماضي، ومؤهل لأن يكون كذلك في المستقبل، إذا وعى المعطيات المتوفرة ومقومات الانطلاق.

يطلق مصطلح الجغرافيا على المنطقة والسكان، على البيئة والمناخ، على الاقتصاد والإمكانات البشرية والمعطيات الإنسانية، أما التاريخ فيشمل النشاط الإنساني على مر الزمان شاملاً الجانب الحضاري والعقدي والثقافي، الأحداث والوقائع، الرجال وسيرهم، والمنطقة وما مر بها.

والجزيرة العربية مرت بتغيرات جغرافية وأحداث تاريخية مهمة كونت الحاضر وحفظت معطيات المستقبل.

تميزت هذه المنطقة بخصائص ومميزات كان لها الأثر في التاريخ وكانت الجغرافيا حاضرة في السكان ونشاطهم والطبيعة وقسوتها عليهم، شكلت جيلاً

(*) باحث أكاديمي.. (المملكة العربية السعودية).

مـــتفرداً في الماضي ومؤهلاً أن يكون كذلك في المستقبل، إن اعتبرت المعطيات المتوافرة ومقومات الانطلاق .

خصائص جزيرة العرب:

هبا الله هذه المنطقة من الخصائص ما يجعلها متفردة ومتميزة عن غيرها، في مجموعة من العناصر:

السكان: يشغل الجزيرة العربية العرب من قبائل شتى لكنهم إما عرب عاربة كقحطان وإما عرب مستعربة كعدنان، وكانت بلاد العرب خياراً إلهياً لتكون مهبط آخر الرسالات البشرية:

فالرســـول ﷺ عربي من قريش، بل من أفضل قبائل قريش، من بني هاشم، وقريش من أفضل قبائل العرب، والعرب بمؤهلاتهم وبقبائلهم المتعددة من أفضل الشـــعوب والقـــبائل على وجه الأرض على الإطلاق، كما قال الرسول ﷺ: «...**أنـــا خيار من خيار**»[1]، أي من العرب، ثم من قريش، ثم من بني هاشم. هذا الاختيار الإلهي للعرب جعل اليهود يحقدون ويمكرون، وقبل ذلك يرفضون دعوة الإسلام؛ لأنهم توقعوا أن يكون خاتم الأنبياء منهم.

تميز العرب بخصائص عديدة جعلتهم أهلاً لحمل الرسالة في الجزيرة العربية، وتبليغ الأمانة، هم أهل الشجاعة والإقدام، والمروءة والنخوة، والصبر والتحمل، والكرم والجود.

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي.

المرأة لها حقها ومكانــتها، ويقولون « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» أي لا تــزني، رغم وجود البغايا، وهن غالباً من الإماء، وكانوا أهل تعظيم للشعائر الدينية، كالأشهر الحرم والحج.

كانت فطرتهم سليمة رغم ما اعتراها لاحقاً من ملوثات.

وكــان اســتعدادهم البشــري عالــياً لقبول دين الله، وكانت قريش محط احترامهم: «الناس تبعاً لقريش، مسلمهم تبعاً لمسلمهم، وكافرهم تبعاً لكافرهم».

وعــن جابر بن عبد الله، قال ﷺ:« **غِلَظُ الْقُلُوبِ وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ وَالإِيمَــانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ**»[1]، وقد مدح رسول الله ﷺ الحجاز والشام وذم كثيراً المشرق؛ لأنها مصدر للفتن ومخرج الدجال.. وهم عددياً ليسوا بالكثيرين، لكــنهم مــع ذلــك يتناقصون وتقل نسبتهم، كما جاء في الحديث: في آخر الزمان:«**لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِي الْجِبَالِ، قَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: هُمْ قَلِيلٌ**»[2].

البيــئة : تمــيزت الجزيــرة العربية ببيئة فريدة ، فرغم قسوة المناخ صيفاً وبرودته شتاءً إلا أنها تمر بفترات زمانية قل أن تجد لها مثيلاً في العالم – هذا إذا جادت السماء بالأمطار – لم تكن البيئة سهلة لكنها كانت مواتية والتحم أهلها بها، وقلما فارقوها إلا في أوقات الجفاف الشديدة المتوالية. أثرت هذه البيئة على الــناس فكانوا جزءاً منها، وارتبطوا بوديانها وسهولها وجبالها، وعرفوا شجرها وحجرها، وتعايشوا معها بالكامل .

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

مرت جزيرة العرب في أحقاب بعيدة في التاريخ بفترة من الخضار وستعود إلـيه، كمـا قـال ﷺ: **«لا تَقُـومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...»** [١].

الموقـع: هي وسط بين الشرق والغرب، في العالم القديم خصوصاً ، وعند ظهور العالم الجديد (أمريكا) أصبحت تسمى "الشرق الأوسط"، وهذه الوسطية في المكان كان له دور في نقل التجارة قديماً بين الشرق والغرب ولاحقاً في نقل الإسلام ونشره بين تلك الشعوب.

الدينية: اختار الله في جزيرة العرب وادياً مقفراً لم يعرف بالسكن من قبل ولـيس فيه ماء ... اختاره الله ليبني فيه الكعبة، ويكون هذا البلد حرماً آمناً: **«إِنَّ هَـذَا الْبَلَدَ** - أي مكة - **حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**[٢].

وكمـا اختار الله مكة مكاناً للبعثة ، اختار المدينة مكاناً للهجرة وحرمها كمـا حرم مكة، وجعلها موئلاً لأهل الإيمان : **«إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»**[٣].

وفي الحديث الآخر: **«إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا »**[٤].

---

(١) أخرجه أحمد.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه مسلم.

وقـــال ﷺ: «سَـــيَعُوذُ بِهَذَا الْبَيْتِ- يَعْنِي الْكَعْبَةَ- قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلا عَـــــدَدٌ وَلا عُدَّةٌ، يُبْعَثُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ»[1].

وفي آخر الزمن عندما يخرج الدجال ويعيث في الأرض فساداً فإنه لن يدخل مكة والمدينة حيث الملائكة تحرسها وترده على أعقابه.

ديـــن واحـــد: لم تكن وصايا الرسول ﷺ لمن بعده كثيرة، فقد بيّن الدين وأقام الحجة ، لكن بعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ، وبدء مناطحة الروم ولـــتطهير الجزيرة من العربية والشرك، أوصى الرسول ﷺ بإخراج أهل الكتاب من المنطقة فقال: «لا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ»[2].

والأمـــر كما هو واضح ليس قاصراً على أهل الكتاب، فالوثنيين من باب أولى، فـــلا يقبل في الجزيرة مشرك ولا يهودي ولا نصراني، فقط أهل الإسلام. هـــذه خاصية لجزيرة العرب فقط و لم تكن تشمل بلاد الشام مثلاً رغم أهميتها عن بقية المناطق .

همزة الوصـــل مع الشـــام: من تقدير المولـــى عز وجل وحكمته أن أمر أبـــا الأنبـــياء إبراهيم الخليل عليه السلام أن يتوجه إلى مكة ويترك فيها زوجه هاجر وابنه إســـماعيل ليقوم كيان جديد في المنطقة، قائم على التوحيد، ويعيد – بعـــد ذلك – بناء بيت الله الحرام في هذه البيئة المجدبة لتكون منطلقاً لحضارة جديدة تسود العالم.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) متفق عليه.

كان إبراهيم عليه السلام همزة الوصل بين بيئتين ومنطقتين حبيتا بخصائص خاصـــة، فبلاد الشام كانت أرض النبوة والرسالات، وهي البلاد التي بارك الله فـيها ومدحهـا في كتابه، وهي أيضاً أرض المحشر، وقبلها هي أرض الملاحم ومهـــبط عيسى عليه السلام في آخر الزمان، أما جزيرة العرب فمهبط الوحي وبلاد خاتم الأنبياء والمرسلين، وهي موئل الإسلام ومأرزه، وأيضاً مستقبله.

واجتماع بلاد الشام مع جزيرة العرب لم يكن فقط في عهد إبراهيم الخليل علـــيه السلام، حيث بنى هو وولده الكعبة المشرفة وترك أحد أبنائه رسولاً ونبياً في العرب بينما حمل الرسالة في بلاد الشام أخوه إسحاق.

العـــلاقـــة اســـتمرت مع مبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ من ولد إسماعيل، وكان ﷺ يقول: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيم**»[1]، مصـــدقاً لدعائه عند بناء الكعبة مـــع إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٨-١٢٩)، وقد أُمر أن يصلي إلى المسجد الأقصى في الشام.. حتى في إســـرائه ﷺ كانت البلاد الطيبة هي الهدف، حيث اجتمع الأنبياء وأمهم ﷺ وهي منطلق معراجه إلى السماء، وتم هذا التواصل في البيئة والدين والقبيلة .

التاريخية: استمر التوحيد في بلاد العرب بعد إسماعيل ما شاء الله أن يكون، ثم بدأ الشرك يدب فيهم، ويقال إن عمرو بن لحي هو أول من أدخل الشرك إلى جزيـــرة العرب من الشام – حيث كانت أسبق للشرك من الجزيرة العربية –،

(١) أخرجه ابن عساكر في "التاريخ"، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

وزاد الشـــرك حتى ساد العرب، وكان عقيدتهم الأساسية رغم الاستثناء اليسير من وجود بعض الموحدين على ملة إبراهيم الخليل.

ورغـــم انتشار الشرك فآثار الدين باقية وبعض الأخلاق قائمة، حتى بعض رســـومه اســـــتمرت كالحج، وتعظيم الأشـــهر الحرام، وتعظيم مكة والبيت الحرام، والطواف.

لكـــن الشـــرك نخـــر في العقول والقلوب فكان أمر الله أن يبعث فيهم من يعيدهم ثانية إلى التوحيد .

رغم الصعوبات التي واجهها الرسول ﷺ من قريش إلا أن البيئة – عموماً– كانـــت خصبة للدعوة، وكان عدد الداخلين يزداد، وفشى الإسلام فـــي كافة قبائل قريش.

كـــان لاختـــيار مبعث النبي ﷺ في هذه البيئة حكمة، ذلك أن القوم رغم سلبيات الجاهلية الكثيرة أفضل من كان على وجه الأرض، وكانوا مهيئين ذاتياً لحمل الدعوة ونشرها خلاف البلدان الأخرى.

فالاختيار لم يكن قاصراً على النبي ﷺ نسباً بل بيئة ومنطقة، وكانت الآثار عظيمة والنتائج باهرة، فهذا ربعي بن عامر الأعرابي يدخل على كسرى في أوج قوته وجبروته بيده الرمح يخرق النمارق ويرفع صوته عالياً: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

انســـاح العـــرب – بعـــد أن استقر لهم الأمر في الجزيرة – شمالاً وشرقاً، واخضـــعوا أقوى دولتين، فارس والروم، وأقاموا أقوى حضارة، وأصّلوا أفضل وأعدل حكم على الشعوب، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً.

هــذه البيــئة القاسية أنتجت رجالاً لا يعرفون الخوف، ولا يقربهم الخَور، رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، حتى أن الروم والفرس استهانوا بهم في بداية الأمر وعرضوا عليهم الطعام -إن كان ما أخرجهم الفقر- وعرضوا عليهم الكساء إن كان هذا مطلبهم، حتى بدا لهم بعد ذلك أن هؤلاء ليسو طلاب دنيا بل طلاب آخرة، يعشقون الموت كما يحبون هم الحياة .

ورغــم القرون الكثيرة الجميلة والفاضلة التي أطلت على هذه البلاد إلا أن الــنخر عــاد من جديد، والجهل بدا يفشو، حتى سادت البدعة وظهر الشرك، فكــان أن قــيض الله لهذه البلاد رجلاً صلباً ، علم دين الله وأصر على نشره، رضــي من رضي وخالف من خالف. كان محمد بن عبد الوهاب مجدد عصره ومعــلم شعبه، أزال آثار الشرك من الجزيرة العربية، ومحى آثاره، وأعاد التوحيد نقــياً صافياً، وما زالت آثاره باقية حتى الآن وإن غاب الكثير منها مع الهجمة الغربية وقلة العلماء وضعف الدعاة.

بين الزمان والمكان : لم يأت الثناء المحض من رسول الله ﷺ لبلاد في العالم إلا ثلاثة: مكة، والمدينة، والقدس، وذلك لما بها من مساجد ذات قداسة خاصة، ليست لغيرها من المساجد، لذلك شرع السفر لها وحدها فقط.

ولم يكــن مبعــث النبي ﷺ في مكة ومهاجره إلى المدينة قضية عبثية، بل كانت عقدية حضارية، وأخيراً بيئية.

لم يــتوافق الــبعد المكاني والعقدي والبشري وحتى الزمني كما توافق مع جزيرة العرب، فأهلها من العرب هم خيار الناس، وجنسهم مفضل على غيرهم مــن الأجناس، وهم أولى الناس، وهم كما تشرفوا بصاحب الرسالة فهم أولى

الـــناس بحمل الأمانة وأدائها إلى غيرهم من الشعوب والأمم ، ولـــئن ضـــعفوا أو استكانوا في بعض الأزمان فهم أولى بالعودة وتسلم الراية من جديد.

في العقود الأخيرة ظهرت الصحوة الإسلامية في العالم، لكنها كانت أقوى ما يكون في جزيرة العرب، وأشد عوداً وأصلب موقفاً.

كانـــت الحركة العلمية أكثر انتشاراً في هذه البيئة، والدعوة العالمية تتحرك فيها، وما يكاد بلد من بلاد المسلمين أو غير المسلمين إلا وقد وصله وفد منهم أو مال لمساندة مشاريعهم .

العودة: في آخر الزمان عندما يضعف العرب ويتفرقون ويتناصرون، يقيض الله لهم رجلاً منهم يشبه نبيهم ويطابق اسمه (المهدي محمد بن عبد الله) يقودهم بالكتاب والسنة ويجتمعون عليه، ويتحرك بهم لإحقاق الحق ونشر العدل، حتى يعم الخير الناس، ولا يجد المتصدق من يقبل صدقته مما هم فيه من الغنى.

مقومات الانطلاق نحو المستقبل:

تتميز الجزيرة العربية بالعديد من العناصر والمقومات التي سوف تساعد على انطلاقة قوية نحو المستقبل في كافة المجالات، ومنها:

– **في الجانب الاقتصادي:** ثروات معدنية هائلة، وأهمها النفط والغاز، الذي مـــازال وسيستمر لفترة طويلة في المستقبل مصدراً رئيساً للطاقة في كافة بلدان العالم.

– **في الجانب السياسي:** تتميز المنطقة بتشابه أنظمة الحكم فيها والاستقرار السياسي البعيد المدى، ورغم التفاوت فيما بينها قرباً وبعداً عن تطبيق الشريعة

الإســــــلامية، إلا أن التوجه العام هو اعتبارها جزءاً من منظومة الحكم ومقررة في الدستور.

- **في الجانب التاريخي** : تميزت المنطقة بتاريخ مشترك واحد تقريباً منذ بعثة الـــنبي ﷺ، وحتى في زمن الاستعمار الغربي لم تواجه المنطقة إلا استعماراً واحداً بخلاف مناطق أخرى من العالم العربي والإسلامي. وفي أزمنة التشتت والخلافات، كان الغالب أن قبائل المنطقة هي المحرك للأحداث وليس من خارجها .

مقومات دينية:

يـــبقى العنصر الديني دائماً من أهم العناصر ومقوم أساس لوحدة الشعوب والمجتمعات ومصدراً أساساً لانطلاقة عالمية .

والـــجانـــب الديني ليس قاصراً على وجود قبلة المسلمين (مكة) ومهاجر النبي ﷺ (المدينة) رغم أهميتهما دينياً، كما سبق الإشارة إليه، فالأمر تعدى ذلك إلى تحـــول المنطقة إلى مصدر للإشعاع الديني حول العالم ، فالمنطقة مركز نشر وتحقيق وطبع التراث الإسلامي، ومركز الثقافة الإسلامية ســـواءً باللغة العربية أو حتى باللغات الأخرى، وهي المرجع في القضايا الدينية الفقهية، وتحوي أكبر عـــدد مـــن العلماء وطلبة العلم، ولها دور ضخم فـــي توجيه المسلمين في بقيه أنحاء العالم .

إضـــافة إلى ذلـــك، فالمنطقة أقوى وأهم مصدر للأنشطة الخيرية الإسلامية ســـواء في العالم الإسلامي أو غير الإسلامي ، فالملايين من الدولارات تخرج من هـــذه الـــبلدان إلى أفريقـــيا وآسيا و أوربا وأمريكا للدعوة والتوجيه والإغاثة

والمساعدة، مما ساعد الكثير من الشعوب الإسلامية على مقاومة التنصير، وأنقذها من ظلمات الجهل، فضلاً عن آلاف بل عشرات الألوف الذين دخلوا الإسلام عن طريق جهود المنظمات والجمعيات الخيرية التي انطلقت من المنطقة.

مقومات حضارية:

لا تنفك الحضارة عن الثقافة، والمنطقة تملك من الثقافة الشيء الكثير، بين الكتب أو في صدور الرجال، وكان للحركة الثقافية في العالم العربي نصيب هام في الجزيرة العربية ، رغم البدء المتأخر والمشاركة المحدودة ، لكنها تميزت ثقافياً – في الغالب – باعتمادها البعد الديني والإرث العقائدي المحلي، وليس النظريات والأفكار والعقائد المستوردة .

مقومات جغرافية:

تميزت المنطقة بموقع متوسط في العالم القديم وموقع قريب من الحضارات ومركز الديانات، مما جعلها ترتبط حتى مع العالم الجديد لحاجة (الآخر) إليها وليس العكس.

مقومات بشرية:

يسيطر جيل الشباب على المنطقة، فالذين لم يتعدوا ١٥سنة يقاربون نصف عدد السكان، مما يجعل البيئة شابة، ويساعد على بناء كيان المنطقة في كافة مناحي الحياة مستقبلاً.

وشعوب المنطقة شعب واحد في الحقيقة، فاللغة واحدة والدين واحد، وحتى المذهب السائد (السني) واحد.. وفي الطبيعة الاجتماعية، فالناس تعيش

بطرق متشابهة ومتطابقة أحياناً، مما يجعل الحديث دائماً عن شعب واحد وليس شعوباً مختلفة كما هو في الكثير من مناطق العالم.

أخيراً:

عندما يتداخل التاريخ مع الجغرافيا في بيئة مثل الجزيرة العربية، ويأخذ البعد الـــزماني أثره والبعد المكاني موقعه، فإننا نأمل بل نلمس تغيرات إيجابية واسعة تقود المنطقة إلى ريادة إنسانية وتأثيرات عالمية في الحضارة والثقافة، في الشريعة والاقتصـــاد، ممـــا يؤهلها أن تكون محوراً رئيساً ومحط أنظار الآخرين وميدان اهـــتمامهم.. مـــن بيئـــتها ينهلون، ومن عطائها يستفيدون، وبهديها يقتدون، وبرسالتها يأملون بسلام عالمي واستقرار إنساني.

مهد الرسالة

هل تؤدي دورها من جديد؟

الدكتور محمد صالح المسفر [*]

> ليس المطلوب للحاق بالمرحلة التكنولوجية، كما هو مستوى الحضارة الغربية، بأن نستعير فقط ما يمكن، فالاستعارة لا تشكل "حيوية حضارية" وإنما تشكل "تبطلاً" حضارياً وذهنياً، واتكالية تجعل منا تجاه الغرب كحال العبد المملوك "كَلّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير".

مقدمة:

للجزيرة العربية خصوصية دينية لدى ما لا يقل عن مليار مسلم ينتشرون في مختلف بقاع الأرض، إضافة إلى موقعها الجغرافي- السياسي الذي يتوسط ما بين القارتين، الأفريقية عبر البحر الأحمر غرباً، والآسيوية عبر الخليج شرقاً وباتجاه كل المحيط الهندي، ثم عمقها باتجاه الهلال الخصيب شمالاً، حيث يلامس ذلك العمق الشمالي القارة الأوربية.

نص الله سبحانه وتعالى على خصوصية هذا الموقع الذي يتوسط القارات القديمة الثلاث بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

(*) باحث.. أكاديمي (دولة قطر).

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ (البقرة:١٤٣)، وربطت هذه الآية بين "التبدل المكاني"، بين القدس والكعبة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ (البقرة:١٤٣).

فموقع الوسط الجغرافي مرتبط باستقبال الكعبة البيت الحرام، فالأمة الوسط ليس بمعنى "الوسطية" في الدين والفكر والاتجاه أو السلوك، فللإسلام منهجه الذي لا يقبل بما يحمله مفهوم الوسطية الفكرية من تلفيقية وتوفيقية ودعاوى فكرية أو سياسية تتجاوز أحياناً حتى ثوابت الإسلام[1].

فوسطية الأمة "موقع جغرافي" دلالته "مكانية القبلة" من جهة، وكذلك "الشهادة" على الناس من حولهم من جهة أخرى. والشهادة "حضور" لا تستقيم مع "الغياب" ولا علاقة لها بالوسطية المفهومية.

ثم حين تكون شهادة العرب المسلمين على الناس، من موقع الوسط تأتي شهادة الرسول ﷺ على العرب المسلمين أنفسهم: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ (البقرة:١٤٣).

ونص الله سبحانه وتعالى على خصوصية الكعبة الدينية، بوصفها منطقة حراماً، أو أرضاً حراماً، حرّمها مكاناً وحرّم فيها أشهراً حرماً: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٩٧).

هكذا "نسخ" القرآن الكريم باستقبال البيت الحرام ما كان من استقبال سابق لبيت المقدس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ

(١) ما ذهب إليه الباحث هنا، من مفهوم الوسطية وغيره من مفاهيم، وما أشار إليه فيما بعد مما انتقاه من نماذج، أمور غير مسلّمة ومحل نظر، لا يتسع المجال لمناقشتها (الناشر).

ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾.

فخصوصية الجزيرة العربية الدينية ترتبط بمركزية الوسط الجغرافي، التي ترتبط بدورها بالبيت الحرام والشهادة على الناس.

وقد ربط الله سبحانه وتعالى ما بين "البيت الحرام" و"القرآن" و"النبوة الخاتمة": ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ (النمل:٩١-٩٣).

واتخذ الله سبحانه من الأميين العرب قاعدة بشرية لحمل الرسالة و"الخروج" بها للناس: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ (آل عمران:١١٠).

وناط بهم المسؤولية عن الذكر: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٤). فقرن الله ما بين المسؤولية و"المحاسبة- السؤال"، فلم يجعل المسؤولية عن الذكر اصطفاء عرقياً أو علواً في الأرض حين الخروج، ولكنه سبحانه جعلها رحمة للعالمين، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر سبحانه، يهيأهم لمقتضيات الخروج بتحقيق الألفة بين قلوبهم: ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (الأنفال:٦٣).

وكذلك نصر نبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا

تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

تلك هي "خصائص الخروج" رحمة للعالمين قبل أربعة عشر قرناً هجرياً[١].

قد خرج الأميّون العرب من جزيرتهم "دعاة دين" وكذلك "محرري أوطان" فناجزوا أكبر احتلالين في ذلك العصر، هما الإمبراطورية البيزنطية والأخرى الساسانية بداية بقيادة الرسول ﷺ لحملة الغزو ضد الروم في تبوك في العام التاسع للهجرة (٦٣٠ / ٦٣١م)[٢]، ثم تتابعت الفتوح طوال العهد الراشدي (١١هـ/٦٣٢ - ٦٣٣م وإلى ٤٠هـ/ ٦٦٠ - ٦٦١م) ثم العهد الأموي وإلى (١٣٢هـ / ٧٤٩ - ٧٥٠م)[٣].

ثم ومنذ العهد الأموي (٦٦١ / ٧٥٠م)، ما يقارب التسعين سنة، ثم وطوال العهد العباسي (٧٥٠ - ١٢٥٨) ما يقارب خمسة قرون، تفاعل الفاتحون العرب مع مختلف "الأنساق الحضارية" و"المناهج المعرفية والفلسفية" التي كانت سائدة على المستويين الحضاريين في الشرق الآسيوي والغرب الأوربي، مما أفاض في توضيحه وتفصيله المفهرسون العرب كالشهرستاني[٤].

فهذه أو تلك (سبعة قرون) تفاعل فيها الفاتحون العرب بالشعوب والقبائل بمختلف مكوناتها، ما بين السند "شرقاً" وإلى الجزيرة "الأيبيرية" في إسبانيا غرباً، ثم مضوا بعد ذلك إلى غرب أفريقيا وإلى ساحلها الشرقي.

---

(١) محمد أبو القاسم حاج حمد، محاضرات غير منشورة، جامعة الجزيرة، السودان (إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا الكونية) إضافة إلى الملحق (ولماذا القرآن دون الكتب الأخرى؟) ١٥ رجب ١٤٢١هـ-١٤ تشرين أول/ أكتوبر ٢٠٠٠م.

(٢) عبدالسلام الترمانيني، أزمنة التاريخ العربي، ج١ ، المجلد الأول ، قسم التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٢٦.

(٣) عبدالسلام الترمانيني، مصدر سابق ، ص ٦٩، ١٧٨.

(٤) أبي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ٤٧٩ - ٥٤٨هـ؛ الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة: بيروت، لبنان، جزءان.

ثم أطبق عليهم المغّول والتتار من الشرق، إلى سقوط بغداد في عام ١٢٥٨م، وأطبق عليهم الصليبيون في الغرب عبر حملات متتابعة (١٠٩٥ وإلى ١٢٧٠م)، وإلى إخراجهم من الأندلس وسقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م[1].

هكـذا انحـدر العرب سبعة قرون أخرى وتالية لقرون الازدهار والفتوح السبعة الأولى، حيـث شهدوا في ختامها المتزامن مع نهاية القرن الرابع عشر الهجـري الاختـراق الصهيوني جيو-بوليتكياً للوطن العربي المجزأ ما بين البحر الأبيض المتوسط شمالاً والبحر الأحمر جنوباً، فيما عُرف منذ عام ١٩٤٨م بدولة إسرائيل، وهي دولة أو كيان نشأ في قلب الوطن العربي بعد اتفاقات (سايكس بـيكو) لتجزئة المنطقة عام ١٩١٦م ووعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة عام ١٩١٧م وسقوط الخلافة التركية عام ١٩٢٤م[2].

وتتابعت الحروب بين دول"المواجهة" العربية وإسرائيل بداية من العام ١٩٤٨م، ثم ١٩٥٦م، ثم ١٩٦٧م، ثم ١٩٧٣م، أما الشعب الفلسطيني فقد بدأ بثوراته منذ بدايات الاستيطان في عام ١٩٣٥م، وما تزال ثوراته مستمرة حتى اليوم.

عـلى المستوى الجزيري، شهدنا أعنف حربين، الأولى بين العراق وإيران، وقد استمرت عقداً من الزمان (١٩٨٠/١٩٨٩م) والثانية بين العراق والكويت (١٩٩٠/١٩٩١م)، دمرت مقدرات ثلاثة شعوب مسلمة، وارتهن اقتصاد وأمن دول مجلـس الـتعاون الخلـيجي كافة، وفتحت الأبواب للاختراق الصهيوني للمنطقة.

ثم تواصـلت الهيمـنة الأمريكية "مرتكزاً" والأوربية "مساندةً"، استغلالاً لـتفجيرات الحـادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م في مدينتي نيويورك وواشنطن بدعوى التحالف الدولي لمكافحة الإرهاب.

(1) موسـى الزعبي، ما الذي تغير في الحضارة الغربية؟ الاستراتيجية أم التكتيك؟، الشادي للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٥م.

(2) العـرب والأتـراك في عالم متغير، الجزء الأول، وجهة نظر عربية، ميشال نوفل، خالد زيادة، محمد السماك، محمد نور الدين، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتنسيق، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص ٧٤-٧٥.

وامـــتدت الهيمنة إلى الدول والشعوب الإسلامية في محيط بحر قزوين الغني بالنفط وجنوب آسيا (فتكالبت علينا الأمم كتكالب الأكلة على قصعتها، وليس من قلة بنا ولكنا كثرة كغثاء السيل).

والآن، نقف مجدداً في جزيرة العرب، وقد أصبحت مجلس التعاون الخليجي، باســـتثناء اليمن الذي طالت غربته، فهل ستؤدي الجزيرة العربية دورها الرسالي مجدداً؟

أمـــد الله الجزيرة العربية، ومنذ الثلاثينيات من القرن الماضي، بثروة النفط، حيث يصـــل الإنـــتاج اليومي في مجموعه لدول مجلس التعاون الخليجي حوالي (١٤) مليون برمـــيل يومياً، بعائد سنوي يصل إلى (٦٤) بليون (مليار) دولار، تبعاً لإحصاية عام ١٩٩٩م.

ويـــتجاوز عـــدد السكان – من غير الوافدين – في مجموعه حوالي (٢٥) مليون نســـمة تبعاً لإحصاء ١٩٩٦م. وإذا استمرت معدلات النمو السكاني الخاصة بدول مجلس التعاون وفقاً لافتراضات الأمم المتحدة، فإن عدد السكان سوف يصبح (٨٠) مليون نسمة بحلول عام ٢٠٥٠م، وسيبلغ تعداد سكان السعودية وحدها (٦٠) مليون نسمة[1].

ثم إنهـــا مركز استقطاب للحجيج والمعتمرين والوافدين بعشرات الملايين، فعوضاً عـــن الخـــروج للناس – كما كان في السابق – هاهم الناس يخرجون للجزيرة، ومن مختلف الجنسيات، وبمختلف الدوافع.

ثم إن لديهـــا عمقهـــا العربي الإسلامي على مدى الهلال الخصيب، ووادي النيل والمغرب العربي الكبير، وهو عمق يتسع لثلاثمائة مليون نسمة.

وجعل الله من حول الجزيرة العربية أهم مضائق العالم وبواباته البحرية، من مضيق هرمز، وإلى باب المندب، وإلى قناة السويس، ثم امتداداً في العمق إلى جبل طارق.

---

(1) عـبد العزيـز محمـد الدخيل، العولمة الاقتصادية ودول مجلس التعاون، منتدى التنمية، اللقاء السنوي الحادي والعشرون، ٣-٤ فبراير ٢٠٠٠م، دبي، الإمارات العربية المتحدة، من كتاب المنتدى، دول الخليج والعولمة، دار قرطاس للنشر، الكويت، ٢٠٠٠م، ص ٥٥، ٨٩.

وما زالت جغرافيتها تتوسط القارات القديمة.

ثم ها نحن نعيش مع العالم مرحلة الثورة التكنولوجية التي جعلت العالم قرية واحدة اختصرت ما بينه وسائل الاتصال والمواصلات.

فكل المميزات الاقتصادية والديمغرافية والجغرافية – السياسية وغيرها، سواء على مستوى الجيوبوليتيك أو الاستراتيجية أو العولمة بتقنياتها المتقدمة، قد وفرّها الله – سبحانه – لهذه الجزيرة العربية.

ومـا يزال كتابها (القرآن الكريم) بين يديها.. فهل ستؤدي دورها الرسالي رحمـة بالعـالمين، متواصـلة مع ختم النبوة والرسالة، علماً بأن هناك "حاجة إنسانية" تبتغي دوراً رسالياً تعبر به "أزمتها الحضارية"؟

الغرض من الدراسة:

يرتبط الغرض من الدراسة بعدة موجبات أساسية:

أولاً: إن الجزيرة العربية، شعوباً وأنظمة، وعلى الرغم من المميّزات المتعددة والمتـنوعة الـتي ذكرناها ما زالت مأسورة عالمياً ومرهّنة بدور "التابع" للنظام العالمي الذي يستنـزف ثرواتها فيما رأيـناه من حربين خليجيتين عامي ١٩٨٠ و١٩٩٠م، بحيـث بلـغ العجز التراكمي لهذه الدول كنسبة مئوية من الناتج الإجمالي ما يقارب ١٠% في السنوات الثمانية الممتدة من عام ١٩٩٢ وإلى عام ١٩٩٩م[1] فهـذه الـدول في حاجـة إلى نهج استراتيجي يباعد ما بينها وبين "التبعـية"، ولـيس لديهـا من نهج بديل سوى التوجه الإسلامي، الذي حرر "المناذرة" في حيرة العراق من قبل من التبعية للدولة الساسانية، وحرر الغساسنة في الشام من التبعية للروم، فبفضل الإسلام والدور الرسالي من قبل أربعة عشر قرناً تحرر العرب المسلمون من التبعية وأصبحوا سادة أوطانهم وقرارهم.

خصوصـاً وأن كافـة الأنظمة والتيارات التي استندت إلى مفاهيم غربية

---

(1) عبدالعزيز محمد الدخيل، مصدر سابق، ص ٨٣.

وافـــدة، ســـواء كانت ليبرالية أو ثورية، قومية أو أممية، قد فشلت تماماً طوال النصف قرن الأخير الماضي.

ثانـــياً: إن احـــتواء الجزيرة العربية دولياً أو عالمياً لم يعد يقتصر على نفوذ القوى العظمى، وتتقدمها الولايات المتحدة الأمريكية فقط، فالكيان الإسرائيلي مـــنذ عام ١٩٤٨م وإلى اليوم يشكل رأس حربة "داخل" المنطقة العربية بأسرها لكافة أشكال النفوذ الأجنبي، وشريكاً فعلياً في المخططات، سواء تمت الشراكة مستترة أو معلنة.

ثالثاً: إن الإرث الصليبي الغربي، وكذلك الإرث اليهودي الإسرائيلي، تجمع بينهما قواسم مشتركة في العـــداء للعرب والمســـلمين، تاريخياً ودينياً وقومياً، ممـــا يدفع بهما لإجهاض أي نمو حقيقي لشعوب وبلدان الجزيرة العربية خاصة وأنها تمتلك المميزات التي ذكرناها، والتي تؤهلها لدور رسالي.

فالغـــرض مـــن الدراســـة يقوم على "فرضية" التلازم المصيري بين التوجه الرســـالي للمنطقة والحفاظ على استقلاليتها وشخصيتها، فبقدر ما تباعدت عن هـــذا الـــدور الرســـالي بقدر ما استذلت لغيرها. أي بقدر ما ينحسر دورها العالمي الرسالي بقدر ما تنحسر ذاتها ومقوماتها.

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على منهج معرفي Epistomology معاصر في تحليل المركبات الحضـــارية والاجتماعـــية والتاريخـــية، سواء تلك الخاصة بالحوار الرسالي مع الحضـــارة الغربية أو استكشاف طبيعة الدور الرسالي الإسلامي - العربي الذي ينطلق من الجزيرة العربية، ارتباطاً بالموجبات والمقومات التي ذكرناها في المقدمة والغـــرض من الدراسة. ولذل تتعدد مصادر دراستنا من التاريخي إلى الفلسفي وإلى الديني والحضاري.

كذلـــك تتخذ الدراسة المنحى "المقارن" ما بين الطبيعة التركيبية للحضارة العربية الإسلامية والطبيعة التركيبية للحضارة الغربية المعاصرة والزاحفة بعولمتها.

فمنهج الدراسة متعدد ولكنه متكامل، بتعدد وتكامل الموضوعات، وتحمل

تحليلاتـــنا في ثناياها طبيعة المناهج التي نستخدمها تبعاً لكل حالة ولكن في إطار تكامـــلي، فللرؤية الدينية مصادرها المعرفية، تماماً كما أن لما نتطرق إليه تاريخياً واجتماعياً وفلسفياً مصادره التي حرصنا على توثيقها.

مفاصل الدراسة:

تـــبدأ الدراســـة بالبحـــث في الأزمة الحضارية الغربية المعاصرة، من حيث التركيـــب والبنائـــية، باستخدام منهج التحليل والنقد، سواء من داخل الذات الغربية أو خارجها، وحاجتها لبديل روحي.

ثم النظر في الأسباب التي حالت دون أن تكون العودة للمسيحية، لو بمنطق التجديد، بديلاً لهذه الحضارة.

بعـــد ذلـــك نطـــرح موجبات البديل الإسلامي وخصائصه، مع النظر في المعوقات التي تحول دون طرح هذا البديل، وكيفية التغلب عليها.

مدخل لخلفيات الأزمة الحضارية العالمية:

مـــن الواضـــح أن خلفـــيات "الأزمة" المعنية تعود إلى ســـياق حضاري «وضـــعي- غير ديني وغير رسالي» وإلاّ لما انتهى منطق التداعي باتجاه الحل لأن يكون "رسالياً دينياً". وتنطبق هذه المواصفات "الوضعية" على الحضارة الراهنة المهيمـــنة عالمياً، وهي حضـــارة ذات "منشأ" أوربي و"محصلة" أمريكية تُعرّف الآن "بالعولمة".

يقتضـــي ذلك منا البحث في داخل الصياغة الوضعية لهذه الحضارة الغربية الـــتي تفـــرض مركزيتها بمنطق العولمة على العالم، ثم اكتشاف أزمتها اكتشافاً "إشكالياً"، بمعنى تطور الأزمة إلى مستوى الإشكالية التي تتطلب بحكم الضرورة حـــلاً حاسماً يكشف عن مواطن الخلل في "النسق" الحضاري الوضعي، ويفرض مـــنظومة نسق رســـالي مغاير لحل هذه الإشكالية دفعة واحدة.. فهل نحن فعلاً أمام إشكالية؟!

يحدد الدكتور محمد عابد الجابري[1] معنى ومفهوم الإشكالية بقوله: «على الرغم من أن كلمة إشكالية من الكلمات المولدة في اللغة العربية وهي ترجمة PROBLEMATIQUE فإن جذرها العربي يحمل جانباً أساسياً من معناها الاصطلاحي. يقال: أشكل عليه واختلط، وهذا مظهر من المعنى الاصطلاحي المعاصر للكلمة: الإشكالية منظومة من العلاقات التي تنسجها، داخل فكر مُعيّن، مشاكل عديدة مترابطة لا تتوافر إمكانية حلها منفردة، ولا تقبل الحل - من الناحية النظرية - إلاّ في إطار حل عام يشملها جميعاً. وبعبارة أخرى، إن الإشكالية هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها، فهي توتر ونزوع نحو النظرية، أي نحو الاستقرار الفكري».

إذن، فحل الإشكالية هو غير حل الأزمة، فالأزمة يمكن حلها جزئياً وبمنطق يتصل بها مباشرة، لذلك نفضل الأخذ بمفهوم "الإشكالية" التي وصلت إليها الحضارة الغربية.. وبذلك يأتي الحل، كما حدد الجابري، عاماً يشمل المشاكل العديدة والمترابطة.

تركيب وبنائية الحضارة الغربية:

يقودنا ذلك لمعرفة تركيب وبنائية الحضارة الغربية التي تتسارع خطاها باتجاه العولمة لننفذ بعد ذلك إلى عناصر الإشكالية فيها:

إنه من المعلوم، وإلى درجة البداهة في العلوم السياسية والاجتماعية المعاصرة، أن سياق الحضارة الغربية - الأوربية منشأً والأمريكية مُحَصلَة - قد انتهى بعد سياق تطوري بدأ منذ القرن السادس عشر الميلادي إلى تبني مذهب "المنفعة" Utilitarism، والبراجماتية Pragmatism وكلاهما قد نشأ في إطار الخيارات الفلسفية "العلمانية Secularism" وفي إطار "النمو الرأسمالي" Capitalist الذي يقوم على "الفردية والمنافسة Individualism and competition" ويحوّل الإنسان إلى أداة للإنتاج والاستهلاك فيما يظهر من تصورات أداتية، أو الفلسفة

---

[1] محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٥، ص ٢٧.

الأداتية النفعية Instrumentalism التي أطلقها د. جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢م) كإنجيل عملي جديد للمجتمع الأمريكي، وبالذات في المجالين التربوي والأخلاقي[1].

لا تعتبر البراجماتية مذهباً فلسفياً، فهي تقود لصرف طاقة الفكر عن التوجه إلى الفلسفة، تركيبية كانت أو تحليلية، إلى الفعل ونتائجه. فالجوانب الفلسفية التي تظهر لدى مفكري هذه المدرسة هي فقط للتدليل على القيمة العملية للحقيقة في مقابل مختلف التصورات الفلسفية. هكذا هو موقف المفكر الأمريكي "تشارلس ساندرر بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤م) حيث ينتهي إلى القول: إن «تصورنا لموضوع ما هو تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر».

وكذلك هو موقف المفكر الأمريكي الآخر وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠م)، الذي نزع نحو تجريبية متطرفة، وجعل المدركات العقلية مدركات حسية مهمتها الوصول إلى تحقيق فعل نافع، أي أن أفكارنا في تمثلنا لقيمتها، فهي بقدر ما تؤديه من فعل نافع تتجه إليه بالضرورة، وهذا هو أساس "المنهج الأدائي" أو "الأداتي". وهو اتجاه يتعامل مع الواقع كما يعبر عن نفسه بصدق مع الأفكار المحمولة عنه، فالبراجماتزم اتجاه يضع العمل "مبدأ مطلقاً" محاولاً حسم المناظرات الفلسفية حين يؤولها بحسب ما يترتب عليها من نتائج في العمل ومن فرق في حياة الإنسان، فالمنهج البراجماتي مؤداه تحويل النظر عن الأوليات الفلسفية إلى الغايات والنتائج.

وفي نفس الإطار اعتبر المفكر البراجماتي جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢م) فيما أوضحه عنه "جورج نوفاك": «أن قيمة أي عمل، أو قيمة أي أسلوب

(١) أخلاقهم وأخلاقنا، ليون تروتسكي، جون ديوي، جورج نوفاك، ترجمة سمير عبده، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ٧٩ - ٨٥؛ ولمزيد من البحث يُراجع:(أ) يعقوب فام، البراجماتزم أو مذهب الذرائع، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م؛ (ب) الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، وليم جيمس، ص ١٧٧، ١٨١.

للســـلوك، أو قيمة أي سياسة، يجب أن يحكم عليها بنتائجـــها الحقيقية فقط، وممـــا يؤخذ بعين الاعتبار ليس نوايا ودوافع وأهداف الأفراد وإنما النتائج المحضة الناتجة عن أعمال الناس».. فديوي يرى في الأخلاق: «فعالية ظاهرة، لها نتائج، بدلاً من كونها مجرد صفة شخصية داخلية».. ويعقب "جورج نوفاك" بأن هذا المقـــياس الموضـــوعي قـــد فصـــل دوي عن جميع أولئك البشر شبه المتدينين والعاطفيين الذين تعتمد القيمة الخلقية لديهم على "طيبة القلب".

هـــذا هـــو نسق التركيب الداخلي للحضارة الغربية انطلاقاً من محصلتها الأمريكية الراهنة من "الداخل".

غـــير أنه يُراد لهذا النسق أن يعمم عالمياً، أي أن يصبح "محوراً للعولمة". لهذا سطع اسمان، أولهما"فرانسيس فوكاياما" مؤذناً بالليبرالية نهاية للتاريخ الإنساني[1] وكذلـــك "صـــمويل هنتنغتون" مؤذناً بصدام الحضارات مع المركزية الحضارية الغربية بمواصفات العولمة الأمريكية[2] .

قد تعمدت الدوائر الرأسمالية الغربية، وبالذات في الولايات المتحدة. الترويج لدراســـة فوكوياما، لأنها تجعل مدخل السير إلى نهاية التاريخ من خلال الليبرالية وذلـــك كـــنهج مضـــاد للماركسية التي طرحت نفسها هي الأخرى كنهاية للـــتاريخ. وبسقوط التجربة السوفياتية، تتوثب الرأسمالية الغربية لتقديم ليبراليتها عـــبر فوكوياما باعتبارها نـــهاية للتاريخ، في محاولة لوراثة التجربة السوفياتية، لا على صعيد استراتيجي فقط ولكن على صعـــيد أيديولوجي أيـــضاً، وهـــي ليبرالية لا تمارس على حقيقتها – على الرغم من نقائصها – في الولايات المتحدة نفسها، كما فضح مضمونها "آرثر ميللر"[3] .

"ففي الواقع الأمريكي، حيث مجتمع "الكلاب الفخمة الضخمة"– على حد

---

(١) فرانسيس فاكوياما، هل هي نهاية التاريخ؟، دار البيادر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٥/١١/١٩٩٠م، ترجمة عن: End of history. Francis Fukoyama , national interest summer-1989

(٢) صـــمويل هنتنغـــتون، صـــدام الحضـــارات The Clash of civilizations, Debate-Foreign Affais reader, Newyork,1993.

(٣) أنطون شلحت، سياحة في أدب وفكر آرثر ميللر، فلسطين الثورة، عدد ٢٧١، تاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٧٩م.

تعبير آرثر ميللر- وحيث الوطن هو "حديقة حيوانات"، فإن التوجه الإنساني والثوري إنما يكون باتجاه الليبرالية، حيث إن "الليبرالية في أمريكا ليست أمراً سهلاً أو مستساغاً"، ولهذا فضح ميللر الفرق بين الواقع المكارثي الذي يلاحق الإنسان والحقيقة الليبرالية الغائبة، رغم الادعاء. وقد مثل ميللر نفسه أمام لجنة تحقيق تابعة للكونغرس حول آرائه في عام ١٩٥٤م بتهمة أنه يناصر الحركة الشيوعية، ومنع من مغادرة البلاد لمشاهدة عروض مسرحيته "البوتقة" التي كانت تعرض في بلجيكا وقتها."

قد انتهى "فوكوياما" إلى أن الليبرالية هي "نهاية التاريخ"، وأن "الجدل الذي غذى الحروب والتطور المنفصل لمختلف أجزاء العالم عبر التاريخ، قد بلغ نهايته الأخيرة، حيث يعدم الخصوم والتناحرات". وقد حظيت أفكار "فوكوياما" باهتمام عالمي واسع بوصفها "بياناً نظرياً لتبرير ما سمي بالنظام الدولي الجديد" في مقابل التحولات منذ عام ١٩٨٩م في الاتحاد السوفياتي وأوربا الشرقية. وقد أرجع فوكاياما أفكاره هذه إلى أصولها الفلسفية لدى المفكر الألماني "فريدريك هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م) وشروحات"ألكسندر كوجيف"[1].

حيث رأى هيجل عبر منهجه في دراسة التاريخ أن مبادئ الثورة الفرنسية في العدالة والحرية والمساواة، بمضمونها الليبرالي، تشكل نهاية التاريخ، والتي ظنها في عام ١٨٠٦م حين دحر نابليون الملكية البروسية.

لقد كشفت ليبرالية الأربعينيات عن وجهها البوليسي حين سيق "آرثر ميللر" للمحاكمة تحت طائلة الحملات المكارثية.

---

(1) الإشارة هنا إلى كتاب كوجيف، مقدمة لقراءة هيجل، نشر بالفرنسية في عام ١٩٤٧م ثم ترجم إلى الإنجليزية في عام ١٩٦٩م؛ ولأن كوجيف قد اعتقد بأن مطلق هيجل قد تحقق بعد الحرب العالمية الثانية فقد لملم أوراقه الفلسفية وهجر مهنة التدريس إلى أن جاءت نهايته هو في عام ١٩٦٨م.

انظر: كامل شياع، فوكوياما وفلسفة هيجل، تلخيص لمقال بيار بورتز عن مجلة إسبري، Espnit، الفرنسية بعنوان: التاريخ واليوتوبيا، حيث يرى بورتز، من خلال مفهومه لحرية الإنسان كإرادة وفعل ومسؤولية، أن معنى التاريخ لا يستقيم من خلال تشخيص قوانين عامة ذات غاية محددة فيه بل من خلال معايشة التجربة الإنسانية ذاتها والتي تستعصي بطبيعتها على أية محاولة لتأخيرها أو تأجيلها لصالح معنى مستقبلي مزعوم، صحيفة الحياة، تاريخ ٢١ تموز / يوليو ١٩٩٢م، عدد رقم ١٠٧٥٥.

أمـــا ليبرالية فوكاياما فقد كشفت عن وجهها البوليسي المعاصر أيضاً حين تسن التشريعات للقضاء حتى على حقوق الإنسان الأمريكي الدستورية باسم "مكافحـــة الإرهاب" إثر تلك العمليّات التي تمت في نيويورك وواشنطن بتاريخ الحـــادي عشـــر مـــن ســـبتمبر ٢٠٠١م، والتي طبق فيها أيضاً منطق "صدام الحضارات"، كما سنشرح لاحقاً- ضد كل عربي ومسلم ومشرقي.

أما بالنسبة لصمويل هنتنغتون وتنظيره لصراع حضارته "هو" مع حضارات العـــالم انطلاقاً من "مركزية" العولمة الأمريكية، فهذا تعبير عن موقف التمركز عـــلى الـــذات وليس المثقافة Acculturation الإيجابية والإنسانية مع الآخرين، فصـــدامـــية هنتنغتون الحضارية وليبرالية فوكاياما، كلاهما من أدوات أو أذرع الفلسفة الأداتية النفعية التي تزحف للسيطرة على العالم.

ماذا فعل هذا النسق الغربي بنفسه؟

وقـــبل أن نسأل عن مصير العالم مع هذا النموذج الزاحف علينا أن نسأل أولاً عن مصير إنسان هذا النموذج الذي يعيش داخله.

في تحليله لهذا الوضع يقدم الدكتور جميل قاسم[1] الطرح التالي:

في بدايـــة القرن الحالي كانت عبارة الأمركة Americanisme مصطلح دال على الفظاظة، يعرّفها أحد القواميس الألمانية على النحو التالي: «سطحية، إيقاع محـــوري، ســـوء تقدير للثروات المادية، بحث بدون إتقان، ميل نحو الحسيات، ميكـــنة العمل والحياة، استثمار فظ للطبيعة وللقوة البشرية». وكانت الأمْركة تعني أيضاً الروح المستلبة - الذات، وتعني «ملكية أي شيء بواسطة المال».

وعـــندما زار توكفيل أميركا في منتصف القرن التاسع عشر قال: إن الروح الأميركية هي أبعد ما تكون عن الفلسفة. ولعل الفلسفة الأميركية الوحيدة التي ظهـــرت - وســـادت - في الولايات المتحدة في تاريخها الحديث هي الفلسفة البراغماتية، ومفاد هـــذه الفلســـفة العملية الرئيســـي هو التجريبية المحضـــة،

(1) جمـــيل قاســـم، مقدمـــة في نقد الفكر العربي، من الماهية إلى الوجود، مكتبتا الفقيه ودار الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٢٢-٢٢٣.

أو الأمبيريقـية الراديكالـية. ويُشتق مصطلح البراغماتية من عبارة "Pragma" اليونانية وهي المرادفة للبراكسيس Praxis، أو النـزعة التطبيقية.

وقـد حمـل المصطلح في بدايات صياغته في أواخر القرن الماضي في حلقة شـارل بيرس (١٩١٤-١٨٣٩م) مرادفات عدة: "الأدواتية"Intrumantalisme، و"العملية" Practicisme قبل أن تستقر التسمية مع وليام جيمس في كتابه الشهير "الـبراغماتية ١٩٠٧م": إن قـيمة كل فكرة وكل مفهوم تكمن في الجدوى العملـية المقدرة لها، أي في المؤدى والغاية العملية. ذلك هو فحوى البراغماتية التي تظل مفيدة كمعيار نهائي، موضوعي للحقيقة، ولكنها عندما تكون فلسفة حـياة راديكالية تصبح مثلها مثل كل الأفكار والمفاهيم الثواني، خاضعة لإدارة قوة، تحدد ما هو عملي وجائز وتطبيقي، فكل حقيقة أو فكرة تخضع إلى وضعية ما، تحددها وتطبعها بطابعها.

فالـبراغماتية في نظـام إمبريالي هي غيرها في بلد في طريق النمو أو تحت التنمـية. والـبراغماتية الديمقراطية تختلف عن البراغماتية في نظام توتاليتاري. وهكـذا فـإن الـبراغماتية تتحدد بمحددات خارجة عنها. والسؤال هو: هل الأمركة البراغماتية ستحمل في "النظام الجديد" الوعد أم الوعيد؟"

لعلّ شهادة أخرى هي الأبلغ تعبيراً عن الواقع / الإشكالية، لأنها استهدفت مباشرة ظاهرة "الكازينو" أو اقتصاد القمار، وبسقف احتجاجي أعلى مما ذهب إليه "آرثر ميللر" حول "الكلاب الفخمة الضخمة".

في كـتاب "الحداثـة ومـا بعد الحداثة" الذي ضمنه معدّه و مقدمه "بيتر بروكر" آراء العديد من المفكرين حول هذا الموضوع، تطرق "ديفيد هارفي" في الأفكـار الـتي نشرت له إلى من حالة ما بعد الحداثة، بحث في جذور التغيير الاجتماعي، ونقتبس هنا هذه الفقرات الموجزة[1] .

«إن ظهـور اقتصاد كازينو القمار هذا بكل ما يحتويه من مضاربات مالية

[1] الحداثـة ومـا بعد الحداثة: إعداد وتقديم بيتر بروكر، ترجمة عبدالوهاب علّوب، مراجعة جابر عصفور، ط١، ١٩٩٥، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ص ٢٩٠-٢٩١.

وتكوين ثروات وهمية وأموال مصطنعة ليس لها دعم بأي نمو حقيقي في الإنتاج، يساعد على توسيع الفجوة بين الأفراد. فهلّت رأسمالية كازينو القمار على البلاد ووجدت كثرة من المدن الضخمة نفسها تسيطر على تجارة جديدة وقوية. وعلى "قفا" هذه الطفرة في الأعمال والخدمات المالية، ظهرت ثقافة جديدة تماماً تنتمي إلى طبقة محدثي النعمة بكل لوازم التحول إلى طبقة أرستقراطية واهتمام برأس المال الرمزي والأزياء والموضة والحياة الحضرية».

وعلى الجانب المضاد من البحبوحة في العيش، كان هناك وباء التشرد والتجريد من أسباب القوة والنزول إلى قاع الفقر، الذي غمر كثيراً من المدن الكبرى. وظهرت حالة من التعالي والأنانية ومعها شعور بالانتقام والثأر لم تشهد البلاد مثيلاً لها طوال فترة ما بعد الحرب. وتم تسجيل الأصوات المنسية والأحلام التي لا ينساها مشردو نيويورك على النحو التالي "ائتلاف المشردين"، ١٩٨٧:

«أنا في السابعة والثلاثين من عمري؛ لكن هيئتي توحي بأني في الثانية والخمسين. يقول بعضهم إن حياة الشوارع حرة وسهلة.. لكنها لا حرة ولا سهلة، فإن كنت لا أدفع مالاً، فإني أدفع من صحتي واستقراري العقلي. وطني اسمه الضياع، وأرضي وصمها العار، أظل أبحث عن حجرة وأبحث عن الدفء وشماعات أعلق عليها ردائي، وعن درج، وعن مجرد طبق من الحساء الساخن . فما فائدة الحرية؟!».

وقبل أعياد الميلاد لعام ١٩٨٧م مباشرة، أجرت حكومة الولايات المتحدة خفضاً قدره ٣٥ مليون دولار على ميزانية إعانات الطوارئ للمشردين. وفي الوقت نفسه، واصلت مديونية الفرد ارتفاعها، وبدأ مرشحو الرئاسة في التقاتل حول من منهم يعلن وعده بالولاء بصوت أكثر إقناعاً. أما أصوات المشردين، فضاعت في الهواء في عالم «تسوده الأوهام والخيالات والادعاءات الزائفة».

نتيجة لهذه الحضارة ذات "القيم الزائفة" وإن تطورت تكنولوجياً، حلّ

الإعـــلام بديلاً عن التربية والتعليم، والدعاية بديلاً عن الثقافة، والمنهج الأدائي بديـــلاً عن الفلسفة، فانحبس الإنسان الأمريكي داخل جدرانها وأصبح "مبوتقاً Encapsulated"[1] .

ويـــا حبذا لو تم الجمع بين كتابات "آرثر ميللر" وكتابات "جون رويس" لطرح معالجة نقدية متكاملة لما نحن بصدده من سلبيات في تركيبة هذه الحضارة التي تنتج البؤس العقلي والروحي.

ولكنـــنا - ومع هذه الشهادات، وقبل أن ننتقل للبحث في "البدائل"، وهي - أي الـــبدائل - بطبيعـــتها "نقيضة" للنسق الذي بين أيدينا، نورد شهادتين هامـــتين وردتا في منشورات "مركز البحوث والدراسات" في الدوحة، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في قطر[2] .

في شهادته، يقول المفكر الفرنسي المسلم "روجيه جارودي" حول "الأزمنة الحديـــثة" و"النهضة الغربية": «إن الارتباط بين المعطيين لا يعني سوى "الميلاد المـــتزامن" للرأسمالية والاستعمار، والذي "بتقويضه أركان قرطبة عام ١٢٣٦م ودكـــه لغـــرناطة آخر مملكة إسلامية بأوربا عام ١٤٩٢م، واجتياحه لأمريكا، يكـــون قد قطع أوصال ثقافتين شـــامختين، هما الثقافة الإسلامية وثقافة الهنود الحمر».

وابتداءً من هذه اللحظة، يغدو بالإمكان أن نرجع بتحديد الحضارة الغربية لعلاقاتها بالطبيعة والآخر والله "أو الغاية النهائية من الوجود" إلى ثلاث مسلّمات هي:

١- مسلمة ديكارت، التي تجعل "الإنسان سيداً ومالكاً للطبيعة".

٢- مسلمة هوبز، التي تجعل "الإنسان ذئباً بالنسبة للإنسان".

---

(١) John R. Royce, The Encapsulated man, university of Alberta,1964.

(٢) الـــدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، نخبة من الباحثين والكتاب، إعداد مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقـــاف والشـــؤون الإسلامية، مؤتمر القمة الإسلامي التاسع، ط١،جمادى الآخرة ١٤٢١هـــ/ أيلول - سبتمبر ٢٠٠٠م.

٣- مسـلمة مارلو، التي تجعل "الإنسان المنمي لقدراته العقلية إلهاً يسود جميع العناصر ويهيمن عليها".

ولكـن خمسة قرون من الهيمنة المطلقة لم تنته بهذه الثقافة إلى ما استهدفته مسـلماتها تلـك مـن نتائج، وإنما إلى نقائضها من تلويث للطبيعة، واستنفاد لمواردهـا، وقدرة تقنية على إتلافها، وانغمار في مستنقعات السوق التي فاقمت العـنف، وسعرت الحروب، وألهبت نيران المزاحمة التي لم تفتأ أن جزأت المجتمع الواحـد إلى فـئات متناهشـة، وعمقـت الهوة بين شمال مستَقْطِبٍ للثروات المتفاحشة، وجنوب يتضور جوعاً ومسغبة.

أمـا زعم الاستغناء عن الله سبحانه في تدبير الكون، فقد انحدر بهذه الثقافة إلى كفـرانها بالقيم المطلقة، واعتبارها الإنسان والنـزعة القومية مركزاً للأشياء ومقياسـاً لهـا؛ فانقضت ركائز الحياة، وخيمت البلبلة، ومزقت حراب العنف أحشـاء المدن، وطم بحر الأهوال، وتوازنات الرعب، واحتدم سعار الإرادات والرغبات، على صعيد الأفراد والمجتمعات.

وممـا لا مـراء فيه أن هذه "الحداثة" المزعومة التي انطلقت منذئذ أبواقها للترويج لها، إنما هي دين، غير أنه لا يجرؤ على المجاهرة باسمه، وركنه الأوحـد إنمـا هـو "آحادية السوق"، تلك البدعة التي انفرد الغرب باختلاقها في مطلع "النهضـة" والذي اهتبل الاتحاد السوفيتي، وتحطيم العراق، واستبداد الولايات المـتحدة الأمريكـية بشؤون العالم الثالث وأوروبا، فرصة سانحة ليجاهر العالم باعتـبار "ليبراليـته الاقتصادية" نهاية التاريخ، على حد تعبير فوكوياما، أحد منظري أيديولوجية وزارة الدفاع الأمريكية.

وممـا لا شك فيه أنه ما من مسلمة من مسـلمات هذه "الحداثة" المزعومة إلا وهي مجرد أكذوبة من الأكاذيب، في مقدمتها:

أكذوبة الديموقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، وحماية الحريات.

والحق أن هذه الديموقراطية لم تكن في طور من أطوارها سوى وسيلة تعمية وتمويه، تلجأ إليها أقلية من مالكي العبيد إلى مالكي الثروات.

أما ديموقراطية أثينا على عهد بركليـــس، التي يضرب بها المثل، والتي تعتبر "أم الديموقراطيات"، فقد كانت عبارة عن حكومة يديرها عشرون ألف مواطن من الأحرار، يستبدون برقاب مئة ألف من الأرقاء المحرومين من جميع الحقوق.

أجل، إنها ديموقراطية، لا عيب فيها، غير أنها مقصورة على الأسياد، وليس لغيرهم من العبيد فيها نصيب.

أما الأكذوبة الثانية فهي المتعلقة بالمساواة بين الناس في الحقوق.

وعـــلى الرغم من نص وثيقة "إعلان الاستقلال الأمريكي" على هذا المبدأ، فقد ظل العبيد أكثر من قرن من الزمان يتجرعون علقم الاسترقاق، و لم يتورع حاملو هذا الشعار إلى اليوم عن ممارسة ألوان من التمييز العنصري الذي ينحدر بالزنوج إلى دركات الأشياء.

أجـــل، إنهـــا ديموقراطية لا عيب فيها غير أنها مقصورة على البيض، وليس لغيرهم من السود فيها نصيب[1] .

أمـــا الشهادة الثانية فهي موثقة إحصائياً، وهي التي أوردتها دراسة الدكتور "شـــافي بن سفر الهاجري" حيث عالج "نتائج" الرؤية الغربية للإنسان على واقع هذا الإنسان وانسجامه في إطارها، وذلك في الكتاب نفسه:

«هـــذه النظرة أو الفلسفة لموقع الإنسان في الرؤية الغربية، أو إن شئت فقل في الرؤية غير الإسلامية، والتي حاولنا استقراءها من أكثر من موقع جـــغرافي، أو أكـــثر مـــن مدرسة، وأكثر من اتجاه، وأكثر من تاريخ - وحاولنا ما أمكن توثـــيق ذلـــك لتتسم نظرتنا بالموضوعية وعدم التحيز - انتهت على المستوى العمـــلي أو على مستوى السلوك إلى واقع المعاناة الإنسانية الذي جاء ثمرة مرة لهـــذه الرؤية.. لذلك قد يكون من المطلوب منهجياً، بعد وضعنا الملامح العامة للـــنظرية العامـــة للإنسان في الرؤية الغربية أن نلقي ضوءاً على واقع الممارسة والتطبـــيق، وسوف نكتفي هنا بإيراد إحصاءات عن هذا الواقع وهذه الشقوة

(1) المصدر السابق، ص ١٦٧-١٦٩.

والمعانـــاة، تم إعدادهـــا مـــن خلال مؤسسات الحضارة نفسها، حيث إن علم الإحصـــاء اليوم هو من أهم العلوم التي تحدد توجهات المجتمع ووجهته وتبصر بالأمراض التي تقبع داخله:

- ألمانيا: ٣٠ ألف ينتحرون سنوياً.
- المجر: أعلى نسبة انتحار في العالم.
- العـــنف في أمريكا: ١٣٥ ألف مسدس تجلب للمدارس الأمريكية كل يـــوم؛ ٢,٤ مليون طالب مدرسة، يُسرق منه شيء؛ ٢٨٢ ألف طالب يـــتعرض للاعتداء الجسدي كل شهر، ٥٢٠٠ مدرس يتعرض للضرب في الشهر؛ أكثر من ٢١٠ آلاف أمريكي قتلوا في حوادث عنف داخلية خـــلال العقد الأخير ؛ ١٧ مليون ضحية لجرائم العنف في الفترة ذاتها؛ ٧٠% مـــن كل جرائم القتل تتم بالمسدسات؛ ٤٠% من جرائم القتل تتصل بالمخدرات.
- ١٢٠ ألف حادث انتحار في فرنسا.
- ٤٠ مليون أمريكي ضحايا الإجرام خلال عشرين عاماً. الخسائر المادية المترتبة على الجريمة عام ١٩٩١م بلغت ١٩ مليار دولار.
- الحكومة الأمريكية استخدمت الأسكيمو في تجربة الأدوية المشعة "تقرير ذكرته شبكة سي إن إن".
- أربـــاح الاتجار بالمخـــدرات حوالي ٥٠٠ بليون دولار سنوياً، ويعادل هـــذا المـــبلغ مجمـــوع الـــناتـــج القومـــي الإجمـــالي لثلثي الـــدول الأعضـــاء في الأمم المتحدة»[1].

وهـــناك شهادات عديدة من "داخل الذات" الغربية أوردها الدكتور "سالم أحمد محل" أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة صنعاء في ذات الكتاب[2] ولها قيمتها النقدية؛ لأنها صرخات تحذير من الداخل كما قلنا. وقد استشهد دكتور "محل"

---

(1) المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(2) المصدر السابق، ص ١٨١-١٩٠.

بـــأزولد اشـــبنكلر، وبالأحرى "آزفلد اشبنجلر ١٨٨٠-١٩٣٦م" و "آرنولد تويـــنبي ١٨٨٩-١٩٧٥م" و"جوزيـــف. أ. كامـــيليري" وكذلـــك "روجيه جـــارودي" و"الكسيس كاريل" والرئيس الأمريكي الأسبق "ريتشارد نكسون" والرئيس الفرنسي الأسبق "شارل ديجول"، حيث أكد الجميع أن الحضارة الغربية في "مرحلة تفسخ".

إذن: أين البدائل؟!

بعد هذا التداعي المنطقي في بحثنا، استدلالاً "عقلياً" واستقراء "علمياً"، يمكن أن نصـــل بوضـــوح إلى أن الـــبدائل تكمن في نسق حضاري نقيض لهذا النسق الوضـــعي/ العـــلماني بمنشـــئه الأوربي ومحصلته الأمريكية. والبديل النقيض هو "روحـــي" أو مـــا يسميه البعض "ديني" أو أخلاقي، وذلك لإعادة التوازن بين "جوهـــر" الإنســـان إنسانياً، ومنجزاته المادية في الحضارة، فلا يمارس الاستعلاء والاستغلال والفردية على ذاته وعلى الآخرين في كوّن مُسخّر له إلهياً منذ البداية.

كـــل الذيـــن طرحوا البدائل من داخل الذات الأوربية ركزوا على الجانب القـــيمي والأخلاقـــي والروحي، ولكنهم أبقوا على هذا التركيز في حيز الوعي "المـــتطلع" ولـــيس حيز "الوعي" المتشكل، فالكل ينشد قيماً روحية وأخلاقية "مضافة" ولكن ما هي بالتحديد؟ وما هو مصدرها؟

من بين الذين نقدوا التجربة الأوربية هناك "روجيه جارودي" الذي اختار الإســـلام، غـــير أن هذا الاختيار الإسلامي لا يشكل "القاعدة" لدى المفكرين الغربـــيين، وإن كـــنا نجد غيره كأمثال " محمد أسد" - أو - "ليوبولد فايش- سابقاً"[1] .

لا يـــنفي ذلك أن الإسلام قد استقطب كثيرين من أبناء الحضارة الغربية،

---

(1) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فرّوخ.

حيـــث اجتباهم المولى عز وجلّ، ولكنى اتجهت للمفكرين منهم بالذات والذين كشـــفوا عن ضرورات الطرح القيمي والروحي ولكن دون تحديد نوعية الوعي الروحي هذا، الذي يتطلعون إليه.

فلـــنأخذ مثالاً آخر لمفكّر وجودي حتى النخاع وهو "كولن ولسن"، الذي تكاد المكتبة العربية أن تكون قد ترجمت كل كتبه وأحياناً بعناوين مختلفة.

فمـــا يستشف من كتابات كولن ولسن[1]وبالذات في كتابه "اللامنتمي"[2] أنـــه ينتهي إلى نوع من "الإشراقية" و"الكشف الصوفي الآسيوي فيما كتبه عن "راما كريشنا" حيث أشار:

«وعلينا أن نفهم أن راما كريشنا استطاع الاحتفاظ بحساسية الطفولة طيلة حـــياته، أما نحن، وسط حضارتنا المعقدة، فإننا مضطرون إلى التبلور في مزاج معـــين، ولهذا فإنه ليس تزييفاً أن نقول: إن حضارتنا هي المسؤولة عن انتشار الـــنماذج الإنسانية والمادية في الفكر، أما راما كريشنا، الذي يعتبر في الطرف المعاكس، فقد كان باستطاعته أن ينفذ إلى أعمق ما يستطيعه الإنسان من ذهول تخيلي نشوان، الأمر الذي لم يستطع أن يفعله إلا عـــدد ضئيل جداً من الغربيين ما عدا أولئك القديسين الذين ظهروا في القرون الوسطى، والذين كانوا قادرين على أن يهبوا عقولهم أيضاً للتأمل والهدوء».

أما النماذج الإنسانية والمادية في الفكر الغربي فقد جسدها كولن ولسن في "الخـــبز والطاقـــة والجنس"، حيث يسيطر "الخبز" على عقل "كارل ماركس" ويســـيطر "الجنس" على عقل "فرويد"، كما تسيطر "الطاقة" على عقل "ألبرت أنشـــتاين"، وقـــد رمز لماركس بشخصية "لورنس"، ولفرويد بشخصية الرسام "فان جوخ" ولأنشتاين بشخصية راقص الباليه."بينيجنسكي".

(1) أورده الدكتور "شافي بن سفر الهاجري"، المصدر السابق، الدور الحضاري للأمة الإسلامية، ص ٢٣٩.

(2) كولن ولسن، اللامنتمي، ترجمة أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٦٩م، ص٨٠، "حول النماذج"، عن راما كريشنا، وص ٣٠٠-٣٠١.

المسيحية: لماذا ليست البديل؟

كـــل الذيـــن طرحوا آفاقاً للخلاص الروحي في الحضارة الغربية لم يتجهوا للمسيحية التي نشأوا في أحضانها.. وأربط "عدم التوجه" هذا بالمرحلة التأسيسية للفكر الوضعي في أوربا، أي الفكر الذي بدأ باستبعاد الدين على يد فرانسيس بـــيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) وإن كانت جذور هذا الفكر الوضعي تمتد تاريخياً إلى ما قبل ذلك. غير أن "جديد" بيكون هو محاولة فصله بين الاستدلالية العقلية والاستقرائية العلمية. وهو أمـــر لم يتبلور لاحقاً إلا على يد أوجـــست كونت (١٧٩٨- ١٨٥٧م) أبو الوضعية المعاصرة، الذي قسم مراحل تطور العقل من "اللاهوت" إلى "الميتافيزيقيا" إلى "الوضعية"[١] .

غير أن أبا الوضعية "كونت" هذا، قد انتهى في عام ١٨٤٥م، أي قبل وفاته بســـبعة عشـــر عاماً إلى أن يضع الشعور القلبي في مقام أرفع من العقل، ثم رأى الخلاص في "دين جديد" ولكنه لم يلجأ إلى المسيحية، إذ تعلق بدين للإنسانية[٢].

أمـــا (أرنولد توينبي)، الذي قدّم (نقداً موسوعياً) للحضارة الغربية، وكتب عن كل حضارات العالم وثقافاته تقريباً[٣]. فقد انتهى قبل وفاته في عام ١٩٧٥ م مـــتراوحاً بـــين الدعـــوة لدين عالمي وعقله "اللا أدري"، وذلك فيما نشرته صـــحيفة (الـــتايمز اللندنـــية بتاريخ ١٩٧٥/١٢/٢٠م؛ وهي تستعرض الرسائل المتبادلة وغير المنشورة بين توينبي والكاتب اليهودي (روزنتال).

للإجابـــة عـــلى ســـؤالنا: لماذا عدم الاتجاه إلى المسيحية كمدخل للخلاص الـــروحي، فإنـــنا لـــن نكتب بأفضل مما كتب المؤرخ الموسوعي (جون هرمان

---

(١) ول ديورانـــت: قصـــة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط٣، بيكون من ص ١٢٦، أوجست كونت من ص ٤٥٢.

(٢) المصدر السابق، ديورانت، ص ٤٥٥.

(٣) أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، Study of History، ٤ مجلدات، اختصاراً لاثني عشر مجلداً، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: أحمد عزت عبدالكريم، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م؛ كذلك: تاريخ البشرية، مجلدان، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م.

راندال[١] الذي أصّل لنشوء وتطور وتكوين "العقل الحديث" الصاعد، في تقديره، منذ القرن الثاني عشر في مواجهة "اللاهوت المسيحي"، والذي حاول بدوره تعديل مواقفه عبر تجديدات متتابعة و"حلول وسط" لحركة الإصلاح الديني.

تكمن مشكلة اللاهوت المسيحي في أن موضوعاته أو مقولاته الخاصة بالإنسان والنظرة إلى وجوده وحياته وعلاقته بالطبيعة قد أنتجت ضمن مرحلة عقلية هي الأكثر تخلفاً قياساً إلى ما سبقها من حضارة هيلينية واسكندرانية حفلت بالمحاورات الفلسفية العقلية. فجاء اللاهوت المسيحي، الذي لم ينشأ في الأرض المقدسة وإنما في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وكأنه الرد الأكثر تخلفاً على العقلانية اليونانية.

فلما استيقظت أوربا على فكر النهضة أو الأنوار بداية من القرن الثاني عشر، وإرهاصاً قوياً في القرن السادس عشر، بدأت أوربا تستعيد ذلك الموروث العقلي اليوناني، في مجال البحث في الطبيعة كما في مجال الإنسان، وقد كان (ابن رشد) أحد المساهمين في تلك اليقظة الأوربية جامعاً ما بين الدين والفلسفة (فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتصال) كما أعاد إحياء (أرسطو) الملقب بالمعلم الأول[٢].

قد حدثت ملابسات سلبية عديدة في كتابة الأناجيل الأربعة "متى، يوحنا، بطرس - بولص " ما عدا إنجيل "برنابا"، بما باعد بينها وبين النصوص الحقيقية

---

(١) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، مجلدان، ترجمة: جورج طعمة، مراجعة برهان دجاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، قدم له محمد حسين هيكل، انظر صفحات الإصلاح الديني من ٢٤١ إلى ٢٧٨، المجلد الأول بالعربية.

(٢) ابن رشد، فيلسوف الشرق والغرب، الملتقى الدولي حول حداثة ابن رشد، تونس ١٦-١٩٩٨/٢/٢١م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة برامج الثقافة والاتصال، بيت الحكمة، إصدار المجمع الثقافي، أبوظبي، ط١، ١٩٩٩م، ومشاركة: منظمة اليونسكو، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مجلدان، ولد ابن رشد في قرطبة بالأندلس عام ١١٢٦م وتوفي في مراكش عام ١١٩٨م.

الـــتي نطـــق بها السيد المسيح في الأرض المقدسة[١] وكذلك في إنشاء اللاهوت المســـيحي طبقاً لهذه الأناجيل، فحدث منذ البداية ما يشبه الطلاق بين العقلانية وهــــذا اللاهوت، فلما تسلحت العقلانية الأوربية بما ورثته عن الهيلينية في عصر الأنوار من جهة وما دفعتها إليه تطورات الرأسمالية المتنامية التي عززت من فعالية العقل الحر، المؤسس الأول للسوق الحر وقيمه، مما اضطر المناصرين لذلك العقل إلى إحداث الانقسام البروتستانتي الذي اكتشف من خلاله (ماكس فيبر) العلاقة المتناقضة بين ظهور الرأسمالية الحرة والعقلية الكاثوليكية التقليدية، بدأت مرحلة حصار اللاهوت المسيحي[٢].

تم تطور الحصار إلى "قطيعة معرفية" بظهور الفكر أو النهج "الوضعي" بداية مـــن فرانســـيس بيكون وصعوداً إلى (أوجست كونت) وليس انتهاء بالعولمة المعاصـــرة التي تتراوح ما بين الوضعية والعلمانية، فليس كل علماني هو وضعي يستبعد الدين، وأمثل هنا بحالة الفيلسوف الفرنسي فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) إذ كثيراً ما كان يردد " أن اللاهوت المسيحي قد بدأ حين التقى أول كاهن محتال من رجال الدين بأول أحمق من البشر"، وقد كان شديد الخصومة لرجال الدين وللاهوت، ووجه نقداً عنيفاً حول صحة الأناجيل.

"وحـــين اشتد به المرض إلى درجة استدعاء القسيس ليسمع اعترافه، وسأله فولـــتير عمن أرسله، فأجابه إن الله قد أرسله، فسأله فولتير أن يقدم له أوراق اعتماده. وانصرف القسيس من غير أن يغنم بغنيمته. وأرسل فولتير بعد ذلك في طلب قســـيس آخر. ولكن هذا القســـيس رفض تقديـــم الغفران إلى فولتيـــر

---

(١) محمد أبوالقاسم حاج حمد، ٢٩ / ٣ / ١٩٧٩م، المراسلات غير المنشورة بين توينبي وروزنتال، التايمز اللندنية، ١٩٧٥/١٢/٢٠؛ كذلـــك: الإشـــارة إلى دراسات برونو باور، حول نقد تاريخ إنجيل القديس يوحنا، عام ١٨٤٠؛ ونقـــد تـــاريخ الأناجـــيل الأربعة، ١٨٤١؛ ونقد التفسير اللاهوتي للأناجيل، برلين ١٨٥٢م، ترجمة الحوارات، صحيفة الاتحاد، ٢٩ /١٩٧٩/٣م.

(٢) مـــاكس فيـــبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي؛ انظر جميل قاسم، مصدر سابق، ص ٩٤.

مـــا لم يوقع على اعترافه وإيمانه بالمذهب الكاثوليكي إيماناً راسخاً. ولكن فولتير ثارت ثورته لهذا الطلب وكتب بدلاً من ذلك بياناً قدمه إلى سكرتيره (واجنر) ذكـــر فـــيه: «أموت على عبادة الله، ومحبة أصدقائي، وكراهية أعدائي، ومقتي لـــلخرافات والأســـاطير الدخـــيلة على الدين».. ووقع هذا البيان، في الثامن والعشرين من فبراير عام ١٧٧٨م".

ويقول (ديورانت) [1]:

«ولكن يجب ألا نفترض من هذا أن فولتير كان رجلاً بلا دين، فقد رفض الإلحاد رفضاً باتاً، حتى أن بعض الملحدين الذين اشتركوا في "كتابة الموسوعة" اتجهـــوا ضـــده، وهو يقول في كتابه الفيلسوف الجاهل، أنه قرأ سبينوزا وآراءه حول وحدة الكون وتأليهه ولكنه ابتعد عنها على أساس كونها آراء ملحدة».

ذلـــك هـــو مـــا كان من فارق بين العقلانية الأوربية والأناجيل الأربعة واللاهوت الذي بني عليها، وبالذات في إطار المنظومة الكاثوليكية، وقد شكلت الإرهاصـــات الرأسمالـــية الأولى، كمـــا ذكرنا، بداية انطلاق العقل الحر بوجه الكاثوليكية التقليدية.

«قـــد حاول ماكس فيبر في كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" أن يـــبيّن أثـــر التربية وبنية الوعي التي يرسخها المناخ الديني على تطور ونشوء عقلـــية اقتصـــادية، وهي، ههنا، دور الأخلاق البروتستانية في تطور المشروع الرأسمالي. وهو يرى، بالمحصلة، أن القواعد الشكلية العقلية لبنية عقلية ما تؤدي إلى انبـــثاق عقلية تقنية وإدارية في المجال الإنتاجي الاقتصادي، أي أن بنية العقل الصورية تتضمن بُنْية تقنية في مجال القانون والإدارة والتخمين والمبادرة. من هنا، مـــثلاً، يُلاحظ أن الكاثوليكي، كان، عادة، يتحلى بذهنية جبرية أكثر انفصالاً عـــن العـــالم من البروتستانتي القدري الأكثر إقبالاً على العالم، فالأول يميل إلى الاكـــتفاء والـــزهد، بينما الثاني يميل إلى المغامرة والريادة. الكاثوليكي يرفض "المادية" باعتبارها نتيجة العلمنة وتزمين شؤون الحياة، بينما البروتستانتي يسعى

(١) ول ديورانت، قصة الفلسفة، مصدر سابق، ص ٢٩٧ – ٢٩٩، ٣١٢.

إلى الكســب المادي باعتباره شكلاً من أشكال الجدارة الطُهرية وتحقيق الذات الاجتماعــية. ولــيس المذهب الأخلاقي في دين أو عقيدة دينية معينة هو الذي يــنطوي على قدرات بسيكولوجية معينة، بل السلوك الأخلاقي الذي تتضمنه العقيدة الدينية، كالائتمان، وإعلاء شأن العمل والمبادرة، والبحث المنهجي عن الكسب، والتقدير لعامل الوقت، والمنفعــة المترتبة عليه، والدقة، كل هذه هي الــتي تحــدد روح العقــيدة أو المذهــب وما تؤدي إليه من مفاعيل في الحياة الاجتماعية- الاقتصادية. وإذا أثّر الفكر على الاقتصاد، والاقتصاد على الفكر، فإن هذا يؤكد جدلية التأثر البنيوي في علاقة الفكر بالواقع، والمادة بالوعي. وقد تركــت الفكــرة التطورية في القرن التاسع عشر أثراً بارزاً على العلم والفكر والأديان، وأسهمت في إخضاع الظواهر الفكرية إلى النسبية التطورية، حتى تلك الظواهر التي تتميز ببنى تطورية - تزامنية، كالدين، والجماعات الأنثروبولوجية كالطائفــة والقبيلة ..إلخ. وإذ أدت التطورية إلى بروز أنماط تطورية من الوعي الديــني، مثلما أسهمت بنية الوعي البروتستانتي في التطور الرأسمالي، في الغرب، فإنهــا أســـهمت في الشرق العربي ببروز وعي ديني تطوري قامت على أُسسه إشكالية الإصلاح» [1].

غــير أن وتــيرة التطور الأوربي تجاوزت حتى قدرات الإصلاح البروتستانتي، بحكــم ضوابط مرجعيته اللاهوتية والكهنوتية، حتى دخلنا مرحلة الفكر الوضعي ومؤثــراته، "وعادة ما يطلق على الفلسفة الوضعية المعاصرة أسماء متعددة، تعتبر في كــثير من الكتب التي تتناول الفلسفة المعاصرة، كما لو كانت كلها مترادفة. فهي تســمى أحــياناً: "بالوضــعية الجديدة" New-Positivism أو بأسماء أخرى مثل: "الوضعية المنطقية" Logical Positivism، أو "التجريبية المنطقية"Logical Empiricism أو "التجريــبية المتسقة" Consistent Empiricism، أو "التجريبية العلمية" Scientific Empiricism، أو "الوضعية الجديدة المنطقية" Logical new Positivism.

---

(1) جميل قاسم، مصدر سابق، ص ٩٤-٩٥.

وكمـــا تخـــتلف وتتعدد الأسماء التي تسمي هذا الاتجاه الفلسفي، أو هذه الحـــركة الفلســـفية المعاصرة، نجد أن هناك اختلافاً أيضاً بين مؤرخي الفلسفة المعاصـــرة حـــول المساحة التي تشـــغلها تلك الحركة الفلسفية الجديدة بالنسبة للفكر الفلسفي المعاصر. فهناك من يقصرها على الفلســـفة الوضعية المنطقـــية، أو التجريبـــية المنطقية وحدها، وهناك من يجعل مداها يتسع فيستوعب الصورة التي تطورت عليها، وعرفت بالتجريبية العلمية أو الوضعية المنطقية الجديدة[1].

وقـــد أدى هـــذا السياق التطوري إلى توليد الفلسفة الأدائية والبراجماتزم، بحيث إنه قد فقدت الحدود بين الأقسام الفلسفية في الإنتاج الراهن:

«إن الاتجاهات الفلسفية المعاصرة لا تمثل في حقيقتها مدارس فلسفية بالمعنى التقلـــيدي القـــديم بقـــدر ما تمثل فلسفات تتجمع في إطارات عامة. ففلسفة الـــبراجماتيزم مـــثلاً، كما تتمثل في الفلسفة البراجماتية Pragmatism عند وليم جـــيمس، تتمثل في الفلسفة البراجماسية أو "البراجماطيقية" Pragmaticism عند بـــيرس، وتتمثل في النـــزعة الوسيلة "أو الاداتية" instrumentalism عند جون ديـــوي، وكذا في النـــزعة الإنسانية Humanism عند شيلر، وإن كانت كلها يجمعها إطار واحد هو النـــزعة البراجماتية»[2].

البديل هو الإسلام .. ولكن:

قد قيمنا حتى الآن الحاجة الإنسانية الحضارية المتأزمة للدور الرسالي، وعجز اللاهـــوت المســـيحي - رغمـــاً من محاولات الإصلاح والتجديد - الإحاطة بالعقلانـــية الغربية نتيجة بنائيته السلبية التي أوضحناها. فلم يتبق أمام الإنسانية جمعـــاء ســـوى كتاب واحد يتعالى على "اللاهوت" وعلى "التزييف" معاً وهو "القرآن الكريم" الذي جعله الله سبحانه وتعالى خاتم رسالاته وكلماته للأرض، باعثاً به آخر الرسل والأنبياء وختامهم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(1) عزمي إسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٨٠م، ص ١٠٧.

(2) المصدر سابق، ص ١٦.

والقـــرآن الكـــريم قد جمع في الذكر بين أرقى المستويات العبادية والعقلية وعلى مستوى كوني متجاوز ومستوعب أيضاً كافة "المناهج المعرفية" البشرية، أيـــاً كانـــت مشـــمولاتها ومضامينها، ومنفتحاً ومتفاعلاً مع كافة "الأنساق الحضـــارية" بمـــنطق "التعارف" الذي يشكل ركناً أساسياً في علاقة المسلمين بالآخرين، وحتى بأنفسهم، شعوباً وقبائل.

فالقـــرآن وعي كوني، محيط وشامل، بل هو وعي مطلق؛ لأنه وحـــي إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فليس في الإسلام لاهوتاً كذاك الذي ابـــتدعه المسيحيون، وليس فيه مرجعية كهنوتـــية، ولم يقف يوماً أمـــام العقل أو الحـــرية، بـــل إن الله ســـبحانه وتعالى قد نبه لفارق العبودية له من عبده، والعـــبودية بين الناس، فنهى عن ضرب الأمثال: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:٧٤-٧٦).

فالمملوك للبشر مملوك هو وما بيده: ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾، وكذلك هو ﴿ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾، أي مسلوب الإرادة ومسلوب التعـــبير إلى حـــد البكمة. ثم هو ﴿ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴾ رهن إشارته، ومولاه البشري ذاك بصفته مالك عبيد فإنه بحكم تكوينه لا يوجهه لخير ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾.

أحــاط الله ســبحانه وتعالى في هذه المقاطع من سورة (النحل) بمواصفات مجــتمعات "القنانة" و"العبودية البشرية" لا ليجعلها "قدراً" كما فعل اللاهوت المسيحي في دعمه للإقطاع والحق الإلهي المقدس للملوك. ولكن ليجعلها سبة في جــبين البشــرية، ثم يؤكــد على المعنى النوعي المفارق حين تتعلق العبودية به ســبحانه وتعالى، فهو لا يكتفي بتمليك عبده الحر للرزق بل ينتجه له كالعسل واللبن من بين "فرث ودم" ثم يمنحه حرية التصرف فيه: ﴿ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾. ثم إن الله سبحانه لا يأمر عبده إلاّ بالعدل ويوجهه للصراط المستقيم، ويزيد إلى ذلك تمليكه قوة الوعي والإدراك الثلاثي: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الــنحل:٧٨)، فــلا بكمة ولا اســتلاب وعي ولا استلاب رأي أو تعبير، ثم يجعل الله من الطير في جوّ السماء مثالاً على هذه الحرية: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل:٧٩).

ذلــك هــو الإنسان في القرآن، وذاك هو "عبدالله"، فلم يكن القرآن يوماً خصيماً للعقل والعقلانية وحرية التعبير والإرادة.

والإنســان في القرآن "كائن كوني" ممتد في الزمان والمكان، ما قبل ميلاده وإلى مــا بعــد بعثه: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة:٢٨).

وكذلك: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ (غافر:١١).

فهـــذا الإنسان لا يحيط به أي منهج وضعي، فهو أكبر من الزمان الوضعي والمكـــان الوضـــعي وكذلك الفلسفة الوضعية. والكون الذي يولد فيه الكائن الإنساني هو أكبر من أن تحيط به الفلسفات الوضعية مهما أنتجت من النظريات "النسبية" أو الجدل والصيرورة أو الثورات الفيزيائية، أو الحداثة وما بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (غافر:٥٦-٥٧).

وهكـــذا يقف العلم أمام كون لا متناه في الصغر ولا متناه في الكبر، كون خُلق فيه الإنسان وهو أكبر من خلق الإنسان.

بهـــذا المـــنطق التكويني لا يبوتق الإنسان - كما تبوتقه الحضارة الغربية - ليكون مادة بايولوجية للإنتاج والاستهلاك، هنا يصبح الإنسان"قيمة وجودية" متعالية على الطبيعة البحتة وبهيميتها، حيث يدعوه الله سبحانه ليتسامى إليه عبر الديـــن، ولتتحقق من خلال هذا الإنسان منهجية الحق التي خلق الله بها الخلق، ولـــيس منهجية العبث الوضعي، مادياً كان هذا العبث أو مثالياً: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:١٦-١٨).

فالخلق الإلهي للإنسان والكون ليس ملهاة عبثية كتلك التي تجسدها أساطير "الأولمب" حيث مسكن آلهة قدماء اليونان الذين خلقوا الخلق للتسلية والمنافسة

فـــيما بيـــنهم. فهنا "خلق" ينتهي إلى "غائية حق" وهذا هو أساس الدين حيث يتسامى الكائن الكوني وهو الإنسان متجاوزاً "وضعية" الأرض.

هـــنا فقط تحل "الإشكالية" التي أفرزها الأزمة الحضارية العالمية، وهذه هي "رسالتنا"، وهذا هو "دورنا"، وكما تذكر مقدمة المحور الثالث (لإلحاق الرحمة بالعالمين).

ولكن .. كيف نؤدي هذه الرسالة؟

ليســـت مشكلتنا أن بنا لا هوتاً أو كهنوتاً، ولكن مشكلتنا أن بنا "تخلفاً"، والفكـــري والـــثقافي من هذا التخلف أقذع من الاقتصادي والاجتماعي، وإن كانـــت هذه المنظومة مترابطة ببعضها، اقتصاداً واجتماعاً وفكراً، كما أوضحنا في تحلـــيل (مـــاكس فيـــبر) للـــترابط بين البروتستانية وروح الرأسمالية بوجه الكاثوليكية التقليدية.

إن مجتمعاتـــنا ما تزال تعيش بوعيها المتجذر مرحلة ما قبل الصناعة، وليس المطلـــوب الـــلحاق بالمرحلة التكنولوجية والمتقدمة كما هو مستوى الحضارة الغربـــية الراهنة، أي أن نبدأ "ذاتياً" من جديد أو أن نستعير فقط ما يمكن من الغـــير، فالاســـتعارة لا تشكل "حيوية حضارية" وإنما تشكل "تبطلاً" حضارياً وذهنياً، واتكالية تجعل منا تجاه الغرب كحال العبد المملوك مع مالكه ﴿ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾.

قد انطلقت أوربا في نهضتها - أياً كانت النتائج السلبية - بعد أن جيشت مـــنذ القـــرن السادس عشر الحرفيين والتجار الذين يموّلون الحرفيين ويسوقون منـــتجاتهم، فتحول الحرفيون إلى صناعيين والتجار إلى رأسماليين بعد أن سندتهم اخـــتراعات العـــلماء وكشوف الرحالة، وأزاح رجال العقل والفلسفة سلطة الكهنوت واللاهوت والحق الإلهي المقدس للملوك.

قـــوى مـــترابطة عضوياً، تدفع بالتطور،وعلى مدى قرون، ولكنها افتقرت

للبديل الديني في نسقها الحضاري.

ولا نقــول: إن لدينا "المقابل" الذي "نقايض" به، أي روحانية الدين، فهم مايزالون يسحبون على ديننا ما سحبوه على اللاهوت المسيحي إلا أن "نبرهن" عــلى أن ديننا "الإسلام" وكتابه "القرآن" ونبيه ورسوله "الخاتم" يملكون القدرة للــتعامل مع الموروث العقلاني للحضارة الغربية حتى ضمن أعلى سقف له في الوضــعية المنطقــية المعاصرة، كما شخصها دكتور (عزمي سلام)، دون ذلك حرث في بحر.

فالســؤال الآن: هل نملك نحن الذين نتنادى للحلول الإسلامية نفس مستوى "الوعي الحداثي" في فهمنا لديننا، بحيث نستطيع مخاطبة الحداثة الغربية، ونعوضها عن "لاهوتها المسيحي" من جهة وعن "وضعيتها وعلمانيتها" من جهة أخرى؟!

لعــلي طرحت بذلك "شروط" الخطاب الإسلامي المعاصر، لأنفسنا أولاً حتى يكــون للغير ثانياً؛ أي البدء بأنفسنا، غير أننا "كمسلمين" مانزال في وضع ثقافي وبالطبع أيديولوجي لا يؤهلنا لهذا الدور، ولعلّي ألجأ هنا للتقييم ذي النقاط الست التي ساقها دكتور (حسن حنفي) لهذا الخطاب[1] كوجهة نظر لا تخلو من تحفظات:

١- الــبداية بالإيمانيات والإلهيات، وليس بالعقليات والإنسانيات، دفاعاً عــن حقوق الله وحقوق الإنسان أولى بالدفاع، فالمشروع الحضاري الجديــد من مقتضيات الإيمان تنفيذاً للأمر الإلهي وليس من متطلبات العصر. حاجاته إلى إعمال العقل والدفاع عن كرامة المواطن وحقوق الإنسان يعتمد على النص، قال الله وقال الرسول، أكثر مما يعتمد على العقل وتحليل العلل المادِّية المكّونة للواقع والدفاع عن السلوك كما هو الحال في نظرية العلم في علم الأصول.

٢- استعمال تطبيق الشريعة الإسلامية كوسيلة للضغط الاجتماعي وليس للــثورة الاجتماعــية، كفرض إلهي وليس تعبيراً عن مصالح الناس،

---

[1] حســن حنفــي، المشــروع الحضاري العربي .. إلى أين؟ محاضرات الموسم الثقافي الخامس عشر، ١٩٩٩م، مؤسسة الثقافة والفنون، المجمع الثقافي، أبوظبي، ص ٨٦-٨٧.

مطالبة للناس بواجباتهم قبل إعطائهم حقوقهم، وتقديم الحدود والعقوبات على تطبيق النظام الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والبداية بالشكليات والمظاهر الخارجية وبالتستُّر والحجاب قبل النزول إلى رحاب الفضاء والسعي في ربوع الأرض.

٣- تقليد القدماء إحساساً بالعجز أمام العصر الذهبي الأول في عدم ترك السلف إلى الخلف شيئاً: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾. نشأت الحركات السلفية والعودة إلى الأصول هرباً من الحاضر وتعويضاً عن أزماته في عظمة الماضي والاقتداء بنموذجه وسنن أبطاله مع أن الحاضر مملوء بنماذج الجهاد في جنوب لبنان وفي فلسطين وفي أفغانستان.

٤- رفض الواقع والعجز عن التعاون معه، الخروج عليه وتكفيره، والوقوع في جدل أما.. أو ، الكل، أو، لا شيء، أما الإسلام أو الجاهلية، الإيمان أو الكفر، الله أو الطاغوت. ولا مصالحة بينهما، بقاء أحدهما مرهون بالقضاء على الآخر، ولا حل لهذا الصراع إلا باستيلاء على السلطة، بتنظيم سرِّي أو علني.

وبالتالي وجب قلب نظام الحكم وتأسيس الحكومة الإسلامية، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. ولما كانت السلطة في كل مكان بين هذه النظم والجماعات الإسلامية يأتي حدّ العنف المتبادل، وإراقة دماء المسلمين بالقتل من طرف والاغتيال من طرف آخر.

٥- رفض الحوار مع التيارات الفكرية الأخرى واتهامها بالعلمانية وتكفيرها؛ لأنها تفصل بين الدين والدولة، ولا تطبّق الشريعة الإسلامية، فالجماعات الإسلامية وحدها تمتلك الحقيقة وغيرها في الضلالة والبهتان، منطق الفرقة الناجية مقابل الفرق الهالكة، وحتى دون اعتبارهم من المؤلَّفة قلوبهم ممن لهم حقّ في بيت المال، وهم جميعاً أبناء وطن واحد.

٦- ردة البعض منهم إلى النقيض، فالنقيض يولد النقيض، والطرف ينقلب إلى الطرف المضاد، فيحوّل إلى قومي أو اشتراكي أو ماركسي أو ليبرالي جذري أو ينشغل بالتجارة وشؤون الدنيا بعد أن تَشَبَّعَ بشؤون الدين، ويصبح الدين وسيلة للغطاء والتستُّر على مباهج الحياة واستغلال للبسطاء".

ربما يقول بعضهم أن الدكتور حسن حنفي قد "غالى" بعض الشيء حين سحب مقولات الحركات المتطرفة على مجمل الفكر الإسلامي السائد غافلاً عن طرح "الوسطيين" أو المعتدلين من العلماء والفقهاء الأكثر اختصاصاً بهذه القضايا.

القضية هنا ليست في "العينة" التي اتخذها دكتور حنفي ناطقة باسم التيار الديني، فالاختيار بالنسبة للدكتور حنفي ليس "انتقائياً" فهي عينة تجسد مثلاً الخطاب الإسلامي الراهن، ومن يدعي الاعتدال والوسطية هو على هامش هذا التيار، وذلك لسبب رئيسي وبسيط وهو أن التيار الذي يدعي الاعتدال والوسطية لم يبلور مواقفه في إطار "العقلانية الإسلامية" بحيث إنه لا يبدي أي نوع من التواصل أو حتى ذكر الاتصال الثقافي بجذور ورموز العقلانية الإسلامية طوال المرحلة ما بين القرنين الهجريين الثالث وإلى السابع "القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادي"، فإذا تواصل "المعتدلون" مع تلك المرحلة فإنهم يأخذون باتجاهات وفتاوى وأحكام مدرسة "النقل" وليس "الرأي".

كما أننا لا نرى تواصلاً فعلياً في توجهات هؤلاء بفكر الإصلاح الديني والنهضة طوال الفترة ما بين ١٧٩٨ وإلى ١٩١٤ تقريباً[1]

فاهتماماتنا لما يطلق عيه تيار الوسطية والاعتدال لا تقل عن اهتماماتنا لتيارات

---

(1) حددت معظم الدراسات التي تناولت بدايات التجديد والإصلاح الديني المعاصر فترة ما بين ١٧٩٨ وإلى عام ١٩١٤م وما بعدها بقليل كعنوان لتلك الفترة: البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة(١٧٩٨-١٩٣٩م)، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧م؛ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩١٤م، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٥م.

الغلـــوّ والتطرف، فلو ركز التيار الوسطي على ابتعاث(ابن رشد) و(الكندي) و(الفارابي) و(ابن سينا) و(ابن خلدون) ومعظم الفلاسفة العقلانيين في مرحـــلة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين، ولو تم التركيز أيضاً على ابتعاث (جمـــال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) و (رشيد رضا) وحتى (علي عبدالرزاق) في مـــرحلة فكـــر النهضة، لما كانت "العينة الغالبة" هي تلك التي لجأ لتصنيف أفكارها الدكتور حسن حنفي.

ولنا أن نسجل هنا برؤية البروفيسور (محمد أركون) حول تلك "الانفتاحية" في المجتمع الإسلامي، التي ارتبطت "بالعقلانية" الإسلامية[1].

مجتمع منفتح:

هـــل من الممكن، كخلاصة لهذا الفصل، أن نقدم بإيجاز نمط المجتمع الذي ســـاد طـــيلة الحقـــبة الكلاسيكية الإسلامية؟ إننا نرى فيه لأول وهلة "مجتمعاً منفتحاً".

كانـــت بغداد والعواصم الأخرى لمختلف إمارات الشرق، وقرطبة الأموية، والمراكز الكبرى المرابطية والموحِّدة، وتونس والأغالبة والحفصية، كانت مراكز إشـــعاع عـــلمي كـــوني، من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادي، صـــدرت مؤلفات كبرى في مجالات العلوم والفلسفة والأدب والفنون ومختلف علوم الدين. يكفي أن نذكر هنا أن العالم الرياضي والجغرافي والفلكي أبوالريحان الـــبيروني، والفلاسفة والأطباء والعلماء أمثال الكندي والفارابي، وابن سينا في الشـــرق، وابـــن باجه وابن طفيل وابن رشد، في الغرب، والكتّاب الصوفيين، وجلال الدين الرومي الإيراني، والموسيقيين، و"المصلح" الغزالي والفقيه فخرالدين الرازي.. ويمكن إيراد الكثير الكثير من الأسماء.

وكثيرة كانت، في الغرب وفي الشرق، في القصر كما في المدينة، "المجالس"

---

[1] محمـــد اركون، لوي غارديه، الإسلام: الأمس والغد، ترجمة: علي المقلد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط. ع . ١، ١٩٨٣م، ص ٧٣-٧٤.

المفـــتوحة على يد وزير أو أمير، وكان يلتقي في هذه المجالس المثقفون والعلماء فيتـــبارون في مـــناظرات فكرية وأحاديث وحوارات في كل فن. وإبّان الحقبة العباســـية العظـــيمة، ظلّت هذه المجالس مفتوحة للذميين من اليهود والمسيحيين والصابئة، وكان للفيلسوف المسيحي يحيى بن عدي مجلس يتردد إليه المسلمون. وأصبحت المجالس مؤسسة اجتماعية امتازت بها الحاضرات الإسلامية، فيها نشأ "أدب الســـــلوك".. والحقـــيقة تُقال، إن الأخـــلاقيات فيها، ســـواء كانت قرآنـــية، أم موروثـــة عـــن الإغريق، كانت غير محترمة كثيراً. وفي المدوّنات الاجتماعـــية، عـــن تلـــك الحقبة، نجد الكثير من الاحتجاجات ضد "الإباحية ورخـــص الأخلاق" السائدة في الكثير من مجالس الأدب. وقد سادت فيها على الأقل روح التسامح وتقبل الآخرين على عِـــلاّقم.

هذه اللقاءات بين العلماء والباحثين جعلت من المجتمع الإسلامي، في عصره الكلاســـيكي مجـــتمعاً منفتحاً. وقد امتدت هذه اللقاءات إلى الأسواق، حيث أصـــبحت تُعقَـــد فـــيها حلقات عفوية يجتمع فيها المتعلمون، ورجال الدين، والطـــلاب مـــع أصحاب الحوانيت والباعة وأهل الحرف. وكان لهذه اللقاءات أثرها، أكثر من مرة، في سياسة الدولة.

مجـــتمع منفتح يُقبَل فيه العابرون من كل نوع وصوب. وكان حب السفر طاغـــياً في المجـــتمع الإسلامي الكلاسيكي. فالتجارة البرية والبحرية، بواسطة القوافل أو السفن، كانت مزدهرة. كما أن الحكمة القائلة: «اطلبْ العلم ولو في الصين» لم يكن حرفاً ميتاً، فالبحارة، والتجار والحجاج، والجغرافيون المكلّفون مـــن قـــبل الدول، والعلماء والفلاسفة والمتصوفون المتلهفون على معرفة معلم مشهور وبعيد كانوا يتجولون ويجتازون دروب العالم الإسلامي، بل ويغامرون أحياناً إلى ما وراء حدوده.

وبفضل الكتّاب وصلتنا تقارير عن هذه الرحلات. وهي تدل على حرصهم على الموضوعية العلمية الخالصة، وقد تدل أحياناً على ولعهم بالغريب والعجيب،

وبنقل الأساطير عن البلدان المجهولة، والأقاصيص والحكايا الشعبية اغتنت من هذه الأساطير.. وإلى الحقبة الكلاسيكية تعود حكايا الجن والكائنات الأسطورية التي تعمر قصة السندباد البحري وقصص ألف ليلة وليلة. وإلى هذه الحقبة أيضاً تنتمي دقائق الجغرافي المقدسي، وكتاب البيروني عن الهند وعُلومها وحضارتها".

خاتمة: السبيل إلى الخروج:

إن استعادة العقلانية الإسلامية لتلعب دورها مجدداً ضمن واقع المتغيرات "النوعية" المعاصرة، وليس بمنطق "التكرار" هي المدخل لإحداث "النهضة" التي يؤسس عليها استعادة "الدور الرسالي رحمة بالعالمين".

فهذه العقلانية تشكل معبراً باتجاهين متكاملين:

أولاً: إعادة النظر في فهم الموروث، بكل إيجابياته وسلبياته، ضمن رؤى تحليلية معرفية ومنهجية.

ثانياً: إعادة تحليل الحضارة الغربية وموقفنا منها، بكل سلبياتها وإيجابياتها.

ونسترفد هنا قولاً سديداً للمفكر العربي المسلم الليبي د. مصطفى التير: إن "العقلانية بمعنى توظيف القدرات لاكتساب المعرفة وتوصيلها ونشرها، ليست بالأمر الغريب عند العرب، وهي ليست غريبة كمفهوم، كما أنها ليست غريبة كوظيفة. "إن العقل ليس اكتشافاً جديداً في الثقافة العربية، ولا هو ثمرة الحضارة الحديثة الصاعدة، بل هو أكثر المفاهيم رواجاً في هذه الثقافة". ولكن الكيفية التي تستخدم بها القدرات العقلية تخضع لتأثير خصائص الثقافة في زمن ومكان معينين، وخصوصاً تلك الثوابت الثقافية التي تحدد خطوط سير الفكر وتحدّ من حرية انطلاقه، وهي ثوابت تستمد قوتها، وكذلك شرعيتها، من الدين ومن التراث ومن التاريخ، لذلك توجد عقلانيات مختلفة، ولبعضها قيود أشد صرامة من بعضها الآخر.

ونوع العقلانية هو الذي يحدد المسارات العامة التي يمكن أن يتحرك ضمنها

نمط التفكير، أي الأسلوب الذي يترجم من خلال نوع العقلانية السائد عند التعامل مع الواقع وحل المشكلات التي يواجهها. فبواسطة الأنشطة المتعلقة بنمط التفكير تبنى المعارف وتُرتَّب الحقائق، وتكون جميع هذه نسبية ومستقلة عن الفرد وتخضع لمحكّات عملية في حالة سيادة العقلانية التجريبية، ولكن عقلانيات أخرى لا تكون مستقلة عن الفرد، كما أن مصداقيتها تكون في التطابق مع نسق معرفي محدد مسبقاً إلى دين أو إلى أيديولوجيا.

وعلى الرغم من إمكانية وجود أكثر من نوع من العقلانية في المجتمع نفسه وفي الوقت نفسه، إلا أن واحداً منها تكون له مكانة أرفع، وعند سيطرة العقلانية في داخل ثقافة معينة. وإذا فرضت هذه الثقافة سلطتها على ثقافات أخرى، فإن سيطرة نوع العقلانية هذه سيتجاوز حدود مجتمع الثقافة التي ظهر فيها هذا النوع أول مرة.

إن تجربة التحديث الأوربية بشقيها الغربي والشرقي، تسيطر اليوم على العالم من أقصاه إلى أقصاه، وهي تجربة ترتبط بتطور المعرفة العلمية وتقدمها وتوظيفاتها الصناعية. لكن هذا لا يعني بالضرورة أنها التجربة الناجحة الوحيدة، ولا أنها تجربة خالية من العيوب ومن الآثار السلبية. وتقدم الوقائع العلمية أدلة ملموسة تشير بأصابع الاتهام إلى هذه التجربة وتحمّلها مسؤولية معاناة ملايين البشر ومسؤولية دفع العالم نحو أوضاع قد تؤدي إلى نهايته[1].

إن ذلك يتطلب إصلاحاً كبيراً في المناهج التربوية والتعليمية والإعلام مع تفعيل دور مراكز البحوث المنهجية والفكرية جنباً إلى جنب مع الجامعات، حتى نؤدي رسالتنا لأنفسنا وللعالمين.

---

(1) مصطفى عمر التير، الدين والعقلانية ونمط تحديث التفكير العربي، ملاحظات مبدئية، ضمن (ندوة: الدين في المجتمع العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية (و) الجمعية العربية لعلم الاجتماع، مطبوعة، بيروت، حزيران يونيو ١٩٩٠م، ص ٦٠٤ - ٦٠٥.

وبما أن منظومة دول مجلس التعاون الخليجي تمضي باتجاه التحديث الحامل للعقلانية جنباً إلى جنب مع ترسيخ "الأصالة"، وتقوم علاقاتها الاجتماعية والسياسية على منطق القبيلة الممتدة" وليس النظام السلوكي "المغلق"، فإن للمثقف المسلم الملتزم دوراً أساسياً يجمعه إلى رجل الدولة وكذلك العلماء والفقهاء لوضع أسس جديدة ومعاصرة لهذا الدور الرسالي انطلاقاً من "مسؤولية الذكر":

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٤).

وهي مسؤولية إن لم تنجز بعد أن وفرّ الله سبحانه لنا كل مقوماتها يمكن أن تؤخذ منا إلى غيرنا: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة:٣٩)، وكذلك: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (محمد:٣٨)، وكذلك: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (التوبة:١٩-٢٠).

وبالله التوفيق.

رسالة الإسلام
تجليات الحاضر وإمكانات مواجهة المستقبل

الدكتورة ميثاء الشامسي[*]

> يجب على المثقف العربي المسلم أن ينظر إلى الوقائع «من زاويتها الإنسانية الرحيبة ليدرك دوره الخاص ودور ثقافته في الإطار العالمي»، ويتهيأ إلى الحوار مع ثقافة (الآخر)، حواراً يحفظ به وجوده، وينمي ثقافته، ليكون في مستوى التفاعل الحقيقي لا في مستوى الخضوع والاستسلام.

مقدمة: في أهمية الدراسة وموضوعها:-

يؤكد المؤرخون والمشتغلون بالدراسات الإنسانية على الدور الفاعل الذي لعبته الرسالة الإسلامية في تحقيق العديد من التغيرات والإنجازات الهائلة في مختلف المجالات في مجتمع شبه الجزيرة العربية، بل والمجتمعات العربية الإسلامية. وقد جنى الأفراد والجماعات ثمار هذه التغيرات وتطورت - على أثرها - الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، بل وازدادت مكانة العالم العربي

*) نائب المدير لشؤون البحث العلمي، جامعة الإمارات العربية المتحدة (دولة الإمارات العربية المتحدة).

الإســـلامي قوة على الخريطة العالمية. لكن صورة الحاضر التي رسمتها التغيرات السياســـية والتكنولوجية، في القرون الماضية بعامة وأوائل القرن الحالي بخاصة، تبرهن على أن أمور المسلمين قد تبدلت، وأن كياناهم قد ضعفت، وأن واقعهم الاجـــتماعي أصبح مفككاً، وأن مكانتهم الاقتصادية والسياسية، على الخريطة الدولية ليست متميزة، إذا ما قورنت بمكانة الآخرين الذين ينتمون إلى الثقافات الأوروبية عامة والثقافة الأمريكية خاصة.

وتـــثير هذه الأوضاع تساؤلات عديدة، حول الأسباب المؤدية لذلك؛ هل هـــي كامنة في الرسالة التي أتى بها الإسلام، أم في مضمون تلك الرسالة والتي تعكســـها الثقافة الإسلامية بمقوماتها وخصائصها، أم في الممارسين لهذه الثقافة، والطرق التي يتعاملون بـــها، والمؤسسات التي تتكفل برعايتها وصـــيانتها، هذا مـــا ســـتجيب عليه هذه الدراسة من خلال استعراض لعدة موضوعات ترد في ثلاثة أقسام على النحو الآتي:-

القســـم الأول : ونعـــرض فيه لطبيعة الرسالة الإسلامية ومضامينها، التي تجسدها الثقافة الإسلامية بمقوماتها المتميزة ومعالمها الفريدة.

القســـم الثاني: ونعرض فيه لحاضر المجتمعات العربية الإسلامية والتحديات التي تواجه الإسلام والثقافة الإسلامية.

القســـم الثالـــث: ونعرض فيه لإمكانات وسبل تقوية دعائم وبناء الثقافة الإسلامية لتغيير الواقع ومواجهة التحديات الحالية والمستقبلية.

القسم الأول
في مضمون الرسالة ومعالم الثقافة الإسلامية

يشـــار إلى الإسلام، باعتباره رسالة سماوية أتت للبشريه جمعاء، وإن كانت الجزيرة العربية مهدها الأول، لكنها رسالة بأفكارها ومعتقداها ونظمها السياسية والاجتماعـــية والاقتصادية طرحت نفسها باعتبارها دين ونهج كل البشرية دون استثناء؛ أي أنها كانت ترى في العالم كله ميدانها وفي الإنسانية روحها ورسالتها، وبالتالي فقد عولمت الفكر الديني، الذي بدوره عولم الاقتصاد والسياسة.

فقد كان من تقدير الله وحكمته أن تكون هذه الرسالة خاتمة الرســالات لما تتم به من صلاح كامل للبشرية كلها. ومن تقديره وحكمته أيضاً أن تكون الرســالات الــتي سبقت الإسلام قد اقتصرت في نزولها على أمة معينة بذاتها، وخــلال مدة من الزمن محدودة، وذلك في ضوء الملائمة التي تستدعيها ظروف الأمــة وأحوالها في زمن من الأزمان دون غيره. لكن رسالة الإسلام قد قدرت تقديــراً ربانــياً محكمــاً لتناسب الأحوال والظروف كافة، ولتلائم الحاجات والمقتضيات البشرية طيلة العصور والأزمان. وليس لأحد بعد ذلك أن يساوره الشك حول صلاحية الإسلام باعتباره خاتم الأديان، ذلك أن هذا الدين بطبيعته الشـــاملة المـــرنة يحـــتوي عـــلى أصول المسائل جميعاً، فلا يقف عاجزاً أمام المشـــكلات، ولا يعـــزب عن تقـــديره وشمـــوله أي معني من معانـــي الحق والخـــير فـــــي العقـــيدة أو الأخلاق أو التشريـــع. وعلى ذلك، فقد احتوى

الإســـلام عناصر الإصلاح التي تيسر تطبيقه والعمل به في كل زمان، ولكل أمة على وجه الأرض(١).

وللإســـلام ثقافـــة تعد نتاجاً لعقيدة متينة مترابطة ولفيض عظيم من الفقه الشـــائع الخصـــب، الذي يشمل الحياة برمتها مع الاحتفاظ بحق الاستفادة من الحكمـــة وحقـــائق المعـــرفة والعـــلم أين وجدت، ولذا توصف الثقافة العربية الإسلامية بأنها عربية في لغتها، إسلامية في جذورها، إنسانية في أهدافها، وهي شـــأن كـــل ثقافـــة، تـــتكون من مقومـــات أساسية فكرية وروحية، أهمها العقـــيدة، وهي الإسلام، واللغة العربية وآدابها والتاريخ والتراث ووحدة العقلية والمزاج النفسي(٢).

والإســـلام يقدم نسقاً ثقافياً متكاملاً يتحدد بمقتضاه نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى ثنائية تكوينه من جسم وروح، وأن الروح من أمر الله، وأن للحياة البشرية قدسيتها باعتبار الروح وديعة من الله في الإنسان ولا بد من المحافظة عليها، إضافة إلى النظرة إلى الكون، ونظرة الإنسان إلى الخالق، والنظرة إلى الآخرين وبالذات إلى أتـــباع الديانات السماوية الأخرى، فإذا كان القرآن الكريم ينص على أن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس، فإنه ينص في الوقت ذاته وفي سورة البقرة على أنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦) (٣).

---

(١) أمير عبد العزيز، "دراسات في الثقافة الإسلامية، مدخل إلى الدين الإسلامي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، ص٢٠٧.

(٢) عبد العزيز التويجري، الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٩٨م، ص١١.

(٣) أحمـــد أبوزيد ، "الإطار الاجتماعي والثقافي للمجتمع العربي"، في: المجتمع العربي، الطبعة الأولى، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨٩، ص ٤٥٧.

والإســـلام ديـــن حياة ودنيا بقدر ما هو دين عقيدة وآخرة، وهي أمور تنعكس بالضرورة في المجتمع العربي المعاصر الذي يؤلف المسلمون حوالي ٩٠% مـــن ســـكانه، فالإسلام ليس مجرد دين أو عقيدة بالمعنى العام الشائع البسيط.. كمـــا أنه ليس مجموعة من القواعد السلوكية التي تنظم حياة الإنسان والمجتمع، وإنمـــا هو أسلوب كامل للحياة يصل تأثيره إلى جوانب الوجود الإنساني كلها ويصـــبغها بصبغة خاصة متميزة... إنه يقود حركات الإنسان ويوجهها في كل مضارب الحياة: الفردية منها والاجتماعية، المادية منها والمعنوية، الأخلاقية منها والاقتصادية والقانونية والثقافية، القومية منها والدولية على السواء[١].

كمـــا أن الإسلام ثقافة وحضارة معاً، أي أنه نظام قانوني كامل وشامل، كمـــا أنه نسق اقتصادي وطريقة للعمل وأسلوب للحكم والإدارة، فهو يضع قوانـــين محددة للسلوك والتصرف في الحياة اليومية وتوجيهات للملبس والمأكل والصحة العامة والعناية حتى بجسم الإنسان ؛ وهي كلها أمور ومسائل لا توجد في غـــيره من الشرائع – على الأقل بهذا القدر من الوضوح – ولذا فإن الإسلام يـــبدو مســـيطراً تماماً على حياة الناس بما في ذلك (التقدميون) و (المتحررون)؛ وذلـــك لأنه ثقافة وحضارة وأسلوب للحياة وطريقة للتعامل بقدر ما هو نسق من المعتقدات وطريقة للعبادة[٢].

ومـــن الصعب إلى حد كبير الفصل في التجربة الإسلامية بين ما هو ديني ومـــا هـــو غير ديني، لأن تعاليم الدين تتغلغل في كل جوانب الحياة في المجتمع

(١) أبو زيد، مرجع سابق، ص٤٥٥

(٢) نفسه.

العربي والإسلامي، كما أن الدين يوجه التصرفات الفردية والسلوك الجماعي على السواء. وأفضل مثال لذلك هو تدخل الدين في تنظيم العائلة والقرابة والزواج وما يترتب عليها من حقوق وواجبات ومسؤوليات والتزامات في حالتي الحياة والموت[1]، هذا وقد تبلورت وتجسدت هذه الخصائص الفريدة للإسلام في عديد من المقومات التي غيرت الثقافة العربية الإسلامية والتي تبدو فيما يلي:-

١- **تتسم الثقافة العربية الإسلامية أساساً بسمتين: سمة الثبوت** فيما يتعلق بالمصادر القطعية، وما جاءت به من عقائد وتشريعات وقيم ومناهج، **وسمة التغيير** فيما يتعلق باجتهادات المسلمين وإبداعاتهم القابلة للصواب والخطأ، وبالتالي الاختلاف، فالجانب القطعيُّ في الثقافة العربية الإسلامية يتسم بما يتسم به الإسلام من خصائص بصفته ديناً ومنهجاً للحياة. وتتجلى هذه الخصائص في العالمية، والشمولية، والوسطية، والتنوع في الوحدة، والرؤية والتوازن[2].

٢- **والقرآن الكريم يُعتبر المصدر الأساس للثقافة العربية الإسلامية** بفضل ما ورد فيه من تعاليم دينية وأخلاقية واجتماعية، ولكونه صالحاً لكل زمان ومكان ومسايراً لمتطلبات كل عصر ومستجداته، كما تشكل السنة النبوية المصدر الثاني الأساس للثقافة العربية الإسلامية. كما اعتمد المسلمون، في نهضتهم الفكرية والعلمية والحضارية على القرآن ودعوته، على سنة نبيهم ﷺ

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) عبد العزيز التويجري، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٨م، ص٩.

بعـــد أن جمعوهـــا ودونوها وفصلوا أبوابها، واستثمروها في جهودهم العلمية ومـــناهجهم المعيشية. وبذلك تكون الثقافة العربية الإسلامية المنطلقة أساساً من القـــرآن والســـنة، ثقافة متفتحة، داعية إلى التعايش والحوار والتفاهم(1). ومعنى ذلك أنها ليست حضارة محصورة في جنس واحد من بني الإنسان أو في مجموعة أجـــناس وذلك تطبيقاً لقولـــه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).

والواقـــع التاريخي يزيد هنا المعنى تأكيداً، فقد وَسِعَت هذه الحضارة سكان الدنـــيا كلها بالرغم من اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياســـية والاقتصادية وتعدد أجناسهم ولغاتهم، سواء من دخل منهم في دين الإســـلام أم بقى في ظل الحضارة الإسلامية على دينه القديم، والدليل الواضح عـــلى عالمـــية الحضارة الإسلامية هو أن كل البيئات والشعوب التي عاشت في ظلال هذه الحضارة قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطويراً واضحاً، وتـــرتقي بجمـــيع مكونات هذه الحياة رقياً كبيراً، في حين أنها كانت تعاني من تخلف كبير في حياتها الروحية والعقلية والاجتماعية(2).

٣- وعالمـــية الإسلام تجعل الثقافة والحضارة الإسلاميتين منفتحتين على حضـــارات الأمـــم، ومتحاوبتين مع ثقافات الشعوب، مؤثرتين ومتأثرتين. إن الإســـلام يـــنكر (المركزية الحضارية) التي تريد العالم حضارة واحدة، وتسلك

---

(١) التويجري، المرجع السابق، ص١١.

(٢) مصـــطفى محمد طه، "حول خصائص الحضارة الإسلامية"، الفـــكر العربي، س ٢٠، ع ٩٨، خريف ١٩٩٩م، ص٢٨.

سبل الصراع – صراع الحضارات – لقسر العالم على نمط حضاري واحد؛ لأن الإسلام يريد العالم (منتدى حضارات) متعددة ومتميزة، ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القَسْرِيَّة، إنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام[1].

وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً، فإنه، في جوهر رسالته وحقيقة مبادئه، لا يعني أيضاً (المركزية الدينية)، التي تريد العالم ديناً واحداً، فهو ينكر هذه المركزية الدينية، عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سُنة من سنن الله في الاجتماع الديني، لا تبديل لها ولا تحويل [2].

٤- ومن أشد ما يبغضه الإسلام ويندد به ذلكم الانكماش والانحسار دون الانتهال من زاد العلوم الثابتة النافعة، وهو انحسار ضار منكمش سيؤول بأهله إلى أوضار الجهالة والسلبية والتخلف عن ركب الحياة السريع.

كما لا يرضى الإسلام عن الإدبار عن العلم والاستفادة من معانيه وحقائقه، ولا يستطيع المدبر عن ذلك أن يتذرع بأية ذريعة ، وهو في ذلك لا يعدو أن يكون متخاذلاً جهولاً، فأن من الحقيقة أن يدعو الإسلام للاستفادة من معطيات العلوم على تعددها وكثرتها ليكون ذلك باعث قوة للمسلم وهو على طريق العبادة لله.

---

(١) التويجري، مرجع سابق، ص١٤.

(٢) نفسه.

وبذلك فإن الثقافة الإسلامية غير منكمشة على نفسـها فتنبذ ما تمخضت عـنه أدمغة البشر وما تفتقت عنه أذهان الناس من أقوال وآراء سديدة جديرة بالـتقدير، ولكنها تنظر لكل حكمة نافعـة ورأي سـديد بمنظار من التقدير والاحترام[1].

٥- تجمع الثقافة العربية بين الجانبين الروحي والمادي، وهي قابلة للتطور؛ فمـن المعـروف أن رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات والأديان، ورسـوله الكريم ﷺ خاتم الرسل، وحضارته، المؤسسة على هذه الرسالة، استوعبت كل تطـورات الحـياة الإنسانية وما استجد في حياة الإنسان من تطورات، وهي كذلـك لا تقـف جـامدة أمـام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجـتماعي، عاجزة عن الفصل في القضايا المتجددة لهذا المجتمع البشري، في بيئاته المختلفة، المتنوعة في نشاطها الإنساني وأنظمة حياتها، وعلى هذا الأساس أقـام المسلمون صرح الحضارة الإسلامية بمعطياتها الروحية والمادية، مما جعلها تحقـق للإنسانية أقصى درجات طموحها في تلك العصور التي كان فيها العالم من حولها يعيش خواءً روحياً وأخلاقياً وتخلفاً واضحاً في صناعة الحياة، مقصراً عن بلوغ الغايات الإنسانية السامية التي بلغتها الحضارة الإسلامية في فترة قصيرة من عمر الزمن، حيث كان كل نشاط مادي في ظلها لـه غاية أخلاقية، وفيه جانب روحي[2].

(١) أمير عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٢٥.
(٢) مصطفى محمد طه، مرجع سابق، ٢٥٢.

٦- تتميز الثقافة الإسلامية بالتوازن والشمولية: أما التوازن في الثقافة الإسلامية فأنه يعني أن الإسلام بثقافته يحرص على مراعاة هذه الجوانب جميعاً، فلا يعتمد جانباً ولا يركز على مطلب في الإنسان دون غيره ولكنه يوزع اهتمامه وحرصه على الجوانب كلها في آن واحد، من غير محاباة أو تمييز مثلما تفعله المبادئ والأنظمة الوضعية التي صنعها البشر، وهذه إحدى الحقائق التي أكسبت الإسلام خاصية الصلاح لكل زمان ومكان(١).

أما الشمولية فتشير إلى أن الإسلام بثقافته يتناول شتى مناحي الحياة للإنسان، ويتناول كافة الجوانب الرئيسية الأصلية للبشر، فهو يتناول كلا من الجانب البدني والنفسي والروحي والعقلي.

وبعبارة أخرى، فإن الإسلام يجمع جمعاً متسقاً وثيقاً بين حياة الإنسان المادية والروحية، فلا يذر الإسلام جانباً من جوانب الإنسان ليكون مهملاً بغير حسبان أو رعاية، ولكنه ينظم جميع هذه الأركان التي يتألف من مجموعها الإنسان ليكتمل بناؤه الشخصي(٢).

---

(١) أمير عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧.

القسم الثاني

الثقافة الإسلامية بين الازدهار والاضمحلال

كـــان للإسلام وثقافته المتميزة دور بارز في نهضة المسلمين وتفوقهم على غيرهـــم، كمـــا لعـــب دوراً مهماً في ازدهار حضارتهم وتغيير واقعهم وتقوية دولتهم، فلم تستطيع الحضـــارة العربية الإســـلامية أن تحـــقق ما وصلت إليه من تقدم وازدهار إلا باعتمادها على الدين الإسلامي، فبفضل الإسلام توحدت قبائل شبه الجزيرة العربية، وانطلق العرب في فتوحاتهم حاملين معهم رسالتهم، و لم يكد ينقضي أكثر من قرن واحد على وفاة النبي ﷺ حتى أصبح للعرب دولة امتدت امتداداً كبيراً من شواطئ المحيط الأطلنطي غرباً إلى بوادي الصين شرقاً، ومن سواحل البحر المتوسط شمالاً حتى شواطئ المحيط الهندي جنوباً[1].

و لم يكن دور العرب قاصراً على التوسع في تلك الرقعة الفسيحة من العالم المعـــروف آنـــذاك فحسب، بل في منحهم تلك البلاد حضارة جديدة أخذت بنصيب من الحضارات السابقة لها وأضافت إليها.. فعلى الرغم من الانقطـــاع أو عـــدم التواصـــل الحضـــاري بيـــن تلك البلـــدان وما كان لها من تراث حضـــاري، فإنها مع ذلك لم تفقد طاقاتها الإبداعية التي بدت في ما اتسمت به الحضارة العربية الإسلامية من تفوق[2].

(١) جمـــال زكريا قاسم، ١٩٨١ ، "منجزات الحضارة الإسلامية" في: المجتمع العربي، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص٢٦٥.

(٢) نفس المرجع السابق.

كما أن الحضارة الإسلامية استطاعت أن تحقق الكثير من المنجزات في مختلف المجالات المادية والفكرية، وقد حدث ذلك حين كانت معظم أنحاء القارة الأوربية تعيش عصور التأخر والاضطراب. وما كادت الأمور تستقر حتى أقبل الأوربيون على دراسة المصنفات العربية، والتعرف من خلالها على أسس النهضة العربية الإسلامية. وترتب على ذلك تحرير أذهان الأوربيين من أوهام العصور الوسطى، مما مهد السبيل لعصر النهضة الأوروبية الحديثة. ومما يؤسف له أنه في الوقت الذي أخذ فيه الأوربيون يعكفون على دراسة منجزات الحضارة العربية الإسلامية والإفادة منها، كانت النكبات تتوالى على الأمة العربية الإسلامية حتى أنها أقبلت على مطالع العصور الحديثة وهي تعاني قدراً كبيراً من الركود والتأخر بينما بدأت أوروبا عصر نهضتها وتقدمها[١].

ونصل إلى واقع مؤسف مؤداه أن الهيمنة الغربية اتسعت على باقي الشعوب الأخرى غير العربية والإسلامية في سائر القارات، وقد أدى نجاح هذه السيطرة الغربية إلى منح نفسها زيادة ثقة بالنفس إلى درجة وصلت إلى الغرور والتعالي على الآخرين، انطلاقاً من أن نجاحهم وتقدمهم هذا يشير إلى مدى تفوق ثقافتهم على غيرها من الحضارات المنافسة لها، وبوجه خاص الحضارة والثقافة الإسلامية. وواقع الأمر أن التنافس قد بلغ مداه منذ احتكاك الحضارتين ووصل إلى درجة التحدي أو الصراع، الذي يأخذ أشكالاً مختلفة، إما بصدام الحروب، أو الهيمنة على الأسواق، أو الغزو بالثقافة والأفكار[٢].

(١) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص٢٩٠-٢٩١.

(٢) صلاح عبد المتعال، مستقبل التنمية... نحو بديل حضاري إسلامي، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٢.

كما أن الثقافة العربية الإسلامية اتخذها بعض راسمي سيناريو المستقبل عدوًّا عندما اختفى الصراع الأيديولوجي بين الغرب والاتحاد السوفيتي، كأن الصراع شرط لوجود الولايات المتحدة، ولعل هذا السيناريو أخذت عناصر تنفيذه تتهيأ – وإن كانت مزيفة – لتلويث العالم الثقافي، كما لُوِّث عالم البيئة، فإنهم يريدون أن يوقدوا ناراً للحرب الحضارية كما أوقدوها من قبل وسموها بالحرب الباردة الأيديولوجية[1].

فقد حاول "هنتنغتون" أن يثبت أن نهاية الحرب الباردة التي كانت تغذي الصراع الأيديولوجي لا تعني نهاية الصراع، ولكن نقل الصراع إلى ساحة الثقافة. وبدل أن يكون خط المواجهة، كما كان في حقبة الحرب الباردة، بين أنصار العقائد الاجتماعية والسياسية المتعارضة، بصرف النظر عن ثقافة هؤلاء الأنصار، أصبح هذا الخط يمر أساساً بالاختلافات الثقافية، وأصبح الصراع بين أتباع الثقافات المختلفة هو المنبع الرئيس للحروب المعاصرة، مشيراً إلى ما يقول به من التحدي المتزايد الذي يظهره العالم الإسلامي للثقافة والسياسة الغربية .

وقد قصد هنتنغتون من هذا التحليل أن ينبه الغرب إلى أن الصراع لم ينته في العالم، بل إنه بالكاد قد بدأ، على الرغم من أنه لم يعد صراعاً سياسياً اقتصادياً وإنما تحول إلى صراع القيم والمبادئ والمفاهيم والرؤى، أي الثقافات بالدرجة الأولى. وقد أشار بشكل خاص إلى خطر الإسلام الزاحف بثقافته وعقائده

---

(١) عليان الطالبي، " نظرة نقدية للتنمية الثقافية في البلاد العربية"، في: المسلم المعاصر، ع ٨٧، س ٢٢، فبراير- أبريل ١٩٩٨م، ص١٨٠.

المتطرفة، كما أشار إلى خطر التحالف الممكن بين عالم الإسلام والعالم الصيني الصاعد أيضاً[١].

وبعد أن يعترف "فوكوياما" بأن الخطر الإسلامي يمثل الخصم الإيديولوجي الوحيد المتبقي في مواجهة إيديولوجية النظام العالمي الجديد، الليبرالية- الديموقراطية، التي يراها مزهوة بانتصارها على الشيوعية والثيوقراطية والأرستقراطية والملكية والاستبدادية والفاشية والنازية، يرد هذا الخطر إلى خاصية النظام الفكري للإسلام أكثر مما يعتبره ترجمة للقوة السياسية أو العسكرية، فدعوة الإسلام – كما يؤكد فوكوياما- ذات طابع شمولي، وهي تتوجه إلى جميع الناس كبشر وليس باعتبارهم أعضاء في مجموعة إثنية أو قومية خاصة فحسب.

والإسلام في الواقع، وكما يرى فوكاياما، هزم الديموقراطية - الليبرالية في أجزاء متعددة من العالم الإسلامي، وهو يشكل تهديداً كبيراً للممارسات الليبرالية، حتى في البلدان التي لم يستطع فيها استلام السلطة مباشرة. فإذا كان الإسلام قادراً هكذا على منع انتشار الليبرالية- الديموقراطية في العالم الإسلامي، فإن خطره على النظام العالمي سوف يأخذ منحى أكثر خطورة: تهديد النظام العالمي في عقر داره[٢].

وفي هذا السياق، يصبح الإسلام والإرهاب وجهين لعملة واحدة، ذلك أن الدعوة إلى القتل فكرة ثابتة لا يعرف المسلمون التلفظ بغيرها، كما يقول

---

(١) برهان غليون، "العولمة وحوار الثقافات"، في: مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٨م، ص٨.

(٢) علي الشامي، "الإسلام في النظام العالمي" في: شؤون الشرق الأوسط، ع ٣٤، أكتوبر، ١٩٩٤م، ٣٣-٣٤.

روفـــيل، مضيفاً أنه "لا يمكن أن نصف بالتسامح ديانة يتساوى فيها الاختلاف مع الإعدام.. إن الإسلام هو مصدر تسعة أعشار الإرهاب العالمي الرسمي"[1].

ومـــن هـــنا نجد أن الثقافة العربية الإسلامية تواجه أخطاراً وتحديات عديدة ناجمـــة عن آثار العولمة الثقافية، بيد أن آثار العولمة الثقافية لا تقتصر على توسيع إمكانيات التفاعل الثقافي بين الثقافات التاريخية الكبرى، إنها تحمل أيضاً أخطاراً كبيرة وتحديات لن يكون بمقدور جميع الثقافات مواجهتها والرد الإيجابي عليها.. ومن هذه التحديات:-

١- **تعميق دينامية السيطرة الثقافية**، أو الإمبريالية الثقافية، وتأكيد سيطرة وقيم الثقافات الكبرى التي تنجح في استخدام التقنيات الاتصالية الحديثة وتحتل الفضاء العالمي الجديد.

٢- **تفجـــير أزمة الهوية ومشكلة التعرف على الذات**، بل تحديد الذات؛ فمع تزايد نفوذ الثقافات الأقوى في فضاء مفتوح يتضاءل وزن الثقافات الوطنية ونفوذهـــا[2]. ذلك لأن التعرض لسيل عارم وفيض هائل من أنواع السلوكيات والقيم الغربية عبر القنوات الفضائية، والإنترنت، وما يترتب على ذلك من تأثير شـــديد بها، بل تبني لما هو سلبي ومغاير للقيم العربية الأصلية، الأمر الذي ينذر بأخطـــار اجتماعـــية ويهدد معالم الهوية الثقافية للأسرة العربية عامة والأجيال الشابة (من النوعين) خاصة.

٣- يـــتخذ "الغـــزو الثقافي" أشكالاً أخرى لا تقل عن ذلك خطورة مثل محـــاولات **(تفـــريغ) العـــالم العربي من كفاءاته العلمية والإبداعية** عن طريق

(١) نقلاً عن الشامي، المرجع السابق، ص٣٥.
(٢) برهان غليون، مرجع سابق، ص١٣.

تشجيع هذه الكفاءات على الهجرة إلى الغرب، وهي الظاهرة التي تعرف الآن باسم (هجرة العقول) أو (هجرة الأدمغة)، أو عن طريق تفريغ الثقافة العربية الإسلامية ذاتها من مضامينها وإنجازاتها عن طريق التشكيك في قدرات هؤلاء العلماء والمبدعين والمفكرين العرب والتهوين من شأن إنجازاتهم وقيمتها وأصالتها، بل ومحاولة رد أي نوع من الإبداع الثقافي المتميز إلى تأثر هؤلاء المبدعين بالثقافات غير العربية أو حتى انحدارهم من أصول غير عربية. وهذه الدعاوى تجد لها صدى كبيراً عند كثير من المثقفين في العالم العربي، فيرددونها دون إدراك منهم لحقيقة الأهداف الخطيرة التي ترمي إليها(١).

كما أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي العربي يعاني من مشكلات عديدة تتبدى فيما يأتي:-

١- **إبطاء في الأداء التنموي،** تعكسه المؤشرات الإحصائية والديموجرافية المختلفة، وتبدو في انخفاض معدلات الإنتاجية في القطاعين الزراعي والصناعي، ورجوح كفة الواردات عن الصادرات، وانخفاض معدلات الدخول الفردية، وتدهور المستويات المعيشية، وتفاقم العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية في مختلف القطاعات المجتمعية والريفية والحضرية.

٢- **كثرة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية،** وعلى رأسها التلوث البيئي، والبطالة، والفقر، والتفكك الأسري، وارتفاع معدلات الجرائم وتنوعها، وتدهور الخدمات الأساسية وعدم القدرة على إشباع الحاجات الأساسية للأفراد: التعليمية والثقافية والاجتماعية.

---

(١) أبو زيد، مرجع سابق، ٤٦٥.

٣- **تحول الدول العربية من منتجة إلى مستهلكة**، مع ازدياد واتساع الفجوة بينهما وبين الدول المتقدمة، علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً.

٤- **تهديــد الكيان الأسري العربي**، من حيث مقوماته ودعائمه وقيمه التي تحكم علاقاته، والمعايير التي تحدد الوظائف المختلفة التي يؤديها.

يضاف إلى ذلك كله أن الأمة العربية الإسلامية تواجه العديد من التحديات الأخرى، لعل من أبرزها تلك المتعلقة بنتائج الثورة العلمية والثقافية، فإن العلاقة بين التعليم العالي والتقدم التقاني ذات اتجاهين:

فمن جهة يؤدي تطور التقانات إلى تغيير في محتويات التعليم والتكوين (على الأقــل في الجزء المتعلق منها بتلبية حاجات سوق العمل) وفي طرقها وأدواتها. ومــن جهــة ثانية ، بتلبية تطور التعليم العالي بدوره إلى تغيير في تطور التقانة واهــتماماتها ومســاراتها بل وفي سرعة تطبيقها على وضع خطة بحثية متممة لــلخطة الشاملة والمتكاملة، ترتكز على أهداف وبرامج ومشاريع التنمية العربية وليس نقلاً وتقليداً لعمل البحث والتطوير الأجنبي وغاياته وأهدافه. وضمن هذه الخطــط يجب أن يتم تغيير دور العلم في التنمية، وتسخيره لخدمة جهة التنمية، وأن ترسم برامج البحث العلمي وتعمل لتبدأ في المختبر وتنتهي بالاستعمال[1].

وإذا كان هذا هو واقع المجتمع العربي الإسلامي المتردي، فهل أسبابه راجعة إلى الإســلام وثقافــته؟ وهل هناك من سبيل لتغيير هذا الواقع ومواجهة تلك التحديات؟ هذا ما سنعرضه في القسم القادم.

---

(١) ميــثاء الشامســي، أولويات البحث العلمي في الوطن العربي، ورقة مقدمة إلى مؤتمر "أولويات البحث العلمي والتكنولوجيا في الوطن العربي"،الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، مارس ٢٠٠٢م، ص١٤.

القسم الثالث

الثقافة الإسلامية بين إمكانات تغيير الواقع ومواجهة تحديات المستقبل

كشفت الحقائق التي عرضنا لها في القسمين السابقين عن جوهر الرسالة الإسلامية ومضمونها الذي تعكسه الثقافة الإسلامية بمقوماتها المتميزة وخصائصها الفريدة، ومعالمها المتعددة، وأن هذه الرسالة قد استوعبها المسلمون الأوائل وحملوا لواءها باقتدار، ونفذوا مضامينها بإخلاص وأمانه، فكُتب لهم الاستعلاء والسيادة، ليست فقط الإقليمية بل والعالمية. كما تمكنوا من إقامة كيان اجتماعي متماسك، وأسسوا دولة قوية ذات نظم سياسية واقتصادية متميزة كفلت للأفراد والجماعات العيش في استقرار وأمن، ومكنتهم من التعامل بتسامح دون تعصب مع الآخرين، كما استطاعوا، من خلال التوظيف الواعي لمصادر الثقافة الإسلامية، أن يحرزوا تقدماً هائلاً في المجالات العلمية والفكرية التي أثرت في الحضارات والثقافات الأخرى.

ولكن صورة الحاضر، تبدو مغايرة تماماً، ذلك لأن الواقع يبرهن على أن المجتمعات العربية الإسلامية تعاني من مشكلات عديدة، اجتماعياً واقتصادياً، وأن هويتهم أصبحت مهددة، وأن قوتهم تبدلت إلى ضعف، وتحولوا من منتجين إلى مستهلكين، ومن مبدعين إلى تابعين، خاصة في المجالات العلمية والتكنولوجية، كما أنهم في مأزق خطير لمواجهة تأثيرات العولمة ومضامين الثقافات الأخرى، وفي وضع يتعين عليهم الدفاع عن هويتهم وتصحيح صورة

الإسلام التي رسمها الغرب واصفاً الإسلام بأنه دين التعصب والإرهاب والتطرف... فهل يمكنهم تحقيق ذلك؟ هذا ما سنعرض له في الفقرات القادمة.

وتقتضي الموضوعية تأكيد عدة حقائق، هي:

- أن أسباب التردي والمشكلات التي تعاني منها المجتمعات العربية لا ترجع إلى الإسلام، كما أنها ليست متعلقة بمضمون الثقافة الإسلامية، خاصة ما يتعلق بالنسق الفكري كما تعكسه القيم الإيجابية التي جاء بها الإسلام لدعم وتغيير البناء الأسري والاقتصادي والسياسي، ولكن في التفريط في هذه المضامين والتهاون في ممارستها والامتثال لها، قولاً وعملاً.

- إن الأسباب لا ترجع إلى مصادر الثقافة الإسلامية، فهذه المصادر - القرآن والسنة- خالدة، وصالحة لكل زمان ومكان، وبفضل العمل بها تمكن المسلمون الأوائل، كما أسلفنا، من تحقيق نهضة شاملة وتغييرات مذهلة... ولكن السبب يرجع إلى هجر هذه المصادر والاعتماد على مرجعيات فكرية واردة من مجتمعات أخرى كموجهات للفكر، ومحددات للسلوك الفردي والجماعات ومنظمات لشؤون المجتمع وسياساته.

- الأسباب المؤدية إلى تشويه صورة الإسلام، ليست راجعة إلى رسالة الإسلام ومضمونها، فالإسلام - كما أسلفنا - ليس دين "إرهاب" ولا يدعو إلى التعصب، بل دين تسامح يدعو إلى المحبة والسلام، ولكن الأسباب ترجع إلى عدة عوامل منها " الأمية الدينية " وتدهور أحوال بعض الجماعات المتطرفة، اقتصادياً واجتماعياً، وتفاقم الصراعات الطائفية والإثنية، كما ترجع - في المجتمعات الأوروبية والأمريكية- إلى الجهل بأمور الإسلام، وعدم التعمق في فهم

ثقافته واستيعاب خصائصها المتميزة، وإلى الحقد الديني الكامن في صدور بعض المفكرين بل وعامة الأفراد والجماعات في هذه المجتمعات.

– أسـباب التردي الاقتصادية في المجال التنموي وضعف أدائه، والمشكلات المتصلة بالهوية الثقافية، ليس مرجعها إلى طبيعة الإسلام وثقافته، وإلا فكيف حافظ المسلمون الأوائل على هذه الهوية وتمسكوا بها؟

إن الأسـباب عديدة منها: عدم تطبيق ما جاء به الإسلام لتحقيق النهضة الاقتصـادية والاجتماعـية، عـن طريق التفكير والإبداع، وحسن الاستغلال لمخـتلف المـوارد، واحترام العمل، وتقدير الإنجاز والإنتاج، وعدم الإفراط في الاسـتهلاك، وحسـن التخطيط، والحفاظ على الممتلكات وصيانة الثروات، والأهم من ذلك التأهيل للموارد البشرية عن طريق العلم واكتساب المعرفة على المسـتوى النظري والتطبيقي. هذا إضافة إلى قيم التكامل الاجتماعي، والتعاون بـين الأفـراد والجماعـات، وبين المجتمعات بعضها بعضاً، والمساواة، والعدل الاجتماعي، والأمانة، والصدق والإخلاص ... الخ

يضـاف إلى ذلـك: غـياب وتقاعس دور المؤسسات التربوية والإعلامية والثقافـية، وتخطيط برامجها على أسس إسلامية رشيدة، تجعل الأفراد على صلة بدينهم وتزكي نفوسـهم، وتربي عقولهم، وتقوي عقيدتهم. ويدعم رأينا هـذا ما أكده "الطالبي" [1]حين أشار إلى أننا في العالم الإسلامي ينبغي أن نجند وسائل الاتصـال الحديثة، وهي غريبة في مصدرها، لخدمة ثقافتنا الذاتية، أما إذا كان

(١) عليان الطالبي، مرجع سابق، ص٧٢.

استخدامنا لها لنشر الثقافة الغربية، فقد نكون قد شاركنا في هدم ثقافتنا بأنفسنا، وهذا الذي نراه للأسف في أغلب قنواتنا الفضائية وغيرها من وسائل إعلامنا والتي لا تقدم إلا الأشياء الهزيلة. ومستقبل الإسلام يتوقف على مدى اتصالنا بمصادره، ومدى تغذية نفوسنا وعقولنا بها، باعتبارها طاقة دافعة لحركة التاريخ والحضارة. ونظراً لقوة وسائل العولمة الغربية فإن التاريخ يتطلب منا جهداً مضاعفاً، وجهاداً متواصلاً من أجل ألا نضيع في غبار التاريخ، فإن لم نتفوق في هذه العولمة فلا أقل من أن نحفظ ماء وجوهنا، والضروري من أصول ثقافتنا.

– لهذه الأسباب، نؤكد أن صورة الحاضر القائمة والمقلوبة، لم يرسمها الإسلام ولا ثقافته المتميزة، وإنما الطريقة التي وظفت بها مبادئ الإسلام ومضامينه في رسم هذه الصورة.

– ولذا فإن على المجتمعات العربية الإسلامية، أفراداً وجماعات ومؤسسات، مهمة تغيير هذا الواقع ومواجهة التحديات الحالية والمستقبلية، سواء على المستوى الإقليمي أو العالمي، مستلهمين ومسترشدين بما جاء به الإسلام من مبادئ، وما تتضمنه ثقافته من مقومات وخصائص، سبق أن أشرنا إليها في القسم الأول.

ومن بين هذه التحديات التي ينبغي مواجهتها:

– **الدفاع عن الهوية الثقافية**، والتمسك بها، والمحافظة عليها.

– **تعديل الأداء التنموي**، وإيجاد حل للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها مجتمعاتهم.

- **ضـــرورة التفاعل مع الثقافات الأخرى**، والتعامل مع متغيرات العولمة الاقتصادية والتكنولوجية.

- **ضرورة تصحيح الصورة المشوه التي يرسمها "الغرب" " عن الإسلام"**.

ويـــبقى الســـؤال: كيف يمكن الاستفادة من إيجابيات الثقافة الإسلامية في تحقيق ذلك؟

الإجابـــة عـــلى هذا السؤال تحتاج إلى مقالات مستقلة، ولذا فإننا سننتقى بعض القضايا لإلقاء الضوء عليها فـــي الفقرات القادمة.. وتتبلور هذه القضايا فيما يلي:-

أولاً: أن للـــثقافة الإسلامية قدرة على مواجهة محاولات الغزو والاستلاب والتشـــويه الـــثقافي ورفضها لكل محاولات طمس الهوية وتشويه المعالم الثقافية العربيـــة، ولم ينجـــح الاستعمار الحديث فـــي محالاوت الفرنســـة أو التهويد أو البلشـــفة، وســـاعدت الخصـــائص الأخرى للثقافة العربية، خاصة المرونة والدينامية، على المحافظة على الهوية والتمسك بأصالة القيم ومبادئ العقيدة.

وهنا نؤكد أن الثقافة المعولمة أو التي يراد تعميمها هي في الواقع ثقافة الغرب الرأسمالي. إذ على الرغم من أنها - كما قلنا فيما سبق - تمثل الثقافة الســـائدة أو قـــل الثقافة الغالبة في هذه الأيام، إلا أن ما تحمله من مبادئ وقيم هي فـــي الواقع مبادئ وقيم ماديـــة فـــي جوهرها. ولا تستقيم حياة الإنسان ككل إذا ما عاش وفقاً لهذه الثقافة المادية[1].

(١) مصطفى النشار، " في فلسفة الثقافة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٥٩.

كمـــا أن هويات الشعوب الثقافية تستند على عراقة الحضارات التي تنتمي إليها وتاريخية هذه الحضارات. ومن ثم فإن الشعوب إن قلدت النموذج الثقافي الشائع والسائد فإن هذا لا يستتبع أنها قد وقعت أسيرة لهذا النموذج المُقلد، لأن الشـــعوب سرعـــان ما تمل من التقليد وتـــعود إلى التمســـك بأصالتها خاصة وأن الـــنموذج الثقافي السائد والغالب يعد نموذجاً هشاً يركز على بُعد واحد، بيـــنما الإنسان كائن مركب، والبُعد الروحي فيه هو الأصل وليس البُعد المادي المتمثل في الجسد.

وعـــلى ذلـــك، يمكنـــنا أن نشـــير باطمئنان إلى أنه رغم هذا التناقض في الأهـــداف، إلا أن ذلـــك لا يحـــول بين التفاعل الحضاري في المجالات العلمية والعملـــية، وقـــد تكون هذه الحدود التي يقف عندها التفاعل بين الحضارتين الإســـلامية والغربية، فالتفاعل فـــي المجاليـــن العلمي والعملي لا يفقد الحضارة الإسلامية شخصيتها، فعندما تفاعلت الحضارة الإسلامية مع الحضـــارة اليونانية لم تفقـــد الحضارة الإسلامية شخصيتها كما أن الحضارة الغربية عندما تفاعلت مـــع المـــناهج العلمية المتقدمة لدى الحضارة الإسلامية لم تفقد الحضارة الغربية شخصـــيتها، إنما الذي يفقد الشخصية الحضارية مميزاتها واستقلاليتها هو تنازلها عـــن أهدافها الأساسية، حيث لا تتفق الحضارتان الإسلامية والغربية في ذلك، فالحضارة الإسلامية تهدف أساساً إلى الرقي الداخلي – الروحي- حيث تتغلب اعتـــبارات القـــيم الروحـــية والأخلاقية على قيم المنفعة الخالصة، بينما يسود الحضـــارة الغربية المبالغة في الانتفاع المادي في جميع مظاهر الحياة، أما الوجود الديني والأخلاقي فهو أمر فطري محض يجب ألا يمت إلى واقع الحياة بصلة.

وبناء على هـــذا التناقض في أهداف الحضارتيـــن الإسلامية والغربية، فإنه لا يمكـــن أن يتكـــيف أسلوب الحضارة الإسلامية الراهنة مع الحضارة الغربية الحديـــثة، أو يخضـــع لها.. بتعبير آخر، فكما ذكرنا، يقف التكيف عند حدد الاستفادة العلمية والعملية، أما في مجالات تنظيم العلاقات الاجتماعية والثقافية فإنه أمر قائم بذاته يجب ألا يخضع لأي تقليد أعمى لنماذج العلاقات في الثقافة أو الحضارة الغربية[١].

ثانياً: سبق أن أكدنا أن الثقافة الإسلامية تتمتع بالدينامية والحركة مع قابلية الـــتطور والتجدد من خـــلال الأنماط المختلفة، فهي لم تنغلق و لم تتقوقع، ولهذا عاشـــت ونمـــت وتطـــورت، وهي لم ترفض الجديد لأنه جديد و لم تنأى عن الإبـــداع لغرابـــته ولكن أخذت من الجديد ما يناسب احتياجاتها وصاغت من الإبـــداع صوراً كثيرة تحقق لها بعدي الأصالة والمعاصرة. وحتى تكون الثقافة العربية فاعلة وقادرة لابد لها من أن تكون متفاعلة مع غيرها من الثقافات حتى تتمكن من المشاركة والعطاء دون انكفاء على النفس تقوقعاً، ودون اندفاع إلى الخارج ضياعاً. وإذا ما حدث ذلك ستصبح الأمة العربية أمة مؤثرة في مجريات الأحداث العالمية، مؤثرة في الاتجاهات العالمية خاصة اتجاهات الحرب والسلام، واتجاهات التنمية الدولية، واتجاهات التربية الدولية، واتجاهات الاقتصاد العالمي. وأن الـــتفاعل الـــثقافي يعطي الأمة العربية حضوراً دولياً ويعطي للثقافة العربية مكاناً بارزاً ومتميزاً بين الثقافات، كما يجعلها تبقى على أصالتها، ويمكنها من المعاصرة الإيجابية[٢].

---

(١) عبد المتعال، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) محمـــد عزت عبد الموجود، " استراتيجية الثقافة العربية.. شروط ومتطلبات تنفيذها" في : ندوة الثقافة العربية: الواقع وآفاق المستقبل، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدوحة، ١٩٩٣م، ص٦٦٩.

وفي هـــذا الصدد، نؤكد أن إعادة بناء الثقافة المعاصرة لا يتوقف عند حد إحـــياء التراث، وخاصة عناصره الإيجابية الباعثة على التقدم والداعية إلى الأخذ بأســـبابه والراسمة لطريق تحقيقه في مختلف المجالات، وإنما ينبغي في ذات الوقت وبنفس القدر من الجرأة أن ينفتح العقل العربي على تلقي نتاج مختلف الثقافات المعاصرة دون خشية الوقوع في براثنها أو الذوبان فيها. فطالما نملك موروثاً حياً ملهماً قوياً، لا خوف علينا من الذوبان في (الآخر)، أو فقدان ذاتيتنا في ذاتيته؛ فالذوات الفكرية والحضارية تتقابل وتتفاعل وتتزاوج وتتلاقح على مر العصور دون أن تفـــنى ذات حضـــارية قوية في ذات حضارية على نفس المستوى من الصلابة والقوة[1].

ثالـــثاً: أن للثقافة الإسلامية قدرة على التكيف مع مقتضيات التطور بفضل مـــا تمـــيز به الإسلام من نظرة وسطية غير مثالية، ومن تشجيعه على التفكير والـــتأمل ودعوة الناس ليتعارفوا ويتآلفوا، وهنا نؤكد على أهمية وفاعلية الحوار بين الحضارات، إلا أن الحـــوار الحضاري الإيجابي والفعال، يتطلب فهم الذات الحضـــارية، كمقدمة لفهم (الآخر) الحضاري، والعكس يكاد يكون صحيحاً. وهـــذا الفهم لايتم بمـــدح الذات أو (الآخر) الحضـــاري، ولا بهجـــاء الذات أو (الآخـــر) الحضـــاري، إنه يتطلب درساً وفحصاً للذات الحضارية، قدراتها وإمكاناتها، والمعيقات التي تحول دون تجددها. كما يتطلب فهم قدرات (الآخر) وإمكاناتـــه، وجوانب قوته وحركته. كما أن الحوار مع الحضارات الأخرى، خاصة الحضارة الغربية، ليس اختياراً، وإنما ضرورة من ضرورات التجدد الذاتي،

(١) النشار، مرجع سابق، ص١٦٥.

وامتلاك شروط السيطرة على مقومات هذا التجدد، وهنا ينبغي تأكيد ما يأتي:

أ- أن الحضـــارة الغربـــية ليست متجانسة على نحو مطلق، ففيها جوانب فكـــرية وتقنية تحتاج إلى التأمـــل وتفرض الإفادة منها. إنها ليســـت شراً كلياً كما يتصور بعضهم[١].

مـــن هنا نؤكد أنه يجب على المثقف العربي المسلم أن ينظر إلى الوقائع "من زاويـــتها الإنسانية الرحيبة ليدرك دوره الخاص ودور ثقافته في الإطار العالمي"، ويتهيأ إلى الحوار مع ثقافة (الآخر)، والحوار معه حواراً يحفظ به وجوده، وينمي ثقافته ليكون في مستوى التفاعل الحقيقي لا في مستوى الخضوع والاستسلام، وهذا الحوار يكون سبيلاً للتقدم لا سبيلاً للوقوف على هامش التاريخ.

ب- أن العولمـــة من شأنها أن تقوي عزمنا على البحث عن مناهج ترسيخ جذورنـــا وانتمائنا، فالعالم لا يخلو من الصراع، بأشكاله المختلفة، كل حضارة تدافـــع عن وجودها وتفيد من الحضارات الأخرى، وتختلف درجة الصراع من عصـــر إلى عصر ولكن الجوهر واحد. وليس السبيل إلى نجاتنا أن ننسحب من الواقع أو نستسلم له، فلماذا لا نفكر في نسق استراتيجي لتنمية شاملة واقعية في التخطيط والتنفيذ لرفع مستوانا إلى مستوى الحضارة؟[٢].

وهنا نتفق مع الرأي[٣] الذي يؤكد أن تخوف الدول العربية من العولمة ترجع أسبابه إلى ما تعانيه هذه الدول من مشكلات اقتصادية وثقافية نجمت عن الفرقة

(١) عبد المعطي، مرجع سابق، ٢٥٥-٢٥٦.
(٢) الطالبي، مرجع سابق، ١٩٥.
(٣) محمـــد صديق محمد حسن،" الثقافة العربية وتحديات العولمة (إعداد)"، في : التربية، ع ١٢٨، س ٢٨، مارس ١٩٩٩م، ص٨١.

والانقسامات وانعدام التخطيط والتنسيق والتعاون بين الدول العربية، كما ترجع إلى سوء تفاعل الدول العربية مع التكنولوجيا، فلا توجد سياسات وطنية تهدف إلى تطوير وتوطين كفاءات ومؤسسات محلية.

فنحن العرب تقع على عاتقنا مسؤولية مصيرية للتعامل مع العولمة، فنحن نملك القوى الاقتصادية والبشرية، ولدينا الرصيد الثقافي والحضاري الكبير الذي يساعدنا في إقامة مشروع أو رسم استراتيجية عربية متكاملة، اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وإعلامية، قادرة على المنافسة والتأثير والتأثر بثقافات وحضارات غيرنا، وليس هذا الأمر بغريب عن الثقافة العربية والإسلامية على مدى العصور، فكم تأثرت وأثرت – كما ذكرنا سابقا – في الثقافات والحضارات المجاورة لها على مر العصور والقرون وهي لم تزل شامخة تحتفظ بهويتها العربية والإسلامية.

ج-إن التعامل مع الثقافة الغربية الحديثة بالشكل الأمثل ينبغي أن يتم على أساس التخلص من كل مثالبنا التربوية والمجتمعية، التي أبرزها ميلنا إلى الانشداد إلى الوراء وتقديس الماضي، وانعدام الفاعلية الإيجابية لما نرزح تحته من قيود مثبطة للهمم ومعوقة للحركة الحرة، فضلاً عن الشعور بالاغتراب والشعور بالدونية والتخلف. إن كل هذه المظاهر السلبية في ثقافتنا العربية يجب أولاً أن نتخلص منها، وليس من وسيلة إلى التخلص منها إلا بالثقة بالنفس المتولدة من دورنا الرائد في التاريخ الحضاري، ومن قدرتنا — إذا ما بعثنا في أنفسنا الهمة واتحدت الإرادات وقبلنا التحدي- على التعامل الإيجابي مع ثقافة العصر دون وجل أو خوف أو شعور بالدونية والاضطراب[1].

(١) النشار، مرجع سابق، ص١٦٩.

رابعـــاً: يمكـــن الاستفادة من الثقافة الإسلامية ومصادرها في تطوير النسق الـــتربوي مـــن أجـــل تحديث الواقع الاجتماعي، وتحقيق أداء أفضل في المجال الاقتصـــادي، وتقوية الكيان الأسري الاجتماعي، وتحديث الشخصية العربية، وإعداد أفضل للموارد البشرية العربية.. ومما يدفعنا لتأكيد ذلك ما يأتي:-

- التربية، عليها أن تكوِّن العلماء وتعد المخترعين وخبراء الثقافة؛ لأن العلم أصبح عصب الحياة وحتى يتمكن هؤلاء العلماء من أداء مهمتهم في تنمية الثقافة بمـــا يخـــترعون وبما يبدعون.. وإذا أتينا إلى مناهج تعليم العلوم فإننا لا نجدها موظفة لتعليم أسلوب التفكير العلمي وأسلوب البحث والاستكشاف، ومن ثم لا تعد مخترعين أو مبدعين إنما نقلة لعلم الآخرين وحفظة لعلوم السابقين، فهي ثقافة نقلية بنكية[1].

- التربية، عليها أن تهذب النفس وتغرس الفضيلة في النفوس، وهذه الوظيفة الأخلاقـــية مهمة جداً للثقافة؛ لأن البعد الروحي والقيمي بها لا يقل أهمية عن الـــبعد المـــادي، فإذا تقاعست التربية في أداء وظيفتها الأخلاقية ضعف الجانب الـــروحي والقـــيمي للـــثقافة، وقد أكدت ثقافتنا العربية الإسلامية أهمية هذه الجوانـــب.. فكل علم لا يحمل الخـــير ولا يدعو إلى الفضيلة هو عند المسلمين علم عقيم، وحمله وزر يُعاقب عليه الإنسان[2].

- التربـــية، عليها أن تعلم قيم الإنتاج وحب العمل بجميع أنواعه وأشكاله وتغرس في المجتمع قيماً اقتصادية مهمة مثل احترام المال العام، والعمل على إتقان

---

(١) عبد الموجود، مرجع سابق، ص ٦٩٣.
(٢) نفس المرجع السابق.

مهـــارات الإنـــتاج، والتدريب المستمر لصقلها لمجاراة التقدم العلمي والتقني، والالـــتزام بالوقـــت، كما أن التربية مسؤولة عن تعليم الاتجاهات التنموية التي يحـــتاجها المجتمع مثل التخلص من السلوك الاستهلاكي، والهدر في الاستهلاك، وســـوء استخدام الموارد المتاحة، وفي مقابل ذلك يحتاج الإنسان العربي أن يتعلم ترشـــيد الإنفـــاق وتنظيم الأسرة وتدبير شؤونها، وإذا ما نجحت التربية في أداء وظيفـــتها الاقتصـــادية حققت الثقافة هدفاً استراتيجياً من أهدافها وهو تحقيق التنمية الشاملة[1].

تســـاهم التربـــية في غرس ما يسمى بثقافة الإنجاز من خلال توفير الاقتدار المعرفي، فلم تقم في أمة، عبر مختلف مراحل التاريخ، إلا وكانت ثقافة الإنجاز هي إطارهـــا المرجعي مادياً وعلمياً وتقنياً، أو فكرياً وروحياً.. والمستقبل، في متطلباته المتزايدة من الاقتدار المعرفـــي، يكرس بشـــكل لا رجعة فيه ثقافة الإنجاز المتميز، طالمـــا أن المعـــرفة تحصـــل، والمهارة تبنى: فلا هما يوهبان، أو يمنحان، ولا هما يـــنـــزلان حظـــاً مـــن السماء. ذلك هو المسار الحرج في عصر العولمة والتنمية المســـتدامة (سواء بسواء) والذي يحكم كل ما عداه من مسارات، مشكلاً المعبر الوحيد للشراكة العالمية.

مـــن هنا، فإن آفاق المستقبل تضغط بشكل غير مسبوق لأدراج بناء ثقافة الإنجـــاز في أولويـــات برنامج التنشئة المستقبلية. وكم هو جميل أن هذه الحالة بـــالذات تعـــيد صلتنا بحضارتنا العربية الإسلامية أكثر من أي أمر آخر. فليس

(١) المرجع السابق، ص٦٩٤.

هناك من دين يحض على العمل وإتقانه، جاعلاً منه المعيار في الموازنة بين الناس ورافعاً إياه إلى مصاف الجهاد الأكبر بقدر ما تحفل تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. وليس هناك من حضارة قامت على الإنجاز المنفتح إنسانياً بقدر هذه الحضارة العربية الإسلامية[1].

ختاماً، لابد من التأكيد أن تحديث الشخصية العربية يستدعى تنقية هذه العقيدة المقدسة مما علق بها من أوشاب وزيف؛ إما جهلاً بالدين؛ أو حبّاً في الدنيا، أو بسببهما معاً.

كما تستدعي الرجوع إلى المنابع الصافية للإسلام، في القرآن والحديث النبوي، وإلى سيرته الشريفة؛ وإلى عمل خلفائه وأصحابه، والاستهداء بآراء المفكرين المجتهدين؛ والمواءمة بين صحة العقيدة وروح الإسلام الحقيقي القائم على الوحدانية وعلى المعرفة والعلم، والعدالة والمساواة، والتفتح والقوة، وعمارة الأرض، والتفكير في ظواهر الكون، واكتشاف أسراره الدالة كلها على قدرة الله، الإسلام الداعي إلى تكريم الإنسان وتعظيم قدره، وإلى الحفاوة بالحياة، وبالعمل والسعي... كل هذه القيم هي التي تعين على اقتحام المستقبل.

ولا بد من تصحيح الصورة التي يتعمد أعداء الإسلام نشرها عنه، مما هو منه براء.. وفي المجتمع الإسلامي، من يعين، ربما بحسن نية على نمو مثل هذه الانطباعات، ليس في مفهوم الآخرين عن الإسلام هو مفهوم مغرض، وإنما في مفهوم المسلمين، عن أنفسهم[2].

(١) مصطفى حجازي، "العولمة والتنشئة المستقبلية"، مجلة العلوم الإنسانية، عدد ٢، صيف ١٩٩٩م، ص٣٦.
(٢) محي الدين صابر، من قضايا الثقافة العربية المعاصرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧م، ص٨٤.

التجربة الحضارية التاريخية

الدكتور الشيخ ناصر بن سليمان العمر[*]

لابد أن تكون النظرة إلى طبائع الشعوب والأجناس مجردة عما تأثرت به من أمور خارجة عنها، فمن استصلح بالشرع والدين، يفضل من سواه، ويعلوه بقدر ما قام به من دين، ومن فضّل العرب، إنما فضلهم لمكارم الأخلاق التي اتصفوا بها، وجاءت الشرائع بتتميمها.

إن لأهل الجزيرة العربية[1] ثروة تاريخية ثرة، وإرث حضاري يمتد عبر قرون بعيدة وأزمنة مديدة، يجب أن يستلهموا منه دروساً، وأن يأخذوا منه عبراً، للمضي بحضارتهم ورسالتهم قُدماً.

فجزيرة العرب بها أم القرى، وبيت الله الحرام، ومدينة النبي ﷺ، ومسجده

(*) داعية وباحث أكاديمي.. (المملكة العربية السعودية).

(١) قال سماحة الشيخ بكر أبو زيد -حفظه الله- : «فيحدها غرباً بحر القلزم - والقلزم مدينة على طرفه الشمالي، ويقال بحر الحبشة وهو المعروف الآن باسم البحر الأحمر، ويحدها جنوباً بحر العرب ويقال بحر اليمن، وشرقاً خليج البصرة، الخليج العربي، والتحديد من هذه الجهات الثلاث بالأبحر المذكورة محل اتفاق بين المحدثين والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم... ويحدها شمالاً ساحل البحر الأحمر الشرقي الشمالي وما على مُسامَتَتِهِ شرقاً؛ من مشارف الشام وأطراره [الأردن حالياً] ومنقطع السماوة من ريف العراق، والحد غير داخل في المحدود هنا» خصائص جزيرة العرب ص١٧-١٨ باختصار يسير. الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ، دار ابن الجوزي.

عليه الصلاة والسلام، وما بين البيت إلى المنبر، روضة من رياض الجنة[1]:

بطيـبة رسـمٌ للرسـول ومعهد ... مـنيرٌ وقـد تعفو الرسوم وتهمـد
ولا تمحّـى الآيات من دار حرمة ... بهـا منـبر الهادي الذي كان يصعد
و واضـح آيـات وباقي معالم ... وربْـع له فـيـه مُصـلىً ومسجدُ
به حجرات كان ينـزل وسطها ... مـن الله نـور يستضـاء ويوقـد
معارف لم تطمس على العهد آيُها ... أتاهـا البـلى فـالآي منـها تجدد

وفـيها كان الخلفاء الراشدون، والأنصار والمهاجرون، وبها عقدت رايات المسـلمين، وقويت أمور الدين، وأيضاً فإن فيها المناسك والمشاعر، والمواقيت والمناحر:

إذا هَزَّنا الشـوقُ اضطربنا لهزه ... على شُعُبِ الرحل اضطراب الأراقم
فمـن صبواتٍ تستقيم بمـائلٍ ... ومـن أريحـيات تُهـبُ بـنائمِ
وأستَشْـرِفُ الأَعْلامَ حتى يدلني ... عـلى طيـبها مَرُّ الرياحِ النواسمِ
وهـل أنسم الأرواح إلاّ لأنها ... تَهـبُ عـلى تلك الربى والمعالمِ؟

كمـا أنها جزيرة شِعرية، ذكرها الفحول في دواوينهم، فدرسها الشُرَّاح في مصـنفاتهم، فإذا قرأتها وجدت زمزم والحطيم، ووداً وأشداخ، ومدافع الريان، وشماريخ رضوى، وبرقة ثهمد، وحومانة الدراج ، وتقادمت فالجبس فالسوبان،

(١) انظر صحيح البخاري حديث رقم ١١٩٥، وصحيح مسلم حديث رقم ١٣٩٠.

وهجـــر وجواثا، وإضم والجواء، وتهامة والحجاز، والعروض واليمن، واليمامة والرميصاء، بل أرض نجد كلها:

وإني وإن فارقـــت نجـــداً وأهله		لمحترق الأحشاء شوقاً إلى نجدِ
أروح على وجدٍ وأغدو على وجدٍ		وأعشق أخلاقاً خلقن من المجدِ

ولو استطردنا بذكر شيء مما ورد في أشعارهم لطال المقال[1]، وأي دار من ديارها ما وقفوا عليها؟ وحسبك قول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم		أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

و فـــوق ذلـــك تجـــد في تلـــك المصـــنفات ذكر عشائر الجزيرة وقبائلها وخصائصهم، وأموراً دقيقة متعلقة بهم.

وفضلاً عن ذلك فقد كان للحضارات القديمة فيها شأن عظيم، بل إن أول الحضـــارات البشـــرية قامت بها وأَهَلتْها وذلك لَمّا بنى آدم عليه السلام بيت الله الحرام[2] فكان أول بيت وضع للناس ببكة مباركاً، وقد ذكر العليم الحكيم في

(١) انظـــر في ذلك مثلاً صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، ص ٣١٩ وما بعدها. طبعة دار اليمامة، ١٣٩٧هـــ، بتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي.

(٢) ذكر ابن حجر في الفتح أقوالاً في أول من بنى البيت فذكر آدم والملائكة وشيث بن آدم، ثم قال: والأول أثبت، قـــال السيوطي في شرح سنن النسائي عند تعليقه على حديث:" سألت رسول الله ﷺ أيّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أولاً؟ قال: (المسـجد الحرام). قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى). قُلْت: وكم بينهما؟ قال: (أَرْبَعُونَ عَامًا) قال القرطبي: فـــيه إشكال، وذلك أن المسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام بنص القرآن. والمسجد الأقصى بناه سليمان عليه الســـلام، كمـــا أخرجه النسائي من حديث ابن عمر، وسنده صحيح، وبين إبراهيم وسليمان أياماً طويلة، قال أهل التاريخ أكثر من ألف سنة. قال: ويرتفع الإشكال بأن يقال: الآية والحديث لا يـــدلان على بناء إبراهيم وسليمان –لما بينّا– ابتداء وضعهما لهما. بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما وبدأه، وقد روي: أول من بنى البيت آدم، وعلـــى هذا فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً. انتهى. قُلْت: بل آدم نفسه هو الذي وضعه أيضاً، قال الحافظ ابن حجر فـــي كتاب التيجان لابن هشام: إن آدم لمّا بنى الكعـــبة أمـــره الله – تعـــالى– بالســـير إلى بيت المقدس. وَأَنْ يَبْنِيَهُ فَبَنَاهُ وَنَسَكَ فِيهِ" كتاب المساجد باب ذكر أي مسجد وضع أولاً، حديث رقم ٦٨٩، سنن النسائي بشرح السيوطي، ٣٦٢/٢، الطبعة الخامسة لدار المعرفة، ١٤٢٠هـــ.

القــرآن الكريم عن حضارات الجزيرة العربية ما لم يذكره عن غيرها من الأمم والحضارات التي قامت في شتى البلدان والأقاليم فسادت ثم بادت.

ألا ترى أن جزيرة العرب، أرض معجزات نبوية، ومجال رسالات سماوية، ففيها بلد سبأ، وسدُّ مأرب، وعرشٌ عظيم، وبئرٌ معطلة، وقصر مشيد، بل سائر بــلاد عــاد؛ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمودُ الذين جابوا الصــخر بــالوادي، وأصحابُ الرس، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الأخدود، وقــبر هــود، ودعوة إبراهيم، وحجر صالح، ومدين شعيب، ومرتع إسماعيل، ومــلجأ موســى، ومهــد محمد -صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين- ومثواه:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت   بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد[1]

ثم كانت أرض الجزيرة وطاءً لخير القرون وأديمها لحافاً لجُلِّهم بعد أن غيبوا تحت أطباق ثراها.

ومــع هــذا كله فأرض الجزيرة العربية تشتمل على حدود جليلة، وكُوَرٍ جســيمة، فهــي من أمد الأقاليم مساحة، وأفسحها ساحة، وأعظمها حرمة، وأشرفها مدناً: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:٦٨).

لحكمــةٍ بالغة قضاهــا   يستوجب الحمد على اقتضاها

وقــد فضل جزيرة العرب على ما سواها جمع ممن عنوا بالأقاليم والبلدان. قــال الهمــداني: «أفضــل البلاد المعمورة من شق الأرض الشمالي إلى الجزيرة

(١) البيت من مرثية حسان – رضي الله عنه– التي مطلعها: بطيبة رسم للرسول ومعهد.

الكـــبرى ... وتسمى جزيرة العرب»[1]، وقال القلقشندي: «.. بجزيرة العرب الواقعة فـــي أواســـط المعمورة وأعـــدل أماكنه وأفضـــل بقاعه، حيث الكعبة الحـــرام.. »[2]، قال المقدسي في أحسن التقاسيم: «وهي أمد الأقاليم مساحة، وأفسحها ساحة، وأفضلها تربة، وأعظمها حرمة، وأشرفها مدناً»[3].

فجزيـــرة العرب من أفضل البلاد وأشرفها، قال الشيخ بكر أبوزيد: «كثرة الأسمـــاء تـــدل على شرف المسمى، ولهذه الجزيرة جملة أسماء؛ كلها مضافة إلى العـــرب لا غـــير»[4]، وذكرها: [جزيرة العرب]، و[أرض العرب]، و [بلاد العـــرب]، و[ديار العرب]، و[الجزيرة العربية]، و[شبه جزيرة العرب]، [وشبه الجزيرة العربية].

ومـــا يدل على شرفها أيضاً كثرة ما صنف فيها، وقد أشار الشيخ بكر إلى شـــيء مـــنها، وممـــا كتب زيادة على ما ذكر[5]، والشأن هنا أيضاً في ذكر المؤلفات المفردة عن هذه الجزيرة على اختلاف مقاصد المؤلفين:

١- جزيرة العرب للأصمعي، يذكره من ترجم له.

٢- جزيـــرة العرب لأبي سعيد السيرافي، ذكره البابانى في هدية العارفين، وغيره.

٣- جزيرة الإسلام للشيخ سلمان العودة، مطبوع، وما يليه كذلك.

---

(١) صفة جزيرة العرب ص٣، للهمداني.

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، لأبي العباس أحمد القلقشندي، طبعة دار الكتاب المصري مع دار الكتاب اللبناني، تحقيق إبراهيم الإبياري.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي.

(٤) انظر خصائص جزيرة العرب، لفضيلة الشيخ بكر أبو زيد.

(٥)انظر خصائص جزيرة العرب ، ص١٢٠.

٤- جزيرة العرب مهد الحضارة الإنسانية، لمحمد معروف الدواليبـــي.

٥- مرآة جزيرة العرب، لأبي أيوب صبري باشا.

٦- السكان والاقتصاد والعمل قبل قرن في جزيرة العرب، أحمد اليحيى.

٧- جغرافية شبه جزيرة العرب، لمحمود أبو العلا.

٨- جغرافية جزيرة العرب، لعمر رضا كحالة.

٩- رحلات في شبه جزيرة العرب، لجون لويس بوركهات.

١٠- جزيرة العرب قبل الإسلام، لبرهان الدين دلو.

١١- تاريخ جزيرة العرب القديم وسيرة النبي ﷺ، لعبدالله العثيمين.

١٢- وفـــود القبائل على الرسول ﷺ، وانتشار الإسلام في جزيرة العرب، لحسن جبر.

١٣- جزيرة العرب: مصير أرض وأمة، لمحمد ولد داداه.

١٤- شـــبه جزيـــرة العرب، لمحمود شاكر، وهو مجموعة كتب جعل لكل قسم أو أقسام منها كتاباً.

١٥- أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ: جزيرة العرب، لمحمد عبدالهادي، وفاء محمد.

١٦- صـــور مـــن شمالي جزيرة العرب: في منتصف القرن التاسع عشر، لجورج أوغست، ترجمة سمير الشبلي.

١٧- أرض المعجزات: رحلة في جزيرة العرب، لعائشة عبدالرحمن.

١٨- جزيرة العرب في العصر الحديث، لصلاح العقاد.

١٩- الجزيرة العربية: موطن العرب ومهد الإسلام، لمصطفى مراد الدباغ.

٢٠- لمحات عن تطور الفكر في جزيرة العرب في القرن العشرين، لفهد المبارك.

٢١- جزيرة العرب في القرن العشرين، لحافظ وهبة.

٢٢- النهضات الحديثة في جزيرة العرب، لمحمد عبدالله ماضي.

٢٣- مشاهداتي في جزيرة العرب، لأحمد حسين.

٢٤- اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من الحضارة والعلم، جاكلين بيرين، ترجمة قدري قلعجي.

٢٥- دراسات عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية، لصباح إبراهيم الشيخلي.

وقد أغفلنا شيئاً مما كتب في جيولوجيتها وتضاريسها للاكتفاء بما ذكر، أما التسجيلات المرئية، والندوات، وما كتب في المجلات من مقالات متخصصة عن الجزيرة العربية فأكثر من أن تحصر، ولا أطيل بسرد بعضها ففيما سبق غنية وكفاية.

جزيرة العرب وعلاقتها بفضل العرب:

سل المعالي عنا إننّا عرب   شعارنا المجد يهوانا ونهواه

هي العروبة لفظ إن نطقت به   فالشرق والضاد والإسلام معناه

لقد قرر أهل العلم أن العرب هم "رأس الأمة وسابقوها إلى المكارم"[(١)] فهم "أفضل من العجم"[(٢)] بل "أفضل من غيرهم"[(٣)] بل "أفضل الأمم"[(٤)] قاطبة.

قال شيخ الإسلام: «ولهذا ذكر أبومحمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني صاحب الإمام أحمد في وصفه للسنة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها: وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد وإسحاق ابن إبراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم، فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية، وساق كلاماً طويلاً إلى أن قال: ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ: «**حب العرب إيمان وبغضهم نفاق**» ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي، الذين لا يحبون العرب، ولا يقرون بفضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف. ويروون هذا الكلام عن أحمد نفسه، في رسالة أحمد ابن سعيد الأصطخري، عنه إن صحت، وهو قوله وقول عامة أهل العلم»[(٥)].

---

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول، ص١٠٦، لمحمد بن علي الحكيم الترمذي، طبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

(٢) انظر تفسير القرطبي، ١/١٤١.

(٣) السابق، ٤/٢٦٣.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ٩/٣٧٩، لمحمد بن عبدالرحمن المباركفوري، طبعة دار الكتب العلمية.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١/١٤٨. وانظر كذلك ص١٥٦، وقد نسب القول بفضل العرب للجمهور في منهاج السنة النبوية، ٤/٥٩٩.

وقال الكرماني أيضاً: «فالعرب أفضل الناس، وقريش أفضلهم، هذا مذهب الأئمة وأهل الأثر والسنة..»[١].

قال شيخ الإسلام: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة**» الحديث، وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح، وهذا يقتضي أن إسماعيل وذريته صفوة ولد إبراهيم، فيقتضي أنهم أفضل من ولد إسحق، ومعلوم أن ولد إسحق الذين هم بنو إسرائيل أفضل العجم، لما فيهم من النبوة والكتاب، فمتى ثبت الفضل على هؤلاء فعلى غيرهم بطريق الأولى»[٢].

وقال قبلها: «فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم... وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور»[٣]، وقد وضع المصنفون كُتباً وأجزاء في الدليل على فضل العرب فلتراجع[٤].

وسر تفضيل العرب على من سواهم، هو ما تميزوا به من خصال حميدة، وأخلاق نبيلة ، كما قال الحكيم الترمذي: «فالعرب بالأخلاق شرفوا، وإلاّ فالشجرة واحدة وهو خليل الرحمن»[٥].

---

(١) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، ٥١٥/٤، الطبعة الأولى للمكتبة التجارية الكبرى.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام بن تيمية، ١٥٤/١، الطبعة الثانية لمطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

(٣) السابق ١٤٨/١.

(٤) لابن القيم - رحمه الله- فصل في الدليل على فضل العرب، وللمقدسي مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، وللهيتمي مبلغ الأرب في فخر العرب، اختصره الهيتمي من كتاب حافل للحافظ العراقي.

(٥) انظر نوادر الأصول في أحاديث الرسول، لأبي عبدالله الحكيم الترمذي، ص٩٦.

وقال الشيخ بكر: «فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها... لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم»[1]، كما أنهم «أطوع للخير، وأقرب للسخاء، والحلم، والشجاعة، والوفاء... أصحاب إباء لا يعرفون التزلف والنفاق وتحمل الاستبداد.. ومما تميز به العرب الصدق، حتى الذين كانوا يحاربون الإسلام ظهر صدقهم في أمور»[2]. فيا لله كيف انتكست بعد ذلك الفطر، وتغيرت العقول، ففتن بعضنا بحضارة غربية قاصرة، على جوانب قاصرة فيها ما فيها، واستَبْدَل - يوم استَبْدَل- شرها بمكارم حضارة عريقة.

إن المكارم قد قلت مواليها   مولى المكارم يرعاها ويعمرها

ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذا التفضيل ينبغي أن يراعى عند النظر إليه أمران:

الأول: أن النظرة هنا إلى طبائع الشعوب والأجناس مجردة عما تأثرت به من أمور خارجة عنها، فمن استصلح بالشرع والدين يفضل من سواه ويعلوه بقدر ما قام فيه من دين. ومَن فضّلَ العرب إنما فضلهم لمكارم الأخلاق التي اتصفوا بها، وجاءت الشرائع بتميمها، فإذا التزم الناس بالشرائع فلا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى، والأصل أن الناس معادن[3].

---

(١) خصائص جزيرة العرب ، للشيخ بكر أبو زيد، ص٦١، مع اختصار يسير.

(٢) جزيرة الإسلام، للشيخ سلمان بن فهد العودة، ص٤٢-٤٦، والنقل باختصار وتصرف يسير.

(٣) جزء من حديث الصحيحين، انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَتٌ لِلسَّآئِلِينَ﴾، ٣٣٨١، وصحيح مسلم رقم ٢٥٢٦.

الثاني: أنه وصف عام، وعند التفصيل ومقارنة الأفراد يشذ بعضهم، فقد تجد شخصاً من العجم يفضل بعض العرب في أخلاقه وصفاته، ولكن عند الإطلاق والتعميم فالعرب أفضل ممن سواهم.

والشاهد من هذا التقرير هو أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والأرض التي ينشأ عليها لها صلة وثيقة بأخلاقه وعاداته، وقد عرفت العرب هذه العلاقة منذ زمن بعيد، ولهذا كانوا يدفعون أولادهم إلى المراضع «لينشأ الطفل في الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية، وقد قال – عليه السلام – لأبي بكر، رضي الله عنه، حين قال له:

«ما رأيت أفصح منك يا رسول الله».

فقال: «وما يمنعني، وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد؟».

فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات. وقد ذُكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضر بنا حُب الوليد؛ لأن الوليد كان لحّاناً، وكان سليمان فصيحاً؛ لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية، فتعربوا، ثم أُدبوا فتأدبوا»[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فرق بين من يتقلب في عيش لين الأعطاف رطب، وبين آخر تربى في بيئة شديدة وعرة، فذلل شظف العيش وركب صعبه، وقد قيل:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليجيء كل مسلم أسد

(١) انظر الروض الأنف، لعبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، شرح حديث الرضاع، ١٨٨/١، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

فـإذا شـرف العرب لأخلاقهم وصفاقم فالبيئة [الجزيرة العربية] هي التي ساعدت في صنع كثير من تلك الأخلاق والخصال التي تميز بها العرب[1]، ولهذا كانت الجزيرة العربية أفضل من غيرها.

تعلق العرب في شتى الأمصار بأرض الجزيرة:

ولا يخفـى عـلى القارئ الكريم أن العرب الأصليين الذين تفرقوا في شتى الأمصـار أصـولهم من الجزيرة العربية وإن بَعُد العهد، وهذا ما قرره من عنوا بالتقاسيم والأقاليم، قال القلقشندي: «اعلم أن مساكن العرب في ابتداء الأمر، كانـت بجزيرة العرب»[2]، وهو قول المعاصرين من الباحثيـن في هذا الحقل، قال المقريزي:

«ولا اخـلاف بيننا في أن هذه القبائل العربية التي ملأت الأقطار العربية على اتسـاع رقعـتها، قد انبعث كلها بطبيعة الحال من مهـدها الأول وهو شبه الجزيرة العربية»[3].

وقال: «وليس من شك في أن المستودع الأول في شبه الجزيرة العربية الذي أمـد شـطري الوادي بالعناصـر العربية منذ عصور الجاهلية، هو نفسه الذي أمد بلاد المغرب كلها فـي أفريقية، وبلاد الشام والعراق في آسيا.. »[4].

---

(١) ذكـر الشيخ بكر أبو زيد في كتابه خصائص الجزيرة، ص٦٣-٦٦، ستاً وعشرين ميزة للعرب وجزيرتهم نقلاً عن كتاب أم القرى فلتراجع.

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص٥١.

(٣) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، ص٧٤، للمقريزي.

(٤) السابق، ص ٩٥.

قال شيخ الإسلام :

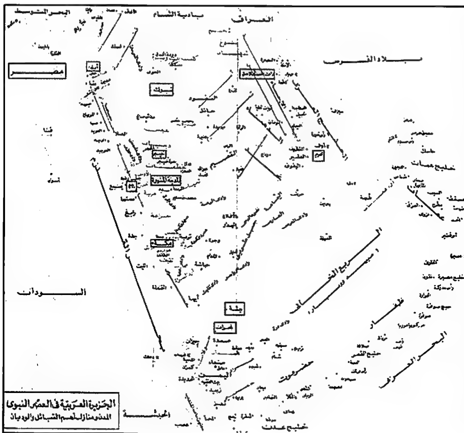
«.. وفي هـذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله، فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وإلى سواحل الشام وأرمينية، وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم، ثم انقسمت هذه البلاد قسمين، منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا تعرف عامتهم غيره... ومنها ما العجمة كثيرة فيهم أو غالبة عليهم.. فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربي ابتداءً وما هو عربي انتقالاً، وإلى ما هو عجمي، وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لساناً وداراً أو لساناً لا داراً أو داراً لا لساناً، وقوم من نسل العرب بل من نسل بني هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما، وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أو من نسل العجم، وهم أكثر الناس اليوم»[1].

والمقصود أن أصول العرب في مشارق الأرض ومغاربها ترجع إلى الجزيرة العربية في كثير من الأحيان، وهذا بدوره يجعل للجزيرة العربية في كثير من القلوب مكاناً، وقد قيل:

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلاّ للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الأباء والأجداد

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/١٦٦-١٦٧، باختصار.



قبائل العرب ووجودها في الجزيرة العربية في العصر النبوي

جزيرة العرب مهوى أفئدة المسلمين:

وعـيرني الواشـون أني أحبها . وتلـك شكاة زائل عنك عارها

لّمـا كانـت الجزيرة مهبط الوحي وسابقة الأراضي للإسلام - فما مات رسـول الله ﷺ حتى فتح الله عليه سائر الجزيرة العربية[1] لّما كان الأمر كذلك عظمـت مكانة الجزيرة في قلوب المسلمين جميعاً، عرباً وعجماً، ولاغرابة فهي الـتي مدت البقاع والأصقاع بالإسلام، فلا عجب إذا قرأت في بعض التراجم عـن بعـض أهل العلم من الأعاجم أنه كان: «واسع الاطلاع بشؤون العالم الإسـلامي، شـديد التعلق بجزيرة العرب والحجاز والحرمين الشريفين، عميق الحـق، شـديد التعظيم للنبي ﷺ، وأصحابه وأهل بيته، شديد الحب للعرب، يسـوؤه ويؤلمه ذمهم وانتقاص حقهم وفضلهم، خبيراً بجغرافية الجزيرة العربية، ألف كتاباً باللغة العربية في هذا الموضوع في شبابه»[2].

وكـيف لا يكون للمسلمين في المشارق والمغارب تعلق بها وهم يتوجهون تلقاءها في الخمسة الأوقات. وقد قال قائلهم إقبال:

نحـن الذيـن إذا دعـوا لصلاتهم والحرب تسقي الأرض جاماً أحمرا
جعلوا الوجوه إلى الحجاز فكبروا بمسـامع الـروح الأمـين فكبرا

---

(١) انظر التماس السعد في الوفاء بالوعد للسخاوي، ص٣، وكذلك أسد الغابة لابن الأثير، ص٦٠٢، ترجمة حبة بن بعكك.

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسـامع والنواظر، ص١٩١٧، لعبد الحي اللكنوي، والـكلام هـنا عن ابنه عبدالعلي ابن عبدالحي.

وهـــذا الـــتعلُّق نلحظه في كثير من العجم وبخاصة في شبه القارة الهندية، فـــتراهم يكبرون ويجلون من عرفوا أنه من أرض العرب، وهذا كثير فيمن عنوا بالشرع والدين، ولاسيما من لم يعش منهم بأرض الجزيرة، وأما من عاش فيها فكـــثير مـــنهم تغـــيرت نظرته إما لاختلاف واقع أحفاد أبي بكر وعمر وسائر الصـــحابة عمّـــا في مخيلته، أو نتيجة معاملة وأخلاقٍ ليست بأخلاق أهل هذه الـــبلاد، ولكـــنها أخـــلاق حضارات وافدة فُتحت لها الصدور فتطاير شررها واستشرى شرها.

جزيرة العرب ودعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

ومـــن مميزات جزيرة العرب التي جعلتها ذات حضارة رائدة متميزة، قيام دعوة إبراهيم عليه السلام بها:

هـــي الحنيفـــية عين الله تكلؤها   فكـــلما حاولوا تشويهها شاهوا

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:١٢٦)، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهـــيم:٣٧) ، فاستجاب الله دعوته؛ وجعل في نسله من الأنبـــياء من يقوم بدعوة الحنيفية يحوطها ويرعاها ويتممها، فكان إسماعيل عليه الســـلام أبا العرب، ورسولهم، والمجدد الأول لملة إبراهيم -عليه السلام- وعن

بنـــيه انتشـــرت بقايا الحنيفية في سائر أرجاء الجزيرة العربية، وصارت الحنيفية الديانة الرسمية لشبه الجزيرة العربية.

ولقد ظل العرب رواد حضارة نبوية مجيدة ردحاً من الزمن، ثم تقادمت بهم السنون واندرست معالم حضارة التوحيد شيئاً فشيئاً، إلى أن جاء عمرو بن لحي الخـــزاعي واستورد عبادة الأصنام عن دين العماليق بأرض الشام[1]، قال ﷺ: **«رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفَ، أَبَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلاءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»**[2].

وأورد «ابـــن إسحاق في السيرة الكبرى ... أتم من هذا، ولفظه: (سمعت رســـول الله ﷺ، يقـــول لأكثم بْن الْجَوْن: **رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في الـــنار، لأنه أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان وسَيَّبَ السَّائِبَة وَبَحَّرَ الْبَحِيرَة وَوَصَلَ الْوَصِيلَة وَحَمَى الْحَامِي** »[3].

وقال: و« قال هشام وحدثني أبي وغيره أن إسماعيل عليه السلام لما سكن مكـــة وولـــد بها أولاده فكثروا حتى ملئوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ضـــاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتفســـحوا في الـــبلاد[4] والتماس المعاش فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجـــارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلاّ احتمل معه حجراً من حجارة الحـــرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم

(١) انظر فتح الباري لابن حجر، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٢٠، ٦٦٩/٦، طبعة دار السلام، ١٤٢١هـ.
(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ٢٨٥٦.
(٣) فتح الباري لابن حجر، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٢٠، باختصار يسير.
(٤) في نهاية هذا المبحث خارطة تبين وجود العرب في الجزيرة قبل البعثة، ص١٤.

بالبيـــت حباً للبيت وصبابة به، وهم على ذلك يعظمون البيت ومكة ويحجون ويعـــتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم عبدوا ما استحسنوا ونسوا ما كانوا عليه واســـتبدلوا بدين إبراهيم غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث ما بقي من ذكرها فيهم، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعـــيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وإهداء البدن مع إدخالهم فيه ما ليس منه»[1].

غـــير أنه بقيت فيهـــم قلة على الحنيفية مستقيمون، كأمثال زيد بن عمرو ابـــن نفـــيل، قـــال ورقة بن نوفل -وهو كذلك من المتألهين قبل البعثة دارساً للكتاب- في رثائه:

رَشدت وأنعمت بن عمروٍ وإنما تجنبـــت تـــنوراً مـــن الـــنار حامياً
بدَيـــنك ربـــاً ليس رب كمثله وتـــركك أوثان الطواغي كما هيا

إلى قوله:

فأصبحت في دار كريم مُقامها تُعَلَـــلُ فـــيها بالكـــرامة لاهـــياً
تُلاقـــي خليلَ الله فيها و لم تَكُنْ مـــن الـــنّاس جـــباراً إلى النار هادياً
وقـــد تُدرِكُ الإنسان رحمة ربه ولـــو كان تحت الأرض سبعين وادياً

(١) إغاثـــة اللهفـــان مـــن مصائد الشيطان، ٢/ ٢١٠، لابن القيم، بتحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٧هـــ.

وقـــد كان زيد يلتمس الحنيفية ملة إبراهيم، «فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصـــرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح عـــلى الأوثان ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم ؛ وبادى قومه بعيب ما هم عليه»[1].

وقـــد ثبت في صحيح البخاري « أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْـــأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِيـــنَ دِيـــنَكُمْ فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَـــدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَـــالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلا يَعْبُدُ إِلا اللَّهَ.. فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، قَالَ مَا أَفِرُّ إِلا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلا مِنْ غَضَبِهِ شَـــيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْـــتَطِيعُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَـــا أَعْلَمُـــهُ إِلا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّـــا وَلا نَصْـــرَانِيًّا وَلا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ.. فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ.. وَقَـــالَ اللَّيْـــثُ: كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللَّهم عَنْهما، قَالَتْ: رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَقُولُ: يَـــا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي.. وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٥٣/١-٢٥٤، الطبعة السابعة لدار الكتاب العربي، ١٤٢٠هـ.

يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا»[1].

ومن المتألهين قبل البعثة أيضاً أمية بن أبي الصلت الثقفي وهو القائل:

إنَّ آيــات ربــنا ثاقــباتٌ ... لا يماري فيهنَّ إلاّ الكفورُ

كل دينٍ يوم القيامةِ عند اللـــ ... ـــه إلاّ دين الحنيفـــةِ بورُ

وكان يرى ما آل إليه حال أهل الكتاب من الضلال ومن ذلك قوله:

فــرأى الله حــالهم بمضْــيَعٍ ... لابــذي مَــزْرَعٍ ولا مُثْمُورا

فســناها علــيهمُ غاديــاتٍ ... وتــرى مُزنهم خَلايا وخُورا

إلى آخــر ما قال، غير أنه لم يسلم بعد البعثة النبوية حسداً من عند نفسه. ومــا مضــى يدل على بقايا سمحة كانت عند العرب، صقلت أذهانهم وجلت أبصارهم ليروا زيغ النصارى واليهود وما آلو إليه.

والخلاصــة، أن دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بالإضافة إلى الجانب الــروحي الــذي عمرته بالعبادات التي شرعتها والشعائر والمناسك التي تركتها وبقيت آثارها إلى حين البعثة النبوية الشريفة، فقد أرست دعائم حضارة فذة، في مجــالات الحياة كلها، وقد كان لها أثر كبير على العرب وما تميزوا به من كريم خصال وحسن أخلاق.

فلئن كان في العرب صدق ووفاء فإن أباهم كان صادقاً: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ (مريم:٥٤).

---

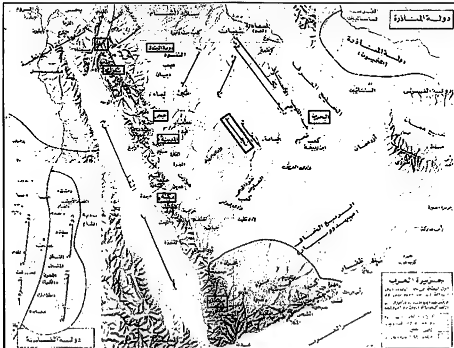
(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٢٨.

ولئن كان في العرب صبر وجلد فإن أباهم قال عند الذبح: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصافات:١٠٢).

ولئن كانوا يجيدون القتال والرمي بالنبال فإن أباهم كان رامياً[1].

ولـئن كانوا فرساناً فإن أباهم أول من ذللت له الخيل[2]، ولئن كان فيهم كرم فجدهم مالبث أن جاء بعجل حنيذ.

ثم لّما ضاعت هويتهم الحنيفية السمحة، ذهبت حضارتهم، وأمسوا في شر حال، كل عام يرذلون، وبالمقابل فقد سطعت شمس القياصرة، وتأججت نار الأكاسرة.



جزيرة العرب قبل البعثة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

(١) فـي حديـث البخاري وغيره: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»، انظر الصحيح، كتاب الجهاد، باب التحريض على الرمي، حديث رقم ٢٨٩٩.

(٢) انظـر أخـبار مكة،١٨٩/٤، لمحمد بن إسحاق الفاكهي، الطبعة الأولى لمكتبة النهضة الحديثة ١٤٠٧ بتحقيق عبدالملك بن دهيش.

جزيرة العرب ودعوة محمد عليه الصلاة والسلام:

جـرت سنة الله القاضية بإهلاك المكذبين الظالمين، في أصحاب الحضارات السابقة من الأمم التي خلت في أرض الجزيرة. وذلك لمّا بطرت معيشتهم، وعتوا عن أمر ربهم، وتفاقم ظلمهم: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾(الحج:٤٥)، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥٨)، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (الأنبياء:١١-١٥)، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦-٩٨)، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ (الطلاق:٨-١٠).

إن من سنن الله عز وجل في هذه الحياة أن جعل لكل بداية نهاية، فمع اليوم غـداً، وبعـد الحدث حدثاً، ولكل مولود يوم موعود، وهذه سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فكم من حضارة قامت وازدهرت ثـم مـا لبثـت أن تبدلـت وتبددت. ولكن جعل الله لهذه السنن أسباباً ونواميس

وقوانـــين؛ حتى يسهم البشر في صنعها؛ في تقديمها و تأخيرها، بحسب علمهم وحلمهم. وحتى يكون الجزاء من جنس العمل، فيقال: يداك أوكتا وفوك نفخ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وهكـــذا لّمـــا اندرســـت معالم التوحيد في أرض الجزيرة، وترك الناس ملة الحنيفـــية خـــلا نفـــر قليل، واجتالت الشياطينُ البشرَ فتاهوا بين وثنية جائرة، ومجوســـية فاجرة، ويهودية مدمرة، ونصرانية حائرة، « **وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَـــتَهُمْ، عَـــرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»[1]، أمست حضـــارة العرب في حضيض، وغدو في شر حال[2]، وآذن الناس بهلاك، ولكن اقتضت رحمة الله أن ينبثق فجرٌ، وأن يُبعث رسولٌ يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم:

لّمـــا أطل محمدٌ زكت الربى واخضر في البستان كل هشيم

فـــألف الله بـــه بـــين الشـــمل، وجمع به بين القلوب، وعصم به من كيد الشيطان.

واقتضـــت حكمته أن تكون أرض النبوة الخاتمة والرسالة العالمية الخالدة هي أرض الجزيرة العربية، ليبلغ أهلُها رسالة ربهم إلى الناس كافة، «فالعرب هم حملة شـــريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها .. لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر

(١) جزء من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، وهو عند مسلم برقم ٢٨٦٥.

(٢) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٦٨٤، ومن الميمنية٦/٣، ورجاله ثقات قال ابن كثير في التفسير، ٣٣١/٣: وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه. وساقه الطبري بسنده في التفسير، ٥٣/١٩ من رواية محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه، ورواه ابن حبان في صحيحه، ٤٨٩/١٤، والطبراني في المعجم الكبير، ٢٥٣/٢٠، والبخاري في الأدب المفرد، ٤٤/١.

الأمـــم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جـــودة الأذهـــان، وقـــوة الحوافـــظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاخـــتلاط ببقـــية أمـــم العالم. فهم بالوصف الأول: أهل لفهم الدين وتلقيه. وبالوصـــف الثاني: أهل لحفظه، وعدم الاضطراب في تلقيه. وبالوصف الثالث: أهـــل لســـرعة التخلق بأخلاقه، إذ هم أقرب إلى الفطرة السليمة... وبالوصف الرابع: أهل لمعاشرة بقية الأمم، إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرى»[1].

ومـــن رعاية الله لهذه الجزيرة وأهلها أن النبي ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه سائرها.

ومن لطف الله بهذه الجزيرة وأهلها، أنه قصم فئاماً من الظالمين اعتدوا فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ (الفيل:١-٥)،﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود:٥٩-٦٠)

الغـــدر أهلك عاداً في منازلها   والبغي أفنى قروناً دارها الجُنْد
من حمير حين كان البغي مجهرة   منهم على حادث الأيام فانجردوا

وهذه سنة الله الباقية..

(١) خصائص جزيرة العرب، للشيخ بكر أبو زيد، ص٦١، مع اختصار يسير.

فمــن موعود الله لنا ما ثبت في حديث أم المؤمنين عَائِشَةُ رَضِي اللَّهم عَنْهَا قَالَــتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَــفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ**، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِــرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»[1].

ولا مجال هنا للحديث عن حضارة الإسلام وكم سادت من قرون وكيف انــتكس أهلها لَمّا تخلو عنها، فإن النهار لايحتاج إلى دليل، والمعروف لا يعرف، وما كتب أكثر من أن يحصر.

بــالله سَلْ خلف بحر الروم عن عرب	بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا
فــإن تراءت لك الحمراء عن كثب	فســائل الصــرح أين المجد والجاه
وانزل دمشق وخاطب صخر مسجدها	عمــن بــناه لعــل الصخر ينعاه
وطــف بــبغداد وابحث في مقابرها	عــلَّ امــرئً من بني العباسِ تلقاه
أيــن الرشــيد وقد طاف الغمام به	فحــين جــاوز بغــداد تحــداه
هــذي معــالم خــرس كل واحدة	قامــت خطيــباً فاغــراً فــاه
مــاض نعــيش عــلى أنقاضه أَمَمًا	ونستــمد القوى من وحي ذكراه
لا در در امــرئ يطــري أوائلــه	فخــراً ويطرق إن ساءلته ما هو؟

(١) صحيح البخاري رقم ٢١١٨، ومسلم رقم ٢٨٨٢.

والحاصل أن لأهل هذه الجزيرة مقوم من مقومات ظهور حضارتهم ألا وهو أس الحضارة وأساسها ذلك هو الإسلام، الذي وطئ كل أرض فدخل كل قلب صالح. ولئن سمعنا بأن بعض الدول الإسلامية تصل نسبة المسلمين فيها إلى المائة مـــئوية، فأي دولة أعجمية -أياً كانت حضاراتها- لا وجود لمسلم فيها؟ وهذا دليل على قوة حضارة الإسلام ونفوذها، وبيان جلي عملي يؤكد صلاحها لأي زمان وفي كل مكان.

والإســـلام بـــاق، والـــتجربة التاريخية في القيادة الحضارية شاهدة ماثلة، والموقومـــات الماديـــة موجـــودة، فإذا جمعنا هذه الثلاث واستفدنا منها كانت حضارتنا الأجدر بالسيادة والريادة، كما كانت في سابق عهدها.

وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون:

إن هذا القرآن شرف للعرب إذ نزل بلغتهم: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ...﴾ (الزمر:٢٨)، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ...﴾ (يوسف:٢)، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا...﴾ (الأحقاف:١٢)، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد:٣٧).

وكيف لا يكون خطاب رب العالمين إلى كافة المكلفين عرباً وعجماً شرفاً للعـــرب، وقـــد جـــاء بلغـــتهم دون سواهم؟ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾ (الزخرف:٤٤)، قال القرطبي:

«يعـــني القـــرآن شرف لك ولقومك من قريش إذ نزل بلغتهم وعلى رجل مـــنهم نظـــيره: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ (الأنبياء:١٠)، أي

شرفكم، فالقرآن نزل بلسان قريش، وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، كل من آمن بذلك، فصاروا عيالاً عليهم؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عني به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات، ولذلك سمي عربياً»[1].

وعلى قدر التشريف يأتي التكليف، ولهذا قال بعدها: ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٤)، «أي عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له»[2] فأفهم الناس له، ينبغي «أن يكونوا أقوم الناس به، وأعلمهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوهم من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم»[3].

فمن قام بهذا التكليف استحق الذكر والتشريف، وبالمقابل من نبذ الرسالة وضيع الأمانة عاد عليه القعود عن التكليف بالتوبيخ والتعنيف، وكان معرضاً للوعيد والتهديد، ولعل من مناسبة قول الله عز وجل: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (الأنبياء:١١)، بعد قوله: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠)، الإشارة إلى أن القعود عن القيام بالذكر ظلمٌ عاقبته وخيمة قصمت مدناً وقرى وحضارات أترفت فغدا أهلها حصيداً خامدين.

(١) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٩٣/١٦، طبعة دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ.
(٢) تفسير ابن كثير، ١٣٠/٤، طبعة دار الفكر، ١٤٠٧هـ.
(٣) السابق، ١٢٩/٤.

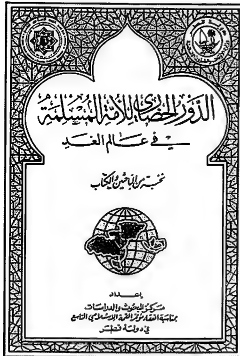
فواجـــب عـــلى أهـــل الجزيرة، منبع العرب، ومشرق الإسلام، أن ينهضوا بحضارتهم، وألا يغفلوا عن تبليغ رسالات ربهم، فقد آتاهم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين، وفضلهم على كثير من المخلوقين،﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾(الأنعام:٨٩)، ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ (الأنعام:١٣٣)، ومن ينهض بالتكليف يناله حظه من التشريف، ولن ينسى التاريخ صـــلاح الدين، ومحمود ابن سبكتكين.

لا هم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً	فامـــنن علينا براع أنت ترضاه
راع يعـــيد إلى الإسلام سيرته	يـــرعى بنـــيه وعين الله ترعاه

الفهرس

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

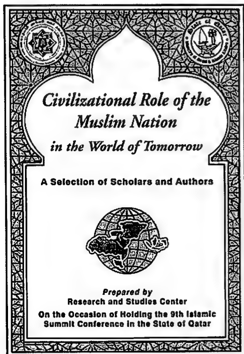
صدر كتاب : **(الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد)** ، باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، عن مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في مناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في رحاب دولة قطر (تشرين أول/نوفمبر ٢٠٠٠م)، مساهمة في إحياء عملية الاجتهاد والتجديد وإعادة بناء مشروع النهوض، لتستأنف الأمة المسلمة دورها في الشهود الحضاري وإلحاق الرحمة بالعالمين ، وما يتطلبه ذلك من معرفة الذات، وما تمتلكه الأمة من الإمكان الحضاري والتخطيط لحسن استثماره، ومعرفة (الآخر)، المعرفة التي تمكن من كيفية التعامل معه ودعوته إلى كلمة سواء ، وتحقيق المشترك الإنساني.



ويأتي الكتاب – الذي تقع نسخته العربية (٧٥٢) صفحة من الحجم المتوسط (١٧X٢٤سم)– في إطار محاولة لتقديم رؤية مستقبلية، لما يمكن الاصطلاح على تسميتهم : (أهل الاجتهاد والفكر والرأي)، بحيث تشكل هذه الرؤية أحد أدلة

العمل أمام أصحاب القرار للوصول إلى تحقيق الانسجام والتكامل والتصالح بين أهل الرأي وأصحاب القرار.

وكان الهدف الأساس من هذا المشروع الثقافي الممتد، التعرف على الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة، والرؤية الاستراتيجية لتفعيله، وكيفية استرداد الدور الغائب للأمة لتستأنف من جديد رسالتها في الشهود ومعالجة أزمة الحضارة، وتحقيق الغاية التي من أجلها جاءت الرسالة .



ولقد كان الحرص على أن تأتي المساهمات من مواقع ثقافية وجغرافية ومدارس فكرية ومذهبية متنوعة، ممثلة، إلى حد كبير، لجميع بلاد العالم الإسلامي الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، إضافة إلى مساهمات ممن يعيشون ضمن منظومة الثقافة الغربية المعاصرة ومؤسساتها .

وقد تركز الكتاب حول أربعة محاور أساس :

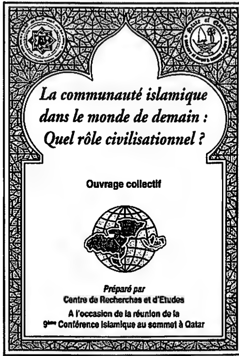
* أهم مقومات وشروط النهوض التي تمتلكها الأمة ، في إطار التعرف على الذات (الإمكان الحضاري) .

* أسباب عطالة الأمة وعدم فاعليتها: المعوقات (التعرف على مواطن الخلل) .

* أزمة الحضارة العالمية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية (معرفة الآخر وتحديد الحاجة والمداخل الفاعلة).

* أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة، والرؤية الاستراتيجية لمستقبل العمل الإسلامي العام (دليل عمل، أو سبيل الخروج) .

وكان التوجه إلى عدم تحديد المحاور التي تدور حولها المساهمات، حتى لا يشكل ذلك محددات مسبقة لرؤية الباحث ، فترك الموضوع لكل باحث يتناوله من الزاوية التي يرى أهميتها، دون تحديد مسبق أو مداخلة لاحقة ، ومن ثم المحافظة على نص الباحث، على الرغم مما يمكن أن يوجد فيه - أحياناً - من بعض الملحوظات أو التحفظات القابلة للمناقشة .



لذلك جاءت الآراء والاجتهادات الواردة في الكتاب تعبيراً حقيقياً عن وجهة نظر أصحابها .و هي تشكل في محصلتها محاولة لتقديم رؤية عن الواقع الموجود ، بكل ما فيه، الذي تمور به الساحة الفكرية، ونوافذ مهمة تمكن من الإطلالة على هذا الواقع الثقافي القائم.

وتتمثل المحصلة الثقافية لهذا المشروع- الكتاب في أهمية طرح الأمر، والتأكيد على الرؤية المستقبلية واستدعائها إلى مجال الهم الثقافي العام وساحة تفكير النخبة المثقفة بشكل أخص، وذلك بغض النظر عن نوعية بعض المساهمات وقدرتها على إثراء الموضوع من جوانبه المتعددة وتحقيق الهدف المأمول ، حيث إنها تعتبر باكورة لدراسات مستقبلية متكاملة ونضيجة .

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي، وطرح القضايا المعاصرة لدراستها من قبل المفكرين والباحثين، ومحاولة للمساهمة في تكوين جيل من العلماء المسلمين في مختلف شعب المعرفة، فقد تم تخصيص جائزة سنوية في العلوم الشرعية والفكر الإسلامي باسم « جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية ».

تبلغ قيمة الجائزة ٧٥ آلآف ريال قطري ، ويحدد موضوعها كل عام من قبل لجنة تشكل لهذا الغرض.

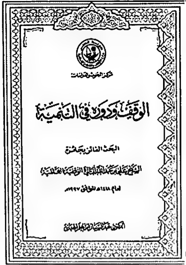
يُشترط في البحوث المقدمة، ان تكون قد أُعدّت خصيصًا للجائزة، وألا تكون جزءاً من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه على درجة علمية جامعية، وأن تتوفر في هذه البحوث خصائص البحث العلمي، من حيث ، المنهج ، والإحاطة ، والتوثيق، وسلامة الأسلوب ، والجدة ، والابتكار.

وتعرض البحوث على محكمين يتم اختيارهم في ضوء موضوع الجائزة، وتكون قراراتهم نهائية لا مجال للطعن فيها.

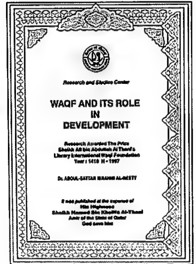
ويحق للجنة التحكيم التوصية بمنح الجائزة مشتركة بين اثنين أو أكثر من الباحثين، كما يجوز اشتراك باحثَين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

ويحق للجهة المشرفة سحب قيمة الجائزة، إذا اكتشفت أن البحث الفائز قد نشر سابقًا، أو قدم إلى جهة أخرى، لغرض آخر، أو مستلاً من رسالة علمية، كما يحق لها حجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث المقدمة للمستوى المطلوب، و لا تمنح الجائزة لمشارك واحد أكثر من مرة خلال فترة ثلاث سنوات.

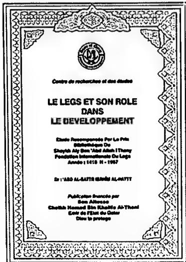
موضوعات الجائزة :



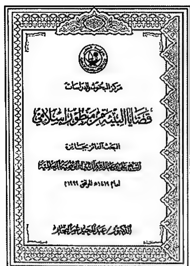
□ وقد تناولت الجائزة في موضوعها الأول : **الوقف ودوره في التنمية**، استدعاءً لدور الوقف في الفعل الاجتماعي والثقافي.



□ وموضوعها لعامها الثاني : **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، مساهمة في طرح رؤية حضارية إسلامية لمعالجة الأزمات والقضايا المعاصرة؛ ذلك أن البيئة أصبحت تشكل مشكلة عالمية وأزمة من أزمات الحضارة المعاصرة.

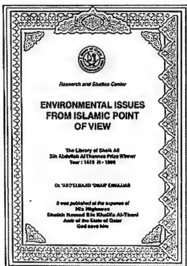


□ وموضوعها لعامها الثالث : **الأسرة المسلمة في العالم المعاصر**، في محاولة لتنمية هذا الحصن الباقي ورعايته والحفاظ عليه أمام حملات الاستهداف وأعاصير الاقتلاع، وتقديم الأنموذج المثير للاقتداء؛ حيث إن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى، والرحم الذي تتخلق فيه جميع أنشطة الحياة.

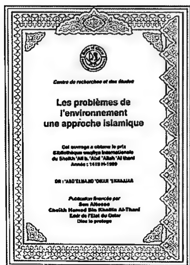


وذلك وفق الأطر العامة الآتية:

* الأسس الشرعية لبناء الأسرة.
* الأسرة في مرحلة القدوة (العهد النبوي والخلافة الراشدة).
* دور الأسرة في التربية والنهوض الحضاري.
* تحديات تواجه الأسرة (تحديات داخلية وخارجية)، وسبيل التحصين.
* رسالة الأسرة المسلمة في عالم اليوم.

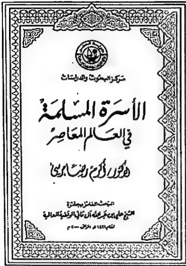


□ وموضوعها لعامها الرابع: **إشكالية التعليم في العالم الإسلامي**، سعياً لبحث جوانب الخلل في العملية التعليمية والتربوية ووضع سبل العلاج؛ لما للتعليم من دور خطير في نهوض الأمة واسترداد دورها.



وفق الأطر العامة الآتية:

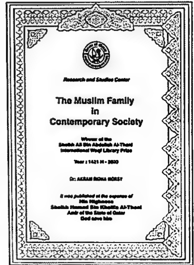
* التعليم المحور الأساس للتنمية والنهوض الحضاري.
* أبعاد الإشكالية تتركز في: البعد السياسي، والإعلامي، والثقافي، والاجتماعي، والمنهجي.



* عجز التعليم بمؤسساته المختلفة عن تحقيق أهدافه: مواطن الخلل وأسباب العجز.

* دور مؤسسات البحث العلمي ومراكز الدراسات في البناء التعليمي.

* وسائل التصويب، وكيفية النهوض.



□ موضوعها لعامها الخامس: **الحوار الحضاري: شروطه، وآدابه وثمراته.**

وفق الأطر العامة الآتية:

* مشروعية الحوار.. شروطه؛ مقوماته؛ آدابه؛ عوائقه.

* الحوار في التاريخ الإنساني.



* الحوار مع (الذات) والحوار مع (الآخر).

* بين الحوار والمواجهة.

* ثمرات الحوار في مجال الدعوة والتربية والثقافة.

□ وتمت ترجمة البحوث الفائزة في الموضوعات الثلاثة الأولى إلى بعض اللغات العالمية مثل الإنجليزية والفرنسية.



كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

• **كتاب الأمة** سلسلة دورية، تصدر كل شهرين، عن مركز البحوث والدراسات، في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، وتطبع في الوقت نفسه في أكثر من بلد ، وتوزع في العالم الإسلامي والغرب، كما يتم الإطلاع عليها من خلال موقعها على الإنترنت: www.islam.gov.qa



• تعنى بنشر الأبحاث والدراسات الفكرية والثقافية، التي تهتم بالنظر في قضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها، وكيفيات معالجتها في ضوء الكتاب والسنة، وتسهم في التحصين الثقافي والتغيير الحضاري للأمة، وتعمل على إعادة بناء العقل المسلم في ضوء معارف الوحي.. كما تعنى بمحاولة تقويم مواقع العمل الإسلامي وبناء الوعي ، والعمل على إخراج الأمة استجابة لقوله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، لتستأنف الأمة دورها في القيادة والشهادة .

• صدر الكتاب الأول منها في جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ- آذار (مارس) ١٩٨٢م، وبلغ مجموع إصداراتها حتى الآن أكثر من (٩٠) إصداراً، ترجم بعضها إلى لغات عالمية مثل: الإنجليزية، والفرنسية، وإلى بعض لغات العالم الإسلامي مثل التركية، والإندونيسية... وغيرها.

● تسعى السلسلة إلى تغطية المحاور والمجالات التالية:

– تأصيل الرؤية الشرعية للقضايا والمشكلات المعاصرة، والعودة بالأمة إلى ينابيع التلقي الأولى في الكتاب والسنة، وفهم القرون المشهود لها بالخيرية.

– المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، وتنقية واقع التدين مما شابه من بدع وانحرافات، وذلك عن طريق إحياء مناهج المراجعة والنقد والتقويم.

– معالجة أسباب الغلو والتشدد والانتحال الباطل، والعودة بالأمة إلى منهج الوسطية والاعتدال.

– إحياء مفهوم الأخوة الشامل، وإشاعة مبدأ الحوار، والتأكيد على الحوار الداخلي لإزالة الحواجز بين المسلمين.

– تحرير مصطلح عالم الغيب، وبناء الرؤية المستقبلية في ضوء استشراف الماضي وفقه الحاضر.

– إحياء مفهوم فروض الكفاية، وبيان أهمية التخصص في شعب المعرفة المتنوعة.

– إعادة تشكيل شخصية المسلم المعاصر في ضوء القيم الإسلامية، وتبصيره بالرسالة المنوطة به، وتأهيله لتحقيق متطلبات الاستخلاف، وشحذ فاعليته ليكون قادراً على استثمار طاقاته الروحية والفكرية والمادية في ضوء هدايات الوحي واجتهادات العقل، وفي ظل الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة.

– المساهمة في بناء النخبة (الطائفة القائمة على الحق)، التي تتحقق بالمرجعية الشرعية المتمثلة في الكتاب والسنة، لتشكل الأنموذج التطبيقي العملي لفهم الدين، والدليل الممتد على خلود الإسلام، وقابليته للتطبيق في كل زمان ومكان.

– العمل على إخراج الأمة من جديد، وإنقاذها من حالة الفرقة والتخلف والوهن، وتأهيلها لاسترداد دورها المنوط بها، في الشهادة والقيادة وإلحاق الرحمة بالعالمين.

– التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، وتحقيق الوعي الحضاري والحصانة الثقافية.

– إحياء المنهج السنني ، وإشعار الأمة بأهمية التوغل في التاريخ، والسير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات ، وإدراك السنن والقوانين الاجتماعية التي تحكم الحياة والأحياء.

– دراسة حركات التغيير والنهوض الإسلامي، وتقويم نتائجها، وبيان أسباب القصور ومواطن التقصير.

– التعريف بأولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة، وفتح آفاق الاجتهاد الفكري والتفكير المنهجي لمستقبل العمل الإسلامي، وبيان أبعاد التكليف الشرعي في ضوء فقه الاستطاعة.

– الإسهام في معالجة أزمة الحضارة المعاصرة، والتأكيد على حاجتها إلى الهدي الإلهي.

* * *

من شروط النشر في السلسلة

□ أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.

□ أن يتسم بالأصالة، والإحاطة ، والموضوعية، والمنهجية.

□ أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.

□ أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.

□ أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق..

□ يُفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.

□ ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.

□ تقدم مكافأة مالية مناسبة.





ص.ب: ٦٤٥ - الدوحة - قطر - الهاتف: ٤٨٠٢٤٠٤